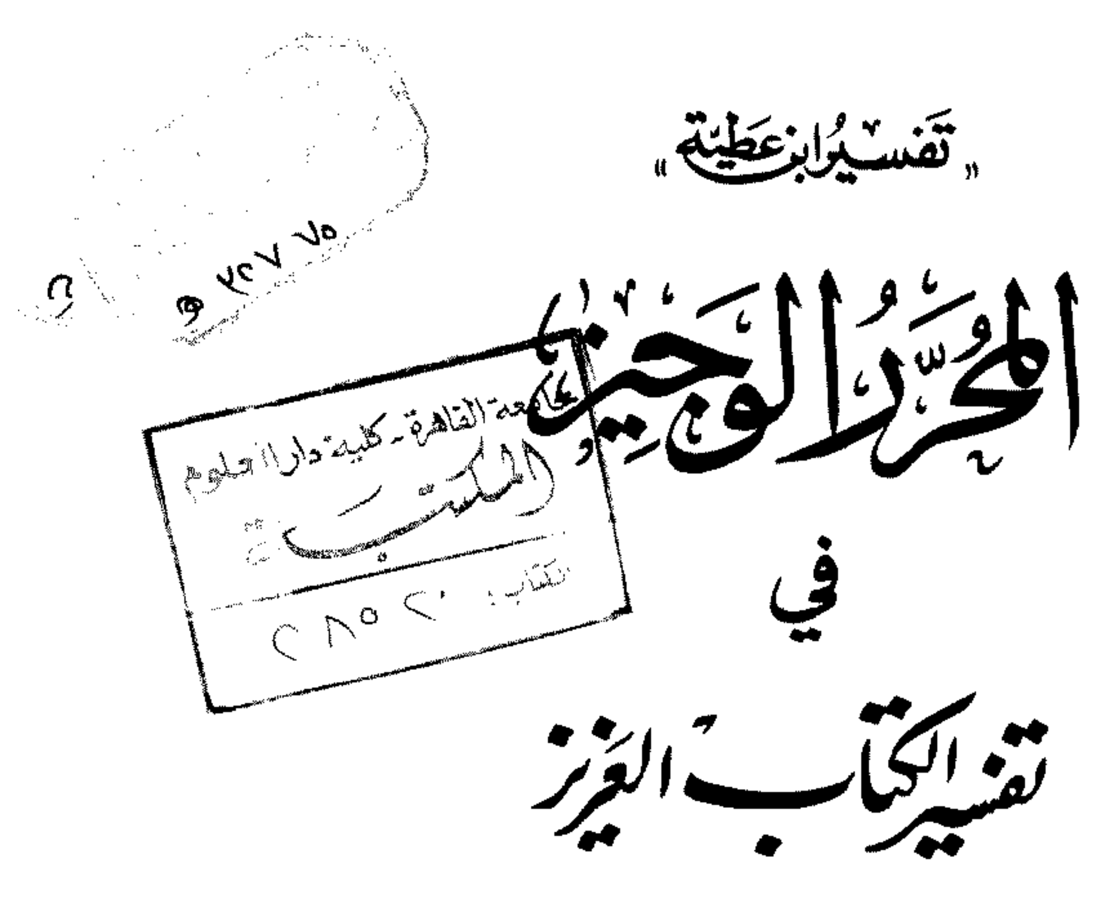
«تفسير ابن عطية»


جامعة القاهرة - كلية دار العلوم
المكتبة

المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز

لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي

الجزء العاشر

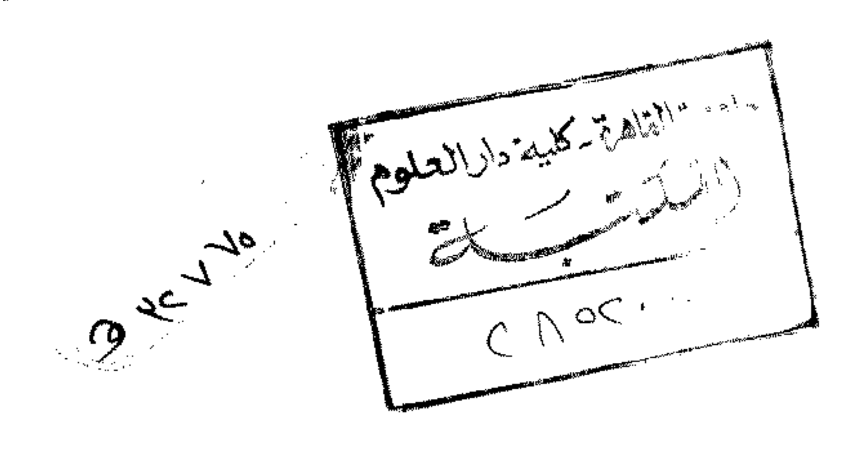
تحقيق وتعليق

عبد الله بن إبراهيم الأنصاري — السيد عبد العال السيد إبراهيم

طبع على نفقة
صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني
أمير دولة قطر

الطبعة الأولى

الدوحة في : غــرة محــرم ١٤٠٩ / آب ـ أغسطس ١٩٨٨



«تفسيرُ ابن عطية خيرٌ من تفسير الزمخشري ، وأصح نقلا وبحثاً ، وأبعد عن البدع .... بلْ هو خير منه بكثير ، بل لعله أرجح هذه التفاسير» .

(ابن تيميــة)

«لمَّا رجع النَّاسُ إلى ٱلتَّحقيق والتَّمحيص ، وجاءَ أبو محمد عبد الحق ابن عطية من المتأخرين بالمغرب ، فلَخَّص تلك التفاسير كلها ، وتَحَرَّى ما هو أقرب إلى الصحة منها» .

(ابن خلدون)



بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء العاشر

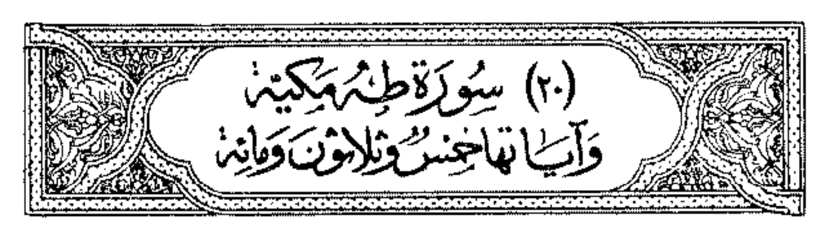
ويبدأ بقوله تبارك وتعالى :

﴿ طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



هذه السورة مكيَّة (١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾

اختلف الناس في قوله تعالى : [طه] بحسب اختلافهم في كل الحروف المتقدمة في أوائل السُّور ، إلَّا قول من قال هناك : «إن الحروف

(١) قال القرطبي : في قول الجميع ، نزلت قبل إسلام عمر رضي الله عنه .

إشارة إلى حروف المعجم، كما تقول: «ا، ب، ج»، فإنه لا يترتب ها هنا؛ لأن ما بعد [طهٰ] من الكلام لا يصح أن يكون خبراً عن [طهٰ].

واختصت [طهٰ] بأقوال لا تترتب في أوائل السور المذكورة، فمنها قول من قال: [طهٰ] اسم من أسماء محمد صلى الله عليه وسلم، وقول من قال: [طهٰ] معناه: «يا رجل» بالسريانية، وقيل: بغيرها من لغات العجم، ورُوي أنها لغة يمنية في عَكٍّ (١)، وأنشد الطبري في ذلك:

دَعَوْتُ بِطَهَ في القِتَالِ فَلَمْ يُجِبْ فخِفْتُ عَلَيْهِ أَنْ يَكونَ مُوائِلا (٢)

ويروى: مزايلا. وقال الآخر:

إنَّ السَّفَاهَةَ طَهَ مِنْ خَلاَئِقِكُمْ لا بارَكَ اللهُ في الْقَوْمِ الْمَلاَعين (٣)

وقالت فرقة: سبب نزول هذه الآية إنما هو ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحمله من مشقّة الصلاة حتى كانت قدماه تتورم وتحتاج إلى الترويح (٤)، فقيل له: طَأ الأرض، أي: لا تتعب حتى

(١) عَكّ: اسم قبيلة من قبائل اليمن.

(٢) هذا البيت لمُتَمِّم بن نويرة، شقيق مالك بن نويرة. وهو في الطبري والقرطبي. ويروى: هتفتُ بطَهَ. والموائل: طالبُ النجاة الذي يلجأُ إلى الشيء لينجو بنفسه. والمزايل: المفارق المبارح، يقول: دعوت في القتال بقولي: يا رجل، فلم يجب، فخفت عليه أن يكون قد فارقنا طلباً للنجاة، والشاهد أن (طه) هنا بمعنى: يا رجل.

(٣) البيت ليزيد بن المُهَلْهِل، ويروى:

إنَّ السَّفَاهَةَ طَهَ مِنْ شَمَائِلِكُمْ لا قَدَّسَ الله أرْواح الْمَلاعين

والخلائق: جمع خليقة، وهي الطبيعة التي يخلق المرء بها. والبيت شاهد على أن معنى (طه) يا رجل عند بعض العرب.

(٤) هكذا في الأصول، والظاهر أن يقال: «تَتَوَرَّمان وتحتاجان».

تحتاج إلى الترويح(١)، فالضمير في [طهٰ] للأرض، وخُفِّفت الهمزة فصارت ألفاً ساكنة .

وقرأت فرقة : [طَهْ] ، وأصله : طَأْ ، فحذفت الهمزة وأُدخلت هاءُ السكت ، وقرأ ابن كثير ، وابن عامر : [طَهَ] بفتح الطاءِ والهاءِ ، ورُوي ذلك عن قالون عن نافع ، وروى يعقوب عنه كسرها ، وروي عنه بين الفتح والكسر ، وأمالت فرقة ، وفخمت فرقة ، والتفخيم لغة الحجاز والنبي صلى الله عليه وسلم ، وقرأ عاصم (٢) ، وحمزة ، والكسائي : [طِهِ] بكسر الطاءِ والهاءِ ، وقرأ أبو عمرو : [طَهِ] بفتح الطاءِ وكسر الهاءِ، ورُوي عن الضحاك وعمرو بن فائد أنهما قرآ: [طَاوِي].

وقوله تعالى : [لِتَشْقَى] معناه التبليغ من نفسك في العبادة والقيام في الصلاة ، وقالت فرقة : إنما سبب الآية أن قريشاً نظرت إلى عيش رسول الله صلى الله عليه وسلم وشظفه وكثرة عياله ، فقالت : إن محمداً مع ربه في شقاءٍ ، فنزلت الآيةرادَّةً عليهم ، أي : إن الله تعالى لم يُنزل القرآن ليجعل محمداً شقيًّا ، بل ليجعله أسعد بني آدم في النعيم المقيم في أعلى المراتب ، فالشقاءُ الذي رأيتم هو تَنَعُّم النفس ، ولا شقاءَ مع ذلك .

(١) يريد أنه من تعبه يقف على قدم ويريح الثانيـة ، ثم يبدلهما فيقف على التي ارتاحت ويريح الأخرى ، وهكذا .

(٢) قراءة عاصم برواية حفص عنه بفتح الطاء والهاء مع مدهما ، أما هذه فرواية أخرى .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فهذا التأويل أعم من الأول في لفظ الشقاء .

وقوله تعالى : ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَن يَخْشَى﴾ يصح أن ينصب على البدل من موضع [لِتَشْقَى] ، ويصح أن ينصب بفعل مضمر تقديره : لكن أنزلناه تذكرة . و [يَخْشَى] يتضمن الإيمان والعمل الصالح ؛ إذ الخشية باعثة على ذلك . وقوله : [تَنْزِيلاً] نصب على المصدر ، وقوله : ﴿مِمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَوَاتِ ٱلْعُلَى﴾ صفة أقامها مقام الموصوف ، وأفاد ذلك العبرة والتذكرة وتحقير الأوثان وبعث النفوس على النظر .

و [ٱلْعُلَى] جمع عُلْيَا ، فُعْلَى .

وقوله : [ٱلرَّحْمَنُ] رفع بالابتداء ، ويصح أن يكون بدلاً من الضمير المستقر في [خَلَقَ] . وقوله : [ٱسْتَوَى] قالت فرقة : هو بمعنى : استولى ، وقال أبو المعالي وغيره من المتكلمين : هو بمعنى استواء القهر والغلبة ، وقال سفيان الثوري : فَعَل فعلاً في العرش سماه استواءً ، وقال الشعبي وجماعة غيره : هذا من متشابه القرآن ، نؤمن به ولا نعرض لمعناه ، وقال مالك بن أنس لرجل سأله عن هذا الاستواء ، فقال له مالك : «الاستواء معلوم ، والكيفية مجهولة ، والسؤال عن هذا بدعة ، وأظنك رجل سوءٍ ، أخرجوه عني» ، فأدبر السائل وهو يقول : يا أبا عبد الله ، لقد سألت عنها أهل الشام وأهل العراق فما وفِّق فيها أحد توفيقك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وضعَّف أبو المعالي قول من قال : «لا يتكلم في تفسيرها» ، فإن قال : «إن كل مؤمن يجمع على أن لفظة الاستواء ليست على عرفها في معهود الكلام العزيز» ، فإذا فعل هذا فقد فسَّره ضرورة ولا فائدة في تأَخُّره عن طلب الوجه والمخرج البيِّن ، بل في ذلك إلباسٌ على الناس ، وإيهامٌ لِلْعَوَامِّ ، وقد تقدم القول في مسأَلة الاستواء .

وقوله تعالى : ﴿لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ تمادٍ في الصفة المذكورة المُنَبِّهَة على الخالق المنعم ، وفي قوله : ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرى﴾ قصص في أمر الحوت ونحوه اختصرته لعدم صحته ، والآية مُضَمَّنَةٌ أن كل موجود مُحْدث فهو لله بالملك والاختراع ، ولا قديم سواه تعالى . و [ٱلثَّرَى] : التراب الندي .

وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ﴾ الآية ، معناه : وإن كنتم أيها الناس إذا أردتم إعلام أحد بأمر ، أو مخاطبة أوثانكم وغيرها ، فأنتم تجهرون بالقول ، فإن الله الذي هذه صفاته يعلم السِّرَّ وأخفى ، فالمخاطبة بـ [تَجْهَرْ] لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وهي مراد بها جميع الناس إذ هي آية اعتبار .

واختلف الناس في ترتيب السِّرِّ وما هو أخفى منه ـ فقالت فرقة : السِّرُّ هو الكلام الخفيُّ الخافت كقراءة السِّرِّ في الصلاة ، والأَخْفَى

ما هو في النفس متحصل . وقالت فرقة : السِّرُّ هو ما في نفوس البشر وكلُّ ما يمكن أن يكون فيها في المستأْنف بحسب الممكنات من معلومات البشر . والأَخفى ما هو من معلومات الله تعالى . ولا يمكن أن يعلمه البشر البَتَّة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فهذا كله معلوم لله عزَّ وجلَّ . وقد تُؤُوِّل على بعض السلف أنه جعل [وأَخْفَى] فعلاً ماضياً . وهذا ضعيف .

و ﴿ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ يراد بها المُسَمَّيات التي تضمنت المعاني التي هي في غاية الحُسْن . ووحَّد الصفة مع جَمْع الموصوف لمَّا كانت المُسَمِّيــاتُ لا تعقل . وهذا جــارٍ مجرى ﴿مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾(١) . و ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِــي﴾(٢) وغيره . وذكر أَهل العلم أَن هذه الأَسماءَ هي التي قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنَّ لله تسعةً وتسعين اسماً . مائة إلَّا واحداً . من أَحصاها دخل الجنة) (٣) .

---

(١) من الآية (١٨) من هذه السورة (طه) .

(٢) من الآية (١٠) من سورة (سبأ) .

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية ، وقد ذكره السيوطي في الجامع الصغير ، وقال : هو عن عليٍّ رضي الله عنه . ورمز له بأنه ضعيف ، ولفظه كما ذكره : (إنَّ لله عزَّ وجلَّ تسعة وتسعين اسماً ، مائة غير واحد ، إنه وتر يحب الوتر . وما من عبد يدعُو بها إلاَّ وجبت له الجنة) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝١٤ ﴾

هذا الاستفهام هو توقيف مضمنه تنبيه النفس إلى ما يُورد عليها . وهذا كما تبدأُ الرجل إذا أردت إخباره بأمر غريب فتقول : أعلمتَ كذا وكذا ؟ ثم تبدأُ تخبره ، والعامل في [إذْ] ما تضمنه قوله سبحانه : ﴿ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴾ من معنى الفعل ، وتقديره : وهل أتاك ما فعل موسى إذْ رأى ناراً ، ونحوه .

هذا ، وكان من قصة موسى عليه السلام أنه رحل من مَدْيَن بأَهله بنت شعيب وهو يريد أرض مصر ، وقد طالت مدة جنايته هنالك ، فرجا خفاءَ أمره ، وكان ــ فيما يزعمون ــ رجلاً غيوراً ، فكان يسير الليل بأهله ولا يسير النهار مخافة كشفة الناس ، فضلَّ عن طريقه في ليلة مظلمة ندية . ويُروى أنه فقد الماءَ فلم يدر أين يطلبه ، فبينا هو كذلك ــ وقد قدح زَنْده فلم يُور شيئاً ــ إذْ رأى

ناراً ، فقال لأهله : امكثوا ، أي أقيموا ، وذهب هو إلى النار فإذا هي مضطرمة في شجرة خضراء يانعة ، قيل : كانت من عُنَّاب ، وقيل : من عوسج ، وقيل : من عُلَّيقة ، فكلما دنا منها تباعدت منه ومشت ، فإذا رجع عنها اتَّبعته ، فلما رأى ذلك أيقن أن هذا أمر من أُمور الله تعالى الخارقة للعادة ، ونودي وانقضى أمره في تلك الليلة ، هذا قول الجمهور ، وهو الحق ، وحكى النقاش عن ابن عباس أنه أقام في ذلك الأمر حولاً ، ومكث أهله ، قالوا : وهذا أمر غير صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما وضعيف في نفسه .

و [آنَسْتُ] معناه : أَحْسَسْتُ ، ومنه قول الحارث بن حِلِّزة :

آنَسَتْ نَبْأَةً وأَفْزَعَهَا القُنْـ ناصُ عَصْراً وقَدْ دَنَا الإِمْسَاءُ(١)

والنار على البعد لا تُحَسُّ إلَّا بالبصر ، ولذلك فسَّر بعضهم اللفظة بـ «رأيْتُ» ، و «آنَس» أَعَمُّ من «رَأى» لأنك تقول : آنسْتُ من فلانٍ خيراً أو شرًّا . و «الْقَبَسُ» : الجذوة من النار على رأس العود أو القصبة أو نحوه ، و «الْهُدى» أراد هدي الطريق ، أي : لعلِّي أجد ذا هدى مرشداً لي أو دليلاً وإن لم يكن فخبراً ، و «الهُدَى»

(١) البيت من معلقته التي أنشدها في مجلس عمْرو بن هند مدافعاً عن قبيلته إزاء بني تغلب . وفيها يصف الناقة ورحلته عليها . ويشبهها بالنعامة . وآنَسَتْ : أحسَّت — وهي موضع الشاهد — والنَّبْأَةُ : الصوتُ الخفيُّ . والقُنَّاصُ : جمع القانص وهو الصَّيَّادُ . يقول : إن تلك النعامة التي شبهت بها ناقتي قد سمعت صوتاً خَفِيّاً عند المساء ، فارتاعت له .

يعُمُّ هذا كله ، وإنما رجا موسى عليه السلام هُدَى نازِلَتِهِ فصادف الهدى على الإطلاق .

وفي ذكر قصة موسى عليه السلام بأَسرها في هذه السورة تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم عمًّا لقي في تبليغه من المشقات وكُفْر الناس ، فإنما هي له على جهة التمثيل في أمره ، ورُوي عن نافع وحمزة ﴿فَقَالَ لأَهْلِهُ امْكُثُوا﴾ بضم الهاء ، وكذلك في القَصَص(١) ، وكسر الباقون الهاءَ فيهما .

قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ ، الضمير عائد على النار ، وقوله : [نُودِيَ] كناية عن تكليم الله له ، وفي [نُودِيَ] ضمير يقوم مقام الفاعل ، وإن شئت جعلته موسى إذ قد جرى ذكره ، وقرأ نافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : [إِنِّي] بكسر الأَلف على الابتداء ، وقرأ ابن كثير ، وأَبو عمرو : [أَنِّي] بفتح الأَلف على معنى : لأَجل أَني أَنا ربك فاخلع نعايك . و «نُودي» قد توصل بحرف الجر ، وأَنشد أَبو علي :

نَادَيْتُ باسْمِ ربيعَةَ بْنِ مُكَــدَّمٍ إنَّ المنوَّهَ باسْمِهِ الْمَوْثُــــوقُ (٢)

---

(١) في قوله تعالى في الآية (٢٩) من سورة القصص : ﴿قَالَ لأهْلِهِ امْكُثُوا إنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ .

(٢) نَوَّهْتُ باسْمِهِ : رفعتُ ذِكْرَه ، يقال : نوَّه فلانٌ بفلان إذا رفعه وطيَّر به وقوَّاه ، وفي حديث الزبير : أنَّه نوَّه به عليٌّ ، أي : شَهَرَه وعرَّفه. والمَوْثُوق : يريد الموثوق به ، يقال : وثِقَ به يَثِقُ : ائتَمَنَه ، فالشاعر هنا يرفع ذكر ربيعة هذا ويثق به لأنه موضع الثقة .=

واختلف المتأولون في السبب الذي من أجله أُمر بخلع النَّعلين — فقالت فرقة : كانتا من جلْد حمار ميت ، فأُمر بطرح النجاسة ، وقالت فرقة : بل كانت نعْلاه من جلد بقرة ذُكِّي ، ولكن أُمر بخلعهما لينال بركة الوادي المقدس وتمسّ قدماه تربة الوادي .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وتحتمل الآية معنى آخر هو الأَليق بها عندي ، وذلك أن الله تعالى أَمره أن يتواضع لعظيم الحال التي حصل فيها ، والعُرف عند الملوك أَن تخلع النعلان ويبلغ الإنسان إلى غاية تواضعه ، فكأَن موسى عليه السلام أُمر بذلك على هذا الوجه ، ولا تبالي كانت نعلاه من ميتة أَو غيرها .

و «المقدس» معناه : المُطَهَّر ، و [طُوًى] معناه : مرَّتين مرَّتين ، فقالت فرقة : معناه : قدِّسْ مرتين . وقالت فرقة : معناه : طويْتَهُ أَنتَ ، أَيْ سرتَ فيه ، أَي طُويت لك الأَرضُ مرتين من ظنك . وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : [طُوًى] بالتنوين على أنه اسم المكان ، وقرأ نافع ، وابن عامر ، وأَبو عمرٍو : [طُوَى] على أنه اسم البقعة ، بدون تنوين ، وقرأ هؤلاءِ كلهم بضم الطاءِ ،

=والشاهد أنه وصل الفعل (نادى) بحرف الجر حين قال : (ناديت باسم ربيعة) ، هذا وربيعة بن مُكَدَّم فارسٌ جاهليٌّ مشهور ، وبنته أم عمرو ، ولها شعر ترثيه به ، قال ذلك في (التاج) ، ولعل هذا البيت من شعرها فيه . وقال في اللسان : رجل مُكَدَّم إذا لقي قتالاً فأثرت فيه الجراح .

وقرأ ابن زيد عن أبي عمرو بكسر الطاء ، وقرأت فرقة : [طاوِي] ، قالت فرقة : هو اسم الوادي ، و [طُوًى] على التأويل الأول بمنزلة قولهم ثُنًى وثِنًى ، أيْ : مَثْنِيًّا .

وقرأ السبعة غير حمزة : ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ ، ويؤيد هذه القراءة تناسبها مع قوله تعالى : ﴿أَنَا رَبُّكَ﴾ ، وفي مصحف أُبَيٍّ بن كعب : «وَإِنِّي ٱخْتَرْتُكَ» ، وقرأ حمزة وحده : ﴿وَأَنَّا ٱخْتَرْنَاكَ﴾ بالجمع وفتح الهمزة وشدِّ النون ، والآية على هذا بمنزلة قوله تعالى : ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾(١) ، ثم قال : ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ﴾(١) ، فخرج من إفرادٍ إلى جمع ، وقرأت فرقة : ﴿وَإِنَّا ٱخْتَرْنَاكَ﴾ بكسر الألف ، وحدثني أبي رحمه الله يقول : سمعت أبا الفضل الجوهري يقول : «لمَّا قيل لموسى عليه السلام ﴿ٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ وقف على حجر ، واستند إلى حجر ، ووضع يمينه على شماله ، وألقى ذقنه إلى صدره ، ووقف يستمع ، وكان كل لباسه صوفاً» ، وقرأت فرقة : «بِالْوَادي الْمُقَدَّسِ طَاوِي» .

وقوله تعالى : ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ يحتمل أن يريد : لتذكرني فيها ، أو يريد : لأذكرك في عِلِّيِّين بها ، فالمصدر – على هذا – يحتمل الإضافة إلى الفاعل أو إلى المفعول ، واللامُ لام السبب . وقالت فرقة : قوله : [لِذِكْرِي] أي عند ذكري ، أي إذا ذكرتني وأمْري

(١) من الآيتين (١ ، ٢) من سورة (الإسراء) .

لك بها ، فاللام ـ على هذا ـ بمنزلتها في قوله تعالى : ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَاةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ ﴾(١) . وقرأت فرقة : [لِلذِّكْرَى] ، وقرأت فرقة : [لِذِكْرَى] بغير تعريف(٢) ، وقرأت فرقة : [لِلذِّكْرِ] .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾

في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ آتِيَةٌ ﴾ تحذيرٌ ووعيدٌ ، أي : اعبدني فإن عقابي وثوابي بالمرصاد ، و «السَّاعَةُ» في هذه الآية : القيامة ، بلا خــلاف .

وقرأ ابن كثير ، والحسن ، وعاصم(٣) : ﴿ أَكَادُ أَخْفِيهَا ﴾ بفتح الهمزة ، بمعنى : أُظهرها ، أي أنها من صِحَّةِ وقوعها وتَيَقُّن كونها تكاد تظهر ، لكن تنحجب إلى الأجل المعلوم ، والعرب تقول : «أَخْفَيْتُ

(١) من الآية (٧٨) من سورة (الإسراء) .
(٢) أي : بألف التأنيث وبغير لام التعريف .
(٣) أي : في رواية أبي بكر عنه ، أما رواية حفص فهي بالضم كالجمهور .

الشيء » بمعنى : أَظْهرته ، ومنه قول امرئ القيس :

خَفَاهُنَّ مِنْ أَنْفَاقِهِنَّ كَأَنَّمَا　　خَفَاهُنَّ وَدْقٌ مِنْ عَشِيٍّ مُجَلِّبِ (١)

ومنه قوله أيضاً :

فَإِنْ تَدْفِنوا الدَّاءَ لا نَخْفِهِ　　وَإِنْ تَبْعَثُوا الْحَرْبَ لا نَقْعُدُ (٢)

قال أبو علي : المعنى : أُزيل خفاءها وهو ما تُلَفُّ به القربة ونحوها .

وقرأ الجمهور : ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ بضم الهمزة ، واختلف المتأولون في معنى الآية ـ فقالت فرقة : معناها أُظْهِرُهَا ، و «أَخْفَيْتُ» من الأضداد .

---

(١) البيت من قصيدة امرئ القيس (خَليليَّ مُرَّا بي على أُمِّ جُنْدبِ) التي قالها في وصف الفرس ، وعارضه علقمة بأخرى مثلها ، وفَضَّلَت (أمُّ جندب) زوجة امرئ القيس علقمة على زوجها ، فطلقها . وضمير الفاعل في (خفاهُنَّ) يعود على الفرس الذي يصفه امرؤ القيس ، أما المفعول فيها فهو عائد على (اليرابيع) التي عبَّر عنها بالفأر في البيت السابق ، ومعنى خَفَاهُنَّ : أخرجهن أو أظهرهُنَّ ، والأنْفاق : جمع نَفَق ، وهو السرب تحت الأرض ، يريد الأنفاق التي اختبأت فيها الفئران تحت الأرض ، والوَدْقُ : المطر ، والمُجَلِّبُ : الذي له جَلَبَةٌ وضجيج ، ورُوي : «من سحاب مُرَكَّب» ، يقول : إن الفرس من شدة جريه وركضه قد أخرج الفئران من أنفاقها ، كأنما أخرجها دَوِيُّ المطر الشديد وجَلَبَتُه . والشاهد أن (خَفَى) بمعنى : أظهَر وأخرج .

(٢) هذا البيت أنشده الفراء في (معاني القرآن) ، وهو في اللسان ، والتاج ، والقرطبي ، ومجاز القرآن ، والطبري ، وهو من قصيدة امرئ القيس التي يتهدد فيها بني أسد ، والتي بدأها بقوله :

تَطَاوَلَ لَيْلُكَ بالإثْمِدِ　　ونَامَ الْخَليُّ ولَمْ تَرْقُدِ

ورواية الفراء (لا نَخْفِهِ) بفتح النون ، من خَفَيْتُه أخْفيه ، وهذا هو موضع الشاهد هنا كما أراد ابن عطية ، ولكن البيت رُوي بضم النون في (لا نُخْفِهِ) ، ومعناها : لا نُظْهِره ، كما قال الطبري ، وقال : إن الذين وجهوا الإخفاء في هذا الموضع إلى الإظهار اعتمدوا على ما ذكروا من سماعهم هذا البيت على ما وصفت من ضم النون ، ولكن الصواب أنه بفتح النون ».

والآراء كثيرة في معنى قوله تعالى : ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ . وقد ذكر المؤلف أكثرها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قول مختل .

وقالت فرقة : معناها أكاد أُخفيها من نفسي ، على معنى العبارة عن شدة غموضها على المخلوقين ، وقالت فرقة : ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ ﴾ وتمَّ الكلام ، بمعنى : أكادُ أُنفذها لقربها وصحة وقوعها ، ثم استأنف الإخبارَ بأنه يُخفيها (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قول قلق .

وقالت فرقة : [أَكَادُ] زائدة (٢) لا دخول لها في المعنى ، بل

(١) واستشهدوا لذلك بقول ضابئ بن الحارث البرجمي :

هَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وكِدْتُ وَلَيْتَني تَرَكْتُ عَلَى عُثْمَانَ تَبْكِي أقَارِبه

وذلك أن عثمان بن عفان رضي الله عنه أراد تأديبه لفحشه وهجائه للناس ، فلما دُعي ليقابل الخليفة ربط سكّيناً إلى ساقه ليقتله بها ، لكن أمره افتضح فضرب ووضع في السجن ، وقد مات فيه . والشاهد في قوله : (كِدْتُ) ، أي : كدت أفعل ما نويت من قتل عثمان ، وعلى هذا قالوا : إن معنى الآية : إن الساعة آتية أكاد آتي بها ، ثم ابتدأ سبحانه وتعالى فقال : ولكني أُخفيها لِتجزى كل نفس بما تسعى .

(٢) كذلك استشهد هؤلاء بكثير من الشعر ، ومما استشهدوا به قول ذي الرُّمّة :

إذَا غَيَّرَ النَّأيُ الْمحبِّينَ لَمْ يَكَــدْ رَسِيسُ الْهَوَى مِنْ حبِّ مَيَّةَ يَبْرَحُ

والنَّأي : البُعد ، ورَسيس الهوى : أوّله ، أو ما خفي منه ، أو مَسُّه ، فالمعنى عندهم : «لم يبرح رسيس الهوى من حب مية» وعلى هذا تكون (يَكَدْ) زائدة ، ويؤيد هذا الرواية الأخرى التي ذكرها اللسان في البيت ، وهي : (لَمْ أجِدْ رسيسَ الهوى) ، والحقيقة أن لهذه الرواية خبراً ، فقد انتقد ابنُ شبرمة قاضي البصرة ذا الرُّمَّة حين سمعه ينشد القصيدة في المربد ، فعدل ذو الرُّمّة إلى الرواية الثانية ، لكن أكثر النقاد قالوا : إن بديهة ذي الرُّمّة=

تضمنت الآية الإخبار بأن الساعة آتية ، وأن الله يخفي وقت إتيانها عن الناس .

وقالت فرقة : [أَكَادُ] بمعنى : أُريد ، فالمعنى : أُريد إخفاءها عنكم لتُجْزَى كل نفس بما تسعى ، واستشهد قائل هذه المقالة بقول الشاعر :

كَادَتْ وَكِدْتُ وَتِلْكَ خَيْرُ إِرَادَةٍ . . . . (١)

وقد تقدم هذا المعنى .

وقالت فرقة : [أَكَادُ] على بابها ، بمعنى أَنها لمقاربة ما لم يقع ، لكن الكلام جارٍ على استعارة العرب ومجازها ، فلما كانت الآية عبارة عن شدة خفاءِ أَمْر القيامة ووقتها ، وكان القطع بإتيانها مع جهل الوقت أَهيب على النفوس ، بالغ قوله تعالى في إعْتام وقتها فقال : ﴿أَكَادُ

=في الرواية الأولى أجود من رويَّته وتفكيره في الثانية ، وقالوا : إن معنى (لَمْ يَكَدْ) : لَمْ يَقْرُب ، وإن نفي مقاربة الشيء أبلغ من نَفْي الشيء ، فيكون معنى البيت : إذا غيَّر البعاد قلوب المحبين فبعاد مَيَّةَ عنِّي لا يذهب بما أُحِسُّ لها من حبٍّ مقيم ، ولا يقارب حتَّى أن يذهب به .

(١) هذا صدر بيت ، وهو بتمامه :

كَادَتْ وكِدْتُ وتِلْكَ خَيْـرُ إرادَةٍ لَوْ عَادَ مِنْ عَهْدِ الصَّبَابَةِ ما مَضَى

وقد سبق الاستشهاد به عند تفسير قوله تعالى : ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ — الآية (٩٠) من سورة (مريم) — وهو في اللسان (كيد) ، وهو شاهد على أن (كاد) بمعنى (أراد) . ومثله في ذلك ما أنشده أبو بكر للأفْوه الأودي :

فَإِنْ تَجَمَّعَ أَوْتَـادٌ وأَعْمِـدَةٌ وسَاكِنٌ بَلَغُوا الأمْرَ الَّذِي كَادُوا

أي : الأمر الذي أرادوا . (راجع اللسان والتاج) .

أخفِيهَا﴾ حتى لا تظهر البَتَّةَ ، ولكن ذلك لا يقع ، ولا بُدَّ من ظهورها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فهذا تلخيص هذا المعنى الذي أشار إليه بعض المفسرين ، وهو الأقوى عندي . وروى بعض القائلين بأن المعنى : «أكادُ أُخْفيها من نفسي» ما في القول من القلق ، فقالوا : معنى «من نفسي» : من تلقائي ومن عندي .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا رفض للمعنى الأول ورجوع إلى هذا القول الذي اخترناه أخيراً ، فتأمله .

واللام في قوله تعالى : [لِتُجْزَى] متعلقة بقوله : [آتِيَةٌ] ، وهكذا يترتب الوعيد ، و [تَسْعَى] معناه : تكتسب وتجترح . والضمير في قوله تعالى : ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾ عائد على «السَّاعَة» ، يريد : عن الإيمان بالساعة ، فأوقع الضمير عليها ، ويحتمل أن يعود على الصلاة ، وقالت فرقة : على «لَا إِلٰه إِلَّا اللهُ» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا متَّجه ، والأَوَّلان أَبين وجهاً .

وقوله تعالى : [فَتَرْدَى] معناه : تَهْلِكَ . والرَّدَى : الهلاك ، ومنه قول دُرَيْد بن الصِّمَّة :

تَنَادَوْا فَقَالُوا : أَرْدَتِ الخيلُ فارساً فقلت : أَعَبْدُ اللهِ ذَلِكُمُ الرَّدِي ؟(١)

وهذا الخطاب كلُّه لموسى عليه السلام . وكذلك ما بعده . وقال النقاش : الخطاب في قوله تعالى : ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾ لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا بعيد ، وفي مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : «أَكادُ أُخْفِيهَا مِنْ نَفْسِي» ، وعلى هذه القراءة تركَّب ذلك القول المتقدم.

وقوله تعالى : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ تقديره ومُضَمَّنه التنبيه وجمع النفس لتلقي ما يورد عليها ، وإلَّا فقد علم الله تعالى ما هي في الأزل . وقوله : [بِيَمِينكَ] من صلة [تِلْكَ] ، وهذا نظير قول الشاعر :

عَدَسْ مَا لِعَبَّادٍ عَلَيْكِ إِمَـــارَةٌ نَجَوْتِ وَهَـذَا تَحْمِلِينَ طَلِيقُ (٢)

---

(١) البيت من قصيدة له يرثي بها أخاه عبد الله ، وهو في الأغاني ، والعيني ، والحماسة ، والشعر والشعراء ، والجمهرة ، ولباب الآداب ، وتفسير البحر . وأرْدَتْ : أهلكت ، والرَّدِي : الهالك . يقول : حين أعلنوا أن الخيل قد أهلكت أحد الفرسان أحسست بالمصيبة وقلت : أهو عبد الله هذا الذي هلك ؟ هذا والقصيدة هي الأصمعية الثامنة والعشرون .

(٢) هذا البيت ليزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري ، وهو في الخزانة ، وحاشية الأمير ، والأغاني ، والطبري ، والمحتسب ، واللسان ، وابن الشجري ، والإنصاف ، وابن يعيش ، والشذور ، والعيني ، والهمع ، والتصريح ، والأشموني ، وشرح شواهد المغني ، والديوان . وقوله : (عَدَسْ) هو زجرٌ للبغل ، وربما سمَّوا البغل عدس . وعبَّاد هو أخو عبيد الله ابن زياد ، وكان أميراً على سجستان ، وكان قد سجن الشاعر لشعر قاله . إلاَّ أن اليمانية كلموا معاوية بشأنه فأرسل بريداً خاصّاً يحمل أمراً بإطلاقه ، ولمَّا أطلق سراحه قُدِّم له بغل من بغال البريد ليركبه فقال هذا البيت في مطلع أبيات تجدها مع القصة كاملة في خزانة الأدب . و (هَذَا) : =

قال ابن الجوهري : رُوي في بعض الآثار أن الله تعالى عتب على موسى إضافة العصا إلى نفسه في ذلك الموطن . فقال له : [أَلْقِهَا] ليرى منها العجب فيعلم أنه لا ملك له عليها ولا تنضاف إليه .

وقرأ الحسن ، وأبو عمرٍو ـ بخلاف عنه ـ [عَصَايِ] بكسر الياء مثل غلامي (١) ، وقرأت فرقة : [عَصَيَّ] ، وهي لغة هُذَيْل ، ومنه قول أبي ذؤيب :

سَبَقُوا هَوَيَّ وَأَعْنَقُوا لِهَوَاهُمُ .... (٢)

=اسم إشارة ، وقد وُصِلَ بجملة (تحملين) ، فصار من الأسماء الموصولة في رأي بعض النحويين . فيكون (هذا) مبتدأ ، وجملة (تحملين) صلة ، و (طليق) خبر ، أي : والذي تحملينه طليق .

(١) قال هذا ابن مجاهد ، ورفضه ابن جني ، فقال في المحتسب : « وقول ابن مجاهد : « مثل غلامي » لا وجه له ، لأن الكسرة في ياء (عَصَايِ) لالتقاء الساكنين ، والكسرة في ميم (غُلامي) هي التي تحدثها ياءُ المتكلم ، أفترَى أن في (عَصَايِ) بعد ياء المتكلم ياءٌ له أخرى حتى يكون للمتكلم ياءان ؟ وهذا محال ، وإنما غرضه أن الياءَ في (عَصَايِ) مكسورة كما أن ميم (غُلامي) مكسورة . وأساء التمثيل على ما ترى » . ثم قال : « وكسر الياءِ في هذا ضعيف » .

(٢) هذا صدر بيت . وهو بتمامه مع بيت قبله :

وَلَقَدْ أَرَى أَنَّ الْبُكَاءَ سَفَاهَةٌ ... وَلَسَوْفَ يُولَعُ بالبُكَى مَنْ يُفْجَعُ
سَبَقُوا هَوَيَّ وأَعْنَقُوا لِهَوَاهُمُ ... فَتُخُرِّمُوا ولِكُلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ

وأبو ذُؤَيْب يرثي أولاده ويبكيهم ، فقد ماتوا واحداً بعد الآخر وتركوه وحيداً على غير هواه ، فالضمير في (سَبَقُوا) يعود على أولاده ، وهَوَيَّ لغة هُذَيْل في (هَوَايَ) ، يقولون ذلك في جميع المقصور ، فيقولون : عَصَيَّ وتُقَيَّ . وأعْنقوا : تبع بعضهم بعضاً وماتوا قَبْلي ، ولم يلبثوا كما كنتُ أهوى . وكنتُ أُحب أن أموت قبلهم ولكنهم خالفوا ذلك فكأن هذا كان هوًى لهم . وقيل : جعل مَوْتهم مُضِيّاً لِهَوَاهم من باب ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ﴾ ، فالله تعالى لا يمكر ، ولكن لمَّا قال : [مَكَرُوا] جرى اللفظ على الأول ، وهنا فإن موتهم لم يكن هوًى لهم ، ولكن جرى اللفظ على الأول . أمَّا قوله : (وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ) فمعناه أن كلَّ حيٍّ لا بُدَّ أن يموت .

وقرأَ الجمهور : [عَصَايَ] بفتح الياء ، وكذلك ابن أَبي إسحق قرأَ : [عَصَايْ] بياءٍ ساكنة .

ثم ذكر موسى عليه السلام من منافع عصاه عُظْمها وجُمْهورها (١) ، وأَجمل سائر ذلك . وقرأَ الجمهور : [وَأَهُشُّ] بضم الهاء والشين المنقوطة ، ومعناه : أَخبط بها الشجر حتى ينتشر الورق للغنم ، وقرأَ إبراهيم النَّخَعي: [وأَهِشُّ] بكسر الهاء ، والمعنى كالذي تقدم ، وقرأَ عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما : [وَأَهُسُّ] بضم الهاء والسِّين غير منقوطة ، ومعناه : أَزجرها وأُخَوِّف ، وقرأَت فرقة : ﴿عَلَى غَنَمِي﴾ بالجرِّ ، وقرأَت فرقة : ﴿عَلَيَّ غَنَمِي﴾ فأَوقعوا الفعل على الغنم ، وقرأَت فرقة : [غَنْمِي] بسكون النون ، ولا أَعرف لها وجهاً . وقوله : [أُخْرَى]ـ فوَحَّد مع تقدم الجمع ـ هو المَهْيَع في توابع جمع مالا يعقل والكناية عنه ، فإن ذلك يجري مجرى الواحدة المؤنثة ، كقوله : ﴿ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَى﴾(٢) ، وكقوله : ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾(٣) ، وقد مرَّ القول في هذا المعنى غير مرة (٤) .

---

(١) عُظْمُ الشيء : أكثَرُهُ ، وجُمْهُور الشيء : أكثره . فالمراد أنه ذكر أكثر منافع عصاه .

(٢) من الآية (٨) من هذه السورة (طه) .

(٣) من الآية (١٠) من سورة (سبأ) .

(٤) آخرها عند تفسير قوله تعالى في الآية (٨) من هذه السورة : ﴿ ٱللهُ لا إلَهَ إلاَّ هُوَ لَهُ ٱلأسْمَاءُ ٱلْحُسْنَى ﴾ .

وعصا موسى عليه السلام هي التي كان أخذها من بيت عِصِيّ الأنبياء الذي كان عند شعيب عليه السلام حين اتفقا على الرعية . وكانت عصا آدم عليه السلام هبط بها من الجنة ، وكانت من العين الذي في ورق الريحان ، وهو الجسم المستطيل في وسطها ، وقد تقدم شرح أمرها فيما مضى .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾

لما أراد الله تبارك وتعالى أن يُدَرِّبه في تلقِّي النبوة وتكاليفها أمره بإلقاء العصا ، فألقاها موسى عليه السلام . فقلب اللهُ أوصافها وأغراضها ، وكانت عصا ذات شعبتين . فصارت الشعبتان لها فماً ،

وصارت حيَّةً تسعى ، أي تنتقل وتمشي وتلتقم الحجارة ، فلما رآها موسى عليه السلام رأى عبرة فولَّى مُدْبِراً ولم يُعقِّب ، فقال الله له : خذها ولا تخف ، وذلك أنه أوجس في نفسه خيفة ، أي لحقه ما يلحق البشر ، ورُوي أن موسى عليه السلام تناولها بِكُمَّي جُبَّته ، فنُهي عن ذلك فأَخذها بيده فصارت عصا كما كانت أول مرة ، وهي سيرتها الأُولى .

ثم أَمره الله تعالى أن يضم يده إلى جَنْبِه ، وهو الجناح استعارة ومجازاً ، ومنه قول الراجز :

* أَضُمُّهُ لِلصَّدْرِ والْجَنَاحِ * (١)

وبعض الناس يقول : «الجناح» : اليد .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا كله صحيح على طريق الاستعارة ، ألا ترى أن جعفر بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه سُمِّي ذا الجناحين بسبب يديه حين أُقيمت له الجناحان مقام اليد ، شبه بجناح الطائر (٢) .

---

(١) لم أقف على قائل هذا الرجز . وفي اللسان (جنح) : «وجَنَاح الإنسان : يده ، ويَدَا الإنسان : جناحاه . وفي التنزيل ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ ، وفيه : ﴿ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ﴾ ، وقال الزجاج : معنى جناحك العَضُد ، ويقال : اليَدُ كلها جناح ، وجمْعُه أَجْنِحَة وأَجْنُح» .

(٢) هو جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب ، أخو علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، كان من السابقين إلى الإسلام . وقد حضر معركة مُؤتة بالبلقاء في الشام ، فنزل عن فرسه وقاتل ، =

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وكلُّ مرعوبٍ من ظُلْمة أو نحوها فإنه إذا ضمَّ يده إلى جناحه فتر رعبه وجمع جأْشه ، فجمع الله تبارك وتعالى لموسى عليه السلام تفتير الرعب مع الآية في اليد . ورُوي أن يد موسى عليه السلام خرجت بيضاء تشِفُّ وتضيءُ كالشمس .

وقوله تعالى : ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أي : من غير بَرَص ولا مُثْلَة ، بل هو أمر يَنْحَسر ويعود بحكم الحاجة إليه ، وقوله : ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ يحتمل أن يريد وصف الآيات بالكبر على ما تقدم من قوله : ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَى﴾ و ﴿مَآرِبُ أُخْرَى﴾ ونحوه ، ويحتمل أن يريد تخصيص هاتين الآيتين بأنهما أكبر الآيات ، كأنه قال : لِنُرِيَكَ الكبرى من آياتنا ، فهما معنيان . ثم أمره الله تبارك وتعالى بالذهاب إلى فرعون ، وهو مصعب بن الرَّيَّان في بعض ما قيل ، وقيل غير هذا ، ولا صحة لشيءٍ من ذلك . و [طَغَى] معناه : تجاوز الحدِّ في فساد .

= ثم حمل الراية وتقدم الصفوف فقطعت يمناه ، فحملها بيُسراه وقاتل فقطعت أيضاً ، فاحتضن الراية إلى صدره وقاتل حتى وقع شهيداً وفي جسمه نحو تسعين طعنة ورَمْيَة ، وقيل : إن الله تبارك وتعالى عوّضه عن يديه بجناحين في الجنة . وقال حسّان فيه :

فَلا يُبْعِدَنَّ اللهُ قَتْلَى تَتَابَعُوا بِمُؤْتَةَ مِنْهُمْ ذُو الْجَنَاحَيْنِ جَعْفَرُ

ولقد لُقِّب جعفر بالطيّار ، روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (دخلت الجنة فرأيت جعفر يطير مع الملائكة وجناحاه مضرجان بالدم) .

قوله تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ الآية ، لما أمره الله تعالى بالذهاب إلى فرعون علم أنها الرسالة ، وفهم قدْر التكاليف ، فدعا الله في المعونة إذْ لا حولَ له إلَّا به ، وقوله : ﴿ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ معناه : لفهم ما يرد علي من الأمور ، و «ٱلْعُقْدَة» التي دعا في حلِّهَا هي التي اعترته من الجمرة التي جعلها في فمه حين جرَّبه فرعون ، ورُوي في ذلك أن فرعون أراد قتله وهو طفل حين مدَّ يده إلى لحية فرعون ، فقالت له امرأته : إنه لا يعقل ، فقال : بَلَى ، وهو يعقل وهو عدوٌّ لي ، فقالت له : نُجَرِّبه ، قال : أفعل ، فدعت بجمرات من نارٍ وطبق فيه ياقوت ، فقالا : إن أخذ الياقوت علمنا أنه يعقل ، وإن أخذ النار عذرناه ، فمدَّ موسى يده إلى جمرة فأخذها فلم تَعْدُ على يده فجعلها في فيه فأحرقته وأورثت لسانه عُقْدة في كِبَره ، أي حَبْسة مُلْبِسَةً في بعض الحروف . قال ابن الجوهري رحمه الله : كفَّ الله النار عن يده لئلا تقول النار : طبعي ، وأحرقت لسانه لئلا يقول موسى : مكانتي ، وموسى عليه السلام إنما طلب من حلِّ العقدة قدْر أن يُفْقَه قولُه ، فجائز أن يكون ذلك كله زال ، وجائز أن يكون بقي منه القليل ، فيجتمع أن يُؤْتى سُؤْله وأن يقول فرعون : ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾(١) ، ولو فرضناه زال جملةً لكان قول فرعون سبًّا لموسى عليه السلام لحالته القديمة .

---

(١) من الآية (٥٢) من سورة (الزخرف) .

و «الْوَزِيرُ» : المُعين القائم بِوِزْر الأُمور ، وهو ثقلها ، ويحتمل الكلام أَن طلب الوزير من أَهله على الجملة ، ثم أَبدل هارون من الوزير المطلوب ، ويحتمل أَن يريد : واجعل هارون وزيراً ، فإنما ابتداءُ الطلب فيه ، فيكون ـ على هذا ـ مفعولاً أولاً بـ [أجْعَلْ] . وكان هارون عليه السلام أَكبر من موسى عليه السلام بأَربعة أَعوام .

وقرأَ ابن عامرٍ وحده : [أَشْدُدْ] بفتح الهمزة [وَأُشْرِكْهُ] بضمها على أَن موسى عليه السلام أَسند هذه الأَفعال إلى نفسه ، ويكون الأَمر هنا لا يريد به النبُوَّة بل يريد تدبيره ومساعيه ، لأَن النُّبُوَّة لا يكون لموسى عليه السلام أَن يشرك فيها بشراً ، وقرأَ الباقون : [أُشْدُدْ] بضم الهمزة [وَأَشْرِكْهُ] على معنى الدعاءِ في شدِّ الأَزر وتشريك هارون عليه السلام في النُّبُوَّة . وهذه هي الوَجْه لأَنها تناسب ما تقدم من الدعاءِ ، ويعضدها آياتٌ غير هذه تقضي بطلبه تصديق هارون إيَّاه .

و «الأَزْرُ» يعني الظهر ، قاله أَبو عبيدة . كأَنه قال : شُدَّ به عوني ، واجعله مُقَاوِمِي فيما أُحاول من الأُمور . وقال امرؤُ القيس :

بِمَحْنِيَّةٍ قَدْ آزَرَ الضَّالَ نَبْتُهَا مَجَرَّ جُيُوشٍ غَانِمِينَ وَخُيَّبِ (١)

(١) هذا البيت من قصيدته «أم جندب» التي وصف فيها الفرس وصفاً دقيقاً طويلاً ، ولكنه في بعض أبياتها يشبه ناقته بحمار وحشي وقف يأكل العشب في مَحْنِيَّة . والمَحْنِيَّةُ : حيث ينحني الوادي وهو أخصب موضع فيه . والضَّالُ : نوع من الشجر في الصحراء ، هو السِّدْرُ البري ، وآزَرَ : حاذى وساوى ، أيْ صار مثله طولاً وغضارة لخصوبة الأرض ، مَجَرَّ جُيُوشٍ : مَمَرَّ جيوش ، غانمين : منتصرين ، خُيَّبٌ : مهزومين . أي هذه المنطقة=

أي : قَاوَمَه وصار في طوله . وفتح أبو عمرو وابن كثير الياءَ من [أَخِي] وسكَّنها الباقون ، ورُوي عن نافع [وَأَشْرِكْهُو] بزيادة واوٍ في اللفظ بعد الهاءِ . ثم جعل موسى عليه السلام ما طلب من نعم الله تعالى سبباً يلزم كثرة العبادة والاجتهاد في أمر الله . وقوله : [كَثِيراً] نعت لمصدر محذوف ، تقديره : تسبيحاً كثيراً .

... كلية دار العلوم
المكتبة
رقم الكتاب : ٢٨٥٢٠

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ ﴾

المعنى : قال الله تعالى : قد أعطيتك يا موسى طلبتك في شرح الصدر وتيسير الأَمر وحلّ العُقدة ، إمَّا بالكُلِّ وإمَّا على قدر الحاجة

في الوادي تمر بها الجيوش المنتصرة والمهزومة بكثرة ، ولذلك لا ترعى فيها الحيوانات . ولا يقصدها الرعاة خوفاً من الجيوش . ولهذا بقيت خصيبة .

وهذا البيت في اللسان (أزر) شاهد على أن (أزّرَ) بمعنى : ساوى . ولكن آزر بمعنى قَوَّى لا تتأتى فيه ، وأظهر منه في هذا المعنى البيت الذي استشهد به اللسان ولم ينسبه ، قال : «وأزَّر الزرع وتأزَّر : قوّى بعضه بعضاً فالتف وتلاحق واشتد . قال الشاعر :

تـــأزَّرَ فيه النَّبْتُ حتَّى تخايَلَـــتْ رُباهُ وحتَّى ما تُرَى الشَّاءُ نُوَّمَـــا

في الأَفعال ، وإيتاءُ هذا السؤال مِنَّة من الله عزَّ وجلَّ ، فقرن إليها قديم مِنَّته عنده على جهة التوقيف عليها ليَعْظُم اجتهاده وتَقْوى بصيرته .

وكان من قصة موسى عليه السلام - فيما روي - أَن فرعون ذُكر له أَن خراب ملكه يكون على يدي غلام من بني إسرائيل ، فأَمر بقتل كل ولد يولد لبني إسرائيل ، ثم إنه رأَى مع أَهل مملكته أَن فناءَ بني إسرائيل يعود على القبط بالضرر ؛ إذ هم كانوا عملة الأَرض والصناع ونحو هذا ، فعزم على أَن يقتل الولدان سنة ويستحييهم سنة ، فوُلد هارون عليه السلام في سنة الاستحياءِ فكانت أُمُّه آمنة ، ثم وُلد موسى عليه السلام في العام الرَّابع سنة القتل ، فخافت أُمه عليه الذبح فبقيت مهتمة ، فأَوحى الله إليها ، قيل : بملَك جاءَها فأَخبرها وأَمرها ، قال بعض من روى هذا : ولم تكن نَبِيَّةً ؛ لأَنا نجد في الشرع ورواياته أَن الملائكة قد كلَّمت من لم يكن نبيًّا ، وقال بعضهم : بل كانت أُم موسى عليه السلام نَبِيَّة بهذا الوحي ، وقال بعضهم : بل كان هذا الوحي رؤْيا رأَتها في النوم ، وقالت فرقة : بل هو وحي إلهام وتسديد كوحي الله إلى النحل وغيرها ، فأَلهمها الله تبارك وتعالى إلى أَن اتَّخذت تابوتاً فقذفت فيه موسى راقداً في فراش ، ثم قذفته في يمِّ النيل ، وكان فرعون جالساً في موضع يشرف على النيل إذ رأَى التابوت ، فأَمر به فَسِيق إليه وامرأَته معه ، ففتح فرآه ، فرحمته امرأَته وطلبته لتتخذه ابناً فأَباح لها ذلك ، وروي أَن التابوت جاءَ في الماءِ إلى المشرعة

التي كان جواري امرأة فرعون يستقين فيها الماء ، فأَخذن التابوت وحَمَلْنه إليها ، فأَخرجته وأعلمت فرعون وطلبته منه ، ثم إنها عرضته للرضاع فلم يقبل امرأة ، فجعلت تنادي عليه في المدينة ويُطاف به يعرض للمراضع ، فكلما عرضت عليه امرأة أباها ، وكانت أُمه حين ذهب عنها في النيل بقيت مغمومة وفؤادها فارغ إلَّا من هَمِّه ، فقالت لأُخته : اطلبي أثره في المدينة عسى يقع إلينا منه خبر ، فبينا الأُخت تطوف إذْ بَصُرَتْ به وفهمت أمره ، فقالت لهم : أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ، فتعلقوا بها وقالوا لها : أنت تعرفين هذا الصبي ، قالت : لا ، غير أني أعلم من أهل هذا البيت الحرص على التقرُّب إلى الملكة والجدَّ في خدمتها وإرضائها . فتركوها وسأَلوها الدلالة ، فجاءت بأُمِّ موسى ، فلما قَرَّبْنَه شرب ثدييها ، فسُرَّت آسية امرأة فرعون ، وقالت لها : كوني معي في القصر . فقالت لها : ما كنت لأَدع بيتي وولدي ، ولكنه يكون عندي ، فأَحسنت إلى أَهل ذلك البيت غاية الإحسان ، واعتَزَّ بنو إسرائيل بهذا الرضاع والسبب من الملكة ، وأقام موسى حتى كمل رضاعه ، فأَرسلت إليها آسية أن جِيئي بولدي ليوم كذا ، وأَمرت خدمها ومن لها أن يَلْقَيْنه بالتُّحف والهدايا واللباس ، فوصل إليها على ذلك وهو بخير حال وأَجمل شباب ، فسُرَّت به ودخلت به على فرعون ليراه ويحبه ، فرآه

وأعجبه وقرَّبه ، فأَخذ موسى عليه السلام بلحية فرعون وجَبَذَهَا (١) ، فاستشاط فرعون وقال : هذا عدوٌّ لي ، وأَمر بقتله ، فناشدته فيه امرأَته وقالت : إنه لا يعقل ، فقال فرعون : بل يعقل ، فاتَّفقا على تجربة بالجمرة والياقوت حسبما ذكرنا آنفاً في حلِّ العُقْدة ، فنجاه الله من فرعون وردَّه إلى أُمه فشَبَّ عندها إلى أَن ترعرع ، وكان فتًى جلْداً فاضلاً ، فاعتزت به بنو إسرائيل بظاهر ذلك الرضاع ، وكان يحميهم ويكون ضلعه معهم وهو يعلم من نفسه أَنه منهم ومن صميمهم ، فكانت بصيرته في حمايتهم ، وكان يعرف ذلك أَعيان بني إسرائيل

ثم إن قصة القبطي المقاتل مع الإسرائيلي نزلت ، وذِكْرُهَا في موضعها مُسْتَوْعَب ، فخرج موسى عليه السلام من مصر حتى وصل إلى مدين . فكان من أَمره مع شعيب عليه السلام ما هو مُسْتَوْعَب في موضعه ، من أَنه تزوج ابنته الصغرى على رعيه الغنم عشر سنين ، ثم اعتزم الرحيل بزوجته إلى بلاد مصر ، فجاءَ في طريقه فَضَلَّ في ليلة مظلمة فرأَى النار حسبما تقدم ذكره ، فعدَّد الله تبارك وتعالى على موسى في هذه الآية ما تضمنته هذه القصة من لطف الله به في كل فصل ، وتخليصه له من قصة إلى أُخرى ، وهذه الفتون التي فتنه بها ، أَي اختبره وخلَّصه حتى صلح للنبوة وسَلِــم لها .

(١) جَبَذَ وجَذَبَ بمعنى واحد .

وقوله تعالى : ﴿مَا يُوحَى﴾ إيهامٌ يتضمن عِظَم الأمر وجلالته في النعم ، وهذا نحو قوله سبحانه : ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾(١) ، وهو كثير في القرآن والكلام ، و ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ﴾ بدلٌ من [مَا] ، والضمير الأول في [ٱقْذِفِيهِ] عائد على موسى ، وفي الثاني على التابوت (٢) ، ويجوز أن يعود على موسى عليه السلام ، وقوله تعالى : ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ﴾ خبر خرج في صيغة الأمر مبالغةً ، إذ الأمر أقطع الأفعال وأوجب ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (قوموا فلأُصَلِّ لكم) (٣) ، فأخرج الخبر في صيغة الأمر لنفسه مبالغةً ، وهذا كثير ، ومن حيث خرج الفعل مخرج الأمر حسن جوابه كذلك . و «العَدُوُّ» الذي كان لله تبارك وتعالى ولموسى عليه السلام هو فرعون ، ولكن أم موسى أخبرت به على الإيهام ، ولذلك قالت لأُخته : قُصِّيه ، وهي لا تدري أين .

ثم أخبر الله تعالى موسى عليه السلام أنه ألقى عليه مَحَبَّة منه ، فقال بعض الناس : أراد محبة آسية ، لأنها كانت من الله وكانت

---

(١) الآية (١٦) من سورة (النجم) .

(٢) يريد أن يقول : والضمير في [ٱقْذِفِيهِ] الأولى عائد على موسى ، وفي [فَٱقْذِفِيهِ] الثانية عائد على التابوت .

(٣) هذا جزءٌ من حديث أخرجه البخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائي ، ومالك ، والدرامي ، عن أنس ، ولفظه في البخاري (أن جدَّته — أي أنس — مُلَيكة دعت رسول الله صلى الله عليه وسلم لطعام صنعته له ، فأكل منه ثم قال : (قُومُوا فَلأُصَلِّيَ لكم) . قال أنس : فقمت إلى حصير لنا قد اسودَّ من طول ما لُبِس فنضحته بماء ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصففت واليتيم وراءه والعجوز من ورائنا ، فصلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعتين ثم انصرف) ، وعلى هذه الرواية فلا شاهد في الحديث لأن الصيغة فيه ليست صيغة أمر .

سبب حياته ، وقالت فرقة : أراد القبول الذي يضعه الله في الأرض لخيار عباده ، وكان حظ موسى عليه السلام منه غاية الرجل ، فقالت فرقة : أعطاه إجلالاً يُحِبُّه به كل من رآه ، وقالت فرقة : أعطاه ملاحة العينين .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذان القولان فيهما ضعف ، وأقوى الأقوال أنه القبول .

وقرأ الجمهور : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ بكسر اللام وضم التاء على معنى : ولِتُغذى ولِتُطعم وتُربى ، وقرأ أبو نُهَيْك : [وَلِتَصْنَعَ] بفتح التاء ، قال ثعلب : معناه : لتكون حركتك وتصرفك على عين مني ، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع : [وَلِيُصْنَعْ] بالياء وكسر اللام على الأمر للغائب ، وذلك مُتَّجه ، وقوله : ﴿عَلَى عَيْنِي﴾ معناه : بمرأى مني وأمر مدرك مبصر مراعَى .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ﴾

العامل في [إِذْ] فعل مضمر تقديره : ومَنَنَّا إِذْ ، وتقدم تفسير هذه الآية في القصص المذكورة آنفاً ، وقرأت فرقة : ﴿كَيْ تَقَرَّ﴾

بفتح القاف ، وقرأت فرقة : ﴿كَيْ تَقِرَّ﴾ بكسر القاف ، والنَّفْسُ التي قتلها هي نفس القبطي الذي كان يقاتل الإسرائيلي فوكزه موسى فقضى عليه . و «الغَمُّ» : همُّ النفس ، وكان هم موسى عليه السلام بأمر مَن طلبه ليثأر به .

وقوله تعالى : ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً﴾ معناه : خَلَّصْنَاك تخليصاً (١) ، هذا قول جمهور المفسرين ، وقالت فرقة : معناه : اختبرناكَ ، وعلى هذا التأْويل لا يُراد إلَّا ما اختُبر به موسى عليه السلام بعد بلوغه وتكليفه ، وما كان قبل ذلك فلا يدخل في اختبار موسى عليه السلام .

وعِدَّة سنيه في أهل مدين عشرة أعوامٍ ؛ لأنه إنما قضى أوفى الأَجلين ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿عَلَى قَدَرٍ﴾ أي : بميقات محدود (٢) للنبوة التي قد أرادها الله بك ، ومنه قول الشاعر :

نَالَ الْخلافَةَ أَوْ كانَتْ لَهُ قَدَراً كَمَا أَتَى رَبَّهُ موسَى عَلَى قَدَرِ (٣)

---

(١) تعبير الطبري ، والقرطبي وغيرهما من المفسرين : «أخلصناك إخلاصاً» ، وهذا القول منسوب إلى مجاهد رضي الله عنه ، والمعنى : خلَّصه من كل مالا يلائم النبوة حتى أصبح صالحاً لها .

(٢) الأصح أن يقال : بميقات مُحَدَّد ؛ لأن الشيء المحدود هو القليل .

(٣) البيت لجرير ، وهو من قصيدة له يمدح بها عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، وهو في الديوان ، والطبري ، والبحر ، والقرطبي ، والمغني ، والرواية فيه : جاء الخلافة ، وفي الديوان : (نال الخلافة إذْ كانت) ، ويروى : (عزَّ الخلافة بل كانت له قدراً) ومعناها : أخذ الخلافة بعِزٍّ وقهْرٍ ، قال صاحب اللسان : «يقال : قَدَرَ الإله كذا تقديراً ، وإذا وافق الشيءُ الشيءَ قلتَ : جاء قَدَرَه ، وقال ابن سيدة : القَدَر والقَدْرُ ــ بسكون الدال وفتحها ــ : القضاء والحكم ، وهو ما يُقَدِّره الله عزَّ وجلَّ من القضاء ، ويحكم به من الأمور» ، فالشاهد في البيت قوله : ﴿عَلَى قَدَرٍ﴾ ، إذ المعنى : بقضاء الله وتوفيقه .

وقوله تعالى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ معناه: جعلتك موضع الصنيعة ومقرَّ الإجمال والإحسان، وقوله: [لِنَفْسِي] إضافة تشريف، وهذا كما تقول: «بيت الله» ونحوه. «والصِّيامُ لي وأَنَا أَجْزِي به»(١)، وعبَّر بالنفس عن شدَّة القرب وقوة الاختصاص.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾

أمر الله تعالى موسى وهارون عليهما السلام في هذه الآية بالنفوذ إلى دعوة فرعون، وخاطب موسى وحده تشريفاً له، ويحتمل أن هارون أُوحي إليه مع مَلَك أن ينفذ، و [بِآيَاتِي] معناه: بعلاماتي التي أعطيتكما من معجزة وآية وحي وأَمْر ونهي كالتوراة، و [تَنِيَا] معناه: تضعفا وتبطئا، تقول: وَنَى فلان في أَمْر كذا إذا تباطأ فيه عن ضعف، ومنه قول الشاعر:

. . . . فَمَا أَنَا بِالْوَانِي وَلَا الضَّرَعِ الْغُمْرِ (٢)

(١) هذا جزء من حديث متفق عليه.

(٢) هذا عجز بيت. والبيت بتمامه في اللسان (ضرع)، وهو غير منسوب، قال: الضَّرَعُ هو الغُمْرُ الضعيف من الرجال، وقال الشاعر:

والوَنَى : الكلالُ والفَشَل في البهائم والإنس ، وفي مصحف ابن مسعود : «وَلَا تَهِنَا فِي ذِكْرِي» ، ومعناه : وَلَا تَلِينَا ، من قولك : هيِّنٌ لَيِّنٌ . و «الْقَوْلُ اللَّيِّنُ» ، قالت فرقة : معناه : كَنِّيَاهُ (١) . وقالت فرقة : بل أمرهما بتحسين الكلمة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا هو الوجه ، وذلك أن كل من يريد دعاءَ إنسان إلى أمر يكرهه ، فإنما الوجه أن يحرر في عبارته المعنى الذي يريد حتى لا يخل به ولا يُجزئه ، ثم يجتهد بعد ذلك في أن تكون عبارته لطيفة ومقابلته ليِّنَة ، فذلك أجلب للمراد ، فأمر الله تعالى موسى وهارون عليهما السلام أن يَسْلُكَا مع فرعون إكمال الدعوة في لين من القول .

وقوله : [لَعَلَّهُ] معناه : على رجائكما وطمعكما ، فالتوقع فيها إنما هو راجع إلى جهة البشر ، وقرأ الجمهور : [يَفْرُط] بفتح الياء وضم الراء ، ومعناه : يَعْجَل ويتسرع بمكروه فينا ، ومنه الفارط في الماء ، وهو الذي يتقدم القومَ إليه ، قال الشاعر :

=أناةً وَحِلْماً وانْتِظَاراً بِهِمْ غَـــداً ... فَمَا أنَا بِالْوَانِي ولا الضَّرَعِ الْغُمْرِ

ورجلٌ ضارع : بيِّن الضُّروع والضَّراعة : ناحلٌ ضعيف» . والغُمْرُ : الذي لم يجرب الأمور ولا خبرة له بحرب ولا أمْر ولم تُحَنِّكه التجارب . والشاهد في البيت هو أن الواني بمعنى الضعيف المتباطئ في الأمر بسبب ضعفه وعجزه .

(١) أي خاطباه بالكنية . وهي ما يُجْعَلُ علماً على الشخص غير الاسم واللقب . وتُستعمل مع الاسم واللقب أو بدونهما تفخيماً لشأن صاحبها أن يُذكر اسمه مجرداً ، وتكون لأشراف الناس .

فَاسْتَعْجَلُونا وكانوا مِنْ صَحَابَتِنَا كَمَا تَقَدَّمَ فُرَّاطٌ لِوُرَّادِ (١)

وقرأت فرقة : [يُفْرِطَ] بضم الياء وكسر الراء ، ومعناه : يَشْتَطُّ ، وقرأ ابن محيصن : [يُفْرَطَ] بضم الياء وفتح الراء ، ومعناها أن يحمله حامِلٌ على التسرع إلينا .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا ﴾ أي بالنصر والمعونة والقدرة على فرعون ، وهذا كما تقول : «الأمير مع فلان» إذا أردت أنه يحميه . ﴿أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ عبارة عن الإدراك الذي لا تخفى معه خافية ، تبارك الله رب العالمين .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾

(١) البيت للقُطَامِيّ — عُمَيْر بن شُيَيْم التغلبي — وهو من قصيدة له يمدح بها زُفَر بن الحارث الكلابي . وهي في الأغاني . وأورد منها ابن قتيبة أبياتاً في « الشعر والشعراء » ، والبيت في اللسان (فرط) . وفي تفسير البحر المحيط . قال في اللسان : « وفَرَط القومَ يَفْرِطُهم فَرْطاً وفَرَاطة : تقدمهم إلى الوِرْدِ لإصلاح الأرْشية والدِّلاء ومَدْرِ الحياض والسَّقْي فيها ، وفَرَطْتُ القومَ أفْرِطُهم فَرْطاً ، أي سبقتهم إلى الماء ، فأنا فارطٌ وهم الفُرَّاط . قال القطامي : « فاستعجلونا ... البيت » . والوُرَّاد : هم الذين يردون الماء . يقال : وردتُ الماء أرِدُه وُروداً إذا حَضَرْتَه لتشرب ، ويروى البيت : « كما تقدم فارط الوُرَّاد » .

المعنى : فأْتيا فرعون فأَعْلماه أَنكمَا رسولان إليه . وعبَّر لفرعون بـ [رَبِّكَ] تحقيراً له ، إذْ كان يدَّعي الربوبية ، ثم أَمر بدعوته إلى أَن يَبْعَث معهما بني إسرائيل ويُخرجهم من ذُلٍّ خدمة القبط ، وقد تقدم في هذه الآية دعاؤُه إلى الإيمان ، وهذه جملة ما دُعي إليه فرعون «الإيمان وإرسال بني إسرائيل» ، والظاهر أَن رسالته إليه ليست على حدٍّ إرساله إلى بني إسرائيل ، وتعذيبُ بني إسرائيل كان ذبح أَولادهم وإذلالهم . و «الآية» التي أَحالَا عليها هي العصا واليد . وقال : [جِئْنَاكَ] – والجائي بهما موسى – تجوُّزاً من حيث هما مشتركان .

وقوله تعالى : ﴿وَٱلسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰ﴾ يحتمل أَن يكون آخر كلامٍ وفَصْله ، فيقوى أَن يكون «السلام» بمعنى التحية ، كأَنما رغبا بها عنه ، وجَرَيَا على العُرف في التسليم عند الفراغ من القول فسلَّما على من اتبع الهدى . وفي هذا توبيخ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وعلى هذه الجملة استعمال الناس هذه الآية في مخاطبتهم ومحاوراتهم. ويحتمل أَن يكون في درج القول متصلاً بقوله سبحانه : ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا﴾ فيحتمل – على هذا أَن يكون خبراً بأَن السلامة للمهتدين . وهذان المعنيان قالت كلَّ واحد منهما فرقةٌ لكن دون هذا التلخيص . وقالوا : [ٱلسَّلَامُ] بمعنى : السَّلامة . و [عَلَىٰ] بمعنى «اللام» ، أَي : السَّلامةُ لمن اتَّبع الهدى .

ولما فرغا من المقالة التي أُمرا بها عند قوله : [وَتَوَلَّى] خاطبهما فرعون ، وفي سرد هذه الآية حذف يدل عليه ظاهر الكلام ، تقديره : فأَتَياهُ فلما قالا جميع ما أُمِرَا به قال لهما فرعون : فمن ربكما ؟ وقوله : ﴿يَا مُوسَى﴾ بغير جمعه مع «هارون» في الضمير نداءٌ له بمعنى التخصيص والتوقيف؛ إذْ كان صاحب عُظْم الرسالة ولزيم الآيات.

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ﴾

استبد موسى عليه السلام بجوابه من حيث خصه بالسؤال ، ثم أعلمه من صفات الله بالتي لا تشريك لفرعون فيه ولا بوجه مجاز . واختلف المفسرون في قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ — فقالت فرقة : أعطى الله الذَّكَر من كل حيوان نوعه وخلقته أُنثى ، ثم هدى للإتيان ، وقالت فرقة : أعطى الله كل موجود من مخلوقاته خِلْقَتَهُ وصورَتَه ، أي أَكْمَل ذلك له وأتقنه ، ثم هَدَى أي : يسَّر كل شيءٍ لمنافعه ومرافقه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا القول أشرف معنىً وأعم في الموجودات .

وقرأت فرقة : [خَلَقَهُ] بفتح اللام ، ويكون المفعول الثاني بـ [أَعْطَى] مُقَدَّراً ، تقديره : كماله أو مصلحته .

وقول فرعون : ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَى﴾ يحتمل أن يريد محاجَّته بحسب ما تقدم من القول ومناقضته فيه ، فليس يتَّجه على هذا أن يريد إلَّا : ما بال القرون الأُولى لم تُبعث إليها ولم يوجد أَمْرُك عندها ؟ فردَّ موسى عليه السلام عِلْم ذلك إلى الله تعالى . ويحتمل أن يريد فرعون قَطْع الكلام الأَول والرجوع إلى سؤال موسى عمَّن سلف من الناس روغاناً في الحجة وحيدة ، وقيل : «الْبَالُ» : الحال ، كأَنه سأَله عن حالهم ، كما جاء في الحديث : (يهديكم الله ويصلح بالكم)[1] ، قال النقاش : إنما قال فرعون : ﴿ما بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَى﴾ لمَّا سمع مؤمن آله يقول : ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ، مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ﴾[2] الآية ، وردَّ موسى العلم إلى الله لأَنه لم تأْته التوراة بعد . وقوله : ﴿فِي كِتَابٍ﴾ يريد اللوح المحفوظ ، أَو فيما كتبته الملائكة من أَحوال البشر .

وقرأَت فرقة : ﴿لَا يَضِلُّ﴾ بفتح الياء وكسر الضاد ، واختُلف في معنى هذه القراءة ـ فقالت فرقة : هو ابتداء كلام ، تنزيهٌ لله

---

(١) أخرجه الترمذي ، وأبو داود ، وابن ماجه في الأدب .

(٢) من الآيتين (٣٠ ، ٣١) من سورة (المؤمن) ـ وهي سورة (غافر) ، ومؤمن آل فرعون هو الذي تتحدث عنه الآيات من قوله تعالى في سورة غافر ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ الآية (٢٨) وما بعدها ، ولهذا سميت السورة سورة المؤمن .

تبارك وتعالى عن هاتين الصفتين ، وقد كان الكلام تمَّ في قوله : ﴿ في كِتَابٍ ﴾ ، و [يَضِلُّ] معناه : يتلف (١) ، وقالت فرقة : بل قوله : ﴿ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴾ من صفة الكتاب ، أي أن الكتاب لا يغيب عن الله تعالى ، تقول العرب : « ضَلَّني الشَّيْءُ » إذا لم أجده ، و « أَضْلَلْتُهُ أنا » ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم حكاية عن الإسرائيلي الذي طلب أن يُحرق بعد موته : (لعلي أُضل الله) الحديث (٢) ،

(١) ومعنى يتلفُ يَهْلِكُ ، وبهذا عبّر أكثر المفسرين ، قال الزجاج : معنى ﴿ لا يَضِلُّ ﴾ : لا يَهْلِك من قوله تعالى : ﴿ أَئِذَا ضَلَلْنَا في الأَرْضِ ﴾ ، وقيل : ﴿ لا يَضِلُّ ﴾ : لا يُخْطِئ . قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، أي : لا يخطئ في التدبير ، فمن أنظره فلِحِكمة أنظره ، ومن عاجَلَه فلِحِكْمة عاجَلَه ، وقيل : ﴿ لا يَضِلُّ ﴾ : لا يغيب . قال ابن الأعرابي : « أصل الضلال الغيبوبة ، يقال : ضلَّ النَّاسي إذا غاب عنه حفظ الشيء ، ومعنى ﴿ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى ﴾ أي : لا يغيب عنه شيءٌ ولا يغيب عن شيء » .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد والأنبياء والرقاق ، ومسلم في التوبة ، والنسائي في الجنائز ، وابن ماجه في الزهد ، والدارمي في الرقاق ، ومالك في الجنائز من الموطأ ، وأحمد في مواضع كثيرة . والرواية التي فيها هذا اللفظ أخرجها أحمد ، عن حكيم بن معاوية ، عن أبيه ، قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت : ما أتيتك حتى حلفت عدد أصابعي هذه ألاَّ آتيك . ثم سأله عن أمور ، وفي نهاية الحديث قال : (إنَّ رجلا ممَّن كان قبلكم رَغَسَهُ الله تعالى مالاً وولداً حتى ذهب عصر وجاء آخر ، فلما احتضر قال لِوَلَدِهِ : أيَّ أبٍ كنتُ لكم ؟ قالوا : خير أب ، فقال : هل أنتم مطيعي وإلاَّ أخذت مالي منكم . انظروا إذاً أنا متُّ أن تحرقوني حتى تدعوني حُمَماً ، ثم اهرسوني بالمهراس ، - وأدار رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه حذاء ركبتيه - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ففعلوا والله . وقال نبي الله صلى الله عليه وسلم بيده هكذا . ثم اذروني في يومٍ راحٍ لعلي أُضلُّ الله تعالى ، كذا قال عفان - أحد الرواة - قال أبي : وقال مهني أبو شبل عن حماد : أُضل الله ، ففعلوا والله ذلك . فإذا هو قائم في قبضة الله تعالى ، فقال : يا ابن آدم ، ما حملك على ما فعلته ؟ قال : من مخافتك ، قال : فَتَلافَاهُ الله تعالى بها) .

(ومعنى : (رَغَسَهُ الله) : كثَّر ماله وأولاده وبارك له فيهما - والحُمَم : الفحم والرماد وكل ما احترق من النار - والرَّاحُ من الأيام : الشَّديد الرِّيح) .

﴿ولَا يَنْسَى﴾ أظهر ما فيه أن يعود ضميره إلى الله تعالى ، ويحتمل أن يعود إلى الكتاب في بعض التأويلات ، يصفه بأنه لا ينسى ، أي : لا يَدَعُ شيئاً ، فالنسيان هنا استعارة ، كما قال في موضع آخر : ﴿ إلَّا أحْصَاهَا ﴾(١) ، فوصفه بالإحصاء من حيث حصرت فيه الحوادث .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ * مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ ﴾

انظر هذه الأشياء التي ذكرها موسى عليه السلام ، هي مما تقضي بدايةً العقولُ أن فرعون وكل بشر بعيدٌ عنها ؛ لأنه لو قال : هو الرزاق القادر المريد العالم ونحوه من العبارات لأمكن فرعون أن يغالط ويقول : أنا أفعل هذا كله ، فإنما أتاه موسى عليه السلام بصفات لا يمكن فرعون أن يقول : إن ذلك له .

---

(١) من قوله تعالى في الآية (٤٩) من سورة (الكهف) : ﴿ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إلاَّ أحْصَاهَا ﴾ .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عباس : [مِهَاداً] بكسر الميم وبألف ، و «المِهَادُ» هو جمع مَهْدٍ ، وقيل : هو اسم مفرد كفَرْش وفِرَاش ، وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : [مَهْداً] بفتح الميم وسكون الهاء ، وقوله : [سَلَكَ] بمعنى : نَهَجَ ولَحَبَ (١) ، و «السُّبُل» : الطُّرُق . وقوله : ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ يحتمل أن يكون من كلام موسى عليه السلام ، على تقدير : يقول عزَّ وجلَّ : [فَأَخْرَجْنا] ، ويحتمل أن يكون كلام موسى تمَّ عند قوله : ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً﴾ ثمَّ وصل الله تعالى كلام موسى بإخباره لمحمد صلى الله عليه وسلم ، والمراد الخلق أجمع بهذه الآيات المنبَّه عليها . و «الْأَزْوَاج» بمعنى : الأنواع ، وقوله : [شَتَّى] نعت للأزواج ، أي : مختلفات .

وقوله تعالى : ﴿كُلُوا وَٱرْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ بمعنى هي صالحةٌ أن يؤكل منها وترعى الغنم فيها ، فأخرج العبارة في صيغة الأمر ؛ لأنه أوحى الأفعالِ وأهزُّها للنفس . و [ٱلنُّهَى] جمع نُهْيَة ، والنُّهْيَةُ : العقل الناهي عن القبائح .

قوله تعالى : ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ ، أي : من الأرض ، وهذا من حيث خلق آدم عليه السلام من تراب ، ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ يريد : بالموت والدفن والفَنَاءِ كيف كان . وقوله : ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾ يريد : بالبعث يوم القيامة .

---

(١) يقال : نَهَجَ الطريق : بيَّنَه . ويقال : لَحَبَ الطريق : أوْضحه وبيَّنَه . فمعنى (سَلَكَ) : أوْضَحَ وبَيَّنَ .

وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ إخبارٌ من الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم عن فرعون ، وهذا يؤيد أن الكلام من قوله تعالى : ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ إنما هو خطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقوله : [كُلَّهَا] عائد على الآيات التي رآها ، لا أنه رَأَى كلَّ آية لله ، وإنما المعنى أن الله أراه آياتٍ مَّا ، وهي العصا واليد والطمسة وغير ذلك ، وكانت رؤيته لهذه الآيات مستوعبة ، يرى الآية كلَّها كاملةً ، كأنه قال : «لقد أريناهُ آياتنا بكمالها» ، وأضاف الآيات إلى ضمير العظمة تشريفاً لها . وقوله تعالى : [وَأَبَى] يقتضي تَكَسُّبَ فرعون ، وهذا هو الذي يتعلق به الثواب والعقاب .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾

هذه المقاولة من فرعون تدل على أن أمر موسى عليه السلام قد كان قَوِيَ ، وكَثُر مُتَّبِعُوه من بني إسرائيل ، ووقع أَمْرُه في نفوس الناس ، وذلك أنها مُقاولة من يحتاج إلى الحُجّة لا من يصدع بأَمْر نفسه . وأَرْضُهم هي أَرْض مصر .

وقرأت فرقة : ﴿لَا نُخْلِفُهُ﴾ بالرفع ، وقرأت فرقة : ﴿لَا نُخْلِفْهُ﴾ بالجزم حملاً على جواب الأمر ، و [نَحْنُ] تأكيد للضمير من حيث احتاج الكلام إلى العطف عليه أُكِّد . و [مَوْعِداً] مفعول أول لـ [ٱجْعَلْ] ، و [مَكَاناً] مفعول ثانٍ . وهذا الذي اختارَ أبو علي ، ومنع أن يكون [مَكَاناً] معمولاً لقوله : [مَوْعِداً] لأنه قد وُصِف ، وهذه الأسماءُ العاملةُ عمل الفعل إذا نُعتت أو عُطف عليها أو أُخبر عنها أو صُغِّرت أو جُمعت وتوغَّلت في الاسمية بمثل هذا لم تعمل ولَا تَعَلَّق بها شيءٌ هو منها ، وقد يُتَوَسَّع في الظروف فتُعَلَّق بعد ما ذكرناه ، كقوله تعالى : ﴿يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللهِ أَكْبَرُ مِن مَقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ (١) ، فقوله : [إِذْ] معلق بقوله : ﴿لَمَقْتُ ٱللهِ﴾ وهو قد أُخبر عنه ، وإنما جاز هذا في الظَّرف خاصة ، وكذلك منع أبو علي أن يكون [مَكَاناً] نصب على الظرف السَّادِّ مَسَدَّ المفعول .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفي هذا نظر ، ومنع قومٌ أن يكون [مَكَاناً] نصباً على المفعول الثاني بـ [نُخْلِفُهُ] ، وجوَّزه كثير من النحاة ، ووجهه أن يتَّسع في أن يخلف الموعد . وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، والكسائي : [سِوًى] بكسر السِّين ، وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة : [سُوًى]

---

(١) من الآية (١٠) من سورة (غافر) .

بضمها ، والجمهور نوَّن النون ، وقرأ الحسن : [سِوَى] بكسر السين غير منون الواو ، قال أبو الفتح : «تَرْكُ الصرف هنا مشكل ، والذي ينبغي أن يكون محمولاً على الوقف»(١) ، وقرأت فرقة : [سَوَاءً]، ذكره أبو عمرو عن ابن أبي عبلة ، ومعنى [سُِوًى] أي : عدْلاً ونَصَفه ، قال أبو علي : فكأنه قال : مكاناً قريباً منَّا قُرْبه منكم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وإنما أراد : حالنا فيه مستوية ، فيعُمُّ ذلك القُرْبَ ، وأن تكون المنازل فيه واحدة في تعاطي الحق ، أي : لا تعترضكم فيه الرياسة ، وإنما بقصد الحجة ، و [سُوًى] لغةٌ في (سِوًى) ، ومن هذه اللَّفظة قول الشاعر :

وإنَّ أَبَانَا كَانَ حَلَّ بِبَلْــدَةٍ سِوًى بَيْنَ قَيْسٍ قَيْسِ عَيلانَ والفِزْرِ(٢)

---

(١) إنَّما كان ترك الصَّرْف مُشْكِلاً لأنه وصْفٌ على فُعَل ، وذلك مصروف عند اللغويين والنحويين ، يقال : (مَالٌ لُبَدٌ ــ ورَجُلٌ حُطَمٌ ، ودليلٌ خُتَعٌ) ، «واللُّبَدُ : الكثير ، والحُطَمُ : الظَّلوم ، والخُتَعُ : الحاذق في الدلالة» .

(٢) البيت لموسى بن جابر الحنفي ، قال ذلك في اللسان (سوى) ، والرواية فيه : (وَجَدْنَا أبانا ...) . والبيت في الطبري ، والقرطبي ، والبحر ، وقد نقل صاحب اللسان عن الأخفش قوله : «سِوًى وسُوًى إذا كان بمعنى (غير) أو بمعنى العَدْل يكون فيه ثلاث لغات : إن ضَمَمْتَ السين أو كسرت قصَرْتَ فيهما جميعاً ، وإن فتحت مددت ، تقول : مكانٌ سِوًى وسُوًى وسواءٌ ، أي : عَدْلٌ ووسط فيما بين الفريقين» ثم استشهد ببيت موسى=

وقالت فرقة : معناه : مستوياً من الأَرض لا وَهْدَ فيه ولا نَجْد(١)، وقالت فرقة : معناه : سوَى مكاننا هذا (٢) .

فقال موسى عليه السلام : ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ ، اتَّسع في الظرف من قرأه برفع [يَوْمُ] فجعله خبراً ، وقرأ الحسن ، والأَعمش ، والثَّقفي : [يَوْمَ] بالنصب على الظرف ، والخبر مقدر ، ورُوي أَن يوم الزينة كان عيداً لهم ويوماً مشهوداً ، وصادف يوم عاشوراءَ ، وكان يوم سبت ، وقيل : هو كسر الخليج الباقي إلى اليوم . وقوله : ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ﴾ عطف على [ٱلزِّينَةِ] فهو في موضع خفض ، ويحتمل أَن يكون في موضع رفع على تقدير : موعدكم أَن يُحشر . وتعلق عطفه على [يَوْمُ] ، وفيه نظر . وقرأَ الجمهور : [يُحْشَرَ] برفع الياءِ ، وقرأَ ابن مسعود ، وأَبو سعيد الخدري : [يَحْشُر] بفتح الياءِ وضم الشين ونصب [ٱلنَّاسَ]، وقرأَت فرقة : [نَحْشر] بالنون ، و «الْحَشْرُ» : الجمع ، ومعناه : نحشر الناسَ لمشاهدة المعارضة والتَّهيُّؤ لقبول الحق حيث كان .

= ابن جابر هذا . ثم نقل عن ابن برِّي قوله : «ولم يأت سَواءٌ مكسور السين ممدوداً إلاَّ في قولهم : هو في سِوَاءِ رأسه ، إذا كان في نعمة وخصب» . والفِزْرُ هو سعد بن زيد بن مناة . أبو قبيلة من تميم .

(١) الوَهْد : الأرض المنخفضة ، والنَّجْد : الأرض المرتفعة .

(٢) قال أبو حيان في البحر المحيط : «وليس بشيء ؛ لأن (سوى) إذا كانت بمعنى (غير) لا تستعمل إلاَّ مضافة لفظاً ، ولا تنقطع عن الإضافة» .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ ﴾

المعنى : فجمع السَّحرة ووعدهم وأمرهم بالإعداد لموسى ، فهذا هو كيده ، ثم أتى فرعون بجمعه وأهل دولته ، والسحرة معه ، وكانت عصابة لم يخلق الله تعالى أسْحر منها ، وجاء أيضاً موسى عليه السلام ببني إسرائيل معه ، فقال موسى عليه السلام للسَّحرة : [وَيْلَكُمْ] ، وهذه مخاطبة مُحَذِّر ، وندبهم في هذه الآية إلى قول الحق إذا رأوه ، وألَّا يباهتوا بكذب .

وقرأ عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، ونافع ، وعاصم (١) ، وأبو عمرو ، وابن عامر : [فَيَسْحَتَكُمْ] بفتح الياء ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : [فَيُسْحِتَكُمْ] بضم الياء ؛ وهما

(١) في رواية أبي بكر عنه .

لغتان بمعنى واحد . يقال : سَحَتَ وأَسْحَتَ بمعنى : أَهْلَكَ وأَذْهَب ، ومنه قول الفرزدق :

وعَضُّ زَمانٍ يا بْنَ مَرْوانَ لمْ يَدَعْ   مِنَ الْمَالِ إِلَّا مُسْحَتاً أَوْ مُجَلَّفُ(١)

فهذا من أَسْحَتَ .

فلما سمع السحرةُ هذه المقالة هالهم هذا المنزع ، ووقع في نفوسهم من مهابته رعبٌ شديد ، وتنازعوا أمرهم ، و «التَّنازع» يقتضي اختلافاً كان بينهم في السِّر ، أي : قال بعضهم لبعض : هو محق ، وقال

(١) البيت من قصيدة للفرزدق مطلعها : (عَزَفْتَ بأَعْشَاشٍ وما كِدْتَ تَعْزِفُ) ، وهو في التاج واللسان (جلف وسحت) ، وفي مجاز القرآن ، وشرح المفضليات ، والجمهرة ، والخزانة . والطبري . والقرطبي . وقبله يقول الشاعر :

إِلَيْكَ أميرَ الْمُؤْمِنِينَ رَمَتْ بِنَا   هُمومُ الْمُنَى والْهَوْجَلُ الْمُتَعَسَّفُ

فقول الشاعر : (وَعَضُّ زمان) مرفوع بالعطف على (هُمُومُ الْمُنَى) ، والهوجل : الفلاة التي لا علامات فيها ، والمُتَعَسَّفُ : التي يُسَارُ فيها بدون دليل . وعَضُّ الزَّمَان : شِدَّتُه . والمُسْحَتُ : المُسْتَأصَل الذي لم يبق منه بقية ، والمُجَلَّف : الذي ذهب معظمه وبقي منه شيءٌ يسير . وهذا البيت صعبٌ في إعرابه ، قال الزمخشري عنه : لا تزال الركب تصطك في تسوية إعرابه . وقال ابن قتيبة : رفع الفرزدق آخر البيت ضرورة ، وأتعب أهل الإعراب في طلب الحيلة ، وقد سأل عبد الله بن أبي إسحق النحوي ، سأل الفرزدق : بِمَ رفعتَ (أو مُجَلَّفُ) ؟ فقال : بما يسوءك وينوءك ، علينا أن نقول ، وعليكم أن تتأولوا . والتأويلات كثيرة : قيل : مُجَلَّفٌ مرفوع على المعنى ، أي مرفوع بفعل محذوف دلَّ عليه (لم يدع) ، قال ذلك ابن جني في المحتَسَب ، قال : إن قوله : (لم يدع من المال إلاَّ مسحتاً) دلَّ على أنه بقي ، فأضمر ما يدل عليه ، وهو : بقي مجلَّفُ ، وقال ثعلب : (مجلَّف) مستأنف . والتقدير : هو مُجَلَّف ، وقال الفارسي : (مجلَّف) معطوف على (عَضُّ) ، وهو مصدر جاء على صيغة المفعول ، والتقدير : وعضُّ زمانٍ أو تجليفٌ ، وقال الفراءُ : (مجلَّف) مبتدأٌ وخبره محذوف . وهناك إعرابات أخرى تعتمد على روايات تختلف الكلمات فيها عما رويناه .

بعضهم : هو مبطل ، وقال بعضهم : إن كان من عند الله فَسَيَغْلبنا ، ونحو هذا من الأَقوال التي تعهد من الجموع الكثيرة في وقت الخوف كالحرب ونحو هذا ، ومعلوم أَن جميع تناجيهم إنما كان في أمر موسى عليه السلام ، وقالت فرقة : إنما كان تناجيهم بالآية التي بعد هذا ﴿إنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والأَظهر أَنَّ تلك قيلت علانية ، ولو كان تناجيهم ذلك لم يكن ثَمَّ تنازع . و «النَّجْوى» : السِّرُّ والمُسَارَّةُ ، أَي : كان كل رجل منهم يناجي من يليه ، ثم جعلوا ذلك سرًّا مخافة فرعون أَن يتبيَّن فيهم ضعفاً ؛ لأَنهم حينئذ لم يكونوا مُصَمِّمين على غلبة موسى عليه السلام ، بل كان ظنًّا من بعضهم .

قوله تعالى : ﴿قَالُوا إنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ الآية . قرأَ نافع ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : [إِنَّ] مُشَدَّدة النون [هَذَانِ] بأَلفٍ ونون مخففة للتَّثْنية ، وقرأَ أَبو عمرو وحده : ﴿إِنَّ هَذَيْنِ لَسَاحِرَانِ﴾ ، وقرأَ ابن كثير : ﴿إِنْ هَذَانِّ لَسَاحِرَانِ﴾ بتخفيف نون [إِنْ] وتشديد نون ﴿هَذَانِّ لَسَاحِرَانِ﴾ ، وقرأَ حفص عن عاصم : [إِنْ] خفيفة [هَذَان] خفيفة أَيضاً [لَسَاحِرَانِ] . وقرأَت فرقة : ﴿إِنْ هَذَانِ إِلَّا سَاحِرَانِ﴾[1] ،

(١) وهي قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وتخريج هذه القراءة كالتخريج الذي سنذكره في الهامش التالي مباشرة .

وقرأت فرقة : ﴿إِنْ ذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾(١)، وقرأت فرقة : ﴿مَا هَذَانِ إِلَّا سَاحِرَانِ﴾ ، وقرأت فرقة : ﴿إِنَّ هَذَانِّ﴾ بتشديد النون من [هَذَانِ] .

فَأَمَّا القراءة الأولى ، فقالت فرقة : [إِنَّ] بمعنى : نعم ، كما روي أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في خطبة (إِنَّ الحمدُ لله) برفع (الحمد) (٢) . وقال عبد الله بن الزبير رضي الله عنه : «إِنَّ وراكِبَهَا» حين قال له رجل : لعن اللهُ ناقةً حملتني إليك ، ويدخل في هذا التأويل أَنَّ اللام لا تدخُل في خبر الابتداءِ ، وهو مما يجوز في الشِّعر ، ومنه قول الشاعر :

أُمُّ الحُلَيْسِ لَعَجُوزٌ شَهْرَبَهْ تَرْضَى مِنَ اللَّحْم بِعَظْم الرَّقَبَهْ (٣)

(١) [إِنْ] هي المخففة من الثقيلة ، و [ذَانِ] مبتدأٌ ، و [لَسَاحِرَانِ] الخبر ، واللام للفرق بين (إِنْ) النافية و (إِنْ) المخففة من الثقيلة على رأي البصريين ، أما الكوفيون فيزعمون أَنَّ (إِنْ) نافية وأَنَّ اللام بمعنى (إلاَّ) .

(٢) روى القرطبي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : «لا أُحْصي كم سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على مِنْبَره : (إِنَّ الحمدُ لله ، نحمده ونستعينه) ، ثم يقول : (أنا أفصح قريش كُلِّها ، وأفصحها بعدي أبان بن سعيد بن العاص) . فكأنه صلى الله عليه وسلم يقول : نَعَمْ . الحمدُ لله ... وقد جرت عادة الخطباء في الجاهلية أن يفتتحوا خطبهم بقولهم : نعم ، وقد رُوي كثير من الشعر الذي استعملت فيه (إِنَّ) بمعنى (نعم) ، ومن ذلك قول عبد الله بن قيس الرُّقَيَّات :

بَكَرَ الْعَوَازِلُ في الصَّبَا حِ يَلُمْنَنِي وَأَلُومُهُنَّهْ
وَيَقُلْنَ شَيْبٌ قَدْ عَلاَ كَ وَقَدْ كَبِرْتَ فقلت إِنَّهْ

وإجابة عبد الله بن الزبير لمن لَعَنَ ناقته : «إِنَّ وراكِبَها» معناها : نعَمْ . ولَعَنَ راكِبَها .

(٣) ينسب هذا الشعر إلى رؤبة ، وهو في ديوانه المسمى : (مجموع أشعار العرب) تحت عنوان : «أبيات مفردات . وهي منسوبة إلى رؤبة بن العجاج» ، وقيل : هو لعنترة بن=

وذهبت فرقة إلى أن هذه الآية بِلُغة بني الحارث بن كعب ، وهي إبْقَاءُ ألف التَّثْنِية في حالي النصب والخفض ، فمن ذلك قول الشاعر :

تَزَوَّدَ مِنَّا بَيْنَ أُذْنَاهُ طَعْنَةً ... دَعَتْهُ إلى هَابِي التُّرَابِ عَقِيمِ (١)

= عروس ، وقيل : ليزيد بن ضبة . وهو في مغني اللبيب ، واللسان ، والخزانة ، وابن عقيل . وأمُّ الحُلَيْس : كنية امرأة ، وشَهْرَبَة : عجوزٌ كبيرة . والشاهد أن اللام فيه دخلت على الخبر ، ويقول ابن عطية هنا : إنه مما يجوز في الشعر ، وكثير من النحويين يرفضون ذلك حتى في الشعر ، ويقولون : إن اللام زائدة ، أو هي ضرورة هنا ، ولا يقاس عليه ، وقيل : إنها لام الابتداء والتقدير : لهي عجوز . وقد أكثر النحويون من الكلام في هذا البيت ، ومثله في هذا قول الشاعر :

خالِي لأنْتَ ، ومَنْ جَرِيرٌ خَالُه ... يَنَلِ العَلاءَ ويُكْرِمِ الأخْوَالا

(١) البيت لهَوْبَر الحارثي ، قال ذلك في اللسان (هبا) — واستشهد به على أن الهَابي من التراب هو ما ارتفع ودَقّ ، وهَوْبَر هذا من بني الحارث الذين يبقون ألف التثنية في حالي النصب والخفض كما ذكر ابن عطية . والشاهد هنا هو إبقاء الألف في كلمة (أذْناه) مع أنها مجرورة بالاضافة . واللغة الفصيحة أن يقال : بين أُذنيه . وقال بعض أهل اليمن :

أيَّ قَلوصِ راكبٍ تَرَاهَا ... طاروا عَلاهُنَّ فَطِرْ عَلاهَا

أي : طاروا عليهن فطر عليها ، وقال النحاس : إن هذه اللغة معروفة ، وقد حكاها من يُرتضى بعلمه أو أمانته كأبي زيد الأنصاري ، وأبي الخطاب الأخفش ، والكسائي ، والفراء . كلهم قالوا هذا على لغة بني الحارث بن كعب ، ونقله القرطبي . ومن الشواهد المشهورة في ذلك ما أنشده الجوهري لأبي النجم :

واهاً لِرَيَّا ثُمَّ واهاً وَاهَا ... هِيَ المُنَى لَوْ أنَّنَى نِلْنَاهَا

يَا لَيْتَ عَيْنَاهَا لَنَا وَفَاهَا ... بِثَمَنٍ نُرْضِي بِهِ أبَاهَا

إنَّ أبَاهَا وَأبَا أبَاهَا ... قَدْ بَلَغَا في المَجْدِ غَايَتَاهَا

فقد استعمل المثنى بالألف في حالة النصب في قوله : (غَايَتَاها) ، وكان القياس أن يقول : (غَايَتَيْهَا) لأنه مفعول الفِعْل (بَلَغَ) .

وقول الآخر :

فَأَطْرَقَ إطْرَاقَ الشُّجَاعِ ولَوْ يَرَى مَسَاغاً لِنَابَاهُ الشُّجَاعُ لَصَمَّمَا (١)

وتُعزى هذه اللغة لِكنَانَة ، وتُعزى لِخَثْعم ، وقال الفراءُ : الألف في [هَذَانِ] دعامةٌ وليست مجلوبة للتثنية ، وإنما هي ألف (هذا) تُركت في حال التَّثنية ، كما نقول : (الذي) ثم في الجمع نزيد نوناً ونترك الياءَ في حال النصب والرفع والخفض ، وقال الزجاج : في الكلام ضمير تقديره : إنَّه هذان لَسَاحران .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفي هذا التأْويل دخول اللام في الخبر ، وقال بعض النحاة : ألِف [هَذانِ] مُشَبَّهَة هنا بـألف تَفْعلان ، وقال ابن كيسان : لما كان [هَذَا] بحال واحدة في رفعه ونصبه وخفضه تركت تثنيته هنا كذلك . وقالت جماعةٌ ـ منهم عائشة رضي الله عنها ، وأبو عمرو ـ : هذا مما لَحَنَ الكاتب فيه وأقيم بالصواب وهو تخفيف النون من [إنْ] .

(١) البيت لِلْمُتَلَمِّس ، وهو من قصيدة له يدافع فيها عن نسبه ، ويمدح الرجل الغيور على كرامته ، وفي مطلعها يقول :

يُعَيِّرُني أُمِّي رجالٌ وَلا أرَى أخَا كَرَمٍ إلاَّ بأنْ يَتَكَرَّمَا

والشجاع : الحيَّة . وصمَّمَ الشجاع في عضته : نَيَّبَ ولم يترك ما عَضَّه ، ومساغ : مَفْعَل من ساغ يسوغ ، أي يُسَهِّل فعله ، وهذا البيت يضرب مثلا للمفكر الذي يتروَّى في الأمور ، يقول : إنه أطرق إطراق الحية ، ولو أنه وجد مجالاً لعَضَّة نابية لفعَل . والشاهد هنا أنه استعمل المثنى بالألف في حالة الخفض في قوله : (لناباه) ، والقياس (لنابيه) وقد روي بها البيت .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه الأقوال مُعْتَرضة ، إلَّا ما قيل من أنها لغة ، و [إنَّ] بمعنى : أَجَل ونعم ، أَوْ إنَّ في الكلام ضمير .

وأمَّا من قرأ [إنْ] خفيفة ، فهي عند سيبويه المخففة من الثقيلة ويرتفع بعدها الاسم ، ويقول الفراءُ : هي بمعنى (ما) واللام بمعنى (إلَّا) . وَوَجْه سائر القراءات بيِّنٌ .

وعبَّر كثير من المفسرين عن «الطريقة» بـ «السَّادة»(١) ، وإنما يراد أَهل العقل والسنِّ والحِجَى ، وحُكي أن العرب تقول : «فلان طريقة قومه» ، أي : سَيِّدهم ، والأَظهر في الطريقة هنا أنها السِّيرة والمملكة والحال التي هم عليها ، و [ٱلْمُثْلَى] تأْنيث الأَمْثَل ، أي : الفاضلة الحسنة .

وقرأ جمهور القراء : [فَأَجْمِعُوا] بقطع الأَلف وكسر الميم ، على معنى : اعزموا ، وقرأ أَبو عمرو وحده : [فَاجْمَعُوا] مِنْ (جَمَع) ، أَي : ضُمُّوا سحركم بعضه إلى بعض ، وقرأ ابن كثير : [ثُمَّ] بفتح الميم [ايْتُوا] بسكون الياء ، وقرأ أَيضاً في رواية شبل عنه : ﴿ثُمِّ ٱيتُوا﴾ بكسرهما ، قال أَبو علي : وهذا غلط ، ولا وجه لكسر الميم من [ثُمَّ] ، وقرأ الجمهور : ﴿ثُمَّ ٱئْتُوا﴾ بفتح الميم وهمزة بعد الأَلف . وقوله تعالى : [صَفًّا] حالٌ ، أَي : مُصْطَفِّين ، وتداعَوْا إلى هذا لأَنه أَهْيَب

(١) أي : سادة القوم ورؤسائهم .

وأظهر لهم . و [أَفْلَحَ] معناه : ظفر ببغيته ، و [ٱسْتَعْلَى] : طلب العُلُوَّ في أمره وسَعَى سَعْيَه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ ﴾

خيَّر السَّحرة موسى عليه السلام في أن يبتدئ بالإلقاء أو يتأخر بعدهم ، ورُوي أنهم كانوا سبعين ألف ساحر ، ورُوي أنهم كانوا ثلاثين ألفاً ، ورُوي أنهم كانوا خمسة عشر ألف، وروي أنهم كانوا تسعمائة ألف ، ثلاثمائة من الفيوم ، وثلاثمائة من الفرما ، وثلاثمائة من الإسكندرية ، وكان مع كل رجل منهم حبل وعصي قد استعمل فيها السحر .

وقوله تعالى : [فَإِذَا] هي للمفاجأة ، كما تقول : خرجتُ فإذا زيد ، وهي التي تليها الأسماءُ . وقرأت فرقة : [عصيُّهُمْ] بكسر العين ،

وقرأت فرقة بضمها ، وقرأت فرقة : [يُخَيَّلُ] على بناء الفعل للمفعول ، فقوله : [أَنَّهَا] في موضع رفع على ما لم يُسَمَّ فاعله ، وقرأ الحسن ، والثقفي : [تُخَيِّلُ] بضم التاء المنقوطة من فوق وكسر الياء وإسناد الفعل إلى الحبال والعِصِيِّ ، فقوله : [أَنَّهَا] في موضع نصب ، وقرأت فرقة : [تَخَيَّلُ] بفتح التاء والياء وإسناد الفعل إلى الحبال والعِصِيِّ ، فقوله : [أَنَّهَا] مفعول من أجله .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والظاهر من الآيات والقصص في كتب المفسرين أن الحبال والعِصِيَّ كانت تتحرَّك وتنتقل بِحِيَل السِّحر ، وبِدَسِّ الأَجسام الثقيلة الميَّاعة فيها ، وكان تحرُّكها يشبه تحرُّك الذي له إرادة كالحيوان ، وهو السَّعْي ، فإنه لا يوصف بالسَّعْي إلَّا من يمشي من الحيوان ، وذهب قوم إلى أَنها لم تتحرَّك ، ولكنهم سحروا أعين الناس وكان الناظر يُخَيَّل إليه أنها تتحرَّك وتنتقل .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والله أَعلم أَي ذلك كان .

وقوله تعالى : [فَأَوْجَسَ] عبارة عمَّا يعتري نفس الإنسان إذا وقع ظنُّه في أَمرٍ على شيءٍ يسوءُهُ ، وظاهر الأَمر كله الصلاح ، فهذا الفعل من أَفعال النفس يسمى الوجيس ، وعبَّر المفسرون عن [أَوْجَسَ]

بِأَضْمَرَ ، وهذه العبارة أعمُّ بكثير من الوجيس . و [خِيفَةً] يصح أن يكون أصلها «خِوْفَةً» فقلبت الواو ياءً للتناسُب ، ويحتمل أن يكون «خَوْفَةً» بفتح الخاءِ ، قلبت الواو ياءً ثم كسرت الخاءُ للتناسب . وخوف موسى عليه السلام إنما كان على الناس أن يضلُّوا لهول ما رأى . والأول أصوب ؛ لأنه أوجس في نفسه على الجملة وبقي ينتظر الفرج . وقوله : ﴿أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي الغالب لمن ناوأك في هذا المقام .

وقرأ جمهور القراء : [تَلَقَّفْ] بالجزم وشدّ القاف على جواب الأمر ، وقرأ ابن عامر وحده : [تَلْقَفُ] ، وهو في موضع الحال ، ويصح أن يكون من المُلْقِي على الاتساع ، ويصح أن يكون من المُلْقَى وهي العصا ، وهذه حالٌ وإن كانت لم تقع بعد ، كقوله تعالى : ﴿هَدْيًا بَالِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾(١) ، وهذا كثير ، وقرأ حفص عن عاصم : [تَلْقَفْ] بسكون الفاءِ وتخفيف القاف ، وأنَّث الفعل وهو مسند إلى ما في اليمين من حيث كانت العصا مُرادة بذلك . وروى البزي عن قنبل(٢) أنه كان يشدد الفاءَ من [تَلْقَف] ، كأنه أراد : تتلقف فأدغم ، وأنكر أبو علي هذه القراءة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويشبه أن قارئها إنما يَلْتَزِمُها في الوصل حيث يستغني عن جلب ألف .

---

(١) من الآية (٩٥) من سورة (المائدة)

(٢) في بعض النسخ ، «عن ابن كثير» .

وقرأ الجمهور : [كَيْدُ] بالرفع ، وقرأت فرقة : [كَيْدَ] بالنصب ، وهذا على أن [مَا] كافةٌ و [كَيْدَ] منصوب بـ [صَنَعُوا] ، ورفع [كَيْدُ] على أن [ما] بمعنى الذي . و [يُفْلِحُ] معناه : يظفر ببغيته ، وقالت فرقة : معناه أن الساحر يقتل حيث ثقف .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا جزءٌ من عدم الفَلَاح ، وقرأت فرقة : «أَيْنَ أَتَى» ، والمعنى فيهما متقارب .

ورُوي من قصص هذه الآية أن فرعون لعنه الله جلس في علية له طولها ثمانون ذراعاً والناسُ تحته في بسيط ، وجاءَ سبعون ألف ساحر فألقوا من حبالهم وعصيهم ما فيه وِقْر (١) ثلاثمائة بعير ، فهال الأمر ، ثم إن موسى عليه السلام ألقى عصاه من يده فاستحالت ثعباناً ، وجعلت تنمو حتى رُوي أنها عبرت النهر بذنبها ، وقيل : البحر ، وفرعون في هذا يضحك ويرى أن الاستواءَ حاصل ، ثم أقبلت تأكل الحبال والعصي حتى أفنتها ، ثم فغرت نحو فرعون ، ففزع عند ذلك وقال : يا موسى ، فمد موسى عليه السلام يده إليها فرجعت عصاً كما كانت ، فنظر السحرة وعلموا الحق ورأوا عدم الحبال والعصى فآمنوا رضي الله عنهم .

---

(١) الوِقْر : الحِمْل

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ ﴾

في خلال هذه الآية تقدير وحذف يدل عليه ظاهر القول ، فالمقدَّر من ذلك هنا : «فألقى موسى عصاه فَالْتَقَمَت كل ما جاءُوا به» ، أو نحو هذا ، وروي أن السَّحرة لما رأت العصا لا أثر فيها للسِّحر ثم رأت انقلابها حيَّةً وأكلها الحبال والعصيَّ ثم رجوعها إلى حالتها وعدم الحبال والعصي ، أيقنوا بنبوَّة موسى عليه السلام ، وأن الأمر من عند الله تعالى ، وقدّم [هَارُونَ] قبل [مُوسَى] لتستوي رءُوس الآي بنقل معنى قول السحرة ، وهذا مثل قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴾[1] ، فتأْخير [شَتَّى] إنما هو لتعتدل رءُوس الآي ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى ﴾ [2] ، فتأْخير قوله : ﴿ وَأَجَلٌ مُسَمًّى ﴾ إنما هو لتستوي رءُوس الآي.

(١) من الآية (٥٢) من هذه السورة (طه) .
(٢) الآية (١٢٩) من هذه السورة (طه) .

وقرأ ابن كثير ، وحفص عن عاصم ، وورش عن نافع : [آمَنْتُمْ] على الخبر ، وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : [أآمَنْتُمْ] بهمزة بعدها مدَّة ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم [أأمَنْتُمْ] بهمزتين . وقوله : ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ مُقاربة منه وبعضُ إذعان . وقوله : ﴿مِنْ خِلَافٍ﴾ يريد قطع اليد اليُمْني مع الرِّجْل الشمال . وقوله : ﴿فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ اتِّساع من حيث هو مربوط في الجذع ، وليست على حدِّ قولك : زيد في الدار ، ويصلح في هذا المعنى (عَلَى) من حيث هو مربوط في أعلاها ، وليست على حدِّ قولك : ركبتُ على الفرس ، وقوله : [أيُّنَا] يريد نفْسَه وربَّ موسى عليه السلام ، وقال الطبري : يريد نفْسَه وموسى عليه السلام ، والأَول أذهب مع مخرقة فرعون (١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾

قال السَّحرة لفرعون لمَّا توعَّدهم : ﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ﴾ ، أي : لن نفضِّلك ونفضِّل السلامة منك على ما رأينا من حُجَّة الله تعالى وآياته

(١) المَخْرقة : الجهل والحمق .

المبينات وعلى الذي فطرنا ، هذا على قول جماعة إن الواو في قوله : [وَٱلَّذِي] عاطفة ، وقالت فرقة : هي واو القسم ، و [فَطَرَنَا] معناه : خلقنا واخترعنا ، فافعل يا فرعون ما شئت ، وإنما قضاؤُك في هذه الحياة الدنيا ، والآخرة من وراءِ ذلك لنا بالنعيم ولك بالعذاب .

وهؤلاءِ السحرة اختلف الناس هل نفذ فيهم وعيد فرعون ؟ فقالت طائفة : صلبهم على الجذوع كما قال ، فأَصبح القوم سحرةً وأمسوا شهداءَ بلُطْف الله ورحمته ، وقالت فرقة : إن فرعون لم يفعل ذلك ، وقد كان الله تعالى قد وعد موسى عليه السلام أنه ومن معه الغالبون .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا كله محتمل ، وصَلْب السَّحرة وقَطْع أَيديهم لا يدفع في أن موسى عليه السلام ومن معه غَلَب إلَّا بظاهر العموم ، والانفصال عن ذلك بيِّن .

وقوله : ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ ، قالت فرقة : أَرادوا ما ضمهم إليه من معارضة موسى عليه السلام وحملهم عليه من ذلك ، وقالت فرقة : بل كان فرعون قديماً يأْخذ ولدان الناس بتعليم السِّحر ويجبرهم على ذلك ، فأَشار السَّحرة إلى ذلك . وقولهم : ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ ردٌّ على قوله : ﴿أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى﴾ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾

قالت فرقة : هذه الآية بِجُمْلَتها هي من كلام السَّحرة لفرعون على جهة الموعظة له والبيان فيما فعلوه ، وقالت فرقة : بل هي من كلام الله تبارك وتعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم تنبيهاً على قُبْح ما فعل فرعون ، وحُسْن ما فعل السحرة ، وموعظة وتحذيراً ، وقد تضمنت القصة المذكورة مثاله والمجرم الذي اكتسب الجرائم والخطايا .

وقوله : ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ مختصٌّ بالكافر ، فإنه معذب عذاباً ينتهي به إلى الموت ، ثم لا يُجهز عليه فيستريح ، بل يُعَادُ جِلْدُهُ ويُجَدَّدُ عذابُه ، فهو لا يحيا حياةً هنية ، وأما من يدخل النار من المؤمنين بالمعاصي فهم قبل أن تخرجهم الشفاعة في غمرة قد قاربوا الموت إلَّا أنهم لا يُجهز عليهم ولا يُجدَّد عذابهم ، فهذا فرق ما بينهم وبين الكفار ، وفي الحديث الصحيح أَنهم يموتون إماتة ، وهذا هو معناها ؛ لأَنه لا موت في الآخرة .

و «ٱلدَّرَجَاتُ ٱلْعُلَى» هي القربُ من الله تعالى ، و [تَزَكَّى] معناه : أطاع الله وأخذ بأَزْكَى الأُمور ، وتأَمّل التكسُّب في لفظة [تَزَكَّى] فإِنَّهُ بيِّن .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ ﴾

هذا استئناف إخبار عن شيء من أمر موسى ، بينه وبين مقال السحرة المتقدم مدة من الزمان حدث فيها لموسى وفرعون حوادث ، وذلك أن فرعون لما انقضى أمر السحرة وغَلَب موسى وقوي أمره ، وعَدَهُ فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل ، فأَقام موسى عليه السلام على وعده حتى غدره فرعون ونكث وأعامه أنه لا يرساهم معه ، فبعث الله تعالى حينئذ الآيات المذكورة في غير هذه الآية : الجراد والقُمَّل إلى آخرها ، وكلما جاءت آية وعد فرعون أن يرسل بني إسرائيل عند انكشاف العذاب ، فإذا انكشف العذاب نكث حتى تأْتي أُخرى ، فلمَّا كانت الآيات أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أن يخرج ببني إسرائيل من مصر في اللَّيل سارياً ، و «السُّرَى» : سير اللَّيل ،

و [أَنْ] في قوله تعالى : ﴿أَنْ أَسْرِ﴾ يجوز أن تكون مفسِّرة لا موضع لها من الإعراب ، كقوله تعالى : ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا﴾ (١)، ويجوز أن تكون الناصبة للأفعال ، وتكون في موضع نصب بـ [أَوْحَيْنَا] . وقوله : [بِعِبَادِي] إضافة تشريف لبني إسرائيل ، وكل الخلق عباد الله ، ولكن هذا كقوله تعالى : ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ (٢) .

وروي في قصص هذه الآية أن بني إسرائيل لمَّا أشعرهم موسى عليه السلام بليلة الخروج استعاروا من معارفهم من القبط حليًّا وثياباً ، ويروى أن موسى عليه السلام أذن لهم في ذلك وقال لهم : إنَّ الله سينفلكموها ، ويروى أنهم فعلوا ذلك دون رأيه ، وهو الأشبه به صلى الله عليه وسلم ، وسيأتي في جمع الحليِّ ما يؤيد ذلك . ويروى أن بني إسرائيل عجنوا زادهم ليلة سراهم ووضعوه ليختمر ، فأعجلهم موسى عليه السلام في الخروج ، فطبخوه فطيراً ، فهي سُنَّتهم في ذلك الوقت من العام إلى هلُمَّ ، ويُروى أن موسى عليه السلام نهض ببني إسرائيل وهم ستمائة ألف إنسان ، فسار بهم من مصر يريد بحر القلزم ، فاتصل الخبر بفرعون ، فجمع جنوده وحشرهم ونهض وراءه ، فأوحى الله إلى موسى أن يقصد البحر ، فجزع بنو إسرائيل ، رأوا أن العدو من ورائهم والبحر أمامهم ، وموسى عليه السلام يثق

(١) من الآية (٦) من سورة (ص) .

(٢) من الآية (٢٩) من سورة (الحجر) وتكررت في الآية (٧٢) من سورة (ص) .

بصنع الله تعالى ، فلما رآهم فرعون قد نهضوا نحو البحر طمع فيهم ، وكان مقصدهم إلى موضع تنقطع فيه الفحوص [١] والطرق الواسعة . واختلف الناس في عدد جنود فرعون ـ فقيل : كان في خيله سبعون ألف أدهم ، ونسبة ذلك من سائر الألوان ، وقيل أكثر من هذا مما اختصرته لقلّة صحته ، فلما وصل موسى إلى البحر وقارب فرعون لحاقه وقوي فزع بني إسرائيل أوحى الله تبارك وتعالى إلى موسى عليه السلام أن اضرب بعصاك البحر ، ويُروى أن الوحي إليه بذلك كان متقدماً بمصر ، وهو ظاهر الآية ، ويروى أنه إنما أُوحي إليه بذلك في موطن وقوعه ، واتصل الكلام في هذه الآية على جهة وصف الحال وضم بعض الأمور إلى بعض ، فضرب موسى عليه السلام البحر فانفرق اثنتي عشرة فرقة ، طُرُقاً واسعة بينها حيطان ماءٍ واقف ، فدخل موسى عليه السلام بعد أن بعث الله تعالى ريح الصَّبا فجففت تلك الطرق حتى يبست ، ودخل بنو إسرائيل ، ووصل فرعون إلى المدخل وبنو إسرائيل كلهم في البحر ، فرأى الماء على تلك الحال ، فجزع قومه واستعظموا الأمر ، فقال لهم لعنه الله : إنما انفلق من هيبتي ، وها هنا كمل إضلاله لهم ، وحمله الله على الدخول ، وجاء جبريل عليه السلام راكباً على فرس أُنثى فاتّبعها فرس فرعون ، وتابعه الناس حتى تكاملوا في البحر فانطبق عليهم ، وسمع بنو إسرائيل

---

(١) فَحَصَ الأرض : حفرها .

انطباق الماء وهم قد خرجوا بأجمعهم من البحر فعجبوا ، فأخبرهم موسى عليه السلام أن فرعون وقومه قد هلكوا فيه ، فطلبوا مصداق ذلك فلفظ البحر الناس ، وألقى الله تعالى فرعون على نجوة من الأرض بِدرْعه المعروفة له .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فهذا اختصار قصص هذه الآية بحسب ألفاظها ، وقد مضى أمر فرعون بأوعب من هذا في موضع اقتضاه .

وقوله تعالى : [يَبَساً] مصدر وصف به ، وقرأ بعض الناس : «يابساً» ، وأشار إلى ذكره الزجاج ، وقرأ حمزة وحده : ﴿لَا تَخَفْ﴾ إمَّا على جواب الأمر ، وإمَّا على نَهْي مستأْنف ، وقرأ الجمهور: ﴿لَا تَخَافُ﴾ على أن يكون حالاً من موسى عليه السلام ، ويحتمل أن يكون صفة للطريق على تقدير : لا تخاف فيه ، أي يكون بهذه الصفة ، ومعنى هذا القول : لا تخاف دركاً (١) من فرعون وجنوده ، ولا تخشى غرقاً من البحر . وقرأ أبو عمرو — فيما رُوي عنه — : [فَاتَّبَعَهُمْ] بشدِّ التَّاء ، وتَبِـع واتَّبع إنما يتعدى إلى مفعول واحد ، كقولك : شويت واشتويت ، وفديتُ وافتديت ، وحفرت واحتفرت . وقوله : [بِجُنُوده] ، إمَّا أن تكون الباءُ مع ما جُرَّ بها في موضع الحال ، كما تقول : خرج زيد بسلاحه ، وإمَّا أن يكون لتعدي الفعل إلى مفعول

(١) الدَّرَكُ والدَّرْك : اسْمان من الإدراك ، وقد قرئ أيضاً بسكون الدال كما قرئ بفتحها .

ثانٍ إذْ لا يتعدى دون حرف جرٍّ إلَّا إلى واحد . وقرأ الجمهور : [فَأَتْبَعَهُمْ] بسكون التاء . وهذا يتعدى إلى مفعولين ، فالباءُ ـ على هذا ـ إمَّا زائدة ، والتقدير : فأَتْبعهم فرعونُ جنودَه ، وإمَّا أن تكون باءَ الحال ، ويكون المفعول الثاني مقدراً ، كأَنك قلت : رُؤَساءه أَو عزمه ، ونحو هذا ، والأَول أَظهر (١) . وقرأَت فرقة : [فَغَشِيَهُمْ] ، وقرأَت فرقة : ﴿ فَغَشَّاهُمُ ٱللَّهُ ﴾ . وقوله : ﴿ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ إيهامٌ أَهْوَلُ من النَّصِّ على قَدْرٍ مَّا . وهذا كقوله تعالى : ﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴾(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ ﴾ يريد : من أول أمره إلى هذه النهاية ، ثم أَكَّد تعالى بقوله : ﴿ وَمَا هَدَى ﴾ مقابلة لقول فرعون لعنه الله : ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾(٣) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَـٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَـٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾

(١) وأَتْبَع ـ بسكون التاء ـ قد يكون بمعنى (تَبِعَ) فيتعدى إلى واحد فقط ، كقوله تبارك وتعالى : ﴿ فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ﴾ .

(٢) الآية (١٦) من سورة (النجم) .

(٣) من الآية (٢٩) من سورة (غافر) .

ظاهر هذه الآيات أن هذا القول قيل لبني إسرائيل حينئذ عند حلول هذه النِّعم التي عددها الله تعالى عليهم ، وبَيْن خروجهم من البحر وبيْن هذه المقالة مُدَّةٌ وحوادث ، ولكن يخص الله بالذكر ما يشاءُ من ذلك . ويحتمل أن تكون هذه المقالة خوطب بها مُعَاصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالمعنى : هذا فعلنا بأسلافكم ، ويكون قوله سبحانه [كُلُوا] بتقدير : قيل لهم : كُلُوا ، وتكون الآية – على هذا – اعتراضاً في أثناءِ قصة موسى عليه السلام القَصْدُ به توبيخ هؤلاءِ الحضور إذْ لم يصبر سَلَفهم على أداءِ شكر نعم الله تبارك وتعالى ، والمعنى الأول أظهر وأبْين .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وأبو عمرو : ﴿أَنْجَيْنَا – وَوَاعَدْنَا – وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمْ – وَرَزَقْنَاكُمْ﴾ ، إلَّا أن أَبا عمرٍو قرأَ : [وَعَدْنَاكُمْ] بغير ألف في كل القرآن (١) ، وقرأَ حمزة ، والكسائي : ﴿أَنْجَيْتُ – وَوَاعَدْتُ – وَنَزَّلْتُ – وَرَزَقْتُكُمْ﴾ . وقوله : [وَوَاعَدْنَاكُمْ] قيل : هي لغةٌ في (وَعَدَ) لا تقتضي فعْل اثنين .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وإن حُمِلَتْ على المعهود فَلِأَنَّ التَّلَقِّي والعهد والعزم على ذلك يقوم مقام المُوَاعَدَة .

---

(١) اختار أبو عبيد هذه القراءة ؛ لأن الوَعْد إنما هو من الله تعالى لموسى خاصة ، و « المُوَاعَدَةُ » لا تكون إلا من اثنين ، وابن عطية يردُّ على هذا حين ينقل عن بعضهم أن (وَاعَدَ) لغة في (وَعَدَ) ، وحين يقول : إن التَّلَقِّي والعزم على العهد يقوم مقام المواعدة .

وقصص هذه الآية أن الله تعالى لمَّا أنْجَى بني إسرائيل ، وَغَرِقَ فرعونُ ، وَعَدَ سبحانه وتعالى بني إسرائيل وموسى عليه السلام أن يسيروا إلى جانب طور سيناء ليكلِّم فيه موسى ويناجيه بما فيه صلاحهم بأوامرهم ونواهيهم . فلمَّا أخذوا في السَّيْر تعجَّل موسى عليه السلام لِلِقَاءِ ربِّه حسبما يأتي ذكرُه بعد .

وقالت فرقة : هذا الطُّور الذي كلَّم الله تعالى فيه موسى أوَّلاً حيث رأى النَّار وكان في طريقه من الشام إلى مصر ، وقالت فرقة : ليْس به ، و «الطُّور» : الجبل الذي لا شَعْرَاءَ فيه (١)، وقوله : [ٱلْأَيْمَنَ] إمَّا أن يريد به اليُمْن ، وإمَّا أن يريد به اليمين فالإضافة إلى «ذي يَمين» ، إنْسان أو غيره . و «ٱلْمَنُّ وٱلسَّلْوَى» طعامهم ، وقد مضى في سورة البقرة استيعاب تفسيرهما .

وقوله تعالى : ﴿مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ يريد الحلال المِلْكَ ؛ لأن المعنى في هذا الموضع قد جمعهما ، واختلف الناسُ ما المقصود الأول بلفظ «ٱلطَّيِّب» في القرآن ــ فقال مالك رحمه الله : الحلال ، وقال الشافعي رحمه الله : ما يطيب للنفوس . وساق إلى هذا الخلاف تَفَقُّههم في الخَشَاش(٢) والمستقذر من الحيوان .

---

(١) الشَّعْرَاءُ : الأرض أو الروضة الكثيرة الشجر . (المعجم الوسيط) .

(٢) الخَشَاش : حشرات الأرض ، وفي الحديث الشريف : (دخلت امرأة النار في هرة حبستها ، فلا هي أطعمتها ، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض) .

وقوله تعالى : ﴿تَطْغَوْا فِيهِ﴾ معناه : تتعدون الحدَّ وتَتَعَسَّفُونَ كالذي فعلوا . وقرأ جمهور الناس : [فَيَحِلَّ] بكسر الحاءِ . و [يَحْلِلْ] بكسر اللام . وقرأ الكسائي وحده (١) : [فَيَحُلَّ] بضم الحاءِ ، و [يَحْلُلْ] بضم اللام . ومعنى الأول : فيجب ويحقُّ . ومعنى الثاني : فيقع وينْزِل . وقوله تعالى : ﴿فَقَدْ هَوَى﴾ معناه : سقط من عُلُوٌّ إلى سُفْل ، ومنه قول خُنَافر :

« فَهَوَى هُوِيَّ ٱلْعُقَاب » (٢)

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وإن لم يكن سقوطاً فهو تشبيه بالسَّاقط ، والسُّقوط حقيقة قول الآخر :

. . . . هَوِيَّ الدَّلْوِ أَرْسَلَهُ الرِّشَـاءُ (٣)

(١) لعله يريد : من السبعة ، فقد ذكرت كتب التفسير أنها أيضاً قراءة قتادة ، وأبي حيوة ، والأعمش ، وطلحة .

(٢) قال الصاغاني : خُنَافر مثل عُلابط اسم رجل كاهن ، هو خنافر بن التَّوأم الحميري ، وفي اللسان « هَوَى بالفتح يَهْوِي هَوِيّاً وهُوِيّاً : سقط من فوق إلى أسفل . وهوت العُقاب تَهْوِي هُوِيّاً إذا انقضت على صَيْد أو غيره ما لَمْ تُرِغْه . فإذا أراغته قيل : أَهْوَتْ له إهواءً . قال زهير :

أَهْوَى لَهَا أَسْفَعُ الخَدَّيْن مُطَّـرِقٌ ... رِيشُ الْقَوَادِمِ لَمْ يُنْصَبْ لَهُ الشَّبَكُ

والإرَاغَة أن يذهب الصيد هكذا وهكذا والعُقَابَ تتَبَّعه » . والشاهد أن الهُوِيّ والهَوِيّ هو السقوط من أعلى إلى أسفل .

(٣) هذا عجز بيت . ذكره صاحب اللسان في (هَوَى) شاهداً على أن الـهَوِيّ بفتح الهاء إلى أسفل ، وبضمها إلى فوق ، يقال : هَوَى هَوِيّاً بالفتح إذا هبط ، وهَوَى هُوِيّاً =

وشبَّه الذي يقع في طامَّة أو ورطة بعد أن كان بنجوة منها بالساقط ، فالآية من هذا . أي : هوى في جهنم وفي سخط الله ، وقيل : أُخذ الفعل من الهاوية وهي قعر جهنم .

ولما حذَّر الله تبارك وتعالى غضبه والطُّغيانَ في نعمه فَتَح باب الرَّجاء للتَّائبين . والتوبة فرضٌ على جميع الناس لقوله تعالى في سورة النور : ﴿وَتُوبُوا إِلَى ٱللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ (١) . والناس فيها على مراتب : أمَّا مُواقع الذَّنب وقدرته على ذلك باقية فتوبتُه النَّدمُ على ما مَضَى والإقلاع التَّام عن مثله في المستقبل . وأمَّا الذي واقَعَ الذَّنب ثمَّ زالت قُدرته على ذلك ممَّن شَيَّخَ أو بآفة فتوبته النَّدم واعتقاد التَّرك إن لو كانت قُدرة . وأمَّا من لم يُواقع ذنباً فتوبته العزم على ترك كل ذنب ، والتوبةُ من ذنب تصحُّ مع الإقامة على غيره ، وهي توبة مقيَّدة ، وإذا تاب العبد ثم عاود الذَّنب بعينه بعد مُدَّة فيحتمل عند حُذَّاق أهل السُّنَّة ألَّا يعيد الله تعالى عليه الذَّنب الأوَّل ؛ لأَن التَّوبة قد كانت محضة . ويحتمل أن يعيده لأنها توبة لم يُوَفِّ بها .

= بالضم إذا صعد، ثم استشهد به مرة أخرى على أن الهُوِيّ بالضم هو العَدْوُ السريع ، يقال : هَوَت الناقة هُوِيّاً إذا عَدَتْ عدْواً شديداً أرفع العَدْوِ ، والبيت بتمامه :

فَشَدَّ بها الأماعِزَ وَهْيَ تَهْوِي هُوِيَّ الدَّلْوِ أَرْسَلَهُ الرِّشاءُ

ويروى : أسْلَمها الرِّشاءُ ، وهي رواية اللسان ، والرِّشاءُ : حبل الدَّلو الذي يحمله إلى أسفل وإلى أعلى . والدَّلْوُ تُذَكَّر وتُؤَنَّث ، والتأنيث أعلى وأكثر . هذا ولم ينسب صاحب اللسان البيت لأحد .

(١) من الآية (٣١) من سورة (النور) .

واضطرب الناس في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ من حيث وجدوا الهُدى ضِمْن الإيمان والعمل – فقالت فرقة : معناه : ثُمَّ لزم الإسلام حتَّى يموت عليه ، وقالت فرقة : معناه : لم يشك في إيمانه ، وقالت فرقة : معناه : ثم استقام ، وقالت فرقة : ثم أَخذ بِسُنَّة نبيِّه صلى الله عليه وسلم ، وقالت فرقة : معناه : ثم أَصاب العمل ، وقالت فرقة : معناه : ثمَّ عرف أَمر مَشيبه ، وقالت فرقة : معناه : وَالَى أَهل البيت .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذه كلها تخصيص واحد منها دون ما هو من نوعه بعيدٌ ليس بالقوي ، والذي يقوى في معنى ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ أَن يكون : ثم حفظ معتقداته من أَن يخالف الحق في شيءٍ من الأَشياء ، فإن الاهتداء – على هذا الوجه – غير الإيمان وغير العمل . ورُبَّ مؤمن عمل صالحاً قد أَوبقه عدم الاهتداءِ كالقدرية والمُرْجئة وسائر أَهل البِدع والخوارج . فمعنى ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ : ثُمَّ مَشَى في عقائد الشَّرع على طريق قويم ، جعلنا الله تعالى منهم .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وفي حفظ المعتقدات ينحصر عُظْم أَمر الشَّرع .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ * وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا ﴾

قصص هذه الآية أَن موسى عليه السلام لمَّا شرع في النُّهوض ببني إسرائيل إلى جانب الطُّور الأَيمن حيث كان الموعد أَن يكلم اللهُ موسى بما فيه لهم شرف العاجل والآجل . رأَى — على جهة الاجتهاد — أَن يتقدم وحده مبادرةً إلى الله عزَّ وجلَّ ، وحرصاً على القرب ، وشوقاً إلى مناجاته . واستخلف هارون عليه السلام على بني إسرائيل ، وقال لهم موسى عليه السلام : تسيرون إلى جانب الطُّور ، فلمَّا انتهى موسى عليه السلام وناجى ربه ، زاده في الأَجل عَشْراً ، وحينئذ وقفه على معنى استعجاله دون القيام ليخبره موسى أَنهم على الأَثر فيقع الإعلام له بما صنعوا .

وقرأَت فرقة : [أُولَايِ] ، وقرأَت فرقة أُخرى : [أُولَايَ] بفتح الياءِ (١) ، وقوله : ﴿ عَلَىٰٓ أَثَرِي ﴾ يحتمل أَن يكون في موضع رفع خبراً

(١) حكى ذلك الفراء ، وقال الزجاج : إنَّ هذا لا وَجْه له . قال النحاس : وهو كما قال ؛ لأن هذا ليس مما يضاف فيكون مثل هُدايَ ، ولا يخلو من إحدى جهتين : إما أن يكون مبهماً فإضافته محال ، وإما أن يكون بمعنى الذين فلا يضاف أيضاً ؛ لأن ما بعده من تمامه وهو معرفة .
هذا وأهل الحجاز يقولون : « أُولاءِ » ممدودة ، وبنو تميم يقولون : « هُمْ أُولى » مقصورةً مرسلة . حكى ذلك عيسى .

بعد خبر ، ويحتمل أن يكون في موضع نصب على الحال . وقرأت فرقة : ﴿ عَلَى أَثَرِي ﴾ بفتح الهمزة والثاء . وقرأت فرقة : ﴿ عَلَى إِثْرِي ﴾ بكسر الهمزة وسكون الثاء .

وأعلمه موسى عليه السلام أنه إنما استعجل طلب الرِّضا ، فأعلمه الله تعالى أنه قد فَتَن بني إسرائيل ، أي اختبرهم بما صنع السَّامري ، ويحتمل أن يريد : ألقيناهم في فتنة ، أي في مَيْل مع الشهوات ، ووقوع في اختلاف كلمة ، وقوله : ﴿ مِنْ بَعْدِكَ ﴾ أي من بعد فراقك لهم . وقرأت فرقة : ﴿ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴾ بإسناد الفعل إلى السَّامري ، وقرأت فرقة : ﴿ وَأَضَلُّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴾ بضم اللام على الابتداء والخبر عن السَّامريِّ أنه أَضَلُّ القوم .

و «ٱلسَّامِرِيُّ» رجلٌ من بني إسرائيل ، ويقال : إنه كان ابن خال موسى عليه السلام ، وقالت فرقة : لم يكن من بني إسرائيل ، بل كان أَصْله من العجم من أهل كرمان ، والأَول أَصح ، وكان من قصص السَّامري أنه كان منافقاً عنده حِيَلٌ وسحرٌ ، وقبض القبضة من أثر جبريل عليه السلام ، وعلم بما أقدره الله عليه لِفِتْنَة القوم أنه يتهيَّأُ له بتلك القبضة ما يريد مما يجوز على الله تعالى ، لأَنه لو ادَّعى النبوَّة مع ذلك العجل لما صحَّ ولا جاز أن يجوز ولا أن تتم الحيلة فيه . لكنه لمَّا ادَّعى له الربوبية وعلامات كذِبه قائمة لائحة صحت الفتنة به وجاز ذلك على الله تعالى ، كقصة الدَّجَّال الذي تخرق له العادات

لأَنَّه مدعي الربوبية ، ولو كان مدعي النبوة لما صحَّ شيءٌ من ذلك . فلمّا رأى السامري موسى قد غاب ورأى بقية بني إسرائيل في طابهم من موسى آلهة حين مرُّوا على قوم يعبدون أصناماً على صفة البقر ــ وقيل : كانت بقراً حقيقة ــ علم أنه سيفتنهم من هذا الطريق ، فيروى أنه قال لهم : إنَّ الحليَّ الذي عندكم من مال القبط قبيح بكم حَبْسُه ، ولكن اجمعوه عندي حتى يحكم الله لكم فيه ، ويروى أن هارون عليه السلام أمر بجمعه ووضعه في حفرة حتى يجيء موسى ويستأْذن فيه ربَّه . وقيل : بل كان المال الذي جمعوه للسَّامري مِمَّا لَفَظَ البحرُ من أموال القبط الغارقين مع فرعون ، فيروى ــ مع هذا الاختلاف ــ أن الحليَّ اجتمع عند السَّامري، وأنه صنع العجل وألقى القبضة فيه فَخَار . ورُوي ــ وهو الأصحُّ والأكثر ــ أنه ألقى الناس الحلي في حفرة أو نحوها . وألقى هو عليها القبضة فتجسَّد العجل . وهذا هو وجْه فتنة الله تعالى لهم . وعلى هذا نقول : انخرقت للسَّامريِّ عادة . وأما على أن يصوغه فلم ينخرق له عادة . وإنما فُتنوا حينئذ بِخُواره فقط ، وذلك الصوت قد يولد في الأجرام بالصنعة ، فلما أخبر الله تعالى موسى عليه السلام بما وقع رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً عليهم من حيث له قدرة على تغيير منكرهم .

وقوله : [أسِفاً] أي حزيناً ، من حيث علم أنه موضع عقوبة لا يَدَ له بِدَفْعها ، ولابُدَّ منها ، و «الأَسَفُ» في كلام العرب متى كان

من ذي قدرة على من دونه فهو غضب ، ومتى كان من الأَقل على الأَقوى فهو حُزْن ، وتأَمَّل ذلك فهو مُطَّرد إن شاءَ الله .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ﴾

وبَّخ موسى عليه السلام قومه بهذه المقالة ، و «ٱلْوَعْدُ ٱلْحَسَن» هو ما وعدهم من الوصول إلى جانب الطُّور الأَيمن ، وما بعد ذلك من الفُتوح في الأَرض ، والمغفرة لمن تاب وآمن ، وغير ذلك مِمَّا وَعَدَ الله به أَهل طاعته . وقوله : [وَعْداً] إمَّا أَن يكون نصباً على المصدر والمفعول الثاني مُقَدَّر ، وإمَّا أَن يكون بمعنى الموعود ويكون هو المفعول الثاني بعينه .

ثم وقفهم على أَعذارٍ لم تكن ولا تصحُّ لهم ، وهي طول العهد حتى يتبيَّن لهم خلف في الموعد ، وإرادة غضب الله تعالى ، وذلك كلُّه لم يكن ولكنهم عملوا عمل من لم يتديَّن . وسُمِّي العذاب غضباً من حيث هو ناشئٌ عن الغضب ، والغضبُ إنْ جُعل بمعنى الإرادة فهو

صفةُ ذات ، وإن جُعل ظهور النقمة والعقاب فهو صفة فعل ، فهو من التردد بين الحالين .

وقرأ نافع ، وعاصمٌ : [بِمَلْكِنَا] بفتح الميم ، وقرأ حمزة ، والكسائي : [بِمُلْكِنَا] بضمها ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر : [بِمِلْكِنَا] بكسرها ، قال أبو علي : هذه لغات .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ظاهر الكلام أنها بمعنى واحد ، ولكن أبا علي — وغيره — فرّق بين معانيها ، فأمّا ضم الميم فمعناه — على قول أبي علي — لم يكن لنا مُلْك فتُخلف موعدك بقوته وسلطانه ، وإنما أخلفناه بنظر أدّى إليه ما فعل السّامري ، وليس المعنى أن لهم مُلْكاً ، وإنما هو كقول ذي الرُّمّة :

لا يُشْتَكَى سَقْطَةٌ مِنْهَا وَقَدْ رَقَصَتْ بها المَفَاوِزُ حَتَّى ظَهْرُهَا حدِبُ(١)

أي : لا يكون منها سَقْطَةٌ فَتُشْتَكَى ، قال : وهذا كقوله تعالى :

(١) البيت من قصيدته التي مطلعها : «ما بالُ عينِكَ منها الماءُ ينسكِبُ» ، والتي اختارها أبو زيد القرشي ضمن المُلْحَمات السبع في الجمهرة ، والسقطة : السقوط والعثرة . والمفاوز : جمع مفازة وهي الصحراء التي لا ماء فيها ، قالوا : إذا عبرها الإنسان فقد فاز ، والحَدَبُ : خروج الظهر ودخول البطن والصدر ، والبيت في وصف ناقته ، وهو ضمن أبيات طويلة تكلم فيها عن ناقته التي صحبته في سيره الطويل بالصحراء ، والشاهد أن النفي في البيت منصب على السقوط فلا تكون هناك شكوى ، كما أن النفي في الآية الكريمة منصب على السؤال فلا يكون هناك إلحاف. هكذا قال الزجاج وتبعه أبو علي ، لكن ابن عطية لا يقبل هذا الفهم ، وقد شرحه في سورة البقرة عند تفسير قوله تعالى : ﴿لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إلْحَافاً﴾ .

﴿لَا يَسْأَلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافاً﴾(١) ، أي : ليس منهم سؤال فيكون منهم إلْحاف .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا كلُّه في هذه الأَمثلة غير متقن من قول أبي علي ، وإنما مشى في ذلك على أَثر الزجاج دون تعقب ، وقد شرحتُ هذا المعنى في سورة البقرة في قوله تعالى : ﴿لَا يَسْأَلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافاً﴾ . وتبين أَن هذه الآية ليست كهذه الأَمثلة لأَنهم لم يرفعوا الاختلاف ، والأَمثلة فيها رفع الوجهين (٢) .

وأَمَّا فتح الميم فهو مصدرٌ من مَلَكَ ، والمعنى : ما فعلنا ذلك بأَنَّا ملكنا الصَّواب ولا وُفِّقْنَا له ، وإنما غَلَبتنا أَنفسنا .

---

(١) من الآية (٢٧٣) من سورة (البقرة) .

(٢) راجع الجزء الثاني ص ٤٧٤ وما بعدها . وخلاصة الكلام الذي هناك أن الزجاج يقول : « لا يكون منهم سؤال فلا يكون إلحاف . وهذا كما قال امرؤ القيس :

عَلَى لاحِبٍ لا يُهْتَدَى بِمَنَارِه إذَا سَافَهَ العَوْدُ النَّبَاطيُّ جَرْجَرَا

وقول زهير :

قِفْ بالطُّلول التي لَمْ يُعْفِهَا الْقِدَمُ بَلَى ، وَغَيَّرَهَا الأَرْوَاحُ والدِّيَمُ

بمعنى أنه ليس هناك منارٌ فلا يكون هناك اهتداء ، وليس هناك قِدَم فلا يكون هناك عَفَاء » . وعلّق ابن عطية على ذلك بأنه إذا أراد الزجاج أنه لا يكون منهم سؤال البتَّة فهذا لا تعطيه ألفاظ الآية . وأن المعنى في بيت امرئ القيس أنه لا يُهتدى بالمنار وإن كان المنار موجوداً وفي بيت زهير ينتفي العَفَاء وإن وُجِد القِدَمُ ... » لأن نفي الإلحاف لا ينفي السؤال . والشعر المذكور ينتفي فيه الأمر الأول لعدم وجود الثاني . وراجع أيضاً تعليقنا رقم (٢) ص ٤٧٢ من نفس الجزء .

وأمَّا كسر الميم فقد كثر استعماله فيما تحوزه اليد ، ولكنه يستعمل في الأُمور التي يُبْرمها الإنسان ، ومعناها كمعنى التي قبلها ، والمصدر مضاف في الوجهين إلى الفاعل ، والمفعول مُقَدَّر ، أي : بِمَلْكِنا الصواب ، وهذا كما قد يضاف أحياناً إلى المفعول والفاعلُ مُقَدَّر ، كقوله تعالى : ﴿ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ﴾(١) ، وقوله تعالى : ﴿ مِنْ دُعَاءِ ٱلْخَيْرِ ﴾(٢).

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : [حُمِّلْنَا] بضم الحاء وشدِّ الميم ، وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : [حَمَلْنَا] بفتح الحاء والميم (٣) . و «ٱلْأَوْزَارُ» : الأثقال ، ويحتمل أن تكون هذه التسمية من حيث هي ثقيلة الأَجرام ، ويحتمل أن تكون من حيث تأَثَّمُوا في قذفها وظهر لهم أن ذلك هو الحق فكانت آثاماً لمن حملها . وقوله : ﴿ فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴾ أي : فكما قذفنا نحن فكذلك أَلقى السَّامريُّ ما كان بيده .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذه الأَلفاظ تقتضي أَن العِجْل لم يصفه السَّامري .

---

(١) من الآية (٢٤) من سورة (ص) .

(٢) من قوله تعالى في الآية (٤٩) من سورة (فصلت) : ﴿ لا يَسْأَمُ الإنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ ٱلْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴾ .

(٣) قال ابن خالويه : « الحجة لمن شدَّد أنه جعل الفعل لما لم يُسَمَّ فاعله ، ودلَّ عليه بضم أوله ، وكان أصله : ولكنا حمَّلْنا السامريَّ ، فلما حُذِل الفاعل أُقيم المفعول مقامه ، فرُفع ؛ لأن الفعل الذي كان حديثاً عن الفاعل صار عن المفعول فارتفع . والحجة لمن خَفَّف أنه أرادهم بالفعل ، وجعل النون والألف المتصلين به في موضع رفع » ، أي : على أنه فاعل .

ثم أَخبر الله تعالى عن فعل السامريِّ بقوله : ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَداً﴾ ، ومعنى [جَسَداً] أَي شَخْصاً لا روح فيه ، وقيل : معنى [جَسَداً] : لا يتغذَّى ، و «الْخُوَارُ» : صوتُ البقر ، وقالت فرقة : كان هذا العجل يخور ويمشي .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهكذا تكون الفتنة من قِبَل الله تعالى ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، وقالت فرقة : إنما خارَ مرَّة واحدة ثم لم يعد ، وقالت فرقة : إنما كان خواره بالرِّيح ، كانت تدخل من دُبره وتخرج من فمه فيصوت لذلك .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾

الضمير في قوله : [فَقَالُوا] لبني إسرائيل ، أي : ضلُّوا حين قال كبارهم لصغارهم ، و [هَذَا] إشارة إلى العجل ، وقوله تعالى : [فَنَسِيَ]

يحتمل أَن يكون من كلام بني إسرائيل ، أَي : فنسي موسى عليه السلام ربَّه وإلٰهه وذهب يطلبه في غير موضعه ، ويحتمل أَن يكون [فَنَسِيَ] إخباراً من الله تعالى عن السَّامري أَنَّه نسي دينه وطريق الحق .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فالنسيان في التـأْويل الأَول (١) بمعنى الذُّهول ، وفي الثاني بمعنى الترك .

ثم قرن الله تعالى موضع خطابهم بقوله : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ ﴾ ، والمعنى : أَفَلَم يتبيَّن هؤلاءِ الذين ضلُّوا أَن هذا العجل إنما هو جماد لا يتكلم ولا يرجع قولاً ولا يضر ولا ينفع ؟ وهذه خلال لا يخفى معها الحدوث والعجز ؛ لأَن هذه الخلال لو حصلت له أَوجبت كونه إلٰهاً . وقرأَت فرقة : ﴿ أَلَّا يَرْجِـعُ ﴾ بضم العين ، و [أَنْ] - على هذه القراءَة - مخففة من الثقيلة ، والتقدير : أَنه لا يرجع ، وقرأَت فرقة : ﴿ أَلَّا يَرْجِـعَ ﴾ (٢) ، و [أَنْ] - على هذه القراءَة - هي الناصبة ، .

وأَخبر عزَّ وجلَّ أَن هارون عليه السلام قد كان قال لهم في أَول حال العجل : إنما هو فتنة وبلاءٌ وتمويه من السَّامري ، وإن ربكم الرَّحْمٰنُ الذي له القدرةُ والعِلْم والخَلْق والاختراع ، فاتَّبعوني إلى الطُّور الذي

(١) في بعض النسخ : « في هذا التأويل » .

(٢) أي : بالنصب ، والرؤية في قراءة النصب بصرية ، أما على قراءة الرفع فهي بمعنى العلم والظن .

واعدكم الله تعالى إليه ، وأطيعوا أمري فيما ذكرته لكم . وقرأت فرقة : [إنَّمَا] ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ بكسر الهمزتين ، وقرأت فرقة : [أَنَّمَا] [وَأَنَّ] بفتح الهمزة ، وقرأت فرقة : [إنَّمَا] بالكسر و [أَنَّ] بالفتح ، والقراءة الوسطى ضعيفة .

فقال بنو إسرائيل حين وعظهم هارون عليه السلام ونَدَبهم إلى الحق : لن نبرح عابدين لهذا الإله ، عاكفين عليه ، أي : ملازمين له ، و «العكوف» : الانحناءُ على الشيء من شدة ملازمته ، ومنه قول الراجز :

* عَكْفَ النَّبِيـــطِ يَلْعَبُونَ الفَنْزَجَا * (١)

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ ﴾

(١) البيت للعجاج يصف ثوراً ، وهو في اللسان (عكف – فنزج) ، قال : «عكف على الشيء يعكُف ويعكِف عكْفاً وعكوفاً : أقبل عليه مواظباً لا يصرف عنه وجهه ، وقيل : أقام ... قال العجاج يصف ثوراً :

فَهُنَّ يَعْكُفْنَ بِهِ إذَا حَجَا
عَكْفَ النَّبِيطِ يَلْعَبُونَ الفَنْزَجَا

أيْ : يُقْبِلْنَ عَلَيْه» . والنَّبيط : جيل ينزلون السواد ، وهم الأنباط . والفَنْزَجَةُ : النَّزَوان ، وقيل : هو رقص المجوس ، وفي الصحاح : رقْصُ العجم إذا أخذ بعضهم يد بعض وهم يرقصون ، ثم استشهد بهذا البيت من الرجز .

في سرد القصص اقتضاب يدل عليه ما ذُكر تقديره : فرجع موسى عليه السلام فوجد الأَمر كما ذكر الله تعالى له ، فجعل يؤنب هارون بهذه المقالة . وقرأ الجمهور : ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ بحذف الياءِ ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو بإثباتها في الوصل ، ويقف ابن كثير بالياءِ وأَبو عمرو بغير الياءِ ، ويحتمل قوله : ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ أي ببني إسرائيل نحو جبل الطُّور ، فيجيءُ اعتذار هارون عليه السلام بمعنى : إني لو فعلت ذلك مشت معي طائفة وأَقامت طائفة على عبادة العجل ، فتفرق الجمع ، فخفْتُ لومك على التفريق . ويحتمل قوله : ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ أي أَلَّا تسير بسيرتي وعلى طريقتي في الإِصلاح والتسديد ، فيجيءُ اعتذار هارون عليه السلام بمعنى : إنَّ الأَمر كان متفاقماً ، فلو تقويت عليه وقع القتال واختلاف الكلمة فكان تفريقاً بين بني إسرائيل ، وإنما لايَنْتُ جهدي .

وقوله : ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ بمعنى : ما منعك أَن تتبعني ، واختلف الناس في وجه دخول [لَا] – فقالت فرقة : هي زائدة ، وذهب حذاق النحاة إلى أَنها مؤكدة ، وأَن في الكلام فِعْلاً مقدراً ، كأَنه قال : ما منعك ذلك ، أَو خصك ، أَو نحو هذا على أَلاَّ تتبعني ؟ وما قبْل وما بعْد يدل على هذا ويقتضيه .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وحفص عن عاصم : ﴿يَابْنَ أُمَّ﴾ ، فيحتمل أن يريد : «يابْنَ أُمَّا» فحذف الألف تخفيفاً . ويحتمل أن يجعل الاسمين اسماً واحداً وبناه كخمسة عشر ، وقرأ أبو بكر عن عاصم ، وحمزة ، والكسائي : ﴿يَابْنَ أُمِّ﴾ بالكسر على حذف الياءِ تخفيفاً ، وهو شاذٌّ لأَنها ليست كالياءِ في قولك : يا غلامي ، وإنما هي كالياءِ في قولك : ياغلامَ غلامي ، وهذه ياءٌ لا تحذف(١) ، ويحتمل أَن يجعل الاسمين اسماً واحداً ثم أَضاف إلى نفسه فحذف الياءَ كما تحذف من الأَسماءِ المفردة إذا أُضيفت نحو يا غلام ، وقالت فرقة : لم يكن هارون أَخا موسى عليهما السلام إلَّا من أُمه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف . وقالت فرقة : كان شقيقه ، وإنما دعاه بالأُمه لأَن التداعي بالأُمِّ أَشفق وأَشد استرحاماً ، وأَخذ موسى عليه السلام بلحية هارون غضباً ، وكان حديد الخُلُق عليه السلام .

(١) قال ابن خالويه في كتابه (الحجة) : « والوجه في العربية إثبات الياءِ ها هنا ؛ لأن هذه الياءَ إنما تحذف في النداءِ المضاف إليك ، إذا قلت : يا غلامي ؛ لأنها وقعت موقع التنوين . والتنوين لا يثبت في النداءِ » . ومعنى هذا أن الاسم الذي فيه الياءُ هنا مضاف إلى المنادى الذي هو (ابن) ، وليس بمنادى . وهذا كما قال الشاعر :

يا بْنَ أُمّي ولَوْ شَهِدْتُكَ إذْ تَدْعُو تميماً وَأَنْتَ غَيْرَ مُجَابِ

ولكن لما كثُر به الكلام ، وصار المضاف والمضاف إليه كالشيءِ الواحد ، حذفت الياءُ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسَٰمِرِيُّ ۝٩٥ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ۝٩٦ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ۝٩٧ ﴾

المعنى : قال موسى عليه السلام مخاطباً للسَّامري : فما خطبك ؟ وقوله : ﴿ فَمَا خَطْبُكَ ﴾ كما تقول : ما شَأْنك؟ وما أَمْرُك؟ ، ولكن لفظة الخطب تقتضي انتهاراً ؛ لأَن الخطب مستعمل في المكاره ، فكأَنه قال : ما نَحْسُك ؟ وما شُؤْمك ؟ وما هذا الخطْب الذي جاءَ من قِبَلك؟(١) و «السَّامِرِيُّ» قيل : هو منسوب إلى قبيلة من بني إسرائيل ، ويقال : إلى قرية يقال لها : سامرة (٢) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهي معروفة اليوم ببلاد مصر ، وقيل : كان اسمه موسى بن ظفر .

---

(١) نقل أبو حيان الأندلسي كلام ابن عطية هذا في (البحر المحيط) ثم عقَّب عليه بقوله : « وهذا ليس كما ذكر . ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ ، وهو قول إبراهيم عليه السلام لملائكة الله . فليس هذا يقتضي انتهاراً ولا شيئاً مما ذكر » .

(٢) في معجم البلدان للحموي أنها قرية بين مكة والمدينة .

قوله تعالى : [بَصُرْتُ] . قرأت فرقة بضم الصَّاد على معنى : صارت بصيرتي بصورة مَّا . فهو كَظَرُفتُ وشَرُفْت . وقرأت فرقة : [بَصِرْتُ] بكسر الصاد ، فيحتمل أن يريد من البصيرة ، ويحتمل أن يريد من البَصَر ، وذلك أن في أمر السامري ما زاد على الناس بالبصر ، وهو وجه جبريل عليه السلام وفرسه ، وبالبصيرة ، وهو ما علمه من أنَّ القبضة إذا نبذها مع الحليِّ جاءه من ذلك ما يريد . وقرأ الجمهور : ﴿يُبْصِرُوا بِهِ﴾ بالياء ، يريد بني إسرائيل . وقرأ حمزة والكسائي : ﴿تُبْصِرُوا بِهِ﴾ بالتاء من فوق ، يريد موسى عليه السلام مع بني إسرائيل .

وقرأ الجمهور : [قَبْضَةً] بالضاد منقوطة . بمعنى : أخذت بكفي مع الأصابع ، وقرأ عبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن الزبير ، وأُبيُّ ابن كعب رضي الله عنهم ، وغيرهم : ﴿فَقَبَصْتُ قَبْصَةً﴾ بالصاد غير منقوطة ، بمعنى : أخذت بأطراف أصابعي فقط ، وقرأ الحسن -بخلاف عنه- قُبْصَةً بضم القاف (١) . و «الرَّسُولُ» هو جبريل عليه السلام . و «الْأَثَرُ» هو ترابٌ تحت حافر فرسه .

(١) أي : بضم القاف والصاد المهملة كما وضّح أبو حيان في البحر المحيط ، ونسبها أيضاً إلى قتادة ، ونصر بن عاصم . وقال أبو الفتح في المحتسب : «وأما (القُبْصة) بالضم فالقدر المقبوص ، كالحُسْوَة لِلْمَحْسُوِّ ، والحَسْوَةُ فِعْلُك أنت . والقَبْضَةُ والقَبْصَةُ جميعاً على ذلك إنما هما حدثان موضوعان موضع الجثة ، كالخلْق في معنى المخلوق ، وضرْب الأمير في معنى المضروب» .

وسبب معرفة السَّامري لجبريل عليه السلام ومَيْزه فيما رُوي أنَّ أُمَّ السَّامري ولدته عام الذَّبْح فطرحته في مغارة ، فكان جبريل عليه السلام يغذوه فيها ويحميه حتى كبر وشبَّ ، فميَّزه لذلك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف .

وقوله : [فَنَبَذْتُهَا] أي عَلَى الحلي فكان منها ما تراه ، وهذا محذوف من اللفظ يقتضيه الحال والمخاطبة ، ثم قال : ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ ، أي : كما وقع وحدث قربت لي نفسي وجعلته لي سؤلاً ورأياً حتى فعلتُه . وكان موسى عليه السلام لا يقتل بني إسرائيل إلَّا في جدٍّ أو وَحْي ، فعاقبه باجتهاد نفسه بأَن أبعده ونحَّاه عن الناس ، وأمر بني إسرائيل باجتنابه واجتناب قبيلته ، وأَلَّا يُؤَاكَلُوا و يُنَاكَحُوا ، ونحو هذا ، وعلمه مع ذلك ، وجعل له أَن يقول مدة حياته : ﴿لَا مِساسَ﴾ ، أَي : لَا مُمَاسَّة ولا إذاية . وقرأ الجمهور : ﴿لَا مِسَاسَ﴾ بكسر الميم وفتح السين ، على النصب بالتَّبرئةِ ، وهو اسم ينصرف ، ومنه قول النَّابغة :

فَأَصْبَحَ مِنْ ذَاكَ كالسَّامِرِيِّ ... إِذْ قَالَ مُوسَى لَهُ لَا مِسَاسَا[١]

(١) لم أجد هذا البيت في ديوان النابغة الذي جمعه وحققه وشرحه الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور . والذي نشرته الشركة التونسية للتوزيع بالاشتراك مع الشركة الوطنية للتوزيع بالجزائر . كذلك لم أعثر على قائله فيما بين يدي من المراجع . ولم أجده في التاج ولا في اللسان أو الأساس =

ومنه قول رؤبة :

« حَتَّى تَقُولَ الأَزْدُ لا مِسَاسَا » (١)

واستعماله على هذا كثير ، وقرأ أبو حيوة : ﴿لَا مَسَاسِ﴾ بفتح الميم وكسر السين ، وهو معدول عن المصدر كَفَجَارِ ونحوه ، وشبّهه أبو عبيدة وغيره بِنَزَالِ ودَرَاكِ ونحوه ، والشَّبه صحيح من حيث هي معدولات ، وفارقه في أن هذه عدلت عن الأمر ، و (مَسَاسِ) و (فَجَارِ) عدلت عن المصدر ، ومن هذا قول الشاعر :

تَمِيمٌ كَرَهْطِ السَّامِرِيِّ وَقَوْلِهِ أَلَا لا يُرِيدُ السَّامِرِيُّ مَسَاسِ (٢)

= أو كتب التفسير ، اللّهم إلاّ في البحر المحيط غير منسوب ، قال في اللسان: « لا مِساسَ : أي لا تَمَسَّني ... وقد قُرئ بفتح السين منصوباً على التبرئة » ، وهذا هو موضع الاستشهاد هنا . على أن اسم النابغة يطلق على ثمانية من الشعراء ، فلعله لواحد منهم .

(١) كذلك لم أجد هذا البيت في ديوان رؤبة المسمى : (مجموع أشعار العرب ـــ المكتب التجاري بيروت) ، وقد أورده القرطبي في لفظ آخر مع بيت قبله ، وهما :

حَمَّالُ رايَاتٍ بِهَا قَنَاعِسَا حتّى تقولَ الأزْدُ لا مَسَابِسَا

وعلّق عليه المحقق بقوله : « هكذا في الأصول ، ولم نقف عليه » .

(٢) الرَّهْط : الجماعة من ثلاثة أو سبعة إلى عشرة ، أو ما دون العشرة ، جمعه أرْهُط وأرهاطٌ ، ولم نقف على قائل البيت ، والشاهد فيه أن (مَسَاسِ) معدولة عن المصدر ، ويوافقه الزمخشري في ذلك ، فقد قال : إن (مساسِ) بوزن (فجارِ) ، وقال صاحب اللوامح : « هو على صورة نَزَالِ ونَظَارِ من أسماء الأفعال ، بمعنى : انزل وانظر ، وهذه الأسماء التي بهذه الصيغة معارف ، ولا تدخل عليها (لا) النافية التي تنصب النكرات ، نحو : لا مال لك ، لكن فيه نفي للفعل ، وتقديره : لا يكون منك مساسٌ ، ولا أقول : مساس ، ومعناه النهي ، أي : لا تمسني » ، وأكد ابن جني هذا الكلام في المحتسب .

وقرأ الجمهور : [تُخْلَفَهُ] بفتح اللام . على معنى : أن يقع فيه خُلْف . وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : ﴿لَنْ تُخْلِفَهُ﴾ بكسر اللام ، على معنى : لن تستطيع الزوغان عنه والحيدة ، فتزول عن موعد العذاب ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن : ﴿لَنْ نُخْلَفَهُ﴾ بالنون ، قال أبو الفتح : المعنى : لن نصادفه مُخْلَفاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وكلها بمعنى الوعيد والتهديد .

ثمَّ وبَّخه عليه السلام بقوله : ﴿وَانْظُرْ إِلَى إِلَٰهِكَ﴾ الآية أي : انظر صنيعك وتغْييرنا له وردِّنا الأَمر فيه إلى الواجب . وقرأت فرقة : [ظَلْتَ] بفتح الظاءِ ، على حذف اللام الواحدة ، وقرأت فرقة : [ظِلْتَ] بكسر الظَّاءِ على نقل حركة اللام إلى الظَّاءِ ثم حذفها بعد ذلك ، نحو قول الشاعر :

خلَا أَنَّ العِتَاقَ مِنَ الْمَطَايَا أَحَسْنَ بِهِ فَهُنَّ إِلَيْهِ شُوسُ (١)

(١) البيت لأبي زُبَيْد الطائي ، وهو في اللسان (حسَس) ، والرواية فيه (حَسِيْنَ به) ، وهي التي أشار إليها ابن عطية ، قال صاحب اللسان : «أما قولهم : «أحَسْتُ بالشيء» فعلى الحذف كراهية التقاء المثلين» ، ونقل عن الأزهري أنه يقال : أحسستُ الخبر وأحَسْتُه وحَسِيْت وحِسْتُ : إذا عرفت منه طرفاً . وقد استشهد اللغويون ببيت أبي زبيد هذا . وقد قال سيبويه : «وكذلك يُفعل في كل بناءٍ يُبنى اللامُ مِنَ الفعل منه على السكون ، ولا تصل إليه الحركةُ ، شبهوها بأقمتُ» . وهذا ينطبق على (ظللت) التي هي أصل البحث هنا . العتَاق : النجائب الكريمة . والشَّوَس : أن ينظر بإحدى عينيه ويميل وجهه في شق العين التي ينظر بها . ويكون ذلك في الخلق . ويكون من الكِبْرِ .

أراد : أَحْسَسْن ، فنقلت حركة السِّين إلى الحاءِ ثم حذفت تخفيفاً ، وفي بعض الروايات : حَسَيْنَ . وقرأت فرقة : ظَلَلْت ، و (ظَلَّ) معناه : أقام يفعل الشيءَ نهاراً ، ولكنه قد يستعمل في الدَّائب ليلاً ونهاراً ، بمثابة طَفِقَ . و [عَاكِفاً] معناه : ملازماً .

وقرأت فرقة : [لَنَحْرِقَنَّهُ] بتخفيف الراءِ بمعنى : بالنار ، وقرأ علي بن أبي طالب ، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم : [لَنَحْرُقَنَّهُ] بفتح النون وضم الرَّاءِ خفيفة (١) ، بمعنى : لَنَبْرُدَنَّهُ بالمِبْرَد (٢) . وقرأ نافع وغيره : [لَنُحَرِّقَنَّهُ] بضم النون وكسر الرَّاءِ وشدِّها ، وهذا تضعيف مبالغة لا تعدية ، وهي قراءَة تحتمل الحرق بالنار ، وتحتمل بالمبرد . وفي مصحف أبي بن كعب ، وعبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنهما «لَنَذْبَحَنَّهُ ثمَّ لَنَحْرِقَنَّهُ ثمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ» . وهذه القراءَة مع رواية من روى أن العجل صار لحماً ودماً ، وعلى هذه الرواية

(١) في الأصول أخطأ النساخ في ضبط الحروف . والتصويب عن كتب التفسير وكتب القراءة .

(٢) هذا من قولهم : «حرقتُ الشيءَ أحرقه حَرْقاً» بمعنى : بَرَدْتُهُ وحَكَكْتُ بعضه ببعض ، ومنه قولهم : «حَرَقَ نَابَه يحرِقُه ويحرُقُه» أي : سحقه حتى يُسمع له صريف . ويقال للمِبْرَد : المِحْرَق . قال ابن جني : «حرقتُ الحديد : إذا بَرَدْتَه فتحاتَّ وتساقط ، ومنه قولهم : «إنه ليَحْرُق عليَّ الأُرَّم» ، أي : يحك أسنانه بعضها ببعض غيظاً عليَّ . قال زهير :

أبَى الضَّيْمَ والنُّعْمانُ يَحْرُقُ نابَهُ عليْهِ فأفْضَى والسُّيُوفُ مَعَاقِلُه

وأنشد أبو زيد ، ورويناه عنه :

نُبِّئْتُ أحْمَاءَ سُلَيْمَى أنَّمَا باتُوا غِضاباً يَحْرُقُونَ الأُرَّمَا

فكأن [لَنُحَرِّقَنَّهُ] ـ على هذا ـ : لَنَبْرُدَنَّه ولَنَحُتَّنَّه حتّاً» .

يتركّب أن يكون هناك حرق بنارٍ ، وإلَّا فإذا كان جماداً من ذهب فإنما هو حَرْق بالمِبْرَد ، اللَّهم إلَّا أن يكون أذابه ، ويكون النسف مستعاراً لتفريقه في اليَمِّ مذاباً . وقرأت فرقة : [لَنَنْسِفَنَّهُ] بكسر السِّين ، وقرأت فرقة : [لَنَنْسُفَنَّهُ] بضم السين ، و «النَّسْفُ» : تفريق الريح الغُبَارَ ، وكل ما هو مثله كتفريق الغربال ونحوه فهو نسف . و «الْيَمُّ» : غمر الماء من بحر أو نهر ، وكل ما غمر الإنسان من الماء فهو يَمٌّ . و [نَسْفاً] تأكيد بالمصدر ، واللام في قوله : [لَنُحَرِّقَنَّهُ] لام القسم .

وفي هذه الآية من القصص أن موسى عليه السلام بَرَدَ العِجْل حتى ردَّه كالغبار ثم ذرَّاه في البحر ، ثم أمر بني إسرائيل أن يشرب جميعهم من الماء ، فمن شرب ممن كان في قلبه حُب العجل خرج على شاربه من الذهب فضيحةً له ، وقال مكيٌّ رحمه الله ـ وأَسْنَدَ ـ : إنَّ موسى عليه السلام كان مع السبعين في المناجاة ، وحينئذ وقع أمر العجل ، وإن الله تبارك وتعالى أعلم موسى بذلك فكتمه عنهم ، وجاء بهم حتى سمعوا لغط بني إسرائيل حول العجل ، فحينئذ أعلمهم موسى .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه روايةٌ الجمهورُ على خلافها ، وإنما تعجَّل موسى وحده فوقع أمر العجل ، ثم جاء موسى عليه السلام وصنع بالعجل ما صنع ،

ثـم خرج بعد ذلك بالسبعين على معنى الشفاعة في ذنب بني إسرائيل ، وأن يطلعهم أيضاً على أمر المناجاة ، فكان لموسى عليه السلام نهضتان . والله أعلم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ ﴾

هذه مخاطبة من موسى عليه السلام لجميع بني إسرائيل مُبَيِّناً لهم ، وقوله تعالى : ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ بمعنى : وسع علمُه كلَّ شيءٍ ، و [عِلْماً] تمييز ، وهذا كقولهم : «تفقَّأْتُ شحماً» و «تَصَبَّبْتُ عَرَقاً» ، والمصدر في الأَصل فاعل ، ولكن يسند الفعل إلى غيره وينصب هو على التمييز . وقرأ مجاهد ، وقتادة : ﴿وَسَّعَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ بفتح السِّين وشدِّها ، بمعنى : خَلَقَ الأَشياءَ وكثَّرها بالاختراع فوسَّعها موجـودات .

وقوله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ مخاطبةٌ لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، أي : كما قَصَصْنَا عليك نبأَ بني إسرائيل هذا في خبر العجل كذلك نقصُّ عليك ، فكأنه قال : هكذا نقصُّ عليك ، فكأنها تعديد نعمة ، وقوله : ﴿مَا قَدْ سَبَقَ﴾ يريد به ما قد سبق مدَّة محمد صلى الله عليه وسلم . و «الذِّكْرُ» : القرآن . وقرأت فرقة : [يَحْمِلُ] بكسر الميم ، وقرأت فرقة أُخرى : [يُحَمَّل] بفتح الميم وشدها ، وقوله : ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ يريد : بالكفر به والتكذيب له ، و «الوِزْرُ» : الثقل ، وهو هنا ثقل العذاب بدليل قوله : ﴿خَالِدِينَ فِيهِ﴾ ، و [حِمْلاً] تمييز ، و [يَوْمَ] ظرف ، و [يَوْمَ] الثاني بدل منه . وقرأ الجمهور : [يُنْفَخُ] بضم الياءِ وبناءِ الفعل للمفعول ، وقرأت فرقة : [يَنْفُخُ] بفتح الياءِ وإسناد الفعل للفاعل ، أي يَنْفُخ المَلَك ، وقرأ أبو عمرو وحده : [نَنْفُخُ] بالنون ، أي : بأَمرنا وإذْنِنَا ، وهذه القراءَة تناسب قوله : [نَحْشُرُ] . وقرأ الجمهور : ﴿فِي ٱلصُّورِ﴾ بسكون الواو ، ومذهب الجمهور أنه القَرن الذي ينفخ فيه إسرافيل ، وبهذا جاءَت الأَحاديث ، وقالت فرقة : الصُّور : جمع صورة ، كتمرة وتَمْر ، وقرأ عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : ﴿فِي ٱلصُّوَرِ﴾ بفتح الواو ، وهذه صريحة في بعث الأَجساد من القبور ، وقرأت فرقة هي الجمهور : [وَنَحْشُرُ] بالنون ، وقرأت

فرقة : [وَيَحْشُرُ] بالياءِ ، وقرأت فرقة : [وَيُحْشَرُ] بضم الياءِ [ٱلْمُجْرِمُونَ] على المفعول الذي لم يُسَمَّ فاعله ، وهي قراءة مخالفة لخط المصحف .

وقوله : [زُرْقاً] اختلف الناس في معناه – فقالت فرقة : يحشرهم أول قيامهم سود الألوان زُرق العيون ، فهو تشويهٌ مَّا ، ثم يعمون بعد ذلك ، وهي مواطن . وقالت فرقة : إنهم يحشرون عطاشاً ، والعطش الشديد يردُّ سواد العيون إلى البياض ، فكأنهم يَبْيَضُّ سواد عيونهم من شدة العطش . وقالت فرقة : أراد : زُرق الألوان ، وهي غاية في التشويه لأنهم يجيئون كلون الرماد ، ومَهْيَعٌ في كلام العرب أن يُسَمَّى هذا اللون أزرق ، ومنه زرقة الماءِ ، قال الشاعر :

فَلَمَّا وَرَدْنَ ٱلْمَاءَ زُرْقاً جِمَامُهُ وَضَعْنَ عِصِيَّ الحاضِرِ المُتَخَيِّمِ (١)

ومنه قولهم : «سنان أزرق» لأنه نحو ذلك اللون .

---

(١) هذا البيت لزهير بن أبي سُلْمى ، وهو من معلقته المشهورة . وزُرْقة الماءِ كنايةٌ عن صفائه . والجِمامُ . قال الأصمعي : يقال للماء إذا خرج من عيونه فارتفع في البئر : قد جَمَّ يَجِمُّ جُمُوماً ، ويُسَمَّى الماءُ نفسهُ جَمّاً . ويقال : بئر جموم . أي سريعةُ رجوع الماءِ . وأما قوله : «وضَعْنَ عِصِيَّ الحاضِرِ المتَخَيِّم» فمعناه : أقَمْنَ كما يطرح الذي لا يريد السفر عصاه ويُقيم ، فالمتَخَيِّم هو الذي يتخذ خَيْمة ليقيم فيها . والحاضر هو المقيم . قال بعضهم : وصفهن بأنهن في أمْن ومنعة . فإذا أنْزلْن كُنَّ آمنات كنزول من هو في أهله ووطنه . و «زُرْقاً» منصوب على الحال من (الماءِ) ، و (الجِمام) رُفع بمعنى (زُرْق) والشاهد في البيت غير ملائم ، لأن زرقة الماءِ كناية عن صفائه . وصفاءُ الماءِ شيءٌ محبوب ممدوح . أما الزُّرقة التي في الآية فالغرض منها التشويه والتقبيح كما قال ابن عطية . وقد يقال : إنه أراد من ذكر البيت أن الزُّرقة في الماءِ تعطيه لون البياض ، وبياض العيون من شدة العطش لون من الدمامة والتشويه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُـمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَـمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَـةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الْجِبَـالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْـفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَـا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَـا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًـا ﴿١٠٧﴾ ﴾

«يَتَخَافت المجرمون بينهم» : يَتَسَارُّون ، المعنى أَنهم لهول المطلع وشدَّة ذهاب أَذهانهم قد عزب عنهم قَدْرُ المدَّة التي لبثوها ، واختلف الناس في هذا ـ فقالت فرقة : في دار الدنيا ومُدَّة العمر ، وقالت فرقة : في الأَرض مدَّة البرزخ ، وقالت أُخرى : ما بين النفختين في الصُّور .

و ﴿ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً ﴾ معناه : أَثبتهم نفساً وأَعلمهم بالحقيقة بالإِضافة إِليهم ، فهم في مدة المقالة يظنون أَن هذا قَدْر لُبْثهم .

والضمير في قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ ﴾ ، قيل : إن رجلاً من ثقيف سأَل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الجبال ، ما يكون أَمرها يوم القيامة ؟ وقيل : بل سأَله عن ذلك جماعةٌ من المؤمنين . وقد تقدَّم معنى النَّسف ، وروي أَن الله تعالى يرسل على الجبال ريحاً فيدكدها حتى تكون كالعهن المنفوش ، ثم تتوالى عليها حتى تعيدها كالهباءِ المنبثِّ ، فذلك هو النَّسف ، وقوله تعالى : [فَيَذَرُهَا] يحتمل أَن يريد

مواضعها ، ويحتمل أن يريد ذلك التراب الذي نسفه ؛ لأنه إنما يقع على الأرض باعتدال حتى تكون الأرض كلها مستوية . و «الْقَاعُ» : المستوي من الأرض المعتدل الذي لا نَشَزَ فيه ، ومنه قول ضرار بن الخطّاب :

لَتَكُونَنَّ بِالْبِطَاحِ قُرَيْشٌ بُقْعَةَ الْقَاعِ فِي أَكُفِّ الإِمَاءِ(١)

و «الصَّفْصَفُ» نحوه في المعنى .

و «الْعِوَجُ» ما يعتري اعتدال الأرض من الأخذ يَمْنة ويَسْرة بحسب النَّشْز من جبل وظَرِبٍ وكُدْيَةٍ(٢) ونحوه ، و «الْأَمْتُ» : ما يعتري الأرض من ارتفاع وانخفاض ، يقال : «مدَّ حبله حتى ما ترك فيه أَمْتاً» ، فكأن الأمت في الآية العوج في السماء تجاه الهواء ، والعِوَج في الآية مختص بالخفض(٣) ، وفي هذا نظر .

---

(١) البطحاء : مَسِيل الوادي يتجمع فيه دُقاق الحَصَى ، وهو أيضاً الأبْطَح ، والجمع بِطَاحٌ وبَطْحاوات ، ويروى البيت : «لتكونن بالبلاد» . والقاع : الأرض المستوية التي لا ارتفاعات فيها ، أما البقعة — بضم الباء وفتحها — فهي القطعة من الأرض على غير هيئة التي بجنبها ، فالمعنى أن قريشاً ستكون مختلفة عن غيرها من القبائل كما تختلف البقعة عما جاورها .

(٢) النَّشْز : الارتفاع ، ويكون في الأرض وفي غيرها . والظَّرِب : الجبل المنبسط ، وجمعه ظِرَابٌ ، وفي حديث الاستسقاء : (اللّهم على الآكام والظِّراب وبطون الأودية) ، والكُدْية : الأرض الغليظة أو الصلبة التي لا تستعمل فيها الفأس . وجمعها كُدًى .

(٣) اختلف الأصول في هذه الكلمة وفي جُملتها . ففي بعض النسخ : «العوج في الأرض» ؛ وفي بعضها «مختص بالعرض» . وفي بعضها «مختص بالأرض» . وهكذا .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ * وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ ﴾

المعنى : يوم تُنسف الجبال يَتْبع الخلائقُ داعيَ الله تعالى إلى المحشر ، وهذا نحو قوله تعالى : ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ﴾(١) . وقوله : ﴿ لَا عِوَجَ لَهُۥ ﴾ يحتمل أن يريد الإخبار به ، أي : لا شكَّ فيه ، ولا يخالف وجوده خبره . ويحتمل أن يريد : لا محيد لأَحد عن اتِّباعه ، والمشي نحو صوته . و « الخُشُوعُ » : التَّطامُن والتَّواضُع ، وهو في الأَصوات استعارة بمعنى الخفاءِ والاستسراءِ ، ومعنى : ﴿ لِلرَّحْمَـٰنِ ﴾ : لِهَيْبَتِهِ وهوْل مطلع قدْرته(٢) . و « الْهَمْسُ » : الصَّوْتُ الخفي الخافت ، وقد يحتمل أَن يريد « بالهَمْسِ المسموعِ » تخافُتَهُم بينهم وكلامَهُم السِّرَّ ، ويحتمل

(١) من قوله تعالى في الآية (٨) من سورة (القمر) : ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ . والدَّاعي هو إسرافيل عليه السلام إذا نفخ في الصور ، لا يملك أحد أن يتخاف عن دعوته ، بل يسرعون إليه ، ولا يحيدون عنه . وهذا هو معنى ﴿ لَا عِوَجَ لَهُۥ ﴾ . وقيل : المعنى : لا عِوَجَ لدعائه . وقيل : يتبعون الداعي اتِّباعاً لا عِوَجَ له . فالمصدر مضمر ، والضمير عائد على ذلك المصدر .

(٢) نقل أبو حيان عبارة ابن عطية هنا ، وجاءت فيه « لهيبته وهو مطلع قدرته » .

أن يريد صوت الأقدام ، وأن أصوات النطق ساكتة .

و [مَنْ] في قوله تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ يحتمل أن يكون الاستثناءُ متصلاً ، ويكون [مَنْ] في موضع نصب يُراد بها المشفوع له ، فكأن المعنى : إلَّا من أذن له الرَّحمٰن في أن يشفع له ، ويحتمل أن تكون استثناءً منقطعاً على تقدير : لكن من أذن له الرَّحمٰن يَشفع ، فـ [مَنْ] في موضع نصب بالاستثناء ، ويصلح أن يكون في موضع رفع ، كما يجوز الوجهان في قولك : «مافي الدَّارِ أحدٌ إلَّا حماراً ، وإلَّا حمارٌ» ، والنصب أوجه ، و [مَنْ] — على هذه التأويلات — للشافع ، ويحتمل أن تكون للمشفوع فيه .

وقوله تعالى : ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ، قالت فرقة : يريد الملائكة ، وقالت فرقة : يريد خلقه أجمع ، وقد تقدم القول في ترتيب ما بين اليد وما خلفه في غير موضع ، على أن جماعة من المفسرين قالوا في هذه الآية : ما خلفهم : الدنيا ، وما بين أيديهم : أمر الآخرة والثواب والعقاب ، وهو بأن يعرضها حالة وقوف حتى يجعلها كالأجرام ، وأمَّا إن قدرناها في نسق الزمان فالأمر على العكس بحكم ما بيَّنَّاه قَبْلُ .

وقوله تعالى : ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ﴾ معناه : ذلَّت ، والعاني : الأسير ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في أمر النِّساء : (هُنَّ عوان عندكم) (١) ،

(١) هذا جزءٌ من خطبة الوداع ، وقد أوصى فيها بالنساء ، قال صلوات الله وسلامه عليه ، كما في مسند الإمام أحمد ، عن أبي حرة الرقاشي ، عن عمه : (فاتقوا الله عزَّ وجلَّ في النساء ، فإنهنَّ عندكم عوان لايملكن لأنفسهن شيئاً ، وإن لهُنَّ عليكم حقَّاً ولكم عليهن حقاً) ، =

وهذه حالة الناس يوم القيامة . قال طلق بن حبيب : أراد تعالى سجودَ الناس على الوجوه والآداب السبعة (٢) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

إن كان روى هذا أن للناس يوم القيامة سجوداً وجعل هذه الآية إخباراً عنه فقوله مستقيم ، وإن كان أراد سجود الدنيا فقد أفسد المعنى . و «ٱلْقَيُّوم» بناءُ مبالغة من قيامه عزَّ وجلَّ على كل شيءٍ بما يجب فيه . و [خَابَ] معناه : لم ينجح ولا ظَفِرَ بمطلوبه ، و «الظُّلْمُ» يعم الشِّركَ والمعاصي ، وخيبة كل حاملٍ بقدر ما حمل من الظُّلم ، فخيبة المشرك على الإطلاق ، وخيبة العاصي مقيَّدة بوقت واحد في العقوبة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾

= والحديث طويل ، وقد أخرجه مسلم في الحج ، وأبو داود في المناسك ، والدارمي ، وابن ماجه كذلك في المناسك ، وأحمد (٥-٧٣) .

(٢) هكذا في الأصول ، وفي بعض النسخ : «والآراب السبعة» .

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ﴾ معادل لقوله : ﴿مَنْ حَمَلَ ظُلْماً﴾ .
وفي قوله سبحانه : ﴿مِنَ ٱلصَّالِحَاتِ﴾ تَيْسِير في الشَّرع ؛ لأنها [مِنْ] التي للتبعيض ، و «الظُّلْمُ» أعمُّ من «الْهَضْمِ» ، وهما متقاربان في المعنى ويتداخلان ، ولكن من حيث تناسقا في هذه الآية ذهب قوم إلى تخصيص كل واحد منهما بمعنى ، فقالوا : الظُّلْمُ أن تَعْظُم عليه سيِّئاتُه وتكثر أكثر ممَّا يجب . والهَضْم أن يُنْقص من حسناته ويُبْخَسها .
وكلُّهم قرأ : ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ على الخبر ، غير ابن كثير فإنه قرأ : ﴿فَلَا يَخفْ﴾ على النهي .

ثم قال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ﴾ ، أي : كما قدرنا هذه الأمور وجعلناها حقيقة بالمرصاد للعباد . كذلك حذَّرنا هؤلاء أمرها ، وأنزلنا قرآناً عربيًّا . وتوعدنا فيه بأنواع من الوعيد ، لعلهم - بحسب توقع البَشَر وتَرَجِّيهم - يتَّقون ويخشَوْن عقابه فيؤمنون ويتذكرون نِعَمَه عنْدهم وما حذَّرهم من أليم عقابه ، هذا تأويل فرقة في قوله : ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً﴾ ، وقالت فرقة : معناه : أو يُكسبهم شرفاً ، ويُبقي عليهم إيمانهم وذِكْراً صالحاً في الغابرين . وقرأ الحسن البصري : ﴿أَوْ يُحْدِثْ﴾ ساكنة الثاء ، وقرأ مجاهد : ﴿أَوْ نُحْدِثْ﴾ بالنون وسكون الثاء ، ولا وَجْه للجزم إلَّا على تسكين حرف الإعراب استثقالاً

لحركته . وهذا نحو قول جرير :

. . . . .ولَا تَعْرِفْكُمُ الْعَرَبُ(١)

وقوله تعالى : ﴿فَتَعَالَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ فتح للقول ، لأنه لما قدم صفة سلطانه يوم القيامة وعِظَمَ قدرته وذِلَّةَ عبيده وتَلَطُّفَه بهم ، ختم ذلك بهذه الكلمات ، وجعل بعد ذلك الأَمر بنوع آخر من القول . وقوله سبحانه : ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ﴾ ، قالت فرقة : سببه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخاف وقت تكليم جبريل عليه السلام له أَن ينسى أَول القرآن ، فكان يقرأُ قبل أَن يستتم جبريل عليه السلام الوحي ، فنزلت الآية في ذلك (٢) ، وهي بمعنى قوله تعالى : ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾(٣)، وقالت فرقة أُخرى : سبب هذه الآية

---

(١) هذا جزء من بيت ، وهو ثاني ثلاثة أبيات قالها جرير يهجو بني العم وقد أعانوا عليه الفرزدق ، والبيت بتمامه :

سِيرُوا بَنِي العَمِّ فالأَهْوَازُ مَنْزِلُكُمْ ونَهْرُ تِيرَى ولا تَعْرِفْكُمُ العَرَبُ

ونهر تيرى : بلد من نواحي الأهواز . والشاهد فيه كما قال ابن جني ونقله عنه ابن عطية أنه مما سُكِّن استثقالاً . وأصل الكلام : «ولا تَعْرِفُكُم العربُ» بضم الفاء ، ولكن الشاعر سكنها لاستثقال الضمة عليها .

(٢) أخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه ، قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أُنزل عليه جبريل بالقرآن أتعب نفسه في حفظه حتى يشق على نفسه ، يتخوف أن يصعد جبريل ولم يحفظه فينسى ما علمه . فقال الله : ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ . وقال : ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ .

(٣) الآية (١٦) من سورة (القيامة) .

أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أُوحيَ إليه القرآن أمر بكتبه للحين ، فأمر الله تعالى في هذه الآية أن يتأنَّى حتى تُفَسَّرُ له المعاني وتقرر عنده(١) . وقالت فرقة : سبب الآية أن امرأةً شكت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن زوجها لطمها . فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : (بيْنَكما القصاصُ) ، ثمَّ نزلت ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّامُونَ﴾(٢) ، ونزلت هذه الآية بمعنى التَّثَبُّت في الحكم بالقرآن حتى يتبيَّن (٣) ، والله أعلم . وقرأ الجمهور : ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ ، وقرأ عبد الله بن مسعود : ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَقْضِي إِلَيْكَ وَحْيَهُ﴾ ، وباقي الآية بيِّن ، رغبة في خير .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾

(١) أخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ﴾ قال : لا تُمْلِه على أحد حتّى نُتِمَّهُ لك ، وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد نحوه عن قتادة رضي الله عنه .

(٢) من الآية (٣٤) من سورة (النساء) .

(٣) أخرجه الفريابي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن الحسن رضي الله عنه . (الدر المنثور) .

قال الطبري رحمه الله : المعنى : وإنْ يعرض - يا محمدُ - هؤلاءِ الكفرة عن آياتي ويخالفوا رُسُلي ويطيعوا إبليس ، فَقِدْماً فعل ذلك أبوهم آدم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا تأويل ضعيف ؛ وذلك أن كون آدم مثالاً للكفار الجاحدين ليس بشيء ، وآدم إنما عصى بتأويل ، ففي هذا غضاضة عليه صلى الله عليه وسلم ، وإمَّا الظاهر في هذه الآية إمَّا أن يكون ابتداء قصص لا تعلُّق له بما قبله ، وإنما أن يجعل تعلُّقه أنه لَمَّا عهد إلى محمد صلى الله عليه وسلم ألاَّ يعجل بالقرآن مثل له بنبيٍّ قبله عُهد إليه فنسي فعوقب ليكون أشدَّ في التحذير وأبلغ في العهد إلى محمد صلى الله عليه وسلم . والعهد هنا في معنى الوصيَّة ، و [نَسِيَ] معناه : ترك ، ونسيان الذهول لا يمكن هنا لأنه لا يتعلَّق بالنَّاسي عقاب ، وقرأ الأعمش : [فَنَسِيْ] بسكون الياء ، ووجهها طلب الخفَّة . و «العَزْمُ» : المُضِيُّ على المعتقد في أي شيء كان . وآدم عليه السلام قد كان معتقده ألَّا يأكل من الشجرة ، لكنه لمَّا وسوس إليه إبليس لم يعزم على معتقده ، وعبَّر بعض المفسرين عن العزم هنا بالصبر والحفظ وغير ذلك مما هو أعمُّ من حقيقة العزم ، والشيءُ الذي عهد لآدم عليه السلام هو ألَّا يقرب الشجرة ، وأُعلم مع ذلك أن إبليس عدوٌّ له . وقال أبو أمامة رضي الله عنه : لو أن أحلام بني آدم جُمعت منذ خلق

الله الخلق إلى يوم القيامة ووضعت في كفَّة ميزان ووضع حلم آدم عليه السلام في كفَّة أُخرى لرجحهم ، وقد قال الله تبارك وتعالى : ﴿ولَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ .

وقوله تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ الآيَةَ ابتداءُ قصة ، والعامل في [إِذْ] فعلٌ مضمر ، وقد تقدم استيعاب هذه القصة ، ولكن نذكر من ذلك ما تقتضيه ألفاظ هذه الآية ، فالملائكة قيل كان جميعهم مأْموراً بذلك ، وقيل : بل فرقة فاضلة منهم عددهم اثنان وعشرون . و «السُّجُودُ» الذي أُمروا به سجود كرامة لآدم صلوات الله عليه ، وعبادة لله تعالى . وقوله : ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ استثناءٌ متصل في قول من جعل إبليس من الملائكة ، ومنقطع في قول من قال : هو من قبيلة غير الملائكة يقال لها الجن . وقوله : ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ ، أي : لا يقع منكما طاعةٌ له في إغوائه فيكون ذلك سبب خروجكما من الجنَّة . ثمَّ خصَّص آدم عليه السلام بقوله : [فَتَشْقَى] من حيث كان المخاطبَ أوَّلاً المقصودَ في الكلام ، وقيل : بل ذلك لأَن الله تعالى جعل الشَّقاء في معيشة الدُّنيا في حيِّز الرِّجال . ورُوي أنَّ آدم عليه السلام لمَّا أُهبط أُهبط معه ثور أحمر ، فكان يحرث ويمسح العرق ، فهذا هو الشَّقاءُ الذي خُوِّف منه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾

المعنى : إن لك يا آدم نعمة تامَّة وعطية مستمرة أَلَّا يصيبك جوعٌ ولا عري ولا ظماٌ ولا بروز للشمس تؤذيك ، وهو الضُّحِـيُّ(١) ، وقرأ نافع ، وعاصم – في رواية أبي بكر – : [وَإِنَّك] بكسر الأَلِف ، وقرأ الباقون وحفص عن عاصم : [وَأَنَّكَ] بفتح الأَلِف ، وجعل الله تبارك وتعالى في هذه الآية الجوع مع العري ، والظماً مع الضحى ؛ وكان عرف الكلام أن يكون الجوع مع الظمإ للتناسب ، والعُرْيُ مع الضُّحِيِّ لأَنها لا تتضاد ، والعري يمس بسببه البرد فيؤذي ، والحرُّ يفعل ذلك بالضَّاحي ، وهذه الطريقة مهيع في كلام العرب أن تفرق النسب ، ومنه قول امرئ القيس :

(١) الضحيُّ بالياء هو مصدر : ضَحَا الرَّجُلُ ، بمعنى : برز للشمس ، ومثلها في ذلك الضُّحُوُّ بالواو — قال في اللسان : « ضَحَا الرَّجلُ ضَحْواً وضُحُوّاً وضُحِيّاً : برز للشمس. وضَحَا الرجُلُ وضَحِيَ يَضْحَى في اللغتين معاً ضُحُوّاً وضُحِيّاً : أصابته الشمس » .

كَأَنِّيَ لَمْ أَرْكَبْ جَوَاداً لِلَذَّةٍ وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِباً ذَاتَ خَلْخَالِ
وَلَمْ أَسْبَأِ الزِّقَّ الرَّوِيَّ وَلَمْ أَقُلْ لِخَيْلِيَ كُرِّي كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ (١)

وذهب بعض الأُدباءِ إلى أن بيتي امرئ القيس فيهما محافظة للنسب ، وأن ركوب الخيل للصيد وغيره من اللَّذَّات يناسب تبطن الكاعب .

ومن الضُّحِيِّ قول الشاعر :

رأَتْ رَجُلاً أَمَّا إذا الشَّمْسُ عارَضَتْ فَيَضْحَى وَأَمَّا بِالْعَشِيِّ فَيَخْصَرُ (٢)

---

(١) البيتان من لاميته المعروفة : (ألا انْعِمْ صَبَاحاً أَيُّهَا الطَّلَلُ البَالي) ، وتعتبر من أفضل شعره بعد المعلقة ، وهي قصيدة وجدانية يصور فيها الشاعر مجونه وتصابيه وصيده وقنصه وسعيه إلى المجد وعشقه للنساء ، والتَّبَطُّن : المباشرة والملامسة . والكاعِبُ هي الفتاة التي برز ثديها ، والخلخال : حلية معروفة تلبسها المرأة في رجلها ، والزِّقُّ : وعاء الخمر ، وسَبَأَ الزِّقَّ : اشترى الخمر ليشربها ، والرَّوِيُّ : الممتلئ ، والكَرُّ : العودة للهجوم ، والإجْفال : الفزع والهروب في الحرب . قالوا : وقد جعل امرؤ القيس ركوب الخيل للصيد واللذة مع مباشرة الكاعب ذات الخلخال . وجعل شراء الخمر وشربها مع الفروسية وركوب الخيل للهجوم في الحروب ، وكان عُرْفُ الكلام أن يجمع بين ركوب الخيل للصيد واللذة وركوبها للفروسية والهجوم في الحرب . وأن يجمع بين شرب الخمر ومباشرة الكاعب الحسناء ، لكن مهيع الكلام كما يقول ابن عطية أن تفرق العرب النسب ، وألا تجمع بين الأشياء المُتَناسبة ، وبعض الأدباء قالوا : إن هناك تناسباً في بيتي امرئ القيس . حيث قرن لذة ركوب الخيل بلذة ركوب النساء في البيت الأول ، وهكذا تختلف آراء النقاد في العمل الفني من حيث التناسب والتضاد .

(٢) البيت لعمر بن أبي ربيعة ، وهو في الديوان . وفي اللسان (ضَحَا) غير منسوب . وهو من قصيدته التي يقول في مطلعها :

أَمِنْ آلِ نُعْمٍ أَنْتَ غادٍ فَمُبْكِـرُ غَداة غَدٍ أَمْ رائحٌ فَمُهَجِّـرُ ؟

ومعنى يَضْحَى : يصيبه حرُّ الشمس ، نقل ذلك في اللسان عن الأزهري ، واستشهد بهذا البيت ، وفيه : «ويقال لكل من كان بارزاً في غير ما يُظِلُّه ويُكِنُّه : إنه لَضَاحٍ . ويَخْصَرُ هو من الخَصَرِ بالتحريك ، وهو البرد يجده الإنسان في أطرافه .

و «وَسْوَسَةُ الشَّيْطَانِ» قالوا : كانت دون مشافهة إلقاءً في النفس ، وقيل : بل كانت بالمشافهة والمخاطبة ، وهو ظاهر القصة من غير ما موضع ، وكان دخوله إلى الجنَّة – فيما رُوي – في فم الحيَّة ، وكان آدم عليه السلام قد قال الله له : لا تـأْكل من هذه الشجرة ، وعيَّن له شجرة قد تقدَّم الخلاف في جنسها . فلمَّا وصفها له إبليس أنها شجرة الخُلْد التي من أَكلها كان ملكاً مخلَّداً . عَمَد آدم عليه السلام إلى غير تلك التي نهي عنها من جنسها فأَكلها بتأْويل أَن النَّهي كان على النَّدب لا على التَّحريم ، وسارعت إلى ذلك حوَّاءُ وكانت معه في النهي ، فلمَّا رآها آدم عليه السلام قد أَكلت أَكل ، فطارَت عنهما ثيابهما ، وظهر تبرُّءُ الأَشياءِ منهما ، وبدت سوآتهما . وقوله : ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ﴾ معناه : جعلا يفعلان ذلك دائماً ، و [يَخْصِفَانِ] معناه : يلفقان ويضُمَّان شيئاً إلى شيءٍ ، فكانا يستتران بالورق ، وروي أَنه كان من ورق التِّين .

ثـمَّ نصَّ (١) تعالى على آدم أَنه عَصَى ، و [غَوَى] معناه : ضلَّ ، من الغيِّ الذي هو ضد الرشد ، ومنه قول الشاعر :

فَمَنْ يَلْقَ خَيْراً يَحْمَدِ النَّاسُ أَمْرَهُ وَمَنْ يَغْوَ لايَعْدَمْ عَلَى الْغَيِّ لائما (٢)

---

(١) في بعض النسخ : «ثم قَصَّ تعالى على آدم» .

(٢) هذا البيت من المعاني التي سبق إليها المرقِّش الأصغر ، ربيعةُ بن سفيان بن سعد ، وهو عـمُّ طرفة ، وابن شقيق المرقِّش الأكبر . وهو من قصيدة له يقول في مطلعها :

(ألا يا أسْلَمِـي لا صُرْمَ لي اليَوْمَ فاطِمَــا) =

وقرأت فرقة : ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ﴾ بفتح الألف عطفاً على قوله : ﴿أَلَّا تَجُوعَ﴾ ، وقرأت فرقة : ﴿وَإِنَّكَ لَا تَظْمَأُ﴾ عطفاً على قوله تعالى : ﴿إِنَّ لَكَ﴾(١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (١٢٢) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١٢٦) ﴾

[اجْتَبَاهُ] معناه : تخيَّره واصطفاه ، و ﴿تَابَ عَلَيْهِ﴾ معناه : رجع به من حال المعصية إلى حال النَّدم وهداه لصالح الأقوال والأعمال ، وأمضى عقوبته عزَّ وجلَّ في إهباطه من الجنة .

وهي في المفضليات تحت رقم ٥٦ ، والبيت هو رقم ٢٢ من المفضلية ، وهو في حماسة البحتري ، وفي المرزباني ، وشعراء الجاهلية . واللسان (غوى) ، قال : «الغَيُّ : الضلالُ والخيبةُ ، غَوَى غَيّاً وغَوِيَ غَوَايَةً : ضلَّ ، ... وأغواه هو ، وأنشد للمرقِّش : (فَمَن يَلْقَ خيراً ... البيت) .

هذا وفي القرطبي نقلاً عن بعض العلماء أن معنى (غوى) فَسَد ، وأن الغَيَّ هو الفساد ، وعلى هذا فمعنى الآية : ففسد عيشُه بنزوله إلى الدنيا ، يعني آدم عليه السلام ، قال القرطبي : وهو تأويل حسن ، وهو أولى من تأويل من يقول : (غَوَى) معناه ضَلَّ .

(١) قال أبو حيان : ويجوز أن يكون على الابتداء .

وقوله تعالى : [ٱهْبِطَا] مخاطبة لآدم وحواءَ ، ثم أَخبرهما بقوله : [جَمِيعاً] أَن إبليس والحيَّة يهبطان معهما ، وأَن العداوة بينهم وبين أَنْسالهم إلى يوم القيامة ، و [عَدُوٌّ] يوصف به الواحد والاثنان والجمع .

وقوله تعالى : ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ شرطٌ ، وجوابه في قوله : ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ﴾ وما بعده إلى آخر القسم الثاني ، والهدى معناه دعوة ترعى . ثم أَعلمهم أَن من اتَّبع هداهُ وآمن به فإنه لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ، وأَنَّ من أَعرض عن ذِكر الله وكفر به فإنَّ له معيشة ضنكاً ، و «الضَّنْكُ» : النَّكِدُ الشَّاق من العيش في المنازل أَو في مواطن الحرب ونحوها ، ومنه قول عنترة :

. . . . وإنْ نَزَلُوا يَوْماً بِضَنْكٍ أَنْزِلِ (١)

---

(١) هذا جزء من بيت لعنترة ، وهو من قصيدة له يُعَرِّض فيها بقيس بن زهير سيد بني تميم ، فقد حَمَى عنترة بني عبس من تميم في إحدى المعارك ، فقال قيس : «والله ما حَمَى الناس إلاَّ ابن السوداء» ، والبيت بتمامه مع بيت قبله :

إنِّي امْرُؤٌ منْ خَيْرِ عَبْسٍ مَنْصِباً شَطْرِي وأَحْمِي سائِري بالمُنْصِلِ
إنْ يُلْحَقُوا أَكْرُرْ وإنْ يُسْتَلْحَمُوا أَشْدُدْ وإنْ يُلْفَوْا بِضَنْكٍ أَنْزِلِ

والمعنى : إن لحقهم العدوُّ يوماً فإني لا أهرب بل أعود فأقابل العدوَّ بالهجوم ، وإن اشتبكوا في معركة والتحموا بعدوهم في القتال أشدّد من هجومي وقتالي ، وإن اشتدت الضائقة عليهم في المعركة نزلت عن فرسي حتى أتجنب التحام الخيل ، وفي القصيدة نفسها يقول :

إنَّ المَنِيَّةَ لَوْ تُمَثَّلُ مُثِّلَتْ مِثْلي إذا نَزَلُوا بِضَنْكِ المَنْزِلِ

وهو شاهد لمعنى الضنك مثل الشاهد في البيت الذي ذكره المؤلف .

يوصف به الواحد والجمع والمؤنث ، وقرأت فرقة : [ضَنْكَى](١)، أتبعت بالصفة لفظة «المعيشة» . واختلف الناس في المعيشة الضَّنك . متى هو الوقت الذي هي فيه ـ فقالت فرقة : هي الدنيا ، ومعنى ذلك عندهم أن الكافر وإن كان متسع الحال والمال فمعه من الحرص والأمل والتعذيب بأمور الدنيا والرغبة واتساع صفاء العيش بذلك ما يصيِّر معيشته ضنكاً ، وقالت فرقة : هي ضنك بأكل الحرام ، وقالت فرقة : بل المعيشة الضَّنك هي في البرزخ ، وهو أن يرى مقعده من النَّار غُدوًّا ورواحاً ، وبالجملة عذاب القبر على ما رُوي فيه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وحَمَل هذه الفرقة على هذا التأويل أن لفظ الآية يقتضي أن المعيشة الضَّنك قبل يوم القيامة بقوله : ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ ، وبقوله تعالى : ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ . وقالت فرقة : بل المعيشة الضنك في الآخرة ، وهي عذابهم في جهنم وأكلهم الزَّقُّوم وغيره ، وذكر الله تعالى ذلك من وعيده لهم ؛ ثم أخبر عن حالة أُخرى هي أيضاً يوم القيامة وهي حشرهم عمياً ، ثم يجيءُ قوله : ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ بمعنى هذا الذي ذكرناه من المعيشة الضَّنك والعمى

---

(١) على وزن «فَعْلَى»

ونحوه هو عذابه في الآخرة ، وهو أشد وأبقى من كل ما يقع عليه الظَّن والتَّخَيُّل ، فكأنه ذكر نوعاً من عذاب الآخرة ثم ذكر أن عذاب الآخرة أشد وأبقى .

وقرأت فرقة : [وَنَحْشُرُهُ] بالنون ، وقرأت فرقة : [وَيَحْشُرُهُ] وقرأت فرقة : [وَنَحْشُرْهُ] بسكون الرَّاءِ ، وقرأت فرقة : [أَعْمَى] بفتح الأَلِف ، وقرأت فرقة : [أعْمِى] بالإمالة ، وقالت فرقة : العَمَى هنا عَمَى البصيرة عن الحجة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولو كان هذا لم يُحسَّ الكافر بذلك ؛ لأَنه مات أَعمى البصيرة ويُحشر كذلك ، وقالت فرقة : العَمَى هنا عَمَى البصر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا هو الأَوجه ، مع أَن عمىَ البصيرة حاصل في الوجهين ، وأما قوله تعالى : ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً﴾ فمن رآه «في العين» فلابد أَن يتأَولها مع هذا إِمَّا أَنها في طائفتين وإِمَّا في موطنين .

قوله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا﴾ ، [ذَلِكَ] إشارة إلى العَمَى الذي حلَّ به ، أي مثل هذا في الدنيا أَن أَتتك آياتُنا فنسيتها ، و «النِّسْيان» في هذه الآية بمعنى الترك ، ولا مدخل للذهول في هذا

الموضع ، و [تُنْسَى] بمعنى : تُترك في العذاب ، ورُوي أن هذه الآية نزلت في القرشي (١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ ﴾

المعنى : وكما وصفنا من أليم الأفعال نجزي المسرفين المعتدين الكفَّار بالله عزَّ وجلَّ . وقوله سبحانه : ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾ إن كانت معيشة الضَّنك في الدنيا أو في البرزخ فجاء هذا وعيداً بعذاب الآخرة بعد وعيد ، وإن كانت المعيشة [الضَّنْك](٢) في الآخرة

(١) أي في القرشي الذي سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الجبال ، فأجابه الله تعالى بقوله : ﴿ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴾ .
(٢) زيادة لتوضيح المعنى .

فأكَّد الوعيد بعينه بهذا القول الذي جعل به عذاب الآخرة فوق كل عذاب يتخيَّله الإنسان أو يقع في الدنيا .

ثمَّ ابتدأ يُوبِّخُهم ويذكر العِبَر بقوله تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ . وقرأت فرقة : [يَهْدِ] بالياءِ بمعنى : يُبَيِّن ، واختلفت هذه الفرقة في الفاعل ــ فقال بعضهم : الفاعل [كَمْ] ، وهذا قول كوفيٌّ ، ونُحاة البصرة لا يجيزونه ؛ لأَن [كَمْ] لها صدر الكلام ، وفي قراءة عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه : «أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ مَنْ أَهْلَكْنَا» ، فكأَن هذه القراءة تناسب ذلك التأْويل في [كَمْ] ، وقال بعضهم : الفاعلُ اللهُ عزَّ وجلَّ ، والمعنى : أَفلم يَهْدِ لهم ما جعل الله لهم من الآيات والعِبَر ، فأَضاف الفعل إلى الله تعالى بهذا الوجه ، قاله الزجاج . وقال بعضهم : الفاعل مُقَدَّر ، الهدى أَو الأَمر .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

أَو النَّظر والاعتبار ، وهذا أَحسن ما يُقَدَّر به عندي (١).

وقرأَت فرقة : [نَهْدِ] بالنُّون ، وهذه القراءة تناسب تأْويل من قال في التي قبلها : الفاعل الله ، و [كَمْ] ــ على هذه الأَقوال ــ

(١) نقل أبو حيان في البحر المحيط هذا الكلام ، ثم علَّق عليه بقوله : «وهو قول المبرد ، وليس بجيد ، إذ فيه حذف الفاعل وهو لا يجوز عند البصريين» . وقال أبو البقاء : «الفاعل ما دلَّ عليه (أهلكنا) والجملة مُفَسِّرَة له» .

نصب بـ [أَهْلَكْنَا] . ثم قيَّد «القُرُونَ» بأَنهم يمشي هؤلاءِ الكفرة في مساكنهم ، فإنما أَراد عادًا وثمود والطَّوائف التي كانت قريش تجوز على بلادهم في المرور إلى الشَّام وغيره . وقرأَت فرقة : [يَمْشُونَ] بفتح الياءِ ، وقرأَت فرقة : [يُمَشُّونَ] بضم الياءِ وفتح الميم وشدّ الشين ، و «النُّهى» جمع نُهْيَةٍ ، وهو ما ينهى الإنسان عن فِعْل القبيح .

ثمَّ أَعلم عزَّ وجلَّ أَن العذاب كان يصير لهم لزاماً لولا كلمة سبقت من الله عزَّ وجلَّ في تأْخيره عنهم إلى أَجل مسمَّى عنده ، فتقدير الكلام : ولولا كلمة سبقت في التأْخير لأَجل مُسمَّى لكان العذاب لِزاماً ، كما تقول : لكان حتْماً وواجِباً واقِعاً ، لكنه قدَّم وأَخَّر لِتَتَشابه رُءُوس الآي .

واختلف الناسُ في الأَجل - فيحتمل أَن يريد يوم القيامة ، والعذاب المتوعَّد به - على هذا - هو عذاب جهنَّم ، ويحتمل أَن يريد بالأَجل مَوْتَ كل واحد منهم ، فالعذاب - على هذا - ما يَلْقَى في قبره وما بعده ، ويحتمل أَن يريد بالأَجل يوم بدرٍ، فالعذاب - على هذا - هو قتلهم بالسيف ، وبكل احتمال مما ذكرناه قالت فرقة ، وفي صحيح البخاري أَن يوم بدرٍ هو اللِّزام ، وهو البطشة الكبرى .

ثمَّ أَمره تبارك وتعالى بالصبر على أَقوالهم : إنه ساحر ، إنه كاهن ، إنه كذَّاب ، إلى غير ذلك ، والمعنى : لا تعجل بهم فهم بمدرجة المهلكة ،

وكون اللِّزام يوم بدر أبلغ في آيات نبينا صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ ، قال أكثر المتأولين : هذه إشارة إلى الصلوات الخمس : ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ : صلاة الصُّبح ، ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ : صلاة العصر ، ﴿وَمِنْ آنَاءِ ٱللَّيْلِ﴾ : العتمة (١) ، ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ : المغرب والظُّهر . وقالت فرقة : ﴿مِنْ آنَاءِ ٱللَّيْلِ﴾ : المغربُ والعشاءُ . ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ : الظُّهْر وحدها (٢) ، ويحتمل اللَّفظ أن يُراد به قول : «سُبحانَ الله وبحمده» من بعد صلاة الصبح إلى ركعتي الضُّحى ، وقبل غروب الشَّمس ؛ فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من سبَّح عند غُروب الشَّمس تسبيحة غربت بذنوبه)(٣) .

---

(١) أي صلاة العشاء .

(٢) الرأي القائل بأن الآية إشارة إلى الصلوات الخمس يؤيده الحديث الذي رواه جرير ابن عبد الله مرفوعاً ؛ قال : كنَّا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ نظر إلى القمر ليلة البدر . فقال : (أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته . فإن استطعتم ألاَّ تغلبوا على صلاةٍ قبل طلوع الشمس وقبل غروبها) – يعني العصر والفجر – ثم قرأ جرير : ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ . وهذا الحديث متفق عليه . واللفظ لمسلم .

(٣) أخرج أحمد في مسنده . عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من أضحى يوماً مُحرماً مُلَبِّياً حتى غربت الشمس غربت بذنوبه كما ولدته أمه) . والرأي القائل بأن المراد بالآية تسبيح الله تعالى بعد صلاة الصبح وقبل صلاة المغرب هو رأي عطاء الخراساني وأبي الأحوص .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وسَمَّى الطَّرفين أَطرافاً على أَحد وجهين : إمَّا على نحو قوله : ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾(١)، وإمَّا على أن يجعل النهار للجنس فلِكُلِّ يوم طرف ، وهي التي جمع . وأَمَّا من قال : ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ لصلاة الظهر وحدها فلابُدَّ له من أَن يتمسَّك بأَن يكون النهار للجنس كما قلنا ، أَو يقول : إن النهار ينقسم قسمين فَصَلَهُما الزَّوال ، ولكل قسم طرفان ، فعند الزَّوال طرفان ، الآخِر من القسم الأَوَّل ، والأَوَّل من القسم الآخر ، فقال عن الطرفين : أَطرافاً على نحو ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ ، وأَشار إلى هذا النَّظر أَبو بكر بن فُورك في «المشكل» .

و «الآناءُ» جمع (إنْيٍ) وهي الساعة من اللَّيل ، ومنه قول الهُذَلِيِّ :

حُلْوٌ وَمُرٌّ كعِطْفِ القِدْحِ مِرَّتُهُ   في كلِّ إنْيٍ قَضَاهُ اللَّيْلُ يَنْتَعِلُ(٢)

---

(١) من الآية (٤) من سورة (التحريم) ، وقد قال العلماء في جمع القلوب هنا : إن من شأن العرب إذا ذكروا الشيئين مناثنين أن يجمعوهما لأنه لا يُشكل ، وقيل : كلُّ ما ثبتت الإضافة فيه مع التثنية فلفظ الجمع أليق به لأنه أمكن وأخف ، وقيل في آيتنا هنا : النهار له أربعة أطراف : عند طلوع الشمس ، وعند غروبها ، وعند زوال الشمس ، وعند وقوفها للزوال ، وقيل : المراد بالأطراف الساعات لأن الطرف آخر الشيء .

(٢) الهُذَليُّ القائل لهذا البيت هو المُتَنَخِّل ، مالك بن عمرو بن عُثْم بن سويد اللِّحياني الهُذَليُّ ، والبيت أحد أبيات قالها في رثاء ابنه أُثَيْلَةَ ، وهو في اللسان (أنى) ، وفي (الشعر والشعراء) ، و(الطبري) ، وعِطْف الشيء : جانبُه ، والقِدْحُ السَّهْم قبل أن يُنَصَّل أو يُراش ، والمِرَّة : القوة والشكيمة والإرادة ، أصلها من إمرار الحبل ، أيْ إحكام فتله ، والإنْيُ : واحد آناء الليل وهي ساعاتُه ، قال الزجاج : «يقال فيه إنْيٌ وإنىً ، فمن قال إنْيٌ فهو مثل نِحْيٍ وأنْحاء ، ومن قال إنىً فهو مثل مِعىً وأمْعَاء ، وينتعل: يركب الأرض =

وقالت فرقة : الآية إشارة إلى نوافل ، فمنها آناءَ اللَّيل ، ومنها قبل طلوع الشمس ، وركعتا الفجر والمغرب أطراف النهار . وقرأ الجمهور : ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ بفتح التاءِ ، أي : لعلَّك تُثاب على هذه الأَعمال بما ترضى به ، وقرأ الكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : ﴿لَعَلَّكَ تُرْضَى﴾ ، أي : لعلَّك تُعطى ما يُرضيك(١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ ﴾

قال بعض الناس : سبب هذه الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل به ضيف فلم يكن عنده شيءٌ ، فبعث إلى يهودي ليسلفه

= الصلبة وما فيها من حرَّات ، وقد روى ابن الأنباري البيت بلفظ آخر . ذكر ذلك صاحب اللسان . وهو :

السَّالِكُ الثَّغْرَ مَخْشِيّاً مَوَارِدُهُ بِكُلِّ إِنْيٍ قَضَاهُ اللَّيْلُ يَنْتَعِلُ

والحقيقة أنه جمع بين صدر بيت آخر وبين عجز هذا البيت . والروايتان في اللسان . والأبيات كاملة في الشعر والشعراء . ويروى : (حذاه الليل) بدلاً من (قضاه الليل) .

(١) وهي أيضاً قراءة أبي حيوة ، وطلحة ، وأبي عمارة ، قال ابن خالويه في كتابه (الحجة) : «والأمر في القراءتين قريب ، لأنَّ من أُرضي فقد رَضِيَ . ودليله قوله تبارك وتعالى : ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ .

شعيراً ، فأبى اليهودي إلَّا برهن ، فبلغ الرسول ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : (والله إنِّي لأمين في السماء أمين في الأرض) ، فرهنه درْعه ، فنزلت الآية في ذلك (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا مُعترضٌ أن يكون سبباً ؛ لأن السُّورة مكيَّة والقصة المذكورة مدنية في آخر عُمْر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ؛ لأنه مات ودرعه مرهونة بهذه القصة التي ذكرت ، وإنما الظاهر أن الآية متناسقة مع ما قبلها ، وذلك أن الله تعالى وبَّخهم على ترك الاعتبار بالأُمم السابقة ، ثمَّ توعَّدهم بالعذاب المؤجل ، ثمَّ أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالاحتقار لشأنهم والصبر على أقوالهم والإعراض عن أموالهم وما في أيديهم من الدنيا ؛ إذ ذلك منصرم عنهم ، صائر بهم إلى خِزي (٢).

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أبلغ من «ولا تنظر» . لأن الذي يمد بصره إنما يحمله على ذلك حرصٌ مقترن ، والذي ينظر

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ، وابن راهويه ، والبزار ، وأبو يعلى ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والخرّائطي ، وأبو نعيم ، عن رافع . (فتح القدير والدر المنثور) .

(٢) نقل القرطبي كلام ابن عطية هذا . ثم عقَّب عليه بقوله : «قلتُ : وكذلك ما رُوي عنه عليه الصلاة والسلام أنه مرَّ بإبل بني المصطلق وقد عَبِسَتْ في أبوالها وأبعارها من السِّمَن فتقنَّع بثوبه ثم مضى لقوله عزَّ وجلَّ : ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ﴾ الآية» . ومعنى «عَبِسَتْ في أبوالها» : أن أبوالها وأبعارها قد جَفَّت على أفخاذها ، وهذا يكون من الشحم .

قد لا يكون ذلك معه . و «الأَزْوَاجُ» : الأنواع ، فكأنه قال : إلى ما متَّعنا به أقواماً منهم وأصنافاً ، وقوله : ﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ شبه نعيم هؤلاءِ الكفار بالزَّهر ، وهو ما اصفر من النَّوْر ، وقيل : الزهْرُ : النَّوْرُ جملة ؛ لأَن الزهر له منظر ثم يضمحل ، فكذلك حال هؤلاءِ ، ونصب [زَهْرَةَ] يجوز أَن يكون بإضمار فعل تقديره : جعلناه زهرةَ ، ويجوز أَن ينصب على الحال ، وذلك أَن تعريفها ليس بمحض (١) . وقرأَت فرقة : [زَهْرَةً] بالتنوين ، وقرأَت فرقة : [زَهْرَهْ] بالهاءِ مُسكَّنة ، وقرأَت فرقة : [زَهَرَةَ] بفتح الهاءِ (٢) . ثم أَخبر تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم أَن ذلك إنما هو ليختبرهم به ، ويجعله فتنةً لهم وأَمْراً يجازون عليه بالسوءِ لفساد تقلُّبهم فيه ، ورزْقُ الله تعالى الذي أَحلَّه للمتَّقين من عباده خيرٌ وأَبقى ، أَي : ورزق الدنيا خير ، ورزق الآخرة أَبقى ، وبيَّن أَنه خير من رزق الدنيا .

ثم أَمره تبارك وتعالى بأَن يأْمر أَهله بالصلاة ويمتثلها معهم ويصطبر عليها ويلازمها . وتكفَّل هو برزقه ، لا إلٰه إلَّا هو ، وأَخبره أَن العاقبة لأُولي التقوى وفي حيِّزها ، فَثَمَّ نصرُ الله في الدُّنيا ورحمتُه في

---

(١) كثرت الآراءُ في إعراب قوله تعالى : [زَهْرَةَ] — فقيل : هي مفعول ثان لـ (مَتَّعْنَا) على تضمينه معنى (أَعْطَيْنَا) ، وقيل : منصوبة على الذم ، وقيل : بل هي بدل من محلّ الجار والمجرور ، وقيل : هي بدل من [أَزْوَاجاً] على تقدير : ذوي زهرة ، وقيل غير ذلك .

(٢) أجاز الزمخشري في [زَهَرَةَ] بفتح الهاءِ أن تكون جمع زاهر ، مثل كافر وكَفَرَة ، قال : «وصفهم بأنهم زاهرو هذه الدنيا لصفاء ألوانهم مما يلهون ويتمتعون ، وتهلّل وجوههم ، وبهاء زيّهم ، بخلاف ما عليه المؤمنون من شحوب الألوان وتقشف الثياب .

الآخرة ، وهذا الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، ويدخل في عمومه جميع أُمَّته ، ورُوي أن عُروة بن الزُّبير رضي الله عنه كان إذا رأى شيئاً من أخبار السَّلاطين وأحوالهم بادر إلى منزله ودخله وهو يقرأ هذه الآية ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ ، ثمَّ يُنادي : الصلاةَ الصلاةَ يرحمكم الله ، ويصلِّي ، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوقظ أهل داره لصلاة اللَّيل ويُصلِّي ويتمثَّل بهذه الآية (١).

وقرأ الجمهور : ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ بضم القاف ، وقرأت فرقة : ﴿نَحْنُ نَرْزُقْكَ﴾ بسكونها .

ثم أخبر تعالى عن طوائف من الكفار قالوا عن محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي بعلامة مما اقترحناها عليه ، أو مما يبهر ويضطر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ورسل الله تعالى إنما اقترنت معهم آيات معرضة للنظر ، محفوفة بالبراهين العقلية ، ليضِلَّ من سبق في علم الله ضلاله ، ويهتدي من سبق هداه ، فوبَّخهم الله تعالى بقوله : ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي

---

(١) أخرج أبو عبيد ، وسعيد بن منصور ، وابن المنذر ، والطبراني في الأوسط ، وأبو نعيم في الحلية ، والبيهقي في شعب الإيمان بسند صحيح عن عبد الله بن سلام ، قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزلت بأهله شدة أو ضيق أمرهم بالصلاة ، وتلا : ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ الآية (الدر المنثور) .

﴿ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ يعني التَّوراة ، أَعظم شاهد وأَكبر آية له . وقرأَ نافع ، وأَبو عمرو ، وحفص عن عاصم : [تَـأْتِهِمْ] على لفظ [بَيِّنَةُ] ، وقرأَ الباقون وأَبو بكر عن عاصم : [يَأْتِهِمْ] بالياءِ على المعنى ، وقرأَت فرقة : ﴿بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ﴾ بالإِضافة إلى [مَا] ، وقرأَت فرقة : [بَيِّنَةٌ] بالتنوين ، و [مَا] بدلٌ على هذه القراءَة ، وقرأَت فرقة : ﴿بَيِّنَةً مَا﴾ بالنصب ، و [مَا] — على هذه القراءَة — فاعلة بـ [تَـأْتِي] ، وقرأَ الجمهور : ﴿فِي ٱلصُّحُفِ﴾ بضمِّ الحاءِ ، وقرأَت فرقة : ﴿فِي ٱلصُّحْفِ﴾ بسكونها .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ﴾

أَخبر الله تعالى نبيَّه محمداً صلى الله عليه وسلم أنه لو أَهلك هذه الأُمَّة الكافرة قبل إرساله إليهم محمداً صلى الله عليه وسلم لقامت لهم حُجَّة وقالوا : ﴿لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً﴾ الآية . وروى أَبو سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : (يحتج على الله تعالى يوم القيامة ثلاثة : الهالك في الفترة ، والمغلوب على عقله ، والصبي الصغير ، فيقول المغلوب على عقله :

رَبِّ ، لِمَ لَمْ تَجْعَل لي عقلاً ؟ ويقول الصبي نحوه ، ويقول الهالك في الفترة : يا ربِّ : لِمَ لَمْ تُرسل إليَّ رسولاً ؟ ولو جاءني لكنت أطوع خلقك لك ، قال : فتُرفع لهم نارٌ ، ويقال لهم : رِدُوهَا ، قال : فَيَرِدُهَا من كان في علم الله أنه سعيد ، ويكعُّ عنها الشَّقيُّ ، فيقول الله تبارك وتعالى : إيَّايَ عصيتم ، فكيف برسلي لَوْ أتَتْكُمْ ؟) (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فأمَّا الصَّبيُّ والمغلوب على أمره فَبَيِّنٌ أمرهما ، وأمَّا صاحب الفترة فليس ككفَّار قريش قبل النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأن كفار قريش وغيرهم مِمَّن علم وسمع عن نُبُوَّة ورسالة في أقطار الأرض فليس بصاحب فترة ، والنبي صلى الله عليه وسلم قد قال للرجل الذي سأله عن أبيه : (أبي وأبوك في النار)(٢) ، ورأي عمرو بن لحي في النار ، إلى غير

---

(١) أخرجه أبو داود في الحدود ، والترمذي في الطلاق ، وأخرج نحوه أحمد في مسنده (٤-٢٤) ، عن الأسود بن سريع ، وفيه أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : (أربعة يوم القيامة : رجل أصم لا يسمع شيئاً ، ورجل أحمق ، ورجل هرم ، ورجل مات في فترة ، فأما الأصم فيقول : ربِّ جاء الإسلام ولم أسمع شيئاً ، وأما الأحمق فيقول : ربِّ لقد جاء الإسلام والصبيان يحذفونني بالبَعْر ، وأما الهَرِم فيقول : ربِّ ، لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً ، وأما الذي مات في الفترة فيقول : ربِّ ما أتاني لَكَ رسولٌ ، فيأخذ مواثيقهم ليطيعُنَّه ، فيرسل إليهم أن ادخلوا النار ، قال : فو الذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً) ، وعن أبي هريرة مثل هذا غير أنه قال في آخره : (فمن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً ، ومن لم يدخلها يُسْحب إليها) .

(٢) أخرجه أبو داود في السُّنَّة ، وأحمد بن حنبل (٤-١٤) ، ولفظه فيهما : أين أبي ؟ قال : (أبوك في النار) ، (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي) ، وفي صحيح مسلم =

هذا مما يطول ذكره ، وإنما صاحب الفترة يفرض أنه آدمي لم يصل إليه أن الله تعالى بعث رسولاً ولا دَعَا إلى دين ، وهذا قليل الوجود ، اللَّهم إلَّا أن يشذ في أطراف الأرض المنقطعة عن العمران ، والذُّلُّ والخِزْيُ مقترنان بعذاب الآخرة .

ثمَّ أمر الله تعالى نبيَّه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يتوعَّدهم ويجبلهم ونفسه على التَّرَبُّص وانتظار الفرج ، و « التَّرَبُّصُ » : التَّأَنِّي ، و « الصِّرَاطُ » : الطريق . وقرأت فرقة ﴿ مَنْ أَصْحَابُ ٱلصِّرَاطِ ٱلسَّوِيِّ ﴾ (١) ، وقرأت فرقة : ﴿ ٱلصِّرَاطِ ٱلسَّوَاءِ ﴾ (٢) ، فكأَن هذه الآية قسمت الفريقين ، أي : سَتَعْلَمون هذا من هذا ، وقرأت فرقة : ﴿ ٱلصِّرَاطِ ٱلسَّوَّا ﴾ بشدِّ الواو وفتحها (٣) ، وقرأت فرقة : ﴿ ٱلصِّرَاطِ ٱلسُّوءَى ﴾ بضم السين وهمزة على الواو ، على وزن فُعْلَى (٤) . و ﴿ مَنِ ٱهْتَدَى ﴾ معناه : رشد .

كمل تفسير سورة طه والحمد لله رب العالمين

= في كتاب الإيمان وفي المسند للإمام أحمد ، عن أنس رضي الله عنه ، قال : قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم أين أبي ؟ قال : (في النار) ، قال : فلما رأى ما في وجهه قال : (إنَّ أبي وأباك في النار) .

(١) على وزن فَعِيل ، أي : المستوي .

(٢) أي : الوَسَط ، وهي قراءة أبي مجلز ، وعمران بن حدير .

(٣) اختلفت الأصول في ضبط هذه القراءة ، وتداخلت الألفاظ فيها وفي القراءة التالية .

(٤) قال أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط : « على وزن فُعْلَى ، أنث لتأنيث الصراط ، وهو مِمَّا يُذَكَّر ويُؤَنَّثْ » .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .



هذه السُّورة مكِّيَّة بإجماع ، وكان عبد الله بن مسعود يقول : «الكهف ومريم وطهٰ والأَنبياءُ من العتاق الأُول ، وهنَّ من تلادي»(١) ، يريد : من قديم ما كسبت وحفظت من القرآن ، كالمال التِّلاد(٢) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ ﴾

---

(١) أخرجه البخاري ، وابن الضريس ، عن ابن مسعود . والرواية كما في الدر المنثور وفتح القدير : (بنو إسرائيل ، والكهف ، ومريم ، ... الخ الحديث) .
(٢) المالُ التِّلاد : المالُ الأصلي القديم ، وقيل : هو الموروث .

رُوي أَن رجلاً من أَصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يبني جداراً ، فمرَّ به آخر في يوم نزول هذه السُّورة ، فقال الذي كان يبني الجدار : ماذا نزل اليوم من القرآن ؟ فقال له الآخر : نزل اليوم ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ ، فنفض يده من البنيان وقال : والله لا بنيت أَبداً وقد اقترب الحساب .

وقوله تعالى : ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ عام في جميع الناس وإن كان المشار إليه في ذلك الوقت كفار قريش ، ويدل على ذلك ما بعده من الآيات ، وقوله : ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ يريد الكفار .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ويتَّجه من هذه الآية على العصاة من المؤمنين قسطهم .

وقوله تعالى : ﴿مَا يَأْتِيهِمْ﴾ وما بعده مختصٌّ بالكفَّار ، وقوله : ﴿مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ ، قالت فرقة : المراد ما ينزلُ من القرآن ، وقوله : [مُحْدَثٍ] يريد نزوله وإِتْيَانَه إِيَّاهم ، لا هو في نفسه . وقالت فرقة : المراد بالذكر أَقوالُ النبي صلى الله عليه وسلم في أَمر الشريعة ، ووعْظُه وتذْكيرُه ، فهو مُحْدثٌ على الحقيقة ، وجعله «مِنْ رَبِّهم» من حيث أَن النبي صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى ، ولا يقول إِلَّا ما هو من عند الله ، وقالت فرقة : «الذِّكْرُ» الرَّسُولُ نفسه ، واحتجت على ذلك بقوله تبارك وتعالى : ﴿قَدْ أَنْزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً رَسُولاً

يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ ٱللهِ مُبَيِّنَاتٍ ﴾(١) ، فهو محدث على الحقيقة ، ويكون معنى [ٱسْتَمَعُوهُ] بمعنى : استمعوا إليه . وقوله : ﴿ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ جملة في موضع الحال ، أي : استماعهم في حال لعب ، فهو غير نافع ولا واصل النفس .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝ ﴾

قوله : [لَاهِيَةً] حالٌ بعد حالٍ(٢)، واختلف النحاة في إعراب قوله سبحانه : ﴿ وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ ــ فمذهب سيبويه أن الضمير في قوله : [وَأَسَرُّوا] فاعل ، وأن [ٱلَّذِينَ] بدلٌ منه . وأن لغة «أَكَلُوني البراغيث» ليست في القرآن ، وقال أبو عبيدة وغيره : الواو والألف علامة أن الفاعل مجموع ، كالتاءِ في قولك :

(١) من الآيتين (١٠ ، ١١) من سورة (الطلاق) .

(٢) هذا إذا جعلناها حالاً من الضمير في [ٱسْتَمَعُوا] ، ويمكن أن تكون حالاً من الضمير في [يَلْعَبُونَ] .

«قامت هند» ، و [ٱلَّذِينَ] فاعل بـ [أَسَرُّوا] ، وهذا على لغة من قال : «أَكَلُوني البراغيث» ، وقالت فرقة : الضمير فاعل ، و [ٱلَّذِينَ] مرتفع بفعل تقديره : أَسَرَّها الذين ، أَو قالها الذين .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والوقوف على [ٱلنَّجْوَى] في هذا القول وفي القول الأَول أَحسن ، ولا يحسن في الثاني . وقالت فرقة : [ٱلَّذِينَ] مرتفع على خبر ابتداءٍ مضمر ، تقديره : هم الذين ظلموا ، والوقف مع هذا حسن . وقالت فرقة : [ٱلَّذِينَ] في موضع نصب بفعل تقديره : أَعني الذين . وقالت فرقة : [ٱلَّذِينَ] في موضع خفض بدل من [ٱلنَّاسِ] في قوله : ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذه أَقوال ضعيفة .

ومعنى : ﴿وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَى﴾ : تكلَّموا بينهم بالسِّرِّ والمناجاة بعضهم لبعض ، وقال أَبو عبيدة : [أَسَرُّوا] : أَظهروا ، وهو من الأَضداد ، ثمَّ بيَّن تعالى الأَمر الذي تناجوا به وهو قول بعضهم لبعض : ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ ، ثم قال بعضهم لبعض ــ على جهة التوبيخ في الجهالة ــ : ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ﴾ ، أَي ما يقول ، شبَّهوه بالسِّحر ، المعنى : أَفتتَّبعون السِّحر ؟ ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ ،

أي تدركون أنه سِحْر ، وتعلمون ذلك ، كأنهم قالوا : تضلُّون عن بَيِّنَة ومعرفة ، ثم أمر الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم وللناس جميعاً : ﴿رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ، أي : يعلم أقوالكم هذه وهو بالمرصاد في المجازاة عليها .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : ﴿قُلْ رَبِّي﴾ ، وقرأ حمزة ، والكسائي : ﴿قَالَ رَبِّي﴾ على معنى الخبر عن نبيِّه صلى الله عليه وآله وسلم ، واختلف عن عاصم ، قال الطبري رحمه الله : وهما قراءتان مستفيضتان في قراءة الأمصار .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ﴾

لما اقتضت الآية التي قبل هذه أنهم قالوا إن ما عنده سحرٌ ، عدّد الله تعالى في هذه الآية جميع ما قالته طوائفهم ، ووقع الإضراب بكل مقالة عن المتقدمة لها ليبيِّن اضطراب أمرهم ، فهو إضراب

عن جَحْد متقدم لأَن الثاني ليس بحقيقة في نفسه . و «الْأَضْغَاثُ» : الأَخلاط ، وأَصلُ الضِّغث : القبضة المختلطة من العشب والحشيش ، فشبِّهت تخاليط الحُلْم بذلك ، وهو مالا يتفسَّر ولا يتحصل ، ثمَّ حكى قول من قال : إنَّه مُفتر قاصد للكذب ، ثم حكى قول من قال : شاعر ، وهي مقالة فرقة عاميَّة منهم ، لأَن نبلاءَ العرب لم يخف عليهم بالبديهة أَن مباني القرآن ليست مباني شِعْر ، ثم حكى اقتراحهم وتمنيهم آيةً تضطرهم وتكون في غاية الوضوح كناقة صالح عليه السلام وغيرها ، وقوله : ﴿كَمَا أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ دالٌّ على معرفتهم بإتيان الرُّسل الأُمم المتقدمة .

وقوله تعالى : ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناهَا﴾ قبله كلام مقدرٌ يدل عليه المعنى ، تقديره : والآية التي طلبوها عادَتُنا أَن القوم إن كفروا بها عاجلناهم ، وما آمنت قرية من القرى التي نزلت بها هذه النازلة ، فهذه كانت تؤمن ؟ وقوله : [أَهْلَكْنَاهَا] جملة في موضع الصفة للقرية ، والجُمل إذا أُتبعت النكرات فهي صفات لها ، وإذا أُتبعت المعارف فهي أَحوال منها .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً﴾ ردٌّ على فرقة منهم كانوا يستبعدون أَن يبعث الله من البشر رسولاً يشِفُّ(١) على نوعه من

(١) أي يزيد : الشّفُّ : الرِّبح والفضل والزيادة ، وهو أيضاً النقصان ، يقال : شَفَّ الدرهم يشفُّ إذا زاد وإذا نقص .

البشر بهذا القدر من الفضل ، فمثل الله تعالى في الردّ عليهم بمن سبق من الرُّسل من البشر ، وقرأ الجمهور : [يُوحَى] على بناء الفعل للمفعول ، وقرأ حفص عن عاصم : [نُوحِي] بالنون ، ثم أحالهم على سؤال أهل الذِّكر من حيث لم يكن عند قريش كتاب ولا أثارة من علم .

واختلف الناس في أهل الذِّكر ، من هم ؟ فَرُوي عن عبد الله بن سلام أنه قال : أنا من أهل الذِّكر ، وقالت فرقة : هم أحبار أهل الكتاب ، ورُوي عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال : أنا من أهل الذِّكر ، وقالت فرقة : هم أهل القرآن .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا موضع ينبغي أن يُتَأَمَّل(١) ؛ وذلك أنَّ الذكر هو كل ما يأْتي من تذكير الله عباده ، فأهل القرآن أهل ذكر ، وهذا أراد عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، وأمَّا المحال على سؤالهم في هذه الآية فلا يصح أن يكونوا أهل القرآن في ذلك الوقت ؛ لأنهم كانوا خصومهم ، وإنما أُحيلوا على سؤال أحبار أهل الكتاب من حيث كانوا موافقين لهم على ترك الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فتجيءُ شهادتهم - بأن الرُّسل قديماً من البشر لا مطعن فيها - لازمة لكفار قريش .

---

(١) في بعض النسخ : ينبغي أن يتأول .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً ﴾ ، قيل : الجسد من الأَشياء يقع على مالا يتغذى ، ومنه قوله سبحانه : ﴿ عِجْلاً جَسَداً ﴾(١) ، فمعنى هذا : ما جعلناهم أَجساداً لا تتغذّى ، وقيل : الجسد يعم المتغذّي من الأَجسام وغير المتغذي . فالمعنى : ما جعلناهم أَجساداً وجعلناهم مع ذلك لا يأْكلون الطعام كالجمادات أَو كالملائكة ، ف ﴿ جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً ﴾ على التأْويل الأَول منفيٌّ ، وعلى الثاني موجب والنَّفْيُ واقع على صفته ، وقوله تعالى : ﴿ لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ﴾ كناية عن الحدث ، ثم نفى عنهم الخُلْد لأَنه من صفات القديم ، وكل محدث فغير خالد في الدنيا

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

هذه وعيد في ضِمْن وَصْفه تعالى سِيرَتَهُ في الأَنبياء عليهم السلام من أَنه يصدق مواعيدهم . فكذلك يصدق لمحمد صلى الله عليه وسلم

(١) من الآية (٨٨) من سورة (طه) .

ولأصحابه ما وعدهم من النصر وظهور الكلمة . وقوله : ﴿ وَمَنْ نَشَاءُ ﴾ يعني من المؤمنين ، و «المسرفون» : الكفارُ المفرطون في غيِّهم وكفرهم ، وكل من ترك الإِيمان مسرف .

ثم وبَّخهم تبارك وتعالى بقوله : ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ ، والكتابُ : القرآن ، وقوله : ﴿ فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ يحتمل أن يريد : فيه الذِّكر الذي أنزله الله إليكم بأمر دينكم وآخرتكم ونجاتكم من عذابه ، فأضاف الذِّكر إليهم من حيث هو في أمرهم ، ويحتمل أن يريد : فيه شرفكم وذكركم آخر الدَّهر كما تُذكر عظام الأُمور ، وفي هذا تحريض ، ثمَّ أكَّد التحريض بقوله : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ، وحركهم بذلك إلى النَّظر .

ثم مثَّل لهم على جهة التوعُّد بمن سلف من الأُمم المعذَّبة ، و [كَمْ] للتكثير ، وهي في موضع نصب بـ [قَصَمْنَا] ، و [قَصَمْنَا] معناه : أهلكنا ، وأصل القَصْم : الكسْر في الأَجرام ، فإذا استعير للقوم والقرية ونحوه فهو ما يشبه الكسر ، وهو إهلاكهم ، فأوقع هذه الأُمور على القرية والمراد أهلها ، وهذا مَهْيَع كثير ، ومنه : ﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ ﴾(١) ، وقوله : ﴿ وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا ﴾ معناه : خلقنا وأثبتنا أمة أُخرى غير المُهْلَكَة .

---

(١) من الآية (٦) من هذه السورة (الأنبياء)

وقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا﴾ وصف عن قرية من القُرى المجملة أولاً ، قيل : كانت باليمن تسمَّى حَضُوراءِ بعث الله تعالى إلى أهلها رسولاً فقتلوه ، فأرسل إليهم بختنصر صاحب بني إسرائيل ، فهزموا جيشه مرتين ، فنهض في الثالثة إليهم بنفسه ، فلما هزمهم وأعمل القتل فيهم ركضوا هاربين ، ويحتمل ألا يريد بالآية قرية بعينها ، وأنه واصف كلَّ قرية من القرى المعذبة ، وأن أهل كل قرية كانوا إذا أحسُّوا العذاب من أي نوع كان أخذوا في الفِرار ، و «أَحَسُّوا» : باشروا بالحواسّ . و «الرَّكْضُ» : تحريك القدم على الصفة المعهودة ، والفَارُّ والجاري بالجملة راكضٌ ، إمَّا دابة وإمَّا الأَرض تشبيهاً بالدَّابة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾

يحتمل قوله تعالى : ﴿لَا تَرْكُضُوا﴾ إلى آخر الآية أن يكون من قول رجال بختنصر على الرواية المتقدمة . فالمعنى على هذا أنهم خدعوهم واستهزءُوا بهم بأن قالوا للهاربين منهم : لا تفرُّوا وارجعوا إلى مواضعكم

لعلَّكم تسأَلون صلحاً أَو جزية أَو أَمراً يتفق عليه ، فلما انصرفوا أَمر بختنصر أَن ينادى فيهم : يا ثارات النبي المقتول ، فقتلوا بالسَّيف عن آخرهم .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا كله مروي . ويحتمل أَن يكون ﴿لَا تَرْكُضُوا﴾ إلى آخر الآية من كلام ملائكة العذاب على التأْويل الآخر ، أَن الآيات وصف قصة كل قرية ، وأَنه لم يُرد تعيين حَضُوراءَ ولا غيرها ، فالمعنى على هذا أَن أَهل هذه القرى كانوا باغترارهم يرون أَنهم من الله بمكان ، وأَنه لو جاءهم عذاب أَو أَمر لم ينزل بهم حتى يخاصموا أَو يسأَلوا عن وجه تكذيبهم لنبيِّهم ، فيحتجون هم عند ذلك بِحُجَجٍ تنفعهم في ظنهم ، فلمَّا نزل العذاب دون هذا الذي أَمَّلوه وركضوا فارِّين نادتهم الملائكة – على وجه الهُزْءِ بهم – : لا تركضوا وارجعوا لعلَّكم تُسأَلون كما كنتم تطمعون بسفه رأْيكم ، ثم يكون قوله : [حَصِيداً] أَي بالعذاب تُركوا كالحصيد . و «الإِتْراف» : التَّنعيم ، و [دَعْوَاهُمْ] معناه : دعاؤُهم وكلامهم ، أَي : لم ينطقوا بغير التأَسُّف ، و «الحَصِيدُ» يشبه بحصيد الزرع بالمنجل ، أَي ردَّهم الهلاك كذلك ، و [خَامِدِينَ] أَي موتَى دون أَرْواحٍ ، مشبَّهين بالنَّار إذا طفيت .

ولمَّا فرغ وصف هذه الحال وعظ الله تعالى السَّامعين بقوله : ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَاءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ ، أَي : كما ظنَّ

هؤلاءِ الذين نزل بهم ما نزل ، وكما تظنُّون أيُّها الكفرة الآن ، ففي الآية وعيد بهذا الوجه ، والمعنى : إنما خلقنا هذا كله لِيُعْتبر به ويُنْظر فيه ويُؤْمن بالله بِحَسَبِهِ .

قال بعض الناس : [تُسْأَلُونَ] معناه : تفهمون وتفقهون .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا تفسير لا يعطيه اللّفظ ، وقالت فرقة : [تُسْأَلُونَ] معناه : شيئاً من أموالكم وعَرَض دنياكم ، على جهة الهُزْءِ .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

ظاهر هذه الآية الرَّدُّ على من قال من الكفار أمر مريم وما ضارعه من الكفر ، تعالى الله عن قول المبطلين ، و «اللَّهْوُ» في هذه الآية : المرأةُ . ورُوي أنها في بعض لغات العرب تقع على الزوجة ، و [إنْ] في قوله : ﴿إنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ يحتمل أن تكون الشرطية ، بمعنى : لَوْ كُنَّا فَاعِلِينَ . ولَسْنَا كذلك ، وللمتكلِّمين هنا اعتراض وانفصال ، ويحتمل أن تكون نافية ، بمعنى (ما) ، وكل هذا قد قيل .

و «ٱلْحَقُّ» عامٌّ في القرآن والرِّسالة والشَّرع وكل ما هو حق ، و «ٱلْبَاطِلُ» أيضاً عامٌّ كذلك ، و [يَدْمَغُهُ] معناه : يصيب دماغَه ، وذلك مُهْلِك في البشر ، فكذلك الحق يهلِك الباطل ، و «ٱلْوَيْلُ» : الخِزْيُ والهَمُّ ، وقيل : هو اسم وادٍ في جهنَّم فهو المراد في هذه الآية ، وهذه مخاطبة للكفَّار الذين وصفوا الله تبارك وتعالى بما لا يجوز عليه وما لا يليق به ، تعالى الله وتبارك وتقدَّس وتنَزَّه عن قولهم ، بل هو كما وصف نفسه ، وفوق ما نعته به خلقُه ، لَا رَبَّ غيره .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى : [وَلَهُ] يحتمل أن يكون ابتداء كلام ، ويحتمل أن يكون معادلاً لقوله : ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ﴾ ، كأنه تقسيم الأمر في نفسه ، أي : للمختلقين هذه المقالة الويلُ وله تعالى من في السموات والأرض ، واللَّام في [لَهُ] لام المِلْك ، و ﴿مَنْ فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعم الملائكة والنَّبيِّين وغيرهم ، ثم خصص من هذا العموم من أراد تشريفه

من الملائكة بقوله : ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ ﴾ ؛ لأَن [عِنْدَ] هنا ليست في المسافات ، وإنما هي تشريف في المنزلة ، فوصفهم تعالى بأَنهم لا يستكبرون عن عبادة الله ، ولا يسأَمونها ولا يكلُّون فيها . و «ٱلْحَسِيرُ» من الإبل : المُعْيِـي ، ومنه قول الشاعر :

لَهُنَّ ٱلْوَجَى كَمْ كُنَّ عَوْناً عَلَى النَّوَى   وَلَا زَالَ مِنْهَا ضَالِـعٌ وَحَسِيرُ (١)

و «حَسَرَ» و «اسْتَحْسَرَ» بمعنى واحد ، وهذا موجود في كثير من الأَفعال ، وإن كان في استفعل لطلب الشيء .

وقوله تعالى : ﴿ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ ، روي عن كعب الأَحبار رحمه الله تعالى أنه قال : جعل الله لهم التَّسبيح كالنَّفَس وطرف العين للبشر ، يقع منهم دائماً دون أَن تلحقهم فيه سآمة ، وقال قتادة رحمه الله : ذُكر لنا أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما هو جالسٌ مع أَصحابه إذ قال : (تسمعون ما أَسمع) ؟ قالوا : ما نسمع من شيءٍ يا رسول الله . قال : (إنِّي لأَسمع أَطيط السماءِ ، وحقَّ لها أَن تئِط ، ليس فيها موضع راحة إلَّا وفيها مَلَك ساجدٌ أَو قائم) (٢) .

---

(١) الوَجَى : الحَفَى ، يقال : وَجِيَ الماشي إذا حَفِيَ . وهو أن يرقّ القدم ، يقال للإنسان والحيوان ، والنَّوَى : البُعْد والفراق ، والضَّالع : القوي الشديد الأضْلاع ، يصف الإبل بأنها أصيبت بالحفى من كثرة ما سافرت وأبعدت الناس ، وبأن فيها القوي الذي لا يزال قادراً على السير ، وفيها الضعيف الذي أصيب بالعجز عن السير .

(٢) الحديث في الطبري ، عن قتادة . وأخرجه الترمذي ، وابن ماجه في الزهد ، كما أخرجه أحمد في مسنده عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه ، (٥ / ١٧٣) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

هذه [أَمْ] التي هي بمنزلة ألف الاستفهام ، وهي هنا تقرير وتوقيف، ومذهب سيبويه أَنها بمنزلة (بل) مع ألف الاستفهام ، كأَن في القول إضراباً عن الأَول ووقفهم الله تعالى بقوله : هل اتَّخَذُوا آلِهَةً يُحْيُونَ ويخترعون ؟ أَيْ : ليست آلهتهم كذلك ، فهي غير آلهة ؛ لأَن مِنْ صِفة الإلٰه القدرةُ على الإحياءِ والإماتة . وقرأَت فرقة : [يُنْشِرُونَ] بضم الياءِ ، بمعنى : يُحْيُونَ غيرهم ، وقرأَت فرقة أُخرى : [يَنْشُرُونَ](١) بمعنى يَحْيَوْن هم وتدوم حياتهم ، يقال : نَشَر الميتُ وأَنشره الله .

ثمَّ بيَّن تبارك وتعالى أَمر التمانع بقوله سبحانه : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾(٢) ، وذلك بأَنه كان يبغي بعضهم على بعض

(١) أي بفتح الياءِ وضم الشين ، فهي مضارع (نَشَرَ) ، أمَّا القراءةُ بضم الياء وكسر الشِّين فهي على أن الفعل مضارع (أَنْشَر) ، وهما لغتان ، نَشَرَ وأَنْشَر متعديان ، ونَشَر يأتي لازماً ، تقول : أَنْشَرَ اللهُ الموتى فَنَشَرُوا ، أي : فَحَيَوا ، قال ذلك صاحب البحر .

(٢) قال الكسائي وسيبويه : [إلاَّ] هنا بمعنى (غير) ، فلما جعلت (إلاَّ) في موضع =

ويذهب بما خلق ، واقتضاب القول في هذا أَنَّ إلٰهَيْن لو فُرضا فرَّق بينهما الاختلاف في تحريك جِرْم وتَسْكينه ، فمحال أن تتم الإرادتان ، ومحالٌ أَلَّا تتمَّا جميعاً ، وإذا تمَّت الواحدة كان صاحب الأُخرى عاجزاً ، وهذا ليس بإلٰه ، وجواز الاختلاف عليهما بمنزلة وقوعه منهما . ونظَرٌ آخر ، وذلك أن كل جزءٍ يخرج من العدم إلى الوجود فمحال أن تتعلَّق به قدرتان . فإذا كانت قدرة أحدهما توجد بَقِـيَ الآخر فَضْلاً لا معنى له في ذلك الجزءِ ، ثمَّ يتمادى النَّظَر هكذا جُزْءًا جُزْءًا . ثم نزَّه تبارك وتعالى نفسه عما وصفه به أَهل الجهالة والكفر .

ثم وصف تعالى نفسه بأَنه ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ ، وهذا وصف يحتمل معنَيَيْن : إمَّا أَن يريد أَنه بحق ملكه وسُلطانه لا يُعارض ولا يُسْأَل عن شيءٍ يفعله ؛ إذْ اه أَن يفعل في مُلْكِه ما يشاءُ ، وإمَّا أَن يريد أَنه مُحْكَمُ الأَفعال وواضع كل شيءٍ في موضعه ، فليس في أَفعاله سؤالٌ ولا اعتراض . وهؤلاءِ من البَشَر يُسْأَلُون لهاتين العِلَّتين ؛ لأَنهم ليسوا مالكين ، ولأَنهم في أَفعالهم خَلَل كثير(٢) .

= (غير) أعرب الاسم الذي بعدها بإعراب (غير) ، كما قال الشاعر :

وكُلُّ أخٍ مُفَـارِقُهُ أخـوهُ لَعَمْرُو أبيكَ إلاَّ الفَرْقَـدَانِ

وقال الفراءُ : [إلاَّ] هنا في موضع (سِوَى) . والمعنى : لو كان فيهما آلِهَةٌ سوى الله لفسدتا .

(١) رُوي أن رجلاً قال للإمام علي رضي الله عنه : أيحبُّ ربنا أن يُعصى ؟ قال : أفيُعْصى ربنا قهراً ؟ قال : أرأيت إن منعني الهُدى ومنحني الرَّدَى أأحْسَنَ إليَّ أمْ أساءَ ؟ قال : إن منعك حقك فقد أسـاءَ ، وإن منعك فضْلَه فهو فضلُه يؤتيه من يشاءُ . ثم تلا الآية : ﴿لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ .

ثم قرَّرهم تعالى ثانية على اتخاذ الآلهة ، وفي تكرار هذا التقرير مبالغة في نكيره وبيان فساده ، وفي هذا التقرير زيادة على الأَّول ، وهي قوله : ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ ، فكأَنَّه قَرَّرهم هنا على قصد الكفر بالله عزَّ وجلَّ ، ثم دعاهم إلى الحُجَّة والإتيان بالبرهان .

وقوله تعالى : ﴿هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي﴾ يحتمل أن يريد بـ [هَذَا] جميع الكتب المنزلة قديمها وحديثها ، أي : ليس فيها برهان على اتخاذ الآلهة من دون الله ، بل فيها ضد ذلك . ويحتمل أن يريد بقوله : [هَذَا] القرآن ، والمعنى : فيه ذِكْر الأَّولين وذكر الآخرين ، فذكر الآخرين بالدعوة وبيان الشَّرع لهم وردّهم على طريق النجاة ، وذكر الأَّولين بقصِّ أخبارهم وذكر الغيوب في أُمورهم . ومعنى الكلام ـ على هذا التأْويل ـ عرض القرآن في معرض البرهان ، أي : هاتوا برهانكم فهذا برهاني أنا ظاهرٌ في ذكر من مَعي وذكر مَن قَبْلي . وقرأت فرقة : ﴿هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي﴾ بالإضافة فيهما ، وقرأت فرقة : ﴿هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ﴾ بالاضافة ﴿وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي﴾ بتنوين [ذِكْرٌ] الثاني وكسر الميم في قوله : ﴿مِنْ قَبْلِي﴾ ، وقرأ يحي بن سعيد (١) ، وابن مصرف بالتنوين في [ذِكْر] من المَوْضِعَيْن وكسر الميم في [مِنْ] في المَوْضِعَيْن ، وضَعَّف أبو حاتم

(١) في كتب التفسير والقراءات : «يَحْيَى بن يَعْمَر» ، وهو غير يحيى بن سعيد الأنصاري ، ولعلَّ الخطأ من النساخ .

هذه القراءة ، كسر الميم في الأول ، ولم يَرَ لها وَجْهاً (١) .

ثم حكم عليهم تعالى بأَن أكثرهم لا يعلمون الحقَّ لإعراضهم عنه ، وليس المعنى : فهم مُعرِضون لأَنهم لا يعلمون ، بل المعنى : فهم معرضون ولذلك لا يعلمون الحقَّ ، وقرأ الحسن ، وابن محيصن : [ٱلْحَقُّ] بالرَّفع على معنى : هذا القول هو الحقُّ ، والوقف في هذه القراءة على ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

---

(١) قال : لأن (مَنْ) دخلت على (مَعْ) ، وقال أبو الفتح : « هذا أحد ما يدل على أن (مع) اسم ، وهو دخول (مِن) عليها ، حكى صاحب الكتاب ، وأبو زيد ذلك عنهم : جئتُ مِنْ مَعِهِمْ ، أي : مِن عندهم ، فكأنه قال : هذا ذِكْرٌ مِنْ عندي ومِنْ قَبْلي ، أي : جئتُ أنا به كما جاء به الأنبياءُ مِن قَبْلي ، كما قال الله تعالى : ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ » .

(٢) ويكون قوله سبحانه : [ٱلْحَقُّ] مستأنفاً ، وتقدير الكلام : « هذا الحقُّ » ، فهو خبر مبتدإ محذوف ، ويوقف أيضاً على [ٱلْحَقُّ] ثُم يستأنف الكلام فيقال : ﴿فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ .

لمَّا أَخبرهم تبارك وتعالى أَنهم لا يعلمون الحق لإعراضهم أُتبع ذلك بإعلامه أَنه ما أَرسل رسولاً قَطُّ إلَّا أَوْحَى إليه أَن الله تعالى فردٌ صمدٌ ، وهذه عقيدة لم تختلف فيها النُّبوَّات ، وإنما اختلفت في الأَحكام . وقرأَ حمزة ، والكسائي : [نُوحِي] بنون مضمومة ، وقرأَ الباقون : [يُوحَى] بياءٍ مضمومة ، واختلف عن عاصم (١) .

ثمَّ عدَّد الله تعالى بعد ذلك نوعاً آخر من كفرهم ، وذلك أَنهم مع اتخاذهم آلهةً كانوا يُقرُّون بأَن الله تعالى هو الخالق الرَّازق إلَّا أَنهم قال بعضهم : اتَّخَذ الملائكة بنات ، وقال نحو هذه المقالة النصارى في عيسى بن مريم ، واليهود في عُزَيْر ، فجاءَت هذه الآية رادَّة على جميعهم مُنَبِّهَةً عليهم . ثمَّ نزَّه تعالى نفسه عن مقالة الكفرة ، وأَضرب عن مقالهم ، ونَصَّ ما هو الأَمر في نفسه بقوله : ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾ ، وهذه عبارةٌ تشمل الملائكة وعيسى وعُزَيْراً .

وقوله تعالى : ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ ﴾ عبارة عن حُسْن طاعتهم وعبادتهم ومراعاتهم لامتثال الأَمر . وقوله تعالى : ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ أَي : ما تقدم من أَفعالهم وأَعمالهم والحوادث التي لها إليهم تسبب ، وما تَأَخَّر ، ثم أَخبر أَنهم لا يشفعون إلَّا لمن ارتضى الله أَن يشفع لهم ، قال بعض المفسرين : لأَهل لَا إلٰه إلَّا الله . و « المُشْفِقُ » : المُبالغ في الخوف المحترقُ النفس من الفزع على أَمْرٍ مَّا .

---

(١) فروى حفصة عنه القراءة بالنون ، وروى أبو بكر عنه القراءة بالياء .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ * وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

المعنى : من يَقُل منهم كذا إن لو قاله ، وليس منهم من قال هذا ، وقال بعض المفسرين : المراد بقوله : ﴿وَمَن يَقُلْ﴾ الآية ... إبليسُ(١).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف ؛ لأن إبليس لم يُرْوَ قطُّ أنه ادَّعى رُبوبيَّة .

وقرأ الجمهور : [نَجْزِيهِ] بفتح النون ، وقرأ أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد(٢) . [نُجْزِيهُ] بضم النون والهاء ، ووَجْهُها أن المعنى : نجعلها تكتفي به ، من قولك : أَجزأني الشيءُ ، ثم خففت الهمزة ياءً (٣) . وقوله : [كَذَلِكَ] أي كجزائنا هذا القائل جزاؤُنا الظالمين .

(١) القائل بأن المراد بالآية إبليس هو قتادة والضحاك ، على اعتبار أنه ادّعى الشركة .

(٢) في بعض النسخ : « عبد الله بن سعيد » ، وهو خطأ ، والمراد عبد الله بن يزيد المكي ، أبو عبد الرحمن المقرئ أصله من البصرة أو الأهواز ، قال عنه في التقريب : « ثقة فاضل ، أقرأ القرآن نيفاً وسبعين سنة ، من التاسعة ، وهو من كبار شيوخ البخاري ، مات سنة ثلاث عشـرة » .

(٣) قال ابن مجاهد عن هذه القراءة : لا أدري ما ضم النون ، لا يقال إلاّ : جَزَيْتُ ، كقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا ﴾ وقال ابن جني عنها : « هذا لعمري غريب عن الاستعمال ، إلاّ أن له وجهاً أذكره . » ، وهو الذي لخّصه هنا ابن عطية رحمه الله .

ثم وَقَفَهم تعالى على عِبْرة دالَّة على وحدانية الله جلَّت قدرته .

و «الرَّتْقُ» : الملتصق بعضه ببعض الذي لا صدْع فيه ولا فتح ، ومنه : «امرأةٌ رَتْقاءُ» (١) . واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى : ﴿ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ ، فقالت فرقة : كانت السماءُ ملتصقة بالأَرض ففتقهما الله بالهواءِ ، وقالت فرقة : كانت السماءُ ملتصقة بعضها ببعض والأَرض كذلك ففتقهما الله سبعاً سَبْعاً .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وعلى هذين القولين فالرُّؤْية المُوقَف عليها رؤْية القلب .

وقالت فرقة : السماءُ قبل المطر رَتْق ، والأَرض قبل النبات رَتْق ، ففتقهما الله تعالى بالمطر والنبات ، كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَٱلسَّمَاءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴾ (٢) ، وهذا قولٌ حسن يجمع العِبْرة وتَعْديد النِّعمة والحُجَّة بمحسوسٍ بيِّن ، ويناسب قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ ، أَي : من الماءِ الذي أَوجده الفتق ، فيظهر معنى الآية ويتوجَّه الاعتبار . وقالت فرقة : السماءُ والأَرض رتق بالظلمة ففتقهما الله تعالى بالضوءِ .

---

(١) جاء في اللسان (رتق) : «وهي رتقاءُ بيِّنة الرَّتَق : التصق ختانُها فلم تُنَل لارتِتَاق ذلك الموضع منها ، فهي لا يستطاع جماعها» .

(٢) الآيتان (١١ ، ١٢) من سورة (الطارق) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والرُّؤْية على هذين القولين رؤْية العين ، والأَرض هنا اسمٌ للجنس ، فهو جمع .

وقرأ الجمهور : [رَتْقاً] بسكون التاء ، و «الرَّتْقُ» : مصدرٌ وُصف به كالزَّوْر والعَدْل . وقرأ الحسن ، والشَّعبي ، وأَبو حيوة : ﴿كَانَتَا رَتَقاً﴾ بفتح التاء ، وهو اسم المرتوق كالنَّفْض والنَّفَض والخَبْط والخَبَط (١) ، وقال : [كَانَتَا] من حيث هما نوعان ، ونحوه قول عمرو بن شُيَيْم (٢) :

أَلَمْ يَحْزُنْكَ أَنَّ حِبَالَ قَيْسٍ وَتَغْلِبَ قَدْ تَبَايَنَتَا انْقِطَاعاً (٣)

---

(١) قال ابن جنّي في المُحْتَسَب : « قد كثر عنهم مجيءُ المصدر على فَعْل ساكن العين ، واسم المفعول منه على فَعَل مفتوحها ، وذلك قولهم : النَّفْض للمصدر والنَّفَض للمنفوض ، والخَبْط المصدر والخَبَط الشيءُ المخبوط ، والطَّرْد المصدر والطَّرَد المطرود ، وإن كان يستعمل مصدراً نحو الحَلْب والحَلَب ، فقراءة الجماعة : ﴿كَانَتَا رَتْقاً﴾ كأنه مما وُضع من المصادر موضع اسم المفعول ، كالخَلْق بمعنى المخلوق ، وأما [رَتَقاً] بفتح التاء فهو المرتوق ، أي : كانتا شيئاً واحداً مرتوقاً » .

(٢) هكذا في الأصول ، وهو خطأٌ من النساخ ، فالاسم الحقيقي للشاعر هو عُمَيْر بن شُيَيْم ، من بني تغلب ، وهو المعروف باسم القُطَامي ــ بضم القاف وفتحها ــ ، راجع ترجمته في الأغاني ، وخزانة الأدب ، والاشتقاق ، والمؤتلف ، والجُمحي ، والمرزباني .

(٣) هذا البيت من قصيدة للقطامي ، ومطلعها : « قِفِي قبْلَ التَّفرق يا ضباعَا » ، وقد قالها يمدح زُفَر بن الحارث الكلابي الذي أَسره في حرب كانت بين قيس عيلان وتغلب ، وأرادت قيس قتل القطامي ، لكن زُفَر حال بينهم وبينه ، ومَنَّ عليه ، ووهب له مائة ناقة ، وردَّه إلى تغلب مكرماً ، فقال :

أَأَكْفُرُ بَعْدَ رَدِّ الْمَوتِ عَنِّي وَبَعْدَ عَطَائِكَ الْمِائَةَ الرِّتَاعَا ؟

والمراد بالحبال في البيت ما بين قيس وتغلب من علاقات وعهود ، وتباينت : تفرقت واختلفت .=

وقوله : [كَانَتَا] في القولين بمنزلة قولك : « كَان زيدٌ حَيًّا » ، أي : ثم لم يكن ، وفي القولين الآخرين بمنزلة قولك : « كان زيد عالماً » ، أي : وهو كذلك . وقرأ ابن كثير وحده : ﴿أَلَمْ يَرَ﴾ . بإسقاط الواو .

وقوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ بَيِّنٌ أنه ليس على عمومه ، فإن الملائكة والجن قد خرجوا من ذلك ، ولكن الوجه أن يُحمل على أعم ما يمكن ، فالحيوانُ أجمع والنَّباتُ ــ على أن الحياة فيه مستعارة ــ داخلٌ في هذا . وقالت فرقة : المراد بالماءِ المَنِيُّ الذي في جميع الحيوان . ثم وقَفَهم على ترك الإيمان توبيخاً وتقريعاً .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾

= أي : انقطعت الصِّلاتُ بينهما ، والشاهد أن الشاعر قال : تباينَتَا بلفظ التثنية ، مع أن (حبال) جمع ، فكان الظاهر أن يقول : تبايَنَت انقطاعاً ، وأن يراعي الجمع في الحبال ، ولكنه راعى أنهما نوعان ، حبال لقيس وحبال لتغلب . ومثل هذا البيت قول الأسود بن يَعْفُر :

إنَّ المنيَّةَ والحُتُوفَ كلاهُمَا ... تُوفي المَخَارِمَ يَرقُبَانِ سَوَادي

فقد قال : يرقبان ، ولو جرى على ما يقتضيه الظاهر لقال : ترقُبُ سوادي ، لأن المنيَّة والحتوف عدة أشياء .

الرَّواسي جمع راسية ، أي ثابتة ، يقال : رسا يرسو إذا ثبت واستقر ، ولا يستعمل إلَّا في الأَجرام الكبار كالجبال والسَّفينة ونحوها (١). ويُروى أن الأَرض كانت تكفأُ بأَهلها حتى ثقلها الله بالجبال فاستقرَّت. و «المَيَد» : التحرُّك ، و «الْفِجَاجُ» : الطرق المتَّسعة في الجبال وغيرها و [سُبُلاً] : جمع سبيل ، والضمير في قوله تعالى : [فِيهَا] يحتمل أن يعود على الرَّواسي ، ويحتمل أن يعود على الأَرض ، وهو أحسن . و [يَهْتَدُونَ] معناه : في مسالكهم وتصرُّفهم .

و «السَّقْفُ» : ما عَلَا ، والْحِفْظُ هنا عامٌّ في الْحِفْظ من الشياطين ومن الوهى والسُّقوط وغير ذلك من الآفات .

و «آيَاتُهَا» : كواكبُها وأَمطارها والرَّعد والبرق والصَّواعق وغير ذلك مما يشبهه . وقرأت فرقة : ﴿عَنْ آيَتِهَا﴾ بالإفراد الذي يراد به الجنس .

و «الْفَلَكُ» : الجِسْم الدائر دورة اليوم واللَّيلة ، فالكلُّ في ذلك سابح متصرف .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وعن بعض المفسرين إلى الكلام فيما هو الفَلَك (٢) ، فقال بعضهم : كحديدة الرَّحى ، وقال بعضهم : كالطَّاحونة ، وغير هذا مما لا ينبغي

(١) في بعض النسخ : ونحوه .
(٢) هكذا في جميع الأصول ، ولعلَّ بعض الكلام قد سقط من الناسخ .

التَّسَوُّر عليه(١) ، غير أنَّا نعرف أن الفَلَك جسم مستدير ، و [يَسْبَحُونَ] معناه : يتصرَّفون . وقالت فرقة : الفَلَك موجٌ مكفوف . ورأَوْا قوله : [يَسْبَحُونَ] من السِّباحة وهي العوم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

قيل : إن سبب هذه الآية أن بعض المسلمين قال : إنَّ محمداً لن يموت وإنما هو مخلَّد ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأنكره ، ونزلت هذه الآية . والمعنى : لم نُخَلِّد أحداً ، ولا أنت نخلِّدك ، وينبغي ألَّا يَنْتَقِمَ أَحدٌ مِن المشركين عليك في هذا أفهُمْ مُخَلَّدون إنْ مت أنت فيصح لهم انتقام(٢) ؟

وقيل : إن سبب الآية أن كفار مكة طعنوا على النبي صلى الله عليه وسلم بأنه بشرٌ ، وأنه يأكل الطعام ويموت ، فكيف يصح إرساله ؟

(١) هكذا في جميع الأصول . ولعلَّه يريد : مما لا ينبغي الهجوم عليه . لأن التَّسَوُّر على الشيء فيه هجوم عليه . يقال : تَسَوَّرتُ الحائط : هجمت عليه — راجع اللسان .

(٢) في اللسان (نقم) : « انْتَقَمَ ونَقِمَ الشيء ونَقَمَه : أنكره . وفي التنزيل العزيز : ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ ﴾ . فالمعنى المراد من عبارة المؤلف هنا : ينبغي ألاَّ يُنْكِر أحد من المشركين عليك ، أفَهُم مخلدون ليصح لهم الإنكار عليك ؟ وفي هذا المعنى يقول الإمام الشافعي :

تَمَنَّى رِجَالٌ أَنْ أَمُوتَ وإنْ أَمُتْ فَتِلْكَ سَبِيلٌ لَسْتُ فيها بأوْحَدِ

فنزلت الآية رادَّة عليهم . وألف الاستفهام داخلةٌ في المعنى على جواب الشرط ، وقُدِّمت في أول الجملة لأن الاستفهام له صدر الكلام ، والتقدير : أفَهُمُ الخالدون إنْ مِتَّ ؟ والفاءُ في قوله تعالى : [أفَئِنْ] عاطفة جملة على جملة ، وقرأت فرقة : [مُتَّ] بضم الميم ، وقرأت فرقة : [مِتَّ] بكسرها .

وقوله تعالى : ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ عموم يُراد به الخصوص ، والمراد كلُّ نفس مخلوقة . و «الذَّوْقُ» ها هنا مستعار ، و [نَبْلُوكُمْ] معناه : نختبركم ، وقدم الشَّر لأن الابتلاء به أكثر ، ولأن العرب من عادتها أن تقدم الأقلَّ والأرْدأَ ، فمنه قوله تعالى : ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾(١) ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾(٢) ، فبدأ بتقسيم أمَّة محمد صلى الله عليه وسلم بالظُّلْم . وقال الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما : إنه جعل الخير والشَّر ها هنا عامًّا في الغنى والفقر والصحة والمرض والطاعة والمعصية والهدى والضلالة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والظاهر أن المراد من الخير والشَّر هنا كلُّ ما يصح أن يكون فتنةً وابتلاءً ، وذلك خير المال وشرُّه ، وخير البَدَن وشرُّه ، وخير الدنيا

(١) من الآية (٤٩) من سورة (الكهف) .
(٢) من الآية (٣٢) من سورة (فاطر) .

في الحياة وشرِّها ، وأما الهدى والضلال فغير داخل في هذا ، ولا الطَّاعة والمعصية ؛ لأَن من هُدي فليس نفْسُ هُداه اختباراً ، بل قد تَبَيَّن خيره ، فعلى هذا ففي الخير والشَّرِّ ما ليس فيه اختبارٌ ، كما يوجد أيضاً اختبار بالأوامر والنواهي وليس بداخل في هذه الآية .

و [فِتْنَةً] معناه : امتحاناً وكشفاً (١) . ثم أخبر عزَّ وجلَّ عن الرَّجعة إليه والقيام من القبور ، وفي قوله سبحانه : ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ وعيدٌ . وقرأت فرقة : [تُرْجَعُونَ] بضم التاءِ ، وقرأت فرقة : [تَرْجعونَ] بفتحها ، وقرأت فرقة : [يُرْجَعُونَ] بالياءِ مضمومة ، على الخروج من الخطاب إلى الغيبة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

رُوي أن أبا سفيان وأبا جهل بن هشام رأيا رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد فاستهزءا به فنزلت الآية (٢) بسببها ، وظاهر

---

(١) وهو منصوب على أنه مفعول به ، أو مصدر في موضع الحال ، أو مصدر من معنى [نَبْلُوكُم] .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه ، قال : مرَّ النبي صلى الله عليه وسلم على أبي سفيان وأبي جهل وهما يتحدثان ، فلما رآه أبو جهل ضحك وقال لأبي سفيان : هذا =

الآية أَن كفار قريش وعظماءهم يعمهم هذا المعنى من أَنهم ينكرون أَخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم في أَمر آلهتهم ، وذكره لهم بفساد . و [إنْ] بمعنى (ما) ، وفي الكلام حذف تقديره : يقولون : أَهذا الذي ؟ وقوله : [يَذْكُرُ] لفظ يعمُّ المدح والذم لكن قرينة المقال أَبداً تدل على المراد من الذِّكر ، وتَمَّ ما حكى عنهم في قوله : [آلِهَتَكُمْ] .

ثم ردَّ عليهم بأَن قرن بإِنكارهم ذِكر الأَصنام كُفْرَهم بذِكر الله ، أي : فهم أَحق بالملام ، وهم المخطئون . وقوله تعالى : [بِذِكْرِ] أَي : بما يجب أَن يُذكر به ، و «لا إِله إِلَّا الله» منه . وقوله سبحانه : ﴿بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَنِ﴾ ، روي أَن الآية نزلت حين أَنكروا هذه اللَّفظة وقالوا : ما نعرف الرَّحمن إِلَّا باليمامة ، وظاهر الكلام أَن [ٱلرَّحْمَن] قُصد به العبارة عن الله تعالى ، كما لو قال : وهم بذكر الله ، وهذا التأْويل أَغرق في ضلالهم وخطئهم .

وقوله تعالى : ﴿خُلِقَ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ توطئة للرَّدِّ عليهم في استعجالهم العذاب ، وطلبهم آية مقترحة ، وهي مقرونة بعذاب مُجَهَّز إن كفروا بعد ذلك . ووَصَفَ تعالى الإِنسان الذي هو اسم الجنس بأَنه خُلق من عَجَل ، وهذا على جهة المبالغة ، كما تقول للرجل البَطَّال :

= نبي بني عبد مناف . فغضب أبو سفيان فقال : ما تنكرون أن يكون لبني عبد مناف نبي ، فسمعها النبي صلى الله عليه وسلم فرجع إلى أبي جهل فوقع به وخوفه . وقال : ما أراك منتهياً حتى يصيبك ما أصاب عمك . وقال لأبي سفيان : أما إنك لم تقل ما قلت إلا حمية . فنزلت هذه الآية : ﴿وَإِذَا رَآكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً﴾ الآية . (الدر المنثور) .

أَنت من لعب ولَهْو ، وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لَسْتُ من دَدٍ ولَا دَدٌ مِنِّي)(١) . وهذا نحو قول الشاعر :

وَإِنَّا لَمِمَّا نَضْرِبُ الكَبْشَ ضَرْبَةً   عَلَى رأْسِهِ تُلْقِي اللِّسَانَ مِنَ ٱلْفَمِ (٢)

كأَنهم لمَّا كانوا أَهل ضرب للهام وملازمة للحرب قال : إنهم من الضـــرب .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا التأْويل يتم به معنى الآية المقصود في أن ذمت عَجَلتهم وقيل لهم على جهة الوعيد : إن الآيات ستأْتي فلا تستعجلون ، وقال

---

(١) ذكر هذا الحديث ابن الأثير في النهاية بلفظ : (ما أنا مِن دَدٍ ولا الدَّدُ مِنِّي) ، وكذلك ذكره ابن منظور في اللسان بهذا اللفظ . والدَّدُ : اللهو واللعب ، وهي محذوفة اللام . وقد استعملت مُتَمَّمة ، فقيل : دَداً كنَدًى ، ودَدَنٌ بالنون . قال ابن الأثير : وتنكير الدَّدِ في الجملة الأولى يفيد الشياع والاستغراق ، أي : ما أنا في شيءٍ من اللهو واللعب ، وعرَّفه في الجملة الثانية لأنه صار معهوداً بالذكر ، كأنه قال : ولا ذلك النوع مني ، وقيل : إن اللام فيه لاستغراق الجنس ، وفي الموضعين مضاف محذوف ، والتقدير : ما أنا من أهل دَدٍ ، ولا الدَّدُ من أشغالي .

(٢) هذا البيت لأبي حَيَّةَ النُّمَيْرِي ، وهو في الخزانة ، وأمالي ابن الشجري ، والكتاب ، والهمع ، وشرح شواهد المغني ، والكَبْشُ : رئيس القوم يحميهم ويدافع عنهم ، وقد سبق الفرزدق بقوله :

وإنَّا لَمِمَّا نَضْـــرِبُ الكَبْشَ ضَرْبَةً   عَلَى رأْسِهِ والحَرْبُ قَدْ لاحَ نَارُهَا

وقد وضح ابن عطية موضع استشهاده بالبيت ، على أن النحويين يستشهدون به عَلَى أنَّ (ما) تأتي بعد (مِن) فتكونان مَعاً بمنزلة كلمة واحدة ، مثل (رُبَّمَا) . وبهذا يصير المعنى : مِن أمْرِنَا وَشَأْننا ، وهذا هو الذي وضحه المؤلف .

بعض المفسرين في قوله تعالى : ﴿خُلِقَ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ : إنَّه من المقلوب ، كأنه أراد : خُلق العَجَل من الإنسان ، على معنى أنه جعل طبيعة من طبائعه وجزءًا من أخلاقه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا التأويل ليس فيه مبالغة ، وإنما هو إخبارٌ مجرد ، وإنما حمل قائليه عليه عَدَمُهم وجه التجوُّز والاستعارة في أن يبقى الكلام على ترتيبه ، ونظير هذا القلب الذي قالوه قولُ العرب : «إذا طلعت الشِّعرى استوت العود على الحِرْباء» ، وكما قالوا : «عرضت النَّاقة على الحوض»(١) ، وكما قال الشاعر :

حَسَرْتُ كَفِّي عَنِ السِّرْبالِ آخُذُهُ فَرْداً يُجَرُّ على أَيْدي الْمُفَدِّينا (٢)

وأما المعنى في تأويل من رأى الكلام من المقلوب فكالمعنى الذي قدَّمناه ، وقالت فرقة من المفسِّرين : قوله : ﴿خُلِقَ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ إنما

---

(١) هذا من المقلوب في كلام العرب ، والأصل : «استوت الحرباء على العود» و «عرضت الحوض على الناقة» . والشِّعْرَى : كوكب نَيِّرٌ يطلع عند شدة الحرِّ ، وفي التنزيل العزيز : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَى﴾ ، وهما شِعْرَيَان : الشِّعْرَى العَبُور ، والشِّعْرَى الغُمَيْصَاء .

(٢) البيت لتميم بن مُقْبل ، وهو من قصيدة له اختارها القرشي في (جمهرة أشعار العرب) ، ومطلعها :

طَافَ الْخَيَالُ بِنَا رَكْباً يَمَانِينَا وَدُونَ لَيْلَى عَوَادٍ لَو تُعَدِّينَا

والرواية في الجمهرة : (حَسَرْتُ عن كَفِّيَ السِّربالَ) ، والسِّرْبَالُ : القميصُ والدِّرع ، والمُفَدُّون : الذي يقولون لي : فديناك من المكاره ، أو نحن فداؤك ، والشاهد أنه يريد أن يقول : حسرت السربال عن كفِّي لشجاعتي ، فهو من المقلوب .

أراد أن آدم عليه السلام خلقه الله تعالى في آخر ساعة من يوم الجمعة فتعجَّل به قبل مغيب الشمس ، وروى بعضهم أن آدم عليه السلام قال : يا ربِّ أكمل خلقي فإنَّ الشمس على الغروب أو قد غربت .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قولٌ ضعيف ، ومعناه لا يناسب معنى الآية . وقالت فرقة : العَجَلُ : الطِّينُ ، والمعنى : خُلق آدم من طين ، وأنشد النقاش :

. . . . والنَّخْلُ يَنْبُتُ بَيْنَ الْمَاءِ والْعَجَلِ (١)

وهذا أيضاً ضعيف مغايرٌ لمعنى الآية . وقالت فرقة : معنى ﴿خُلِقَ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ أي بقوله تعالى : «كُنْ» ، فهو بحال عَجَلة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا أيضاً ضعيف ، وفيه تخصيص ابن آدم بشيءٍ كل مخلوق يشاركه فيه ، وليس في هذه الأقوال ما يصح معناه ويلتئم مع الآية إلَّا القول الأول .

وقرأت فرقة : ﴿خُلِقَ ٱلْإِنْسَانُ﴾ على بناء الفعل للمفعول ، وقرأت فرقة : ﴿خَلَقَ ٱلْإِنْسَانَ﴾ على معنى : خَلَقَ اللهُ الإنْسانَ ، فمعنى

---

(١) هذا عجز بيت ، استشهد به في اللسان (عجل) على أن العَجَل بمعنى الطين ، قال : «وقيل : العَجَلُ ها هنا : الطِّينُ والحمأةُ ، وهو العَجَلَة أيضاً ، قال الشاعر :

والنَّبْعُ في الصَّخْـــرَةِ الصَّمَّاءِ مَنْبِتُهُ والنَّخْلُ يَنْبُتُ بَيْنَ الماءِ والعَجَلِ

قال الأزهري : وليس عندي في هذا حكاية عمَّن يُرجع إليه في علم اللغة » . وفي البحر المحيط أن أبا عبيدة أنشد هذا البيت ، وهو لبعض الحِمْيَرِيِّين ، وأن العَجَل بلغة حِمْيَر هو الطين .

الآية بجملتها ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾، على معنى التعجُّب من تعجُّل هؤلاءِ المقصودين بالردِّ . ثم توعَّدهم بقوله : ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي﴾ ، أي : سيأْتي ما يَسُوؤُكم إذا مُتُّم على كفركم ، يريد يوم بدر وغيره ، ثم فسَّر تعالى استعجالهم بقوله : ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ وكان استفهامهم على جهة الهُزْءِ والتكذيب ، وقولهم : ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يريدون محمداً صلى الله عليه وسلم ومَنْ آمَنَ به ؛ لأَن المؤمنين كانوا يتوعدونهم على لسان الشَّرع ، وموضع [مَتَى] رفع عند البصريين ، وقال بعض الكوفيين : موضعه نصب على الظَّرف ، والعامل فعل مُقَدَّر تقديره : يكون أَو يجيءُ ، والأَول أصوب .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٤٠) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤١)﴾

حُذف جواب [لَوْ] إيجازاً لدلالة الكلام عليه ، وأُبهم قدر العذاب لأَنه أَبلغ وأَهيب من النَّص عليه . وهذا محذوف نحو قوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ

بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الآية(١) ، وتقدير المحذوف في جواب هذه الآية : لَمَا استعجلوا ، ونحوه . وقوله تعالى : ﴿حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾ يريد يومَ القيامة ، وذكر الوجوه خاصة لشرفها من الإنسان وأنها موضع حواسِّه وهو أحرص على الدِّفاع عنها ، ثم ذكر الظُّهور لِيُبَيِّن عموم النار لجميع أبدانهم .

وقوله تعالى : ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ﴾ استدراك مُقَدَّر قبله نفيٌ تقديره : إنَّ الآيات لا تأْتي بحسب اقتراحهم بل تأْتيهم بغتة . والضمير للسَّاعة التي تُصيِّرهم إلى العذاب ، ويحتمل أَن يكون للنار . وقرأت فرقة : ﴿بَلْ يَأْتِيهِمْ﴾ بالياءِ على أَن الضمير للوعد . [فَيَبْهَتُهُمْ] بالياءِ على أَن الضمير للوَعْد أَيضاً ، و «البَغْتَةُ» : الفجأَة عن غير مقدِّمة ، و [يُنْظَرُونَ] معناه : يُؤَخَّرُونَ .

ثم آنس الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم بما جرى على سائر الأَنبياءِ من استهزاءِ قومهم بهم وحلول العذاب بالمستهزئين . و [حَاقَ] معناه : نَزَل وحلَّ ، وهي مستعملة في العذاب والمكاره . وقوله تعالى : ﴿مَا كَانُوا﴾ فيه محذوف تقديره : جزاءَ ما كانوا ، ونحوه ، ومع هذا التأْنيس الذي لمحمد صلى الله عليه وسلم وعيدٌ للكفرة وضَرْبُ مَثَلٍ لهم بمن سلف من الأُمم .

---

(١) الآية (٣١) من سورة (الرعد) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

المعنى : قل يا محمد لهؤلاءِ الكفرة المستهزئين بك وبما جئتَ به الكافرين بذِكر الرحمن الجاهلين به ، قل لهم على جهة التقريع والتوبيخ : من يحفظهم ؟ و «كَلَأَ» معناه حَفِظَ ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم (اكْلَأْ لَنَا الفَجْرَ)(١) ، وفي آخر الكلام تقدير محذوف ، كأنه قال : ليس لهم مانع ولا كالِئٌ ، وعلى هذا المعنى (٢) ترتيب «بَلْ» في قوله سبحانه : ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ ، ثم يقضي عليهم التقرير (٣) في أنه لا مانع لهم من الله بأَن كشف

(١) أخرجه مسلم في المساجد ، وأبو داود في الصلاة ، والترمذي في تفسير سورة (طه) ، وابن ماجه في الصلاة ، وكذلك أخرجه مالك في موطئه في الصلاة . (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي (. واللفظ في هذه الكتب : (اكْلأْ لنا الليل ، أو الصبح) .

(٢) في بعض النسخ : «وعلى هذا النفي» يريد النفي في المحذوف المقدر .

(٣) في بعض النسخ : «ثم يقضي عليهم العقوبة» .

أَمر آلهتهم ، والمعنى : يظنُّون أَن آلهتهم الّتي بهذه الصفة تمنعهم من دوننا ، بل لا يمنعهم أَحد إِلَّا نحن ، وقوله تعالى : ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ يحتمل تأْويلين : أَحدهما : يُجَارُونَ ويُمْنَعون ، والآخر : ولَا هُمْ مِنَّا يُصحبون بخير ولا بركة ونحو هذا ، وفي الكلام تقدير محذوف ، كأَنه قال : ليس ثَمَّ شيءٌ من هذا كله . بل ضلَّ هؤلاء لأَنَّا متَّعناهم ومتَّعنا آباءهم فنسوا عقاب الله وظنُّوا أَن حالهم لا يبدو[1] ، والمعنى : طال العمر في رخاءٍ .

ثم وقفهم تعالى على مواضع العبرة في الأُمم وفي البشر بحسب الخلاف في الأَطراف ، و «الرُّؤْية» في قوله تعالى : ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ رؤْية العين تتبعها رؤْية القلب . و [نَأْتِي] معناه : بالقدرة والبأْس ، و [ٱلْأَرْض] عامة في الجنس ، وقوله سبحانه : ﴿مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ إِمَّا أَن يريد : فيما يخرب من المعمور فذاك بعض الأَرض ، وإِمَّا أَن يريد موت البشر فهو تَنَقُّص للقرون ، ويكون المراد حينئذ أَهل الأَرض ، وقال قوم : النقص من الأَطراف موت العلماء ، ثم وقفهم – على جهة التوبيخ – أَهُم يغلبون من غلب جميع أَهل الأَرض وقهر الكلَّ بسلطانه وعظمته ؟ أَي إِنَّ ذلك محال بَيِّنٌ ، بل هم مغلوبون مقهورون .

---

(١) في بعض النسخ : «وظنوا أن حالهم لا تَبِين» .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

المعنى : قل يَأَيُّها المُقْترحون المتشططون إنما أُنذركم بوحي يوحيه الله إليَّ، وبدلالات على العبر التي نصبها الله تعالى لِيُنظر فيها ، كنُقصان الأَرض من أَطرافها وغيره ، ولم أُبعث بآيةٍ مُطَّردة ولا بما تقترحونه ، ثم قال : ﴿وَلَا يَسْمَعُ﴾ بمعنى : وأَنتم معرضون عمَّا أُنذر به ، فهو غير نافع لكم ، ومَثَّل أَمرهم بالصُّمِّ . وقرأَ جمهور القراء : ﴿وَلَا يَسْمَعُ﴾ بالياءِ وإسناد الفعل إلى [ٱلصُّم] ، وقرأَ ابن عامر وحده : ﴿وَلَا يُسْمِعُ﴾ بضم الياءِ وكسر الميم ونصب [ٱلصُّمَّ](١)، وقرأَت فرقة : ﴿وَلَا تُسْمَعُ﴾ بالتاءِ مضمومة وفتح الميم وبناءِ الفعل للمفعول ، والفرقتان نصبتا [ٱلدُّعَاءَ](٢) ، وقرأَت فرقة : ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَاءِ﴾ بإضافة [ٱلصُّمُّ] إلى [ٱلدُّعَاءِ] ، وهي قراءَة ضعيفة

(١) وهي قراءة ابن جبير عن أبي عمرو ، وابن الصلت عن حفص ، وهي على أن الفاعل ضمير المخاطب وهو الرسول صلى الله عليه وسلم . ذكر ذلك أبو حيان الأندلسي في « البحر المحيط » .

(٢) وردت هذه القراءة في بعض النسخ ، وسقطت في بعض النسخ .

وإن كانت متوجهة (١) . ثم خاطب الله تعالى محمداً صلى الله عليه وآله وسلم متوعِّداً لهم بقوله : ﴿ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ ﴾ ، والنَّفحة : الخَطْرة والمسَّةُ ، كما تقول : نفح بيده إذا مال بها هكذا ضارباً إلى جهة ، ومنه «نَفْحَة الطِّيب» كأنه يخطر خطرات على الحاسَّة (٢) ، ومنه : «نَفَحَ له من عطاياه» إذا أخذ منها نصيباً (٣) ، ومنه : «نَفَحَ الفَرَسُ برجله» إذا ركض (٤) ، والمعنى : ولئن مسَّ هؤلاءِ الكفرة صدمة عذاب في دنياهم لَيَنْدَمُنَّ ولَيُقِرُنَّ بظلمهم (٥) .

---

(١) قال ابن خالويه في كتابه « الحجة » : « الحجة لمن قرأ بالياء أنه أفردهم بالفعل فرفعهم بالحديث عنهم ، والحجة لمن قرأ بالتاء أنه قصد النبي صلى الله عليه وسلم بالفعل ، ونصب (ٱلصُّم) بتعدي الفعل إليهم ، ودليله قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي ٱلْقُبُورِ ﴾ — ٢٢ فاطر — لأن من لم يلتفت إلى وعظ الرسول عليه الصلاة والسلام ولم يسمع عن الله ما يخاطبه به كان كالميت الذي لا يسمع ولا يجيب » . ولم أجد القراءة بالإضافة في القرطبي ، ولا في الطبري ، ولا في البحر المحيط ، ولم يذكرها ابن جنّي في « المحتسب » الذي جعله لبيان وجوه شواذ القراءات .

(٢) في اللسان : «نَفَح الطيبُ يَنْفَح نَفْحاً ونُفوحاً : أَرِجَ وفاح ، وقيل : النَّفْحة دُفعة الريح ، طيبةً كانت أو خبيثة » .

(٣) في الحديث الشريف : (المكثرون هم المقلّون إلاّ من نفح فيه يمينه وشماله ، أي : ضرب يديه في العَطَاء) ، وعلى هذا يقال : نَفَحه بشيءٍ أي أعطاه ، ونفحه بالمال نفحاً : أعطاه .

(٤) وفي اللسان أيضاً : « ونفحت الدابة تنفح نَفْحاً : رمحت برجلها ورَمَت بحدّ حافرها ودفعت ، وقيل : النَّفْح بالرجل الواحدة ، والرَّمْح بالرجلين معاً » .

(٥) نقل الليث عن أبي الهيثم أنه قال في قول الله تعالى : ﴿ وَلَئِن مَسَّتْهُم نَفْحَةٌ مِن عَذَابِ رَبِّكَ ﴾ ، يقال : أصابتنا نفحة من الصَّبا أي روحةٌ وطيب لا غمَّ فيه ، وأصابتنا نفحةٌ من سَمُوم ، أي حرٌّ وغمٌّ وكرب .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

لمَّا توعدهم بنفحة من عذاب الدنيا عقَّب ذلك بتوعُّد بوضع الموازين من حيث القِسط ، وإنما جمعها وهي ميزان واحد لأَن لكل أَحد وزن يخصه ، ووحَّد [ٱلْقِسْطَ] وهو قد جاء بلفظ الموازين مجموعاً من حيث « الْقِسْط » مصدرٌ وصف به ، كما تقول : « قومٌ عدْلٌ ورضًى » . وقرأت فرقة : [ٱلْقِصْطَ] بالصاد . وقوله سبحانه : ﴿ لِيَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ ﴾ أي: لحساب يوم القيامة ، أو لحكم يوم القيامة ، فهو بتقدير حذف مضاف.

والجمهور على أن الميزان في يوم القيامة بعمود وكفَّتين توزن به الأَعمال ، ليبين للناس المحسوس المعروف عندهم ، والخفة والثقل متعلِّقة بأَجسام يقرنها الله تعالى يوم القيامة بالأَعمال ، فإمَّا أن تكون صحف الأَعمال أَو مثالات تُخلق أَو ما شاء الله تبارك وتعالى .

وقرأَ نافع وحده : [مِثْقَالُ] بالرفع على أَن تكون مستأْنفة ، وقرأَ جمهور الناس : [مِثْقَالَ] بالنصب على معنى : وإن كان الشيءُ أَو

العمل مثقالَ . وقرأ الجمهور : [أَتَيْنَا] على معنى : جئنا ، وقرأ ابن عباس ، ومجاهد ، وغيرهما : [آتَيْنَا] على معنى : وَاتَيْنَا من المواتاة(١) ، ولا يقدر ولا يفسر [آتَيْنَا] بأَعطينا لمَّا تعدَّت بحرف جرٍّ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ويوهن هذه القراءة أَن تبديل الواو المفتوحة بهمزةٍ ليس بمعروف ، وإنما يعرف ذلك في المضمومة أَو المكسورة ، وفي قوله تبارك وتعالى : ﴿وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ تَوَعُّدٌ .

ثمَّ عقَّب سبحانه وتعالى بأَمر موسى عليه السلام .

و «ٱلْفُرْقَان» فيما قالت فرقة ـ : التَّوراة ، وهي «الضِّياءُ والذِّكْرُ» ، وقرأ ابن كثير ، وحمزة : [ضِئَاءً] بهمزتين قبل الأَلف وبعدها ، وقرأ الباقون : [ضِيَاءً] بهمزة واحدة بعد الأَلف ، وقرأ ابن عباس : ﴿ٱلْفُرْقَانَ ضِيَاءً﴾ بغير واو ، وهي قراءة عكرمة والضحاك ، وهذه القراءة تؤيد قول من قال : المراد بذلك كله التوراة ، وقالت فرقة : «الفرقان» هو ما رزقه الله من نصرٍ وظهورِ حُجَّةٍ وغير ذلك مما فرَّق بين أَمره وبين أَمر فرعون لَعَنَه الله ، و «الضِّياءُ» ، التوراة ، و «الذِّكْرُ» بمعنى التَّذَكُّر . وقوله : [بِالْغَيْبِ] يحتمل ثلاثة تأْويلات : أَحدها في غيبهم وخلواتهم وحيث لا يطَّلع عليهم أَحد ، وهذا أَرجحها ، والثاني أَنهم يخشون الله على أَن أَمره تعالى غائب عنهم ، وإنما استدلوا

(١) فالمعنى : جازَيْنَا بها ، يقال : آتَى يُؤَاتِي مؤاتاة ، بمعنى : جَازَى . وقال الزمخشري : هي مفاعلة من الإتيان بمعنى المجازاة والمكافأة ، لأنهم أتوه بالأعمال وآتاهم بالجزاء .

بدلائل لا بمشاهدة . والثالث أنهم يخشون الله ربهم بما أعلمهم به مما غاب عنهم من أمر آخرتهم ودنياهم . و «الإِشْفاقُ» : أَشدُّ الخشية ، و «السَّاعة» : القيامة ، وقوله تعالى : [وَهَذَا] إشارة إلى القرآن ، و [أَنْزَلْنَاهُ] إمَّا أن يكون بمعنى أثبتناه ، كما تقول : أنزل الشيطان فلاناً بمكان كذا إذا أثبته ، وإمَّا أن يتعلَّق النزول بالملك ، ثم وقفهم تبارك وتعالى تقريراً وتوبيخاً ، هل يصح لهم إنكار بركته وما فيه من الدعاء إلى الله تعالى وإلى صالح العمل ؟

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ * وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَـٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّـٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

الرُّشْد عام في هدايته إلى رفض الأَصنام ، وفي هدايته في أمر الكوكب والشمس والقمر وغير ذلك من النُّبُوَّة فما دونها ، قال بعضهم :

معناه : وُفِّق للخير صغيراً ، وهذا كلُّه متقارب . وقوله سبحانه : ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ معناه : من قبل موسى وهارون عليهما السلام ، فبهذه الإضافة هو قبل كما هي نسبة نوح عليه السلام منه ، وقوله تعالى : ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ مدح لإبراهيم عليه السلام ، أي أنه يستحق ما أُهِّل له ، وهذا نحو قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾(١) ، والعامل في [إذْ] قوله : [آتَيْنَا] ، و «ٱلتَّمَاثِيلُ» : الأَصنام ؛ لأَنها كانت على صورة الإِنسان من خشب ، و «العُكُوفُ» : المُلازمة للشيء . وقوله : [فَطَرَهُنَّ] عبارة عنها كأَنها تعقل ، وهذه من حيث لها طاعة وانقياد ، وقد وصفت في مواضع بما يوصف به من يعقل(٢) .

قوله تعالى : ﴿وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ﴾ الآية . رُوي أنهم حضرهم عيدٌ لهم فعزم قوم منهم على حضور إبراهيم عليه السلام معهم طمعاً منهم أن يستحسن شيئاً من أخبارهم ، فمشى معهم ، فلما كان في الطريق عزم على التخلُّف عنهم ، فقعد وقال لهم : إنِّي سقيم ، فمرَّ به جمهورهم ، ثم قال في خلوة من نفسه : ﴿وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ ، وسمعه

---

(١) من الآية (١٢٤) من سورة (الأنعام) .

(٢) نقل أبو حيان كلام ابن عطية هنا عن قوله : [فَطَرَهُنَّ] ثم علَّق عليه بقوله : «وكأن ابن عطية تخيل أن (هُنَّ) من الضمائر التي تخص من يعقل من المؤنثات ، وليس كذلك . بل هو لفظ مشترك بين من يعقل ومن لا يعقل من المؤنث المجموع . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ ، والضمير عائد على الأربعة الحرم» .

قوم من ضعفتهم ممن كان يسير في آخر الناس . وقوله : ﴿ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾ معناه : إلى عيدهم ، ثم انصرف إبراهيم عليه السلام إلى بيت أصنامهم وحده فدخل ومعه قدوم ، فوجد الأصنام قد وقفت ، أكبرها في الأول ثم الذي يليه فالذي يليه ، وقد جعلوا أطعماتهم في ذلك اليوم بين يدي الأصنام تبركاً بها لينصرفوا من ذلك العيد إلى أكله ، فجعل عليه السلام يقطعها بذلك القدوم ويهشمها حتى أفسد أشكالها كلها حاشى الكبير فإنه تركه بحاله وعلّق القدوم في يده وخرج عنها . و [جُذَاذاً] معناه قطعاً صغاراً ، والجذ : القطع ، وقرأ الجمهور : [جُذَاذاً] بضم الجيم ، وقرأ الكسائي وحده بكسرها ، وقرأ ابن عباس ، وأبو نُهيك ، وأبو السّمال بفتحها ، وهي لغات ، والمعنى واحد .

وقوله تعالى : [فَجَعَلَهُمْ] ونحوه معاملةٌ للأصنام بحال من يعقل من حيث كانت تُعبد وتُنَزَّل منزلة من يعقل ، والضمير في [إِلَيْهِ] أظهر ما فيه أنه عائد على إبراهيم عليه السلام ، أي فعل هذا كله توخِّياً منه أن يعقب ذلك منهم رجعة إليه وإلى شرعه ، ويحتمل أن يعود الضمير إلى الكسر المتروك . ولكن يضعف ذلك دخول الترجِّي في الكلام .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

المعنى : فانصرفوا من عيدهم فرأوا ما حدث بآلِهتهم فأكبروا ذلك ، وحينئذ قالوا : ﴿مَنْ فَعَلَ هَذَا﴾ على جهة البحث والإنكار ، و [قَالُوا] الثانية الضمير فيها يعود للقوم الضعفة الذين سمعوا إبراهيم عليه السلام حين قال : ﴿وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ﴾ ، واختلف الناس في وجه رفع قوله : [إِبْرَاهِيمُ] ـ فقالت فرقة : هو مرتفع بتقدير النداء ، كأنهم أرادوا : الذي يقال له عندما يدعي : يا إبراهيمُ ، ـ وقالت فرقة : رفعه على إضمار الابتداء ، تقديره : هو إبراهيم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والأَول أَرجح . وقال الأُستاذ أَبو الحجاج الأَشبيلي الأَعلم : هو رفع على الإهمال .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

لما رأى وجوه الرَّفع كأَنها لا توضِّح المعنى الذي قصدوه ذهب إلى رفعه بغير شيءٍ ، كما قد يرفع التَّجرُّد والعُرُوُّ عن العوامل الابتداءَ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والوجه عندي أنه مفعول لم يُسَمَّ فاعله ، على أن تجعل [إبْرَاهِيم] غير دالٍّ على الشخص ، بل تَجعل النُّطق به دالاً على بناءِ هذه اللَّفظة ، وهذا كما تقول : «زَيْدٌ وزن فَعْل» ، أو «زيد ثلاثة أحرف» ، فلم تدل بوجه على الشخص بل دَللت بنطقها على نفس اللفظة ، وعلى هذه الطريقة تقول : «قلت إبراهيم» ، ويكون مفعولاً صحيحاً أنزلته منزلة قول وكلام فلا يتعذَّر بعد ذلك أن يبنى الفعل فيه للمفعول (١) .

وقوله : ﴿عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ يريد : في المحفل وبمحضر الجمهور ، وقوله : [يَشْهدُونَ] يحتمل أن يراد به الشهادة عليه ، يريدون بفعله أو بقوله : ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَامَكُمۡ﴾ ، ويحتمل أن يراد به المشاهدة ، أي : يشاهدون عقوبته أو غلبته المؤديَّة إلى عقوبته ، المعنى : فجاءَ إبراهيم عليه السلام حين أُتي به فقالوا له : أأنت فعلت هذا بالآلهة ؟

(١) هذا أيضاً هو اختيار الزمخشري ، وقد ذكره القرطبي نقلاً عن ابن عطية ، وذكره أيضاً صاحب البحر وعلّق عليه بقوله : «وهو مُخْتَلَف في إجازته ، فذهب الزجاج ، والزمخشري ، وابن خروف ، وابن مالك إلى تجويز نصب القول للمفرد مما لا يكون مقتطعاً من جملة نحو قول الشاعر :

إذَا ذُقْتَ فَاهَا قُلْتُ طَعْمَ مُدَامَة

ومما لا يكون مفرداً معناه معنى الجملة نحو قلت خطبةً ، ولا مصدراً نحو قلْت قولاً ، ولا صفةً نحو قلت حقّاً ، بل لمجرد اللفظ نحو قلت زيداً ، ومن النحويين من منع ذلك وهو الصحيح ؛ إذ لا يُحفظ من لسانهم : قال فلان زيداً ، ولا قال ضرب ، ولا قال ليت ، وإنما وقع القول في كلام العرب لحكاية الجُمَل» ا هـ كلام أبي حيان في البحر المحيط (٦-٣٢٤) .

فقال لهم إبراهيم عليه السلام : بل فعله كبيرهم هذا ، على جهة الاحتجاج عليهم ، أي أنه غار من أن يُعبد هو ويُعْبد الصغار معه ففعل هذا بها لذلك . وقالت فرقة هي الأكثر : إن هذا الكلام قاله إبراهيم عليه السلام لأنها كذبة في ذات الله تؤدي إلى خزي قوم كافرين ، والحديث الصحيح يقتضي ذلك وهو قول النبي صلى الله عليه وسلم : (لم يكذب إبراهيم إلَّا ثلاث كذبات : قوله : «إنِّي سقيم» وقوله : «بل فعله كبيرهم هذا» ، وقوله للمليك : هي أُختي) (١) . ثم تطرَّق إلى موضع خزيهم بقوله : ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ على جهة التوقيف .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وذهبت فرقة إلى نفي الكذب عن هذه المقالات ، وقالت فرقة : معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : (لم يكذب إبراهيم إلَّا ثلاث كذبات ...) أي لم يقل كلاماً ظاهره الكذب ، أو يشبه الكذب ، وذهبت إلى تخريج هذه المقالات ، فخرَّجت هذه الآية على معنى أنه أراد تعليق فعل الكبير بنطق الآخرين ، كأنه قال : بل هو الفاعل إن نطق هؤلاء ، ولم يجزم الخبر على أن الكبير فعل هذا ، وفي الكلام تقديم – على هذا التأويل – في قوله : [فَاسْأَلُوهُمْ] . وذهب

(١) رواه البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح ، وأخرجه أبو داود ، والإمام أحمد في مسنده (٢–٤٠٣) ، وفيه بقية توضح قصة إبراهيم وزوجه والمليك الذي أرادها فحماها الله منه .

الفراءُ إلى جهة أُخرى بأَن قال : قوله [فَعَلَهُ] ليس من الفعل ، وإنما هو : «فَلَعَلَّهُ» على جهة التَّوقُّع ، حذف اللام ، على قولهم : «عَلَّهُ» بمعنى «لَعَلَّهُ» ثمَّ خُفِّفَت اللام (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا تكلُّف (٢) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾

(١) قال الفراءُ في (معاني القرآن) : «قال بعض الناس — يريد محمد بن السميقع — : بل فَعَلَّه كبيرهم مشددةً . يريد : فَلَعَلَّه كبيرهم» . هذا هو نصُّ كلامه ، ومنه يتضح أنه يوضح قراءة ابن السميقع وليس مذهباً له كما قال ابن عطية .

(٢) وقال الكسائي : «الوقف عند قوله : ﴿بَلْ فَعَلَهُ﴾ ، أي فَعَلَه مَن فَعَلَه ، ثم يبتدئ : ﴿كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ . وقيل : إن المعنى : لِمَ يُنكرون أن يكون الفاعل كبيرهم ؟ وهذا إلزامٌ بلفظ الخبر . أي : من اعتقد عبادتها يلزمه أن يثبت لها فِعْلاً وعَمَلاً . ويكون المعنى : بل فَعَلَه كبيرهم هذا فيما يلزمكم .

المعنى : فظهر لهم ما قال إبراهيم عليه السلام من أن الأَصنام التي أَهَّلوها للعبادة ينبغي أن تُسأَل وتُسْتَفْسَر ، فقالوا : إنكم أنتم الظالمون في توقيف هذا الرجل على هذا الفعل وأنتم معكم من تسأَلون ، ثم ارتبكوا في ضلالهم ورأَوا بالفكرة وبديهة العقل أن الأَصنام لا تنطق فساقهم ذلك حين نطقوا عنه إلى موضع قيام الحجَّة عليهم . وقوله : ﴿نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ﴾ استعارة للذي يرتطم في غيِّه كأَنه منكوس على رأْسه ، فهي أَقبح هيئة للإنسان ، وكذلك هذا هو في أَسوأ حالات النظر ، فقالوا لإبراهيم عليه السلام حين نكسوا في حيرتهم : ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ ، أَي : فما بالك تدعو إلى ذلك ؟ فوجد إبراهيم عليه السلام عند هذه المقالة موضع الحجَّة فوقفهم موبِّخاً على عبادتهم تماثيل لا تنفع بذاتها ولا تضر ، ثم حقَّر شأْنها وأَزْرى بها في قوله : ﴿أُفٍّ لَكُمْ﴾ .

وقرأَ ابن كثير : ﴿أُفَّ لَكُمْ﴾ بالفتح (١) ، وقرأَ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وعاصم - في رواية أَبي بكر - : ﴿أُفِّ لَكُمْ﴾ بالكسر وترك التنوين فيها ، وقرأَ نافع وحفص عن عاصم : ﴿أُفٍّ لَكُمْ﴾ بالكسر والتنوين . و «أُفّ» لفظة تقال عند المستقذرات من الأَشياء فيُستعار ذلك للمكروه من المعاني كهذا وغيره .

---

(١) أي وبدون تنوين كما وضحه الحافظ الدمشقي في كتابه : (النشر في القراءات العشر) ، وقال : إنها أيضاً قراءة ابن عامر ويعقوب ، وهذه القراءات وردت في قوله تعالى في سورة الإسراء : ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ .

فلمَّا غلبهم إبراهيم عليه السلام من جهة النظر والحجَّة نكسوا رؤوسهم وأخذتهم عزَّةٌ بإثم وانصرفوا إلى طريق الغشم والغلبة فقالوا : [حَرِّقُوهُ] ، ورُوي أن قائل هذه المقالة هو رجل من الأكراد من أعراب فارس ، أي من باديتها ، فخسف الله به الأرض فهو يتلجلج فيها إلى يوم القيامة . وقوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ تحريض ، كما تقول : اعزم على كذا إن كنت عازماً .

ورُوي أنهم لما اجتمع رأيهم على تحريقه حبسه نمرود الملك ، وأمر بجمع الحطب فجُمع في مدة أشهر ، وكان المريض يجعل على نفسه نذراً إذا هو بريءَ أن يجمع كذا وكذا حزمة حتى اجتمع من الحطب ـ ممَّا تبرَّع به الناس وممَّا جُلب للملك من أهل الرساتيق (١) ـ كالجبل من الحطب ، ثم أضرم ناراً ، فلما أرادوا طرح إبراهيم عليه السلام فيه لم يقدروا على القرب منه ، فجاءهم إبليس في صورة شيخ فقال لهم : أنا أصنع لكم آلة يلقى بها في النار . فعلَّمهم صنعة المنجنيق ، ثم أُخرج إبراهيم عليه السلام فشُدَّ برباط ووُضع في كفة المنجنيق ورمي به فوضع في النار ، وقد قيل للنار : ﴿ كُونِي

---

(١) الرَّساتيق جمع رُسْتاقٍ ، وهو الرُّزتاق والرُّذاق والرَّزدَقُ ، وهو الصَّفُّ ، قال الجوهري : الرَّزدق السَّطر من النخل والصف من الناس ، وهو معرَّب ، وأصله بالفارسية رَسْتَه ، قال ابن ميَّادة :

تَقُولُ خَودٌ ذاتُ طَرفٍ بَرَّاق ... هَلاَّ اشْتَرَيْتَ حِنْطَةً بالرَّسْتَاقِ

وقال ابن السِّكِّيت : رُسْداق ورُزداق ، ولا تقل رُسْتاق .

بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ فاحترق الحبل الذي رُبط به فقط ، ورُوي أن جبريل عليه السلام جاءه وهو في الهواءِ فقال له : أَلَكَ حاجةٌ ؟ فيروى أنه قال : أَمَّا إليك فلا ، ويُروى أنه قال له : إنِّي خليل ، وإنما أطلب حاجتي من خليلي لا من رسوله . فقال الله تعالى : يا إبراهيم قطعت الواسطة بيني وبينك لا قطعتها بيني وبين النار . يا نار كوني برداً وسلاماً ، ورُوي أنه حين خوطبت النار خمدت كلُّ نار في الأَرض ، ورُوي أَن الغراب كان ينقل الحطب إلى نار إبراهيم عليه السلام ، ورُوي أَن الوزغة (١) كانت تنفخ عليه لتضرم . وكذلك البغل ، ورُوي أَن العَضْرَفُوط والخُطَّافُ(٢) والضفدع كانوا ينقلون الماءَ لتطفأ النار ، فأَلقى الله على هذه الوقاية وسلَّط على تلك الأُخرى النوائب والأَيدي ، وقال بعض العلماءِ فيما رُوي : إن الله تعالى لو لم يقل : [وَسَلَاماً] لهلك إبراهيم من برد النار .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وقد أَكثر الناس في قصص حرق إبراهيم عليه السلام . وذكروا تحديد مدَّة بقائه في النار وصورة بقائه فيها مِمَّا رأيت اختصاره

(١) الوزغة : سامٌّ أبرص (للذكر والأنثى) . أو الوزغة الأنثى . والذكر الوزغُ . والجمع وزَغٌ وأوْزَاغٌ . (المعجم الوسيط) .

(٢) العَضْرَفُوط : دُوَيْبَّة بيضاءُ ناعمة . ويقال : هي ذكر العِظاءِ . (اللسان عضرف) . والخطاف : العصفور الأسود . وهو الذي تدعوه العامة عصفور الجنة . وجمعه خطاطيف . (اللسان ـ خطف) .

لقلّة صحته ، والصحيح من ذلك أنه أُلقي في النار فجعلها الله تعالى عليه برداً وسلاماً فخرج منها سالماً ، وكانت أعظم آية ، ورُوي أنهم قالوا : إنها نارٌ مسحورة لا تحرق ، فرموا فيها شيخاً منهم فاحترق ، ورُوي أن إبراهيم عليه السلام كان له بسطة وطعام في تلك النار ، كل ذلك من الجنة ، وروي أن العيدان أينعت وأثمرت له هنالك ثمارها التي كانت أُصولها .

وقوله : [وَسَلَاماً] معناه : وسلامة ، وقال بعضهم : هي تحية من الله تعالى لإبراهيم عليه الصلاة والسلام .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف ، وكان الوجه أن يكون مرفوعاً .

و «ٱلْكَيْدُ» هو ما أرادوا من حرقه ، وكانوا في خسارة من كفرهم وغلبته لهم وحرق الشيخ الذي جرَّبوا به النار ، ورُوي أن الملِك بنَى بنياناً واطَّلع منه على النار فرأى إبراهيم عليه السلام ومعه ناسٌ فعجب وسأل : هل طُرح معه أحد ؟ فقيل له : لا ، فناداه فقال : من أُولئك ؟ فقال : هم ملائكة ربِّي .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والمرويُّ في هذا كثير غير صحيح .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

روي أن إبراهيم عليه السلام لما خرج من النار أحضره النمرود وكلّمه . ثم حتم الله عليه بالكفر فلَجَّ وقال لإبراهيم في بعض قوله : يا إبراهيم أين جنود ربِّك الذي تزعم ؟ فقال اه : سيريك فعل أضعف جنوده ، فبعث الله تعالى على نمرود وأصحابه سحابة من بعوض فأكلتهم عن آخرهم ودوابهم حتى كانت العظام تلوح بيضاً ، ودخلت منها بعوضة في رأس نمرود فكان رأسه يضرب بالعيدان وغيرها ، ودام تعذيبه بها زمناً طويلاً وهلك منها ، وخرج إبراهيم عليه السلام وابن أخيه لوط عليه السلام من تلك الأرض مهاجرين ، وهي كوثا من العراق ، ومع إبراهيم عليه السلام ابنة عمه سارة زوجه ، وفي تلك السفرة لقي الجبَّار الذي رَامَ أخذها منه .

واختلف الناس في الأرض التي بورك فيها ونجَّى الله إليها إبراهيم ولوطاً عليهما السلام ـ فقالت فرقة : هي مكَّة ، وذكروا قول الله

عزَّ وجلَّ : ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً﴾(١) ، وقال الجمهور : هي أَرض الشَّام ، وهي الأَرض التي بارك الله فيها ، أَمَّا من جهة الآخرة فبالنُّبوَّة والإيمان ، وأَمَّا من جهة الدنيا فهي أَطيب بلاد الله أَرضاً ، وأَعذبها ماءً ، وأَكثرها ثمرة ونعمة ، وهو الموضع المعروف بسكنى إبراهيم وعقبة ، ورُوي أنه ليس في الأَرض ماءٌ عذب إلَّا وأَصله وخروجه من تحت صخرة بيت المقدس .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف . وهي أَرض المحشر ، وفيها يجمع الناس ، وفيها ينزل عيسى بن مريم عليه السلام ، وبها يهلك المسيخ الدَّجَّال ، ورُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنه قال يوماً في خطبة : (إنه يكون بالشَّام جند ، وبالعراق جند ، وباليمن جند) ، فقال رجل : يا رسول الله ، خِرْلي ، فقال : (عليك بالشَّام فإن الله قد تكفَّل لي بالشَّام وأَهله ، ومن بقي فليلحق بأَمْنِه)(٢) ، وقال عمر رضي الله تعالى عنه لكعب

(١) من الآية (٩٦) من سورة (آل عمران) .

(٢) هذا الحديث أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره ، قال : «وَذُكِرَ لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ... الخ» ، وفي آخره : (فَمَنْ أبَى فَلْيَلْحق بأَمْنِه وليَسْقِ بِقَدَرِهِ) .

الأَحبار : أَلا تتحول إلى المدينة ؟ فقال : يا أَمير المؤمنين إني أَجد في كتاب الله المنزَّل أَن الشَّام كنز الله من أَرضه ، وبها كنزه من عباده ، وروي أَن إبراهيم ولوطاً عليهما السلام هاجرا من كوثا ومرًّا بمصر ، وليست بالطريق ولكنَّهم نكَّبوا(١) خوف الاتباع حتى جاءُوا الشَّام ، فنزل إبراهيم السَّبع من أَرض فلسطين وهي برِّيَّة الشام ، ونزل لوط بالمؤتفكة .

و «إسحق» هو ابن إبراهيم عليهما السلام ، و «يعقوب» ولد إسحق عليهما السلام ، و «النَّافلة» : العطيَّة ، كما تقول : نفلني الإمام كذا ، ونافلة الطاعة كأَنها عطيَّة من الله تعالى لعباده يُثيبهم عليها ، وقالت فرقة : الموهوب إسحق ، والنافلة يعقوب عليهما السلام ، والأَّول أَبين ، و [يَهْدُونَ] معناه : يرشدون غيرهم ، و [إقَام] مصدر ، وفي هذا نظر(٢) .

---

(١) نَكَّبُوا : عَدَلوا وتَنَحَّوْا عن الطريق الأصلي .

(٢) جاء في البحر المحيط ٦–٣٢٦ «وقال ابن عطية : والإقَامُ مصدر ، وفي هذا نظر ، انتهى وأيُّ نظر في هذا وقد نصَّ سيبويه على أنه مصدر بمعنى الإقامة وإن كان الأكثر «الإقامة» بالتَّاءِ، وهو المقيس في مصدر أفعل إذا اعتلت عينه ، وحسَّن ذلك هنا أنه قابل (وَإِيتَاءَ) وهو بغير تاءٍ فتقع الموازنة بين قوله تعالى : ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ ٱلزَّكَاةِ﴾ ، وقال الزجاج : حذفت الهاءُ من «إقامة» لأن الإضافة عوضٌ عنها انتهى ، وهذا قول الفراء ، زعم أن تاءَ التأنيث قد تحذف للإضافة ، وهو مذهب مرجوح» .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

التقدير : وآتينا لوطاً ، فهو منصوب بفعل مضمر يدل عليه الظاهر ، و «الحكم» فصل القضاء بين الناس ، و «الخبائث» إتيان الرجال وضراطهم في مجالسهم إلى غير ذلك من كفرهم . وقوله في نوح عليه السلام : ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ بالإضافة إلى إبراهيم ولوط عليهما السلام ، و «الْكَرْبُ ٱلْعَظِيم» هو الغرق وما نال قومه من الهلكة بدعائه عليهم الذي استجيب ، وقوله سبحانه : [وَنَصَرْنَاهُ] لمَّا كان جل نُصرته النجاة وكانت غلبة قومه بغير يده بل بأَمر أَجنبي منه حسن أَن يقول : ﴿نَصَرْنَاهُ مِنْ﴾ ، ولا تتمكَّن هنا «عَلَى» كما تتمكَّن في أَمر محمد صلى الله عليه وسلم مع قومه (١) .

---

(١) كأنه قد تضمن معنى «نجيناه» أو «عصمناه» فتعدى بمن . وقال أبو عبيدة : «إن (مِنْ) بمعنى (على) أي : ونصرناه على القوم» . ومعنى ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ : نصرناه من مكروه القوم . أي: عصمناه ومنعناه من شرِّهم وأذاهم . قال تعالى : ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ ٱللهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وذكر هؤلاءِ الأَنبياءِ عليهم السلام ضَرْبُ مثل لقصة محمد صلى الله عليه وسلم مع قومه ، ونجاةُ الأَنبياءِ وهلاك مكذِّبيهم ضمنها توعُّدٌ لكفار قريش .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾

المعنى : واذكر داود وسليمان ، هكذا قدره جماعة من المفسرين .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ويحتمل عندي ويقوى أن يكون المعنى : «وآتَيْنَا دَاود» عطفاً على قوله : [وَنُوحاً] ، وذلك عطف على قوله : ﴿وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾ ، والمعنى على هذا التأْويل مُتَّسق .

وسليمان هو ابن داود عليهما السلام من بني إسرائيل، وكان(١) مَلِكاً عدلاً نبيًّا يحكم بين الناس فوقعت بين يديه هذه النَّازلة ، وكان ابنه إذ ذاك قد كبر ، وكان يجلس على الباب الذي يخرج

(١) أي داود عليه السلام .

منه الخصوم ، وكان يدخلون إلى داود عليه السلام من باب آخر ، فتخاصم إلى داود عليه السلام رجل له زرع ، وقيل : كَرْمٌ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

و «الْحَرْثُ» يقال فيهما ، وهو في الزَّرع أبعد عن الاستعارة ، دخلت حَرْثَه غنم رجل آخر فأفسدته ، فرأى داود عليه السلام أن يدفع الغنم إلى صاحب الحرث ، فقالت فرقة : على أن يبقى كَرْمُه بيده ، وقالت فرقة : بل دفع الغنم إلى صاحب الحَرْثِ والحَرْثَ إلى صاحب الغنم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فيشبه على القول الواحد أنه رأى الغنم تقاوم الغلة التي أُفسدت ، وعلى القول الثاني رآها تقاوم الحَرْثَ وغَلَّته .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولا يُظَنُّ بداود عليه السلام إلَّا أن حكمه بنظر متوجه . فلما خرج الخصمان على سليمان عليه السلام تشكى صاحب الغنم ، فجاء سليمان إلى داود فقال : يا نبي الله ، إنَّك حكمت بكذا ، وإني رأيت ما هو أرفق بالجميع ، قال : وما هو ؟ قال : أن يأْخذ صاحب الغنم الحرث فيقوم عليه ويصلحه حتى يعود كما كان ، ويأْخذ صاحب الحرث

الغنم في تلك المدة ينتفع بمرافقها من لبن وصوف ونسل وغير ذلك ، فإذا كَمُل الحرث وعاد إلى حاله صرف كل واحد مالَ صاحبه ، فرجعت الغنمُ إلى ربِّها والحَرْثُ إلى ربِّه ، فقال داود عليه السلام : وُفِّقْتَ يا بُنَيَّ ، وقضى بينهما بذلك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولاشك أن سليمان عليه السلام رأى ما يتحمَّله صاحب الغنم من فقد مرافق غنمه تلك المدة ومن مؤونة إصلاح الحرث يُوازي ما فسد في الحرث ، وفَضل حُكمُه حُكْمَ أبيه في أنه أحرز أن يبقى ملك كل واحد منهما على متاعه وتبقى نفسه بذلك طيبة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وذهبت فرقة إلى أن هذه النَّازلة لم يكن الحُكْم فيها باجتهاد ، وإنما حَكَم داود بوحي ، وحَكَم سليمان بوحي نسخ الله به حُكْم داود ، وجعلت فرقة – منها ابن فُورك – قوله تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ أيْ فَقَّهناه القضاءَ الفاصل الناسخ الذي أراد الله تبارك وتعالى أن يستقر في النَّازلة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وتحتاج هذه الفرقة في هذه اللَّفظة إلى هذا التعب ويبقى لها المعنى قَلِقاً .

وقال جمهور الأئمَّة : إن حكمهما كان باجتهاد ، وأدخل العلماءُ هذه الآية في كتبهم على مسأَلة اجتهاد العَالِمَيْن ، فينبغي أن يُذكر هنا تلخيص مسأَلة الاجتهاد ، واختلف أهل السُّنَّة في العَالِمَيْن ـ فما زاد ـ يُفتيان من الفروع والأَحكام في المسأَلة فيختلفان ـ فقالت فرقة : الحق في مسائل الفروع في طرف واحد عند الله تعالى ، وقد نصب على ذلك أدلَّة وحمل المجتهدين على البحث عنها والنظر فيها ، فمن صادف العين المطلوبة في المسأَلة فهو المصيب على الإطلاق ، وله أجران ، أَجر في الاجتهاد وأَجر في الإصابة ، ومن لم يصادفها فهو مصيب في اجتهاده مخطئٌ في أَن لم يُصب العين ، فله أَجر وهو غير معذور ، وهذا هو الذي قال النبي صلى الله عليه وسلم : (إذا اجتهد العالِم فأَخطأ فله أَجرٌ)(١) ، وكذلك أيضاً يدخل في قوله صلى الله عليه وسلم : (إذا اجتهد العالِم فأَخطأ) العالِم يجتهد فيخالف نصًّا لم يَمُرَّ به ، كقول سعيد بن المسيب في النكاح : إنه العقد في مسأَلة التحليل للزوج المطلِّق ونحوه ، وهذا يجمع بين قوله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام ، ومسلم وأبو داود في الأقضية ، والترمذي في الأحكام ، والنسائي وابن ماجه في القضاء ، وأحمد في مسنده ٢ـ١٨٧ ، ٤ـ١٩٨ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ولفظه فيه أن خصمين اختصما إلى عمرو بن العاص رضي الله عنه فقضى بينهما ، فسخط المقضى عليه ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا قضى القاضي فاجتهد فأصاب فله عشرة أُجور ، وإذا اجتهد فأخطأ كان له أجر أو أجران) ، فالحديث على هذا في القضاء لا في الفُتْيَا ، وفي رواية : (إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر) .

إذا اجتهد العالِم فأَخطأ) وبين قوله : (كلٌّ مجتهد مصيب) أي أخطأ العين المطلوبة وأصاب في اجتهاده . ورأت هذه الفرقة أن العالم المخطئ لا إثم عليه في خطئه وإن كان غير معذور . وقالت فرقة : الحق في طرف واحد ولم ينصب الله تعالى عليه دليلاً ، بل وكل الأمر إلى نظر المجتهدين ، فمن أصابه أصاب ، ومن أخطأه فهو معذور ومأجور ، ولم نُتَعَبَّد بإصابة العين بل تعبدنا بالاجتهاد فقط . وقال جمهور أهل السُّنَّة – وهو المحفوظ عن مالك وأصحابه – : الحق في مسائل الفروع في الطرفين . وكل مجتهد مصيب ، والمطلوب إنما هو الأفضل في الظن ، فكل مجتهد قد أَدَّاه نظره إلى الأفضل في نظره . والدليل على هذه المقالة أن الصحابة فَمَن بعدهم قرَّر بعضهم خلاف بعض ولم ير أحد منهم أن يقع الاعتماد على قوله دون قول مخالفه ، ومنه رد مالك رحمه الله للمنصور أبي جعفر عن حمل الناس على الموطإ إلى كثير من هذا المعنى ، وإذا قال العالِم في أمرٍ مَّا : حلالٌ ، فذلك هو الحق فيما يختصُّ بذلك العالِم عند الله تعالى وبكلٍّ من أخذ بقوله ، وإذا قال آخر : حرام – وكلٌّ ذلك باجتهاد ، فذلك أيضاً حقٌّ عند الله تعالى فيما يختص بذلك العالِم وبكلٍّ من أخذ بقوله ، فأَمَّا من قال إنَّ الحقَّ في طرف فرأى مسأَلة داود وسليمان عليهما السلام مطردة على قوله ، وأن سليمان عليه السلام صادف العين المطلوبة وهي التي فهم . ومن رأى أَنَّ الحقَّ في الطرفين رأى أن سليمان عليه

السلام فهم القضيَّة المُثْلى والتي هي أرجح ، لا أن الأُولى خطأ ، وعلى هذا يحملون قول النبي صلى الله عليه وسلم (إذا اجتهد العالِم فأَخطأ) أي : أخطأَ الأَفضل .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وكثيراً ما يكون بين الأَقوال في هذه المسائل قليل تبايُن إلَّا أن ذلك الشُّفوف يشرف القول وكثيراً ما يتبيَّن الفضل بين القولين بأَدنى نظر ، ومسائل الفروع تخالف مسائل الأُصول في هذا ، ومسأَلة المجتهدين في نفسها مسأَلة أَصل ، والفرق بين مسائل الفروع ومسائل الأُصول أن مسائل الأُصول الكلام فيها إنما هو في وجود شيءٍ مَّا ، كيف هو ؟ كقولنا : «يُرى الله يوم القيامة» فقالت المعتزلة : «لا يُرى» ، وكقولنا : «الله واحد» ، وقالت النصارى : «ثلاثة» ، وهكذا هَلْ للمسائل عينٌ مطلوبة ؟ ومسائلُ الفروع إنما الكلام فيها على شيءٍ متقرر الوجود ، كيف حُكمه من تحليل أو تحريم ونحو هذا ؟ والأَحكام خارجة عن ذاته ووجوده ، وإنما هي بمقاييس واستدلالات ، وتعتبر مسائل الفروع بأَنها كل ما يمكن أن يَنْسَخ بعضُه بعضاً ، ومسائل الأُصول ما لو تقرر الوجه الواحد لم يصح أن يطرأ عليه الآخر ناسخاً .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ومسألة الاجتهاد طويلة ومتشعبة ، إلَّا أن هذه النبذة تليق بالآية وتقتضيها حرصاً على الإيجاز .

ويتعلّق بالآية فصلٌ آخر لابد من ذكره وهو رجوع الحاكم بعد قضائه من اجتهاد إلى اجتهاد آخر أرجح من الأول ، وأن داود عليه السلام فعل ذلك في هذه النازلة ، واختلف فقهاءُ المذهب المالكي في القاضي يحكم في قضية ، ثم يرى بعد ذلك أن غير ما حكم به أصوب ، فيريد أن ينقض الأول ويقضي بالثاني – فقال عبد الملك ، ومطرف في (الواضحة) : ذلك له ما دام في ولايته ، فأمَّا إذا كانت ولاية أخرى فليس ذلك له ، وهو بمنزلة غيره من القضاة ، وهذا هو ظاهر قول مالك رحمه الله في (المدونة) . وقال سحنون في رجوعه من اجتهاد فيه قول إلى غيره مما رآه أصوب : ليس له ذلك . وقاله ابن عبد الحكم ، ويستأنف الحكم بما قوي عنده آخراً ، قال سحنون : إلَّا أن يكون نسي الأقوى عنده أوْ وهم فحكم بغيره فله نَقْضه ، وأمَّا إن حكم بحكم وهو الأقوى عنده في ذلك الوقت ثم توجّه عنده غير ذلك فلا سبيل له إلى نقض الأول ، [قاله سحنون في كتاب ابنه . وقال أشهب في كتاب ابن المواز : إن كان رجوعه إلى الأصوب في مالٍ فله نقض الأول](١) ، وإن كان في طلاق أو نكاح أو عتق فليس له

(١) سقط من بعض النسخ ما بين العلامتين [...] . ونقل القرطبي هذا الكلام بالنص الذي أثبتناه هنا .

نقضه ، وقد تقدم القول في الحرث ، وروت فرقة أنه كان زرعاً ، وروت فرقة أنه كان كرماً.

و «النَّفَشُ» : تسرُّب البهائم في الزروع وغيرها باللَّيل (١) ، و«الْهَمَلُ» : تسرُّبها في ذلك بالنهار واللَّيل ، وقال ابن سيدة : لا يقال الْهَمَل في الغنم ، وإنما هو في الإبل (٢). ومضى الحكم في الإسلام بتضمين أرباب الغنم ما أفسدت باللَّيل لأن على أهلها أن يثقفوها (٣)، وعلى أهل الزروع وغيرها حفظها بالنهار ، وهذا هو مقتضى الحديث في ناقة البراء بن عازب (٤). وهذا مذهب مالك وجمهور الأئمَّة ،

---

(١) في اللسان : «يقال : نَفَشَت الإبل تَنْفُشُ وتَنْفِشُ . ونَفَشَتْ تَنْفَشُ إذا تفرقت فرَعَتْ بالليل من غير علم راعيها ، والاسم النَّفَش ، ولا يكون النَّفَشُ إلاّ بالليل . والهَمَل يكون ليلاً ونهاراً» .

(٢) في اللسان عن ابن الأعرابي : «إبلٌ هَمْلَى مُهْمَلة ، وإبلٌ هَوَامِل مُسَيَّبَةٌ لا راعي لها» ــ وفيه أيضاً : «وفي الحديث : ولنا نَعَم هَمَلٌ ، أي مُهملة لا رعاء فيها ولا فيها مَن يُصلحها ويهديها فهي كالضالة» .

(٣) أي : عليهم أن يطلبوها ويدركوها حتى لا تفسد الزروع .

(٤) حديث ناقة البَرَاء بن عازب رواه مالك عن ابن شهاب عن حرام بن سعيد بن مُحَيِّصة : (أن ناقة للبراء دخلت حائط رجل فأفسدت فيه . فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن على أهل الحوائط حفظها بالليل ، وأن ما أفسدت المواشي بالليل ضامنٌ (أي مضمون) على أهلها) . قال القرطبي : هكذا رواه جميع الرواة مرسلاً ، وكذلك رواه أصحاب ابن شهاب عن ابن شهاب . إلاّ ابن عُيَيْنة فإنه رواه عن الزهري عن سعيد وحرام بن سعد بن مُحَيِّصة . ورواه ابن أبي ذئب عن ابن شهاب ، ولكنه لم يذكر حرام بن سعد ، ورواه عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن حرام بن مُحَيِّصة عن أبيه ، ورواه ابن جريج عن ابن شهاب . قال أبو عمرو : وهذا الحديث ــ وإن كان مُرْسَلاً ــ فهو حديث مشهور أرسله الأئمة وحدَّث به الثقات واستعمله فقهاء الحجاز وتلقوه بالقبول ، وجرى في المدينة العمل به .

ووقع في كتاب ابن سُحنون أن الحديث إنما جاء في أمثال المدينة التي هي حيطان مُحْدِقة(١) ، وأمَّا البلاد التي هي زروع متصلة غير محظرة وبساتين كذلك فيضمن أرباب النَّعم ما أفسدت من ليل أو نهار .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

كأنه ذهب إلى أن ترك تثقيف الحيوان في مثل هذه البلاد تَعَدٍّ لأنها ولا بد تفسد . وقال أبو حنيفة في ذلك : لا ضمان ، وأدخله في عموم قول النبي صلى الله عليه وسلم : (جرح العجماء جُبَارٌ)(٢) ، فقاس جميع أفعالها على جروحها .

وقوله تعالى : ﴿وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً﴾ تأول قومٌ منه أن داود عليه السلام لم يخطئ في هذه النازلة ، بل فيها أُوتي الحُكْم والعِلْم ،

---

(١) الحيطان : جمع حائط وهو البستان ، وتجمع كذلك على حوائط . ومُحْدِقة من « أحدقت الأرض » إذا صارت حديقة ، والحديقة : كل أرض ذات شجر مثمر ونخل أحاط به حاجز .

(٢) أخرجه البخاري وابن ماجه وأبو داود في الديات ، ومسلم في الحدود ، والترمذي في الأحكام ، والنسائي والدارمي في الزكاة ، ومالك في موطئه في العقول ، وأحمد في مسنده في مواضع كثيرة . وأبو حنيفة يأخذ بهذا الحديث ويرى أنه ناسخ لحديث ناقة البراء ، ومالك يذهب إلى الأخذ بحديث البراء ، ويرى العلماء أن شروط النسخ غير متوافرة هنا . والتعارض بين الحديثين إنما يصح إذا لم يمكن استعمال أحدهما إلاّ بنفي الآخر . وحديث (العَجْماء جرحها جُبَار) – أي هَدَرٌ – حديث عموم متفق عليه ، وقد خصَّص حديثُ ناقة البراء الزرع والحوائط ، فهو من باب العموم والخصوص . فحديث الجُبَار حديث عموم . وحديث ناقة البراء خاص بالحوائط والزروع ، ولا تعارض بينهما ولا نسخ .

وقالت فرقة : بل لأنه لم يصب العين المطلوبة في هذه النازلة مدحه الله تعالى بأن له حُكماً وعِلْماً يُرجع إليه في غير هذه النّازلة .

وقوله تعالى : ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ مبالغة في الخير وتحقيق له ، وفي اللّفظ معنى : وكان ذلك في حقه وعند مستوجبه منّا ، فكأنه قال : وكنّا فاعلين لأجل استجابة ذلك ، وحذف اختصاراً لدلالة ظاهر القول على ما حُذف منه ، وقوله : [لِحُكْمِهِمْ] يريد داود وسليمان والخصمين ، لأن الحكم ينضاف إلى جميعهم وإن اختلفت جهات الإضافة ، وقرأت فرقة : «لِحُكْمِهِمَا» .

واختلف الناس في قوله تعالى : [يُسَبِّحْنَ] ـ فذهبت فرقة ـ وهي الأكثر ـ إلى أنه قول «سبحان الله» ، وذهبت فرقة منها منذر بن سعيد إلى أنه بمعنى : يُصَلِّين معه بصَلاته .

قوله عزّ وجلّ :

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾

عدّد الله تعالى على البشر أن علّم داود عليه السلام صنعة الدُّروع وألان له الحديد فكان يصنعها أحكم صنعة لتكون وقاية في الحرب

وسَبَبَ نجاة من العدو ، و «اللَّبُوس» في اللُّغة : السلاح ، فمنه الدِّرع والسيف والرُّمح وغير ذلك ، ومنه قول الشاعر :

وَمَعي لَبُوسٌ لِلْبَئِيسِ كَأَنَّهُ رَوْقٌ بِجَبْهَةِ ذِي نِعَاجٍ مُجْفِلِ (١)

يعني الرُّمح .

وقرأ نافع والجمهور : [لِيُحْصِنَكُمْ] بالياء على معنى : لِيُحْصِنكم داود عليه السلام أو اللَّبوس ، وقرأ ابن عامر ، وحفص عن عاصم : [لِتُحْصِنَكُمْ] بالتاءِ على معنى : لِتُحصنكم الصنعة أو الدُّروع التي أوقع عليها اللَّبوس ، وقرأ أبو بكر عن عاصم : [لِنُحْصِنَكُمْ] بالنون على معنى ردِّ الفعل لله تعالى ، ويُروى أنه كان الناس يتَّخذ القوي منهم لباساً من صفائح الحديد ، فكان ثقله يقطع بأكثر الناس ، وقرأت فرقة : [ٱلرِّيحَ] بالنصب على معنى : وسخَّرنا الرِّيح ، وقرأت فرقة : [ٱلرِّيحُ] بالرَّفع على الابتداء والخبرُ في المجرور قبله . ويُروى أن الرِّيح العاصفة كانت تهب على سرير سليمان عليه السلام الذي

---

(١) هذا البيت لأبي كبير الهذلي ، واسمه عامر بن الحليس ، وهو من قصيدة مطلعها :

أَزُهَيْرُ هَلْ عَنْ شَيْبَةٍ مِنْ مَعْدَلِ أَمْ لا سَبِيلَ إلى الشَّبَابِ الأَوَّلِ ؟

وهو هنا يخاطب ابنته «زهيرة» فيقول لها : أزُهَيْرُ . والبَئِيسُ : الشجاعُ ، والرَّوْقُ : القَرْنُ . وذو نعاج : يعني ثوراً له نعاجٌ ويقود قطيعاً ، والنِّعَاج : البقر الوحشي . والمجفول : الشرود في فزع وسرعة . واللَّبوس : ما يُلْبَس . وهو أيضاً الثيابُ والسلاح ، قال في اللسان : «مذكَّر ، فإن ذهبتَ به إلى الدرع أنثت ، وقال الله تعالى : ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ﴾ ، قالوا : هي الدرعُ تُلبس في الحرب ، والشاهد هنا أن اللَّبُوس عامٌ في السِّلاح كلِّه : الدرع والسيف والرمح ، وقد أراد به الشاعر هنا الرمح وشبهه بِرَوْق الثور الفزع الشارد في سرعة وهو يدافع عن نعاجه .

فيه بساطه ، وقد مَدَّ حول البساط بالخشب والألواح حتى صنع سريراً يحمل جميع عسكره وأقواته فَتُقِلُّه من الأرض في الهواء ثم تتولاه الريح الرخاءُ بعد ذلك فتحمله إلى حيث أراد سليمان عليه السلام .

وقوله : ﴿ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ ، اختلف الناس فيها — فقالت فرقة : هي أرض الشام وكانت مسكنه وموضع مُلْكه ، وخصَّص في هذه الآية انصرافه من سفراته إلى أرْضه لأن ذلك يقتضي سفره إلى المواضع التي سافر إليها ، والبَرَكَةُ في أرض الشَّام بيِّنة الوجوه ، وقد قال بعضهم : إن العاصفة هي في القبول على عادة البشر والدَّواب في الإسراع إلى الوطن ، والرُّخاءُ في البدأة حيث أصاب ، أي حيث يقصد ؛ لأن ذلك وقت تَأَنٍّ وتدبير وتقلب رأْي ، وقال منذر بن سعيد : في الآية تقديم وتأْخير ، والكلام تام عند قوله : ﴿ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ ، وقوله : ﴿ ٱلَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ صفة للرِّيح .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويحتمل أن يريد الأرض التي يسير إليها سليمان عليه السلام كائنة ما كانت ، وذلك أنه لم يكن يسير إلى أرض إلَّا أصلحها ، وقتل كفَّارها ، وأثبت فيها الإيمان ، وبثَّ فيها العدل ، ولا بركة أعظم من هذا ، فكأنه قال : إلى أي أرض باركنا فيها فبعثنا سليمان إليها

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ * وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

يحتمل أَن يكون قوله : ﴿ يَغُوصُونَ لَهُ ﴾ في موضع نصب على معنى : وسخَّرنا من الشياطين ، ويحتمل أَن يكون في موضع رفع على الابتداء ، ويتناسب هذا مع القراءتين المتقدمتين في قوله سبحانه : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ ٱلرِّيحُ ﴾ بالنصب والرفع . وقوله : [يَغُوصُونَ] جمع على معنى [مَنْ] لا على لفظها ، و «الغوص» : الدخول في الماء والأَرض ، والعمل دون ذلك البنيان وغيره من الصنائع والخدمة ونحوه ، وقوله : ﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾ ، قيل : معناه : من إفسادهم ما صنعوه ، فإِنهم كان لهم حرصٌ على ذلك لولا ما حال الله بينهم وبين ذلك ، وقيل : معناه : عادلين وحاضرين ، أَي لا يشذ عن علمنا وتسخيرنا أَحد منهم .

وقوله تعالى : [وَأَيُّوبَ] ، أَحسن ما فيه النصب بفعل مضمر تقديره : واذكر أَيوبَ ، وفي قصص أَيوب عليه السلام طول واختلاف

من المفسِّرين ، وتلخيص ذلك أنه رُوي أن أيوب عليه الصلاة والسلام كان نبيًّا مبعوثاً إلى قوم ، وكان كثير المال من الإبل والبقر والغنم ، وكان صاحب البَثَنية من أرض الشام ، فغبر كذلك مدة ، ثم إن الله تبارك وتعالى لمَّا أراد محنته وابتلاه أَذِن لإبليس في أن يفسد ماله ، فاستعان بذرِّيته فأحرقوا ماله ونَعَمه أجمع ، فكان كلَّما أُخبر بشيءٍ من ذلك حَمَدَ الله تعالى وقال : هي عارية استردها صاحبها والمُنْعم بها ، فلما رأى إبليس ذلك جاء فأخبر بعجزه عنه ، فأذن الله له في إهلاك بنيه وقرابته ففعل ذلك أجمع فدام أيوب عليه السلام على شكره ، فأخبر إبليس بعجزه ، فأذن الله تعالى له في إصابته في بدنه ، وحجر عليه لسانه وعينيه وقلبه ، فجاء إبليس وهو ساجد فنفخ في أنفه نفخة احترق بدنه منها ، وجعلها الله أَكلة في بدنه ، فلما عظمت وتقطع أخرجه الناس من بينهم وجعلوه على سُباطة(١) ، ولم يبق معه بشر حاشا زوجته ، ويقال : كانت بنت يوسف الصديق ، وقيل : اسمها رحمة ، وقيل في أيوب : إنه من بني إسرائيل ، وقيل : إنه من الروم من ذرية عيصو ، فكانت زوجته تسعى عليه وتأْتيه بما يأْكل وتقوم عليه ، فدام في هذا العذاب مدة طويلة ، قيل : ثلاثين سنة ، وقيل : ثماني عشرة سنة ، وقيل : اثنتي عشرة سنة ، وقيل : تسعة أعوام ، وقيل : ثلاثة ، وهو في كل ذلك صابر شاكر حتى جاءه — فيما رُوي —

(١) السُّباطة : الموضع الذى يُرمى فيه التراب والأوساخ وما يُكنس من المنازل ، وفي بعض الكتب : « وضعوه على تَلٍّ وجعلوا عليه عريشة » .

ثلاثة ممَّن كان آمن به فوقروه بالقول وأنَّبوه ونَجَهُوهُ(١) وقالوا : ما صنع بك ربك هذا إلَّا لخبثٍ باطنه فيك ، فراجعهم أيوب في آخر قولهم بكلام مقتضاه أنه ذليل لا يقدر على إقامة حُجَّة ولا بيان ظُلامة ، فخاطبه الله تعالى معاتباً على هذه المقالة ومُبَيِّناً أنه لا حُجَّة لأحد مع الله ، ولا يسأل عمَّا يفعل ، ثمَّ عرَّفه سبحانه وتعالى بأنه قد أذن في صلاح حاله ، وعاد عليه بفضله ، فدعا أيوب عليه السلام عند ذلك فاسْتُجيب له .

ويُروى أن أيوب عليه السلام لم يزل صابراً لا يدعو في كشف ما به ، وكان – فيما رُوي – يقع الدود منه فيردُّهُ بيده حتى مرَّ به قوم كانوا يعادونه فشمتوا به فتألَّم لذلك ودعا حينئذ فاستُجيب له ، وكانت امرأته غائبة عنه في بعض شأنها فأنبع الله له عيناً وأُمر بالشرب منها فبرئ باطنه ، وأُمر بالاغتسال فبرئ ظاهره ورُدَّ إلى أفضل حاله ، وأُتي بأحسن الثياب ، وهبَّ عليه رِجْلٌ(٢) من جراد من ذهب فجعل يحثو منها في ثوبه ، فناداه الله تعالى : يا أيُّوب ألم أكن أغْنيتك عن هذا ؟ قال : بَلَى يا رب ولكن لا غنى لي عن بركتك ، فبينما هو كذلك إذ جاءت امرأته فلم تره على السباطة

---

(١) النَّجْهُ : استقبالُك الرجل بما يكره وردُّك إيَّاه عن حاجته . وفي الحديث : (بعدما نَجَهَهَا عُمَر) ، أي بعدما ردَّها وانتهرها .

(٢) الرِّجْل : الطائفة العظيمة من الجراد .

فجزعت وظنَّت أنه أُزيل عنها وجعلت تَتَوَلَّه(١) . فقال لها : ما شأْنك أَيتها المرأة ؟ فهابته لحسن هيئته ، فقالت : إني فقدتُ مريضاً كان لي في هذا الموضع ، ومعالم المكان قد تغيرت ، وتأَمّلته في أثناء المقالة فرأت أيوب . فقالت له : أنت أَيوب ؟ فقال لها : نعم ، فاعتنقها وبكى ، فروي أنه لم يُفارقها حتى أَراه الله جميع ماله حاضراً بين يديه .

واختلف الناسُ في أَهله وولده الذين آتاه الله ، فقيل : كان ذلك كله في الدنيا ، فردَّ الله عليه بصره وولده بأَعيانهم ، وجعل مثلهم عدَّةً له في الآخرة . وقيل : بل أُوتي جميع ذلك في الدنيا من أَهل ومال .

وقوله تعالى : ﴿وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ أي : وتذكرة وموعظة ، ولا يعبد الله إلَّا مؤمن ، والذكرى إنما هي في محنته ، والرحمة في زوال ذلك . وقوله : ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ تقديره : بأَنِّي مَسَّني ، فحذف الجار وبقيت [أَنِّي] في موضع نصب ، ورُوي أن سبب محنة أَيوب عليه السلام أنه دخل مع قوم على مَلِك جار عليهم فأَغلظ له القول ولَيَّن له أَيوب القول خوفاً منه على ماله ، فعاقبه الله على ذلك ، ورُوي أنه كان يقال له : مالك لا تدعو في العافية ؟ فكان يقول : إني لأَستحي من الله تعالى أَن أَسأَله زوال عذابه حتَّى يمرَّ علي فيه ما مرَّ من الرَّخاء ، وأَصابه البلاءُ ـ فيما رُوي ـ وهو ابن ثمانين سنة .

---

(١) وَلَه وتَوَلَّه : حزن حزناً شديداً .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

المعنى : واذكر إسماعيل ، وهو إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام ، وهو أبو العرب المعروفين اليوم في قول بعضهم ، وإدْريسُ هو خنوخ ، وهو أول نبيٍّ بعث الله من بني آدم ، ورُوي أنه كان خيَّاطاً يسبح الله عند إدخال الإبرة ويحمده عند إخراجها ، وذو الكفل كان نبيًّا ، ورُوي أنه بُعث إلى رجل واحد ، وقيل : لم يكن نبيًّا ولكنه كان عبداً صالحاً ، ورُوي أن (ٱلْيَسَعَ) جمع بني إسرائيل فقال : من يتكفَّل لي بصيام النهار وقيام اللَّيل وألَّا يغضب وأُوليه النظر للعباد بعدي ؟ فقام إليه شاب فقال : أنا لك بذلك ، فراجعه ثلاثاً في ذلك يقول : أنا لك بذلك ، فاستعمله ، فلمَّا مات (ٱلْيَسَعُ) قام بالأَمر فجاءَ إبليس ليغضبه ـ وكان لا ينام إلَّا في القائلة ـ فكان يأْتيه وقت القائلة أياماً فيوقظه ويشتكي ظلامته ويقصد تضييق صدره ، فلم يضق به صدراً ، ومضى معه لينصفه بنفسه . فلمَّا رأى إبليس ذلك أَبلَس عنه ، وكفاه الله شرَّه ، وسُمِّي (ذا الكفل) لأنه تكفَّل بأَمر فوفَّى به ، وباقي الآية بيِّن .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

التقدير : واذكر ذا النون ، والنون : الحوت ، وصاحبه يونس ابن مَتَّى عليه السلام ، ونسب إلى الحوت الذي التقمه على الحالة التي يأتي ذكرها في موضعها الذي تقتضيه ، وهو نبي من أهل نينوى ، وهذا هو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مَن قال أَنا خير من يونس بن مَتَّى فقد كذب)(١) ، وفي حديث آخر : (لا ينبغي لأَحد أَن يقول أَنا خير من يونس بن متَّى)(٢) ، وهذا الحديث وقوله : (لا تفضِّلوني على موسى)(٣) يتوهم أَنهما يعارضان قوله عليه الصلاة والسلام على المِنبر : (أَنَا سيِّد ولد آدم ولا فخر)(٤) ، والانفصال

(١) أخرجه الحاكم وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما . وأخرج مثله عبد بن حميد ، والبخاري ، والنسائي ، وابن مردويه ، عن ابن مسعود رضي الله عنه . وأخرج مثله البخاري ، ومسلم ، وابن مردويه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه . وفي رواية ابن عباس رضي الله عنهما زيادة (نسبه إلى أبيه ، أصاب ذنباً ثم اجتباه ربه) . (الدر المنثور) .

(٣) أخرجه البخاري (١٩٣ من الجزء السابع) ، ومسلم في كتاب الفضائل .

(٤) هذا جزءٌ من حديث طويل هو حديث الشفاعة ، وقد أخرجه البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، وابن ماجه ، والإمام أحمد ، وفي مسنده (١ـ٥) نصُّ الحديث عن أبي بكر =

عن هذا بوجهين : أَحدهما ذَكَرَهُ الناس وهو أَن يكون قوله : (أَنا سيِّد ولد آدم) يتأَخر في التاريخ ، وأَنها منزلة أَعلمه الله تعالى بها لم يكن عَلِمَهَا وقت تلك المقالات الأُخر ، والوجه الثاني وهو عندي أَجرى مع حال النبي صلى الله عليه وسلم أَنه إنما نهى عن التفضيل بين شخصين مذكورين وذهب مذهب التواضع ولم يزل سيِّد ولد آدم ، ولكنه نهى أَن يفضَّل على موسى كراهة أَن يغضب لذلك اليهود فيزيد نفارها عن الإِيمان ، وسبب الحديث يقتضي هذا ، وذلك أَن يهوديًّا قال : لا والذي فضل موسى على العالمين ، فقال له رجل من الأَنصار : أَتقول هذا ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أَظْهُرنا ؟ فسرى الأَمر وارتفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنهى عن تفضيله عن موسى ، وَنَهَى عليه الصلاة والسلام عن تفضيله على يونس لئلا يظن أَحد بيونس عليه السلام نقصُ فضيلةٍ بسبب ما وقع له ، فنهيه صلى الله عليه وسلم عن التفضيل على شخص معيَّن ، وقوله عليه الصلاة والسلام في حديث

= رضي الله تعالى عنه ، وفيه : (فيقول عيسى : ليس ذاكم عندي ولكن انطلقوا إلى سيِّد ولد آدم) ، ثم جاء فيه (فيقول : أي ربِّ ، خلقتني سيِّد ولد آدم ولا فخر) ، وأخرج الحديث أيضاً ابن ماجه في الزهد ، وأبو داود في السُّنَّة . وفي حديث آخر عن ابن عباس رضي الله عنهما — وأخرجه البخاري ، ومسلم وأحمد وغيرهم — قال صلى الله عليه وسلم : (إنه لم يكن نبي إلاَّ له دعوة قد تنجزها في الدنيا ، وإني قد أخبأت دعوتي شفاعة لأمتي ، وأنا سيِّد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر) والحديث طويل ، ونصه في المسند (١-٢٨١) .

ثالث : (لا تفضِّلوا بين الأَنبياء)(١) هذا كله مع قوله : (أَنا سيِّد ولد آدم ولا فخر) وإطلاق الفضل له دون اقتران بأَحدٍ بيِّن صحيح . وتأَمل هذا فإِنه يلوح ، فقد قال عمر رضي الله عنه للحطيئة : امدح ممدوحك ولا تفضِّل بعض الناس على بعض .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ولفظة «سيِّد» ولفظة «خير» سيَّان ، وهذا مبدأُ جَمْع آخر بين الأَحاديث يُذهب ما يُظَنُّ من التعارض .

وقوله تعالى : [مُغَاضِباً] ، قيل : إنه غاضب قومه حين طال عليه أَمرهم وتعنتهم فذهب فارًّا بنفسه ، وقد كان الله تعالى أَمره بملازمتهم والصبر على دعائهم ، فكان ذنبه في مخالفة هذا الأَمر ، ورُوي أَنه كان شابًّا ولم يحتمل أَثقال النُّبوَّة وتفسَّخ تحتها كما يتفسخ الرُّبَع(٢) تحت الحمل، ولهذا قيل للنبي صلى الله عليه وسلم : ﴿وَلَا تَكُنْ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال : (جاء يهودي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ضرب في وجهه ، فقال له ، ضربني رجل من أصحابك ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : لم فعلتَ ؟ قال : يارسول الله فضَّل موسى عليك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا تفضلوا بعض الأنبياء على بعض فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يرفع رأسه من التراب فأجد موسى عليه السلام عند العرش ، لا أدري أكان فيمن صُعق أم لا) . وأخرج هذا الحديث مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ، وعن أبي سعيد الخدري أيضاً واللفظ فيه : (لا تُخَيِّرُوا بين الأنبياء) .

(٢) الرُّبَع : الفصيل إذا ولد في الربيع وكان أول النتاج .

كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾(١) أي : فاصبر ودم على الشقاء بقومك ، وقالت فرقة : إنما غاضب المِلك الذي كان على قومه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا نحو من الأول فيما يلحق منه يونس عليه السلام . وقال الحسن بن أبي الحسن وغيره : إنما ذهب مغاضباً ربَّه واستفزَّه إبليس (٢) ، وَرَوَوْا في ذلك أن يونس عليه السلام لمَّا طال عليه أمر قومه طلب من الله عذابهم ، فقيل له : إنَّ العذاب يجيئهم يوم كذا ، فأخبرهم يونس عليه السلام بذلك ، فقالوا : إن رحل عنَّا فالعذاب نازل ، وإن أقام بيننا لم نبالِ ، فلمَّا كان سحر ذلك اليوم قام يونس فرحل فأيقنوا بالعذاب فخرجوا بأجمعهم إلى البَرَازِ ، وفرَّقوا بين صغار البهائم وأُمهاتها وتضرَّعوا وتابوا فرفع الله عنهم العذاب . وبقي يونس في موضعه الذي خرج إليه ينتظر الخبر ، فلمَّا عرف أنهم لم يُعذَّبوا ساءه أن عدُّوه كاذباً ، وقال : والله لا انصرفت إليهم أبداً ، ورُوي أنه كان من دينهم قتل الكذاب ، فغضب حينئذ على ربه وخرج على وجهه حتى دخل في سفينة في البحر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفي هذا القول من الضعف مالا خفاء به مما لا يتَّصف به نبي .

---

(١) من الآية (٤٨) من سورة (القلم) .

(٢) في بعض النسخ : « فاستزلَّه إبليس » . وهي أيضاً في القرطبي .

(٣) البَرَازُ : الفضاء الواسع الخالي من الشجر ونحوه .

واختلف الناس في قوله تعالى : ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ ـ فقالت فرقة : استفزَّه إبليس ووقع في ظنِّه إمكان أن لن يقدر الله عليه بمعاقبة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قولٌ مردود .

وقالت فرقة : معنى ﴿ظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أن لن نُضَيِّق عليه في مذهبه ، من قوله تعالى : ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾(١) ، وقالت فرقة : هو من القَدَر ، أي ظن أن لن يقضي الله عليه بعقوبة(٢) ، وقالت فرقة : الكلام بمعنى الاستفهام ، أي : أفظن أنْ لن نقدر عليه ؟ وحكى منذر بن سعيد أن بعضهم قرأ : [أَفَظَنَّ] بالألف ، وقرأ الزهري : [نُقَدِّرَ] بضم النون وفتح القاف وشد الدال(٣) ، وقرأ الحسن : ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ ، وعنه أيضاً : [نَقْدِر](٤) ، وبعد هذا

(١) من الآية (٢٦) من سورة (الرعد) . ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ أي ضُيِّقَ .

(٢) أي : هي من القَدَر الذي هو القضاء والحُكْم ، وهو قول قتادة ومجاهد والفراء .

(٣) وحكى الماوردي هذه القراءة عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٤) روي عن أبي العباس أحمد بن يحيى بن ثعلب أنه قال في قول الله تعالى : ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ هو من التقدير وليس من القدرة ، يقال منه : قدَّر الله لك الخير يُقَدِّرُه قدراً ، وأنشد ثعلب :

فَلَيْسَتْ عَشِيَّاتُ اللِّوَى بِرَوَاجِع لَنَا أَبَداً ما أَوْرَقَ السَّلَمُ النَّضْرُ
وَلاَ عائِدٌ ذاكَ الزَّمَانُ الَّذِي مَضَى تَبَارَكْتَ ما تَقْدِرْ يَقَعْ وَلَكَ الشُّكْرُ

يعني : ما تُقَدِّرْهُ وتقضي به يقع ، وليس المراد : ما تَقْدِرُ عليه .

الكلام حذف كثير اقتضب لبيانه في غير هذه الآية . المعنى : فدخل البحر وكذا وكذا حتى التقمه الحوت وصار في ظُلْمة جوفه .

واختلف الناس في جمع « الظُّلُمات » ما المراد به ؟ – فقالت فرقة : ظلمة اللَّيل ، وظلمة البحر ، وظلمة الحوت ، وقالت فرقة : ظلمة البحر ، وظلمة حوت التقم الحوت الأَول ، وظلمة الحوت الأَول الذي التقم يونس عليه السلام .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويصح أَن يعبَّر بالظلمات عن جوف الحوت الأَول فقط ، كما قال : ﴿ فِي غَيَابَاتِ ٱلْجُبِّ ﴾(١) ، وكل جهاته ظُلْمة فَجَمْعُها سائغ ، ورُوي أَن يونس عليه السلام سجد في جوف الحوت حين سمع تسبيح الحيتان في قعر البحر ، ثم قال في دعائه : « اللَّهم إني قد اتَّخذت لك مسجداً في موضع لم يتَّخذه أحد قبلي » . و [أَنْ] مفسِّرة نحو قوله تعالى : ﴿ أَنِ ٱمْشُوا ﴾(٢) ، وفي هذا نظر ، وقوله : ﴿ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ ﴾

---

(١) من الآية (١٥) من سورة (يوسف) . وقراءة المدنيَّيْن بالألف على الجمع .

(٢) من قوله تعالى في الآية (٦) من سورة (ص) : ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا وَٱصْبِرُوا عَلَىٰ ءَالِهَتِكُمْ ﴾ . وكانت [أَنْ] في قوله تعالى : ﴿ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ ﴾ تفسيرية لأن ما قبلها في معنى القول وهو قوله : [فَنَادَىٰ] ، ويجوز أن تكون مخففة من الثقيلة ، ويكون التقدير : « بأنه لا إله إلاّ أنت » ، وبهذا يكون قد حصر الألوهية فيه سبحانه وتعالى ، ثم نزّهه عن سمات النقص ، ثم أقرّ بما بعد ذلك .

يريد : فيما خالف فيه من ترك مداومة قومه والصبر عليهم ، هذا أحسن الوجوه ، وقد تقدم ذِكْر غيره ، فاستجاب الله له وأخرجه إلى البَرِّ ، وَوَصْفُ هذا يأْتي في موضعه . و «ٱلْغَمُّ» ما كان ناله حين التقمه الحوت .

وقرأَ جمهور القراءِ : [نُنْجِــي] بنونين الثانية ساكنة ، وقرأَ عاصم – في رواية أَبي بكر – : [نُجِّي] بنون واحدة مضمومة وشد الجيم ، ورويت عن أَبي عمرو ، وقرأَت فرقة : [نُنَجِّي] بنونين الأُولى مضمومة والثانية مفتوحة والجيم مشددة ، فأَمَّا القراءَة الأُولى والثالثة فَبَيِّنَتَان ، الأُولى فعلها معدى بالهمزة ، والأُخرى بالتضعيف ، وأَمَّا القراءَة الوسطى التي هي بنون واحدة مضمومة وجيم مشددة وياءٍ ساكنة فقال أَبو علي : لا وجه لها ، وإنما هي وهم من السامع ، وذلك أَن عاصماً قرأَ : [نُنْجِي] والنون الثانية لا يجوز إظهارها لأَنها تخفى مع هذه الحروف ، يعني الجيم وما جرى مجراها ، فجاءَ الإِخفاءُ يشبهها بالإِدغام ، ويمتنع أَن يكون الأَصل (ننجي) ثم يدعو اجتماع النونين إلى إدغام إحداهما في الجيم ؛ لأَن اجتماع المثلين إنما يدعو إلى ذلك إذا كانت الحركة فيهما متفقة ، ويمتنع أَن يكون الأَصل (ننجي) وتسكن الياءُ ويكون المفعول الذي لم يُسَمَّ فاعله المصدر ، كأَنه قال : نُجِّيَ النجاءُ المؤمنين ؛ لأَن هذه لا تجيءُ إِلَّا في ضرورة ، وليست في

كتاب الله تعالى ، والشاهد فيها قول الشاعر :

وَلَوْ وَلَدَتْ قُفَيْرَةُ جَرْوَ كَلْبٍ لَسُبَّ بِذَلِكَ الْجَرْوِ الكِلَابَا (١)

وأيضاً فإن الفعل الذي بني للمفعول إذا كان ماضياً لم يسكن آخره .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والمصاحف فيها نون واحدة كتبت كذلك من حيث النون الثانية مخفاة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

---

(١) (قُفَيْرَة) على وزن جهينة هي أُم الفرزدق ، والبيت لجرير ، قاله من قصيدة يهجو بها الفرزدق . والجرو : الصغير من ولد الكلب والأسد والسباع ، ومن هنا تظهر فائدة الإضافة إلى الكلب ، لأنها تحدد المراد من الجرو بأنه ابن كلب ، وقد كان جرير قاسياً في هجائه ، وكثيراً ما ذكر قُفَيْرة ونعتها بأقبح الصفات ، وهو القائل فيها :

وهَلْ أُمٌّ تكونُ أشَدَّ رعياً وصَرّاً مِنْ قُفَيْرَةَ وَاحْتِلاباً ؟

والتقدير في البيت : لَسُبَّ السَّبُّ بذلك الجَرْوِ ، وهذا شاذٌ ، كما تقول : ضُرِبَ زيداً ، بمعنى : ضُرِبَ الضَّرْبُ زيداً ، وتسكين الياء في الآية لغة عربية . ولكن ابن عطية يرفض هذا في الآية .

تقدم أمر زكريًّا عليه السلام في سورة مريم ، وإصلاح الزوجة ، قيل : بأَن جعلها تحمل وهي عاقر ، فحاضت وحملت ، وهذا هو الذي يشبه الآية ، وقيل : بأَن أُزيل بذاءٌ كان في لسانها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف ، وعموم اللَّفظة يتناول كلَّ وجوه الإصلاح .

وقرأت فرقة : [وَيَدْعُونَنَا] ، وقرأت فرقة : [وَيَدْعُونَا] ، وقرأت فرقة : [رَغَباً] بفتح الراءِ والغين ، و [رَهَباً] كذلك ، وقرأت فرقة بضم الراءِ فيهما وبسكون الغَيْن والهاءِ ، وقرأت فرقة بفتح الراءِ وسكون الغَيْن والهاءِ ، والمعنى أنهم يدعون في وقت تعبدهم وهم بحال رغبة ورجاءٍ ورهبة وخوف في حالٍ واحدة ؛ لأَن الرَّغبة والرَّهبة متلازمتان ، وقال بعض الناس : الرغب أَن ترفع بطون الأَكُفِّ نحو السماءِ ، والرهب أَن ترفع ظهورهما .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وتلخيص هذا أَن عادة كل داعٍ من البشر أَن يستعين بيديه ، فالرَّغب – من حيث هو طلب – يحسن معه أَن يوسع باطن الراح نحو المطلوب منه ؛ إذ هو موضع الإِعطاءِ ، وبها يتملَّك ، والرَّهَب – من حيث هو دفع مضرَّة – يحسن معه طرح ذلك والإِشارة إلى ذهابه وتَوَقِّيه بنفض اليدين ونحوه .

و «ٱلْخُشُوعُ» : التذلُّل بالبدن المتركِّبُ على التذلُّل بالقلب .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٩١ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ۝٩٢ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ۝٩٣ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ۝٩٤ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝٩٥ ﴾

المعنى : واذكر التي أحصنت فرجها ، وهي مريم بنْتُ عمران أُمُّ عيسى عليهما السلام . و «ٱلْفَرْجُ» ـ فيما قال الجمهور . وهو ظاهر القرآن ـ : الجارحة المعروفة ، وفي إحصانها هو المدح . وقالت فرقة : الفَرْج هنا فَرْج ثوبها الذي منه نفخ المَلَك ، وهذا ضعيف . وأمَّا نفخ الولد فيها فقال كثير من العلماء : إنما نفخ من جيب درعها ، وأضاف «الروح» إضافة المِلْك إلى المالك ، و «ابْنها» : عيسى بن مريم عليه السلام ، وأراد تعالى أنه جعل مجموع قصة عيسى وقصة مريم عليهما السلام من أَوَّلها إلى آخرها آيةً لمن اعتبر في ذلك . و [لِلْعَالَمِينَ] يريد : لمن عاصر فما بعد ذلك .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ﴾ يحتمل الكلام أن يكونَ مُنْقَطِعاً خطاباً لمعاصري محمد عليه الصلاة والسلام ، ثم أخبر عن الناس أنهم تقطعوا ، ثم وَعَدَ وَأَوْعَدَ ، ويحتمل أن يكونَ متصلاً ، أي : جعلنا مريم وابنها آية للعالمين بأن بُعِثَ لهم بملَّة وكتاب ، وقيل لهم : ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ﴾ ، أي دعا الجميع إلى الإيمان بالله تبارك وتعالى وعبادته ، ثم أخبر تعالى بعد ذلك أنهم اختلفوا وتقطعوا أمرهم ، ثم فرَّق بين المحسن والمسيء فذكَّر المحسن بالوعد ، أي : فمن عمل من الصالحات وهو مؤمن فهو بِسَعْيه يُجازى ، وذكَّر المسيءَ بالوعيد في قوله : ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ الآية ، فتأمل الوعيد فيها على كل قول تذكره فإنه بيِّن ، و «ٱلْكُفْرَانُ» مصدرٌ كالكفر ، ومنه قول الشاعر :

رَأَيْتُ أُنَاساً لَا تَنَامُ خُدُودُهُم ... وَخَدِّي وَلَا كُفْرَانَ لِلهِ نَائِمُ (١)

واختلف القراءُ في قوله تعالى : [وَحَرَامٌ] ــ فقرأ عكرمة وغيره : [وَحَرِمٌ] بفتح الحاءِ وكسر الراءِ ، وقرأ جمهور السبعة : [وَحَرَامٌ] ، وقرأ حمزة والكسائي ، وحفص عن عاصم : [وَحِرْمٌ] بكسر الحاءِ وسكون الراءِ (٢) ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما ــ بخلاف عنه ــ :

(١) هذا البيت شاهد على أن «الكفران» مصدر «كفر» كالكفر والكفور ، وهو في البحر ، وفي الطبري ، والرواية فيه : «من الناس ناسٌ ما تنامُ خدودهم» . وفي اللسان : «وتقول : كفر نعمةَ الله ، وبنعمة الله ، كُفْراً وكُفْراناً وكفوراً» .

(٢) قراءة حفص عن عاصم كما هي ثابتة في المصحف : ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ إلى آخر الآية ، ولعلَّ الخطأ من النساخ .

[وَحَرْمٌ] بفتح الحاء وسكون الراء ، وقرأت فرقة : [وَحَرَّمَ] بفتح الحاء والراء وشدِّ الراء ، وقرأت فرقة : [وَحُرِّمَ] بضم الحاء وكسر الراء وشدها ، وقرأ قتادة ، ومطر الوراق : [وَحَرُمَ] بفتح الحاء وضم الراء(١). والمستفيض من هذه القراءات قراءة من قرأ : [وَحِرْمٌ] ، وقراءة من قرأ : [وَحَرَامٌ] ، وهما مصدران مثل «حلٌّ وحَلَالٌ» .

وأمَّا معنى الآية فقالت فرقة : حرامٌ وحِرْمٌ معناه : جَزْمٌ وحَتْم على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون إلى الدنيا فيتوبون ويستعتبون ، بل هم صائرون إلى العذاب ، وقال بعض هذه الفرقة : «الإِهْلَاكُ» هو بالطَّبع على القلوب ونحوه ، و «الرُّجُوعُ» هو إلى التوبة والإيمان ، وقالت طائفة : المعنى : وحَرَامٌ ، أي ممتنع ـ وحِرْمٌ كذلك ـ على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون ، وقالوا : لا زيادة في الكلام . واختلفوا في «الإهلاك والرجوع» بحسب القولين المذكورين . قال أبو علي : يحتمل أن يرتفع [حَرَامٌ] بالابتداء ، والخبر رجوعهم . و [لَا] زائدة ، ويحتمل أن يرتفع [حَرَامٌ] على خبر الابتداء ، كأنه قال : والإقالة

---

(١) قال ابن جني : «أما [حَرِمَ] فالماضي من حَرِمٍ ، مثل قَلِقَ من قَلِقٍ ، قالوا : حَرِمَ زيدٌ إذا سُلِبَ ما لَه ، قال زهير :

وإنْ أتاهُ خليــــلٌ يَوْمَ مَسْغَبَةٍ يقولُ لا غائِبٌ مالي ولا حَرِمُ».

ومعنى هذا الكلام أن (حَرِمَ) لازمٌ ولهذا يكون الوصف منه على فَعِلٍ ، مثل قَلِقَ وبَطِرَ من قَلِقٍ وبَطِرٍ .

ثم قال ابن جني : «وأمَّا [حَرُمَ] فمن حَرَمْتُهُ الشيء : إذا منعته إيَّاه ، فقد عاد إذاً إلى معنى : ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ . »

والتوبة حرام ، ثم يكون التقدير بأنهم لا يرجعون ، فتكون [لَا] على بابها ، كأنه قال : هذا عليهم ممتنعٌ بسبب كذا ، فالتحريم في الآية بالجملة ليس كتحريم الشرع الذي إن شاءَ المنهيُّ عنه ركبه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويتَّجه في الآية معنى ضمنه وعيدٌ بيِّن ، وذلك أنه ذكر من عمل صالحاً وهو مؤمن ، ثم عاد إلى ذكر الكفرة الذين من كفرهم ومعتقدهم أنهم لا يُحشرون إلى ربٍّ ، ولا يرجعون إلى مَعَادٍ ، فهم يظنون بذلك أنه لا عقاب ينالهم ، فجاءَت الآية مكذِّبة لظن هؤلاءِ ، أي : «مُمْتَنِـعٌ على الكفرة المهلَكين أنهم لا يرجعون ، بل هم راجعون إلى عقاب الله وأليم عذابه» ، فتكون [لَا] على بابها ، والحرام على بابه ، وكذلك الحِرْم فتأمله (١) .

---

(١) وقال الزجاج : «إن في الكلام إضماراً ، والتقدير : وحرامٌ على قرية حكَمْنا باستئصالها ، أو بالخَتْم على قلوبها أن يُتَقَبَّل منهم عمل لأنهم لا يرجعون ، أيْ لا يتوبون ، و [لاَ] غير زائدة . وقال النحاس : الآية مشكلة ، ومِن أحسن ما قيل فيها ما روي عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما ، حيث قال : «وَجَبَ أنَّهُم لا يرجعون ، قال : لا يتوبون» ، وقد قيل : الحرام يأتي بمعنى الواجب ، ويدل على ذلك قوله تبارك وتعالى : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا﴾ وترك الشرك واجب ، وقالت الخنساءُ :

حَرَامٌ عَلَى أَلاَّ أرَى الدَّهْرَ بَاكِيـاً   عَلَى شَجْوِهِ إلاَّ بَكَيْتُ عَلَى صَخْرْ

«وقيل : هذا البيت لعبد الرحمن بن جمانة المحاربي الجاهلي ، قال ذلك في اللسان ــ حرم» .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾

تحتمل [حَتَّى] – في هذه الآية – أن تكون متعلِّقة بقوله : [وَتَقَطَّعُوا] ، وتحتمل – على بعض التأْويلات المتقدمة – أن تتعلَّق بـ [يَرْجِعُونَ] ، وتحتمل أن تكون حرف ابتداءٍ : وهو الأَظهر بسبب [إِذَا] ؛ لأَنها تقتضي جواباً هو المقصود ذكْره .

واختلف هنا في الجواب – فقالت فرقة : الجواب قوله : ﴿ٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ﴾ والواو زائدة ، وقالت فرقة – منها الزجاج وغيره – : الجواب في قوله تعالى : ﴿ يَا وَيْلَنَا ﴾ ، والتقدير : قالوا يا ويلنا ، وليست الواو بزائدة . والذي أَقول : إن الجواب في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا هِيَ شاخِصَةٌ ﴾ ، وهذا هو المعنى الذي قُصد ذكره لأَنه رجوعهم الذي كانوا يكذبون به وحُرِّم عليهم امتناعه .

وقرأ الجمهور : [فُتِحَتْ] بتخفيف التاءِ ، وقرأ ابن عامر وحده : [فُتِّحَتْ] بتثقيلها . ورُوي أن يأْجوج ومأْجوج يشرفون في كل يوم على الفتح فيقولون : غَداً يُفتح ، ولا يردُّون المشيئة إلى الله تعالى ،

فإذا كان الغَدُ وجدوا الرَّدْم كأَوله ، حتَّى إِذا أَذِن الله في فتحه قال قائلهم : غداً نفتحه إن شاءَ الله ، فيجدونه كما تركوه قريب الانفتاح فيفتحونه حينئذ . وقرأَ عاصم وحده : ﴿يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ بالهمز ، وقرأَ الجمهور بالتسهيل ، وقد تقدم في سورة الكهف توجيه ذلك وكثيرٌ من حال يأْجوج ومأْجوج فغنينا هنا عن إعادة ذلك .

و «ٱلْحَدَبُ» كلُّ مُسَنَّم من الأَرض كالجبل والظَّرِب والكُدْية والقَبْر ونحوه ، وقالت فرقة : المراد بقوله : [وَهُمْ] يأْجوج ومأْجوج ، يعني أَنهم يطلعون من كل ثنيَّة ومرتفع ويَعُمُّون الأَرض ، وذلك أَنهم من الكثرة بحيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يقول الله تعالى يوم القيامة : يا آدم أَخرج بعث النار من ذرِّيتك ، فيخرج من كل أَلف تسعمائة وتسعة وتسعين) قال : (١) ففزع الناسُ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن منكم رجلاً ومن يأْجوج ومأْجوج أَلف رجل)(٢) ، ويروى أَن الرجل منهم لا يموت حتى يولد له أَلف ولد بين رجل وامرأَة . وقالت فرقة : المراد بقوله : [وَهُمْ] جميع العالم ، وإنما هو تعريف بالبعث من القبور . وقرأَ ابن مسعود : ﴿مِنْ كُلِّ جَدَثٍ﴾ ، وهذه القراءَة تؤيد هذا التأْويل .

---

(١) أي الراوي .

(٢) حديث بعث النار أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء ، وفي تفسير سورة الحج ، وفي الرقاق والتوحيد ، وأخرجه مسلم في الإيمان والفتن ، والترمذي في تفسير سورة الحج ، والإمام أحمد في مواضع كثيرة من مسنده .

و [يَنْسِلُونَ] معناه : يُسرعون في تطامن (١) ، ومنه قول الشاعر :

عَسَلَانَ الذِّئْبِ أَمْسَى قَارِباً   بَرَدَ اللَّيْلُ عَلَيْهِ فَنَسَــلْ (٢)

وقرأت فرقة بكسر السين ، وقرأت فرقة بضمها .

وأسند الطبري عن أبي سعيد قال : (يخرج يأجوج ومأجوج فلا يتركون أحداً إلّا قتلوه إلّا أهل الحصون ، فيمرون على بحيرة طبرية ، فيمر آخرهم فيقول : كان ها هنا ماءٌ ، فيبعث الله عليهم النَّغف حتى يكسر أعناقهم ، فيقول أهل الحصون : لقد هَلَك أعداءُ الله ، فيدلُّون رجلاً ينظر فيجدهم قد هلكوا ، قال : فينزل الله ماءً من السماء فيقذف بهم في البحر فيطهر الأرض منهم)(٣) ، وفي حديث حذيفة

---

(١) تَطَامَنَ : أصلها الهمزة ، يقال : تَطَأْمَنَ ، وهي مطاوع طَأْمنه إذا سكن أو انخفض ، وتخفف الهمزة فيقال : تَطَامَنَ . (المعجم الوسيط) .

(٢) البيت في اللسان (عَسَلَ) ، وقد نسبه إلى لبيد ، ثم قال : «وقيل : هو للنابغة الجعدي» ، ونسبه في القرطبي إلى النابغة . وعَسَل الذئب والثعلب يَعْسِل عسلا وعسلاناً : مضى مسرعاً واضطرب في عدوه ، والقاربُ : الذي يسير ليلاً في طلب الماء ويكون مسرعاً ، ونَسَل : أَسْرَع ، وأصل النسلان في الذئب ثم استعمل في غيره ، يقال : نَسَل ينسل — بالكسر — وينسُل — بالضم — نسْلاً — بالسكون — ونسَلا — بالتحريك : أسرع في مشيه .

(٣) حديث أبي سعيد الخدري عن يأجوج ومأجوج حديث طويل ، والرواية المذكورة هنا أخرجها ابن جرير من طريق ابن عطية ، أما الرواية الأخرى فقد قال في الدر المنثور : أخرج أحمد ، وأبو يعلى ، وابن ماجه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، عن أبي سعيد الخدري : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يفتح يأجــوج ومأجــوج فيخرجون على الناس كما قال الله : ﴿مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ ، فيغشون الناس ، وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم ، ويضمون إليهم مواشيهم ، ويشربون مياه الأرض حتى يتركوها يبساً ، حتى إن بعضهم ليمر بذلك النهر فيقول : قد كان ههنا مرة ماءٌ ... الخ » .

نحو هذا ، وفي آخره : (قال : وعند ذلك طلوع الشمس من مغربها) (١) ورُوي أن ابن عباس رضي الله عنهما رأى صبياناً يلعبون ويَنْزو بعضهم على بعض فقال : هكذا خروج يأْجوج ومأْجوج .

وقوله تعالى : ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ يريد يوم القيامة ، وروي في الحديث (إن الرجل ليتخذ الفلو من بعد يأْجوج ومأْجوج فلا يبلغ منفعته حتى تقوم السَّاعة)(٢) ، وقوله : [هِيَ] مذهب سيبويه أَنها ضمير القصة ، كأَنه قال: فإذا القصة أَو الحادثة شاخصة أَبصارَ ، وجوَّز الفراءُ أَن تكون ضمير «الأَبصار» تقدمت لدلالة الكلام ، ويجيءُ ما يفسِّرها ، وأَنشد على ذلك :

فَلَا وَأَبِيهَا لا تَقُولُ خَلِيلَتِـــي أَلَا فَرَّ عَنِّي مَالِكُ بنُ أَبِي كَعْبِ (٣)

---

(١) حديث حذيفة أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره ، وفي هذا الحديث تفسير للمراد بالنَّغف . إذْ جاء فيه : (فيبعث الله عليهم دابة يقال لها : النغف ، تدخل في مناخرهم فيصبحون موتى) .

(٢) أخرجه ابن جرير عن حذيفة رضي الله عنه ، ولفظه كما في الدر المنثور : (قال : لو أن رجلاً اقتنى فلواً بعد خروج يأجوج ومأجوج لم يركبه حتى تقوم الساعة) . والفِلْوُ والفُلُوُّ : الجحش أو المهر يُفْطم أو يبلغ السنة . والجمع أفلاء .

(٣) البيت لمالك بن أبي كعب . وهو من شعر يقوله في حرب كانت بينه وبين رجل من بني ظفر . (انظر الأغاني) . والرواية في (معاني القرآن) للفراء : «لَعَمْرو أبيها لا تَقُولُ ظعينتي» . وكذلك ذكره الطبري ، والفراءُ في كتابه (معاني القرآن) يقول : «تكون (هي) عماداً يصلح في موضعها (هو) فتكون كقوله : ﴿إِنَّهُ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ . ومثله قوله : ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَارُ﴾ ، فجاء التأنيث لأن الأبصار مؤنثة والتذكير للعماد . وسمعتُ بعض العرب يقول : كان مرَّةً وهو ينفع الناس أحسابهم . فجعل (هُوَ) عماداً . وإن شئت جعلت (هِيَ) للأبصار . كنَّيت عنها ثم أظهرت الأبصار لتفسرها ، كما قال الشاعر : «لَعَمْرُ أبيها ...» البيت ، فذكر الظعينة ، وقد كنَّى عنها في (لَعَمْرُ أبيها) .

والشخوص بالعين : إحْدادُ النَّظر دون أن يطرف ، وذلك يعتري من الخوف المُفْرط أو علَّة أو نحوه .

وقوله : ﴿ يَا وَيْلَنَا ﴾ تقديره : يا ويلنا لقد كانت بنا غفلة عمَّا وجدنا الآن وتبيَّنَّا من الحقائق ، ثم تركوا الكلام الأول ورجعوا إلى نقد ما كان يُداخلهم من تعمُّد الكفر وقصد الإعراض فقالوا : ﴿ بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

هذه مخاطبة لكفار مكة ، أي : إنكم وأصنامكم حصب جهنم ، و «ٱلْحَصَبُ» : ما توقد به النار ، إمَّا لأنها تُحصب به أي تُرْمَى ، وإمَّا أن تكون لغة في الحطب إذا رمي ، وأما قبل أن تُرْمى فلا يُسمَّى حصباً إلَّا بتجوُّز .

وقرأ الجمهور : [حَصَبُ] بالصاد مفتوحة ، وسكنها ابن السميقع ؛ وذلك على إيقاع المصدر موقع اسم المفعول ، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وأُبي بن كعب ، وعائشة ، وابن الزُّبير رضي الله تعالى عنهم : ﴿ حَطَبُ جَهَنَّمَ ﴾ بالطَّاءِ ، وقرأ ابن عباس رضي الله

تعالى عنهما : ﴿حَضَبُ جَهَنَّمَ﴾ بالضاد منقوطة مفتوحة ، وسكّنها كثير غيره ، والحَضَبُ أيضاً ما يُرمى به في النار لتوقد به ، والمِحْضَبُ العُودُ الذي تُحرَّك به النار أو الحديدة ونحوه ، ومنه قول الأعشى :

فَلَا تَكُ في حَرْبِنَا مِحْضَباً لِتَجْعَلَ قَوْمَكَ شَتَّى شُعُوبَا (١)

وقوله تعالى : ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ يريد الأصنام ، وحرقها بالنار على جهة التوبيخ لعابدها ، ومن حيث تقع [مَا] لمن يعقل في بعض المواضع اعترض في هذه الآية عبد الله بن الزِّبعرى على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن عيسى وعُزَير ونحوهما قد عُبدا من دون الله فيلزم أن يكونا حصباً لجهنم، فنزلت : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لهم مِنَّا ٱلْحُسْنَى﴾ الآية ، ثم قرَّر الأمر بالإشارة إلى الأصنام التي أرادها في قوله : ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ فقال : ﴿لَوْ كَانُوا هَؤُلاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ ، وعبَّر عن الأصنام بـ [هَؤُلَاءِ] من حيث هي عندهم بحال من يعقل ، و «الوُرُودُ» في هذه الآية وُرُودُ الدخول .

---

(١) البيت في اللسان (حَضَبَ) ، وهو شاهد على أن (المِحْضَب) هو العود الذي تُحرّك به النار عند الإيقاد ، قال : «والحَضَبُ» : الحطب في لغة اليمن ، ومنه قرأ ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿حَضَبُ جَهَنَّمَ﴾ منقوطة ، قال الفراءُ : يريد الحصب ، وحَضَبَ النار يحضِبُهَا : رفعها ، وقال الكسائي : حَضَبْتُ النار إذا خبت فألقيت عليها الحطب لتقد ، والمِحْضَب : المِسْعَر ، وهو العود الذي تُحَرّك به النار عند الإيقاد ، قال الأعشى : «فَلَا تَكُ في حَرْبِنَا ... البيت» . يقول : لا تحرّك الفتنة وتشعل نار الحرب فتُفَرّق قومك وتجعلهم شعوباً مختلفة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

الضمير في قوله تعالى : [لَهُمْ] عائد على من يعقل ممَّن تُوُعِّد . و «ٱلزَّفِيرُ» : صوتُ المعذَّب ، وهو كشهيق الحمير وشبهه إلَّا أنه من الصدر ، وقوله : ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ قالت فرقة : معناه : لا يسمعون خيراً ولا سارًّا من القول ، وقالت فرقة : إن عذابهم أن يُجعلوا في توابيت في داخل توابيت أُخر فيصيرون هنالك لا يسمعون شيئاً .

ولمَّا اعترض ابن الزِّبَعْرى بأَمر عيسى بن مريم ، وعُزَير نزلت : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا ٱلْحُسْنَى﴾ مُبَيِّنَة أن هؤلاء ليسوا تحت المراد لأَنهم لم يرضوا ذلك ولا دعوا إليه ، و «ٱلْحُسْنَى» يريد كلمة الرَّحْمة والحَتْم بالتفضيل . و «ٱلْحَسِيسُ» : الصوت ، وهو بالجملة ما يتأَدَّى إلى الحِسِّ من حركة الأَجرام ، وهذه صفةٌ لهم بعد دخولهم الجنة ، لأَن الحديث يقتضي أَن في الموقف تزفر جهنم زفرة لا يبقى نبيٌّ ولا مَلَك إلَّا جثا على ركبتيه .

و «ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ» عامٌّ في كل هول يكون في يوم القيامة ، فكأَن يوم القيامة بجملته هو الفزع الأَكبر ، وإن خصص شيءٌ من ذلك فيجب أن يقصد الأَعظم هوْله . قالت فرقة في ذلك : هو ذبْح الموت ، وقالت فرقة : هو وقوع طبق جهنم على جهنم ، وقالت فرقة : هو الأَمر بأَهل النار إلى النار ، وقالت فرقة : هو وقت النفخة الآخرة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا وما قبله من الأَوقات أَشبه أن يكون فيها الفزع لأَنها وقت لرجم الظنون وتعرض الحوادث ، فأَما وقت ذبح الموت ووقوع طبق جهنم فوقت قد حصل فيه أَهل الجنة في الجنة ، فذلك فزع بيِّن أنه لا يصيب أحداً من أهل الجنة فضلاً عن الأَنبياء ، اللَّهم إلَّا أن يريد : لا يحزنهم الشيءُ الذي هو عند أَهل النار فزع أَكبر ، فأَمَّا إن كان فزعاً للجميع فلا بد مما قلنا من أَنه قبل دخول الجنة .

وقد ذهب بعض الناس إلى أَن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا ٱلْحُسْنَى ﴾ يعُمُّ كل مؤمن (١) ، ورُوي عن علي بن أَبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال : عثمان منهم .

---

(١) في القرطبي أنه روي عن النبي صلى الله عليه وسلم (ثلاثة يوم القيامة في كثيب من المسك الأذفر ، ولا يحزنهم الفزع الأكبر : رجلٌ أَمَّ قوماً محتسباً وهم له راضون ، ورجل أذَّن لقوم محتسباً ، ورجل ابتلي برق في الدنيا فلم يشغله عن طاعة ربّه) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولا مِرْيَةَ أنها مع نزولها في خصوص مقصود تتناول كلَّ من سعد في الآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَتَلَقَّاهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ ﴾ يريد بالسلام عليهم والتبشير لهم ، أي : هذا يومكم الذي وعدتم فيه الثواب والنعيم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

قرأت فرقة : [نَطْوِي] بنون العظمة ، وقرأت فرقة : [يَطْوِي] بياءٍ مفتوحة على معنى : يَطْوِي اللهُ : وقرأت فرقة : [تُطْوَى] بتاءٍ مضمومة وبرفع [ٱلسَّمَاء] على ما لم يُسَمَّ فاعله .

واختلف الناس في [ٱلسِّجِلِّ] ـ فقالت فرقة : السِّجِل : مَلَك يطوي الصحف ، وقالت فرقة : السِّجل : رجل كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم . وهذا كله وما شاكله ضعيف . وقالت فرقة : السِّجِلُّ : الصحيفة التي يكتب فيها ، المعنى : ﴿ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ ﴾ أي : كما يطوى السجل من أجل الكتاب الذي فيه ، فالمصدر مضاف إلى المفعول ،

ويحتمل أن يكون المصدر مضافاً إلى الفاعل ، أي : كما يطوي السِّجِلُّ الكتاب الذي هو فيه ، فكأنه قال : يوم نطوي السجل كالهيئة التي فيها طيُّ السِّجِلِّ للكتاب ، ففي التشبيه تجوُّز .

وقرأ الحسن بن أبي الحسن : [ٱلسِّجْلَ] بشد السين وسكون الجيم وتخفيف اللام ، وفتح أبو السَّمال السِّين فقرأها : [ٱلسَّجْلَ] ، وقرأ أبو زرعة بن عمرو بن جرير : [السُّجُلَّ] بضم السِّين وشدها وضم الجيم ، وقرأ الجمهور : [لِلْكِتَابِ] ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : [لِلْكُتُبِ] .

وقوله تعالى : ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ يحتمل معنيين : أحدهما أن يكون خبراً عن البعث ، أي : كما اخترعنا الخلق أوّلاً على غيرِ مثال كذلك نُنْشِئُهم تارة أُخرى فنبعثهم من القبور ، والثاني أن يكون خبراً عن أنَّ كل شخص يُبعث يوم القيامة على هيئته التي خرج بها إلى الدنيا ، ويؤيد هذا التأْويل أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : (يُحشر الناس يوم القيامة حفاةً عُراةً غُرْلاً ، كما بدأْنا أوَّل خَلْق نُعيده)(١) . والكاف في قوله : ﴿كَمَا بَدَأْنَا﴾ متعلِّقة

---

(١) أخرجه مسلم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال : (يأيها الناس ، إنكم تحشرون إلى الله حُفاةً عُراةً غُرْلاً ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ، ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام) . وروى النسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : (يُحْشَرَ الناس يوم القيامة حُفاة عُراة غرلا ، أول الخلق =

بقوله : [نُعِيدُهُ] ، وقوله : ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ تأكيدٌ للأمر ، بمعنى أن الأمر واجب فيه ذلك .

وقالت فرقة : «ٱلزَّبُور» : اسمٌ يعُمّ جميع الكُتب المُنَزَّلَة لأنه مأخوذ من «زَبَرْتُ الْكِتَابَ» : إذا كَتَبْتَهُ ، قالت فرقة : و«الذِّكْرُ» أراد به اللَّوح المحفوظ ، وقال بعضهم : الذِّكر الذي في السماءِ . وقالت فرقة : الزَّبورُ هو زبور داود عليه السلام ، والذِّكْر أراد به التوراة ، وقالت فرقة : الزَّبور ما بعد التوراة من الكُتب ، والذِّكْر التوراة . وقرأ حمزة وحده : [ٱلزُّبور] بضم الزاي .

وقالت فرقة : «ٱلْأَرْضُ» أراد بها أرض الدنيا ، أي كل ما يناله المؤمنون من الأرض . وقالت فرقة : أراد أرض الجنة ، واستشهدوا بقوله تبارك وتعالى : ﴿وَقَالُوا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾(١) ، وقالت فرقة : إنما أراد بهذه الآية الإخبارَ عمَّا كان صنعه مع بني إسرائيل ، أي : فاعلموا

= يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام ، ثم قرأ ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ .
وعن عائشة رضي الله عنها أخرج ابن جرير ، قالت : دخل عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندي عجوز من بني عامر ، فقال : من هذه العجوز يا عائشة ؟ فقلت : إحدى خالاتي ، فقالت : ادع الله أن يدخلني الجنة ، فقال : إن الجنة لا يدخلها العجوز ، فأخذَ العجوز ما أخذها ، فقال : إن الله تعالى ينشئهن خلقاً غير خلقهن ، ثم قال : تحشرون حُفاةً عُراةً غُرْلاً ، فقالت : حاشى لله من ذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بلى ، إن الله تعالى قال : ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ فأول من يُكسى إبراهيم خليل الرحمن .

(١) من الآية (٧٤) من سورة (الزُّمر) .

أَنَّا كُنَّا وَفَّيْنَا لَهم بما وعدناهم ، فكذلك نُنْجز لكم ما وعدناكم من النُّصرة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

قالت فرقة : الإشارة بقوله تعالى : ﴿في هَذَا﴾ إلى هذه الآيات المتقدمة ، وقالت فرقة : الإشارة إلى القرآن بجملته ، والعبادة تتضمن الإيمان بالله تعالى ، وقوله : ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ قالت فرقة : عمَّ العالمين وهو يُريد من آمن فقط ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم ليس برحمة على من كفر به ومات على كفره . وقالت فرقة : العالمون عامٌّ ورحمته للمؤمنين بَيِّنَة ، وهي للكافرين بأَن الله تعالى رفع عن الأُمم أَن يُصيبهم ما كان يصيب القرون قبلهم من أَنواع العذاب المستأْصِلة كالطوفان وغيره .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ويحتمل الكلام أن يكون معناه : وما أَرسلناك للعالمين إلَّا رحمةً ، أَي : هو رحمة في نفسه وهدًى ، أَخذ به مَنْ أَخذ، وأَعرض عنه مَنْ أَعرض.

وقوله تعالى : ﴿آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ معناه : عرَّفتكم بنذارتي ، وأردت أن تُشاركوني في معرفة ما عندي من الخوف عليكم من الله .

ثم أعلمهم بأنه لا يعرف تعيين وقت لعقابهم ، بل هو مُتَرَقَّبٌ في القرب والبعد ، وهذا أهول وأخوف .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

الضمير في قوله : [إِنَّهُ] عائد على الله تعالى ، وفي هذه الآية تهديد ، أي : يعلم جميع الأشياء الواقعة منكم ، وهو بالمرصاد في الجزاء عليها .

وقرأ يحيى بن عامر : ﴿وَإِنْ أَدْرِيَ لَعَلَّهُ﴾ ﴿وَإِنْ أَدْرِيَ أَقَرِيبٌ﴾ بفتح الياء فيهما ، وأنكر ابن مجاهد فتح هذه الياء ، وَوَجَّهه أبو الفتح (١).

---

(١) قال أبو الفتح في كتابه : « المحتسب » : « أنكر ابن مجاهد تحريك هاتين الياءين ، وظاهر الأمر لعمري كذلك ، لأنها لام الفعل بمنزلة ياء أرمي وأقضي . إلاَّ أن تحريكها بالفتح في هذين الموضعين لشبهة عرضت هناك ، وليس خطأ ساذجاً بحتاً .

وذلك أنك إذا قلت : « أدري » فلك هناك ضمير وإن كان فاعلاً . فأشبه آخره مالَكَ فيه ضمير وإن كان مضافاً ، مثل غلامي وداري ، فلما تشابه الآخِرَان بكونهما ياءين ، وهناك أيضاً للمتكلم ضميران . وهما المرفوع في (أدري) والمجرور في (غلامي) أشبه آخِرُ (أدْري) — لما ذكرنا — آخِرَ (غلامي) ففتحت الياء في (أدري) كما تفتح في نحو (غلامي وداري) .

ثم أطال في بيان أوجه الشبه بين الكلمات مهما كانت تبدو لأول مرة بعيدة ليؤكد أن هناك شبهاً بين الياء في (أدري) والياء في (غُلامي) ، ثم قال : فاعرفه معنىً كالعُذْر أو عُذْراً .

وقوله تعالى : [لَعَلَّهُ] الضمير فيه عائد على الإملاء لهم ، وصَفْح الله تعالى عن عذابهم ، وتمادي النعمة عليهم . و [فِتْنَةٌ] معناه : امتحانٌ وابتلاءٌ ، و «ٱلْمَتَاعُ» ما يُستمتع به مدة الحياة الدنيا .

ثم أمره الله تعالى أن يقول على جهة الدعاء : ﴿رَبِّ ٱحْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ ، والدعاءُ بهذا هنا فيه توعُّد ، أي : إن الحق هو نصرتي عليكم ، وأمر الله تعالى لهم بهذا الدعاءِ دليل على الإجابة والعِدَة بها .

وقرأت فرقة : ﴿رَبِّ ٱحْكُمْ﴾ ، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع : [رَبُّ] بالرَّفع على المنادى المفرد ، وقرأت فرقة : ﴿رَبِّي أَحْكَمُ﴾ على وزن أَفْعَل ، وذلك على الابتداءِ والخبر ، وقرأت فرقة : ﴿رَبِّي أَحْكَمَ﴾ على أنه فعل ماض ، ومعاني هذه القراءات بيِّنة .

ثم توكَّل في آخر الآية واستعان بالله تعالى ، وقرأ جمهور القراءِ : ﴿قُلْ رَبِّ ٱحْكُمْ﴾ ، وقرأ عاصم ـ فيما رُوي عنه ـ : ﴿قَالَ رَبِّ ٱحْكُمْ ﴾. وقرأ ابن عامر وحده : ﴿عَلَى مَا يَصِفُونَ﴾ بالياءِ ، وقرأ الباقون والناس : ﴿عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ بالتاءِ من فوق على المخاطبة .

كمل تفسير سورة الأنبياء والحمد لله ربِّ العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



هذه السُّورة مكِّيَّة إلَّا ثلاث آيات، قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾(١) إلى تمام ثلاث آيات، قاله ابن عباس ومجاهد، ورُوي أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهن أربع آيات، إلى قوله تعالى: ﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، وقال الضحاك: هي مدنية، وقال قتادة: سورة الحج مدنية إلَّا أربع آيات، من قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾(٢)، إلى قوله: ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾، فهن مكِّيَّات، وعدَّ النقاش ما نزل بالمدينة عشر آيات، وقال الجمهور: السُّورة مختلطة، منها مكِّي ومنها مدني، وهذا هو الأصح ـ والله أعلم ـ لأن الآيات تقتضي ذلك(٣)، ورُوي

---

(١) من الآية (١٩) من هذه السورة (الحج).
(٢) من الآية (٥٢) من هذه السورة (الحج).
(٣) لأن فيها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ وهو مكي، و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهو مدني، قال الغزنوي: «هي من أعاجيب السور، نزلت ليلاً ونهاراً، وسفراً وحضراً، مكياً ومدنياً، سلمياً وحربياً، ناسخاً ومنسوخاً، محكماً ومتشابهاً، مختلف العدد».

عن أَنس بن مالك أنه قال : نزل أَول السُّورة في السفر على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنادى بها فاجتمع الناس إليه ، فقال : أتدرون أي يوم هذا ؟ فبهتوا ، فقال : يوم يقول الله : يا آدم أخرج بعث النار ، فيخرج من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين ، قال : فاغتم الناسُ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبشروا ، فمنكم رجل ومن يأْجوج ومأْجوج ألف رجل ... الحديث (١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ (٢) ﴾

صدر الآية تحذير لجميع العالم ، ثم أوجب الخبر وأكَّده بأمر زلزلة القيامة ، وهي إحدى شرائطها ، سمَّاها شيئاً لأنها حاصلةٌ

(١) أخرجه عبد بن حميد ، وعبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، عن أنس رضي الله عنه ، وأخرج نحوه سعيد بن منصور ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، والترمذي وصححه ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه من طرق عن الحسن وغيره ، عن عمران ابن حصين . وكذلك أخرج نحوهما البزار ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما . وحديث (بعث النار) أخرجه أيضاً البخاري عن أبي سعيد الخدري في تفسير هذه السورة (الحج) ، وفي الأنبياء ، وفي الرقاق ، وفي التوحيد ، وأخرجه مسلم في الإيمان ، وفي الفتن .

مُتَيَقَّن وقوعها يُستسهل لذلك أن تُسمَّى شيئاً وهي معدومة ؛ إذ اليقين بها يشبه الموجودات ، وإمَّا على المآل ، أي هي إذا وقعت شيءٌ عظيم ، فكأنه لم يُطلق الاسم الآن ، بل المعنى : إنها إذا كانت فهي حينئذ شيءٌ عظيم .

و «ٱلزَّلْزَلَة» : التحريك العظيم (١) ، وذلك مع نفخة الفزع ، ومع نفخة الصعق حسبما تضمن حديث أبي هريرة (٢) من ثلاث نفخات.

ومن لفظة الزلزلة قول الشاعر :

يَعْرِفُ ٱلْجَاهِلُ ٱلْمُضَلَّلُ أَنَّ الدَّهْـ ـرَ فيهِ النَّكْرَاءُ والزِّلْزَالُ (٣)

فيحتمل أن تكون الزَّلْزلة في الآية عبارة عن أهوال يوم القيامة ، كما قال : ﴿مَسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَاءُ وَٱلضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا﴾(٤) ، وكما قال عليه

(١) في بعض النسخ «التحريك العنيف» .

(٢) هذا حديث طويل ، ذكره السيوطي في (الدر المنثور) ، وقال عنه : أخرجه عبد بن حميد ، وعلي بن سعيد في كتاب «الطاعة والعصيان» ، وأبو يعلى ، وأبو حسن القطَّان في «المطولات» ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وأبو موسى المديني ، كلاهما في «المطولات» ، وأبو الشيخ في «العظمة» ، والبيهقي في «البعث والنشور» ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وفيه ثلاث نفخات ، نفخة الفزع ، ونفخة الصعق ، ونفخة البعث .

(٣) يستشهدون بهذا البيت على أن مصدر الفعل الرباعي المضعف إذا جاء على «فعلال» كان بكسر الفاء ، فإذا فُتحت الفاءُ كان اسماً للمصدر وليس مصدراً ، نقل صاحب اللسان عن أبي إسحق قوله في الآية الكريمة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ : «المعنى : إذا حُرِّكَت حركة شديدة ، والقراءة [زِلْزَالَهَا] بكسر الزاي ، ويجوز في الكلام «زَلْزَالَهَا» ، وليس في الكلام «فَعْلال» بفتح الفاء إلاّ في المضاعف نحو الصَّلْصَال والزَّلزال ، والزِّلْزال بالكسر المصدر ، والزَّلزال بالفتح الاسم ، وكذلك الوِسواسُ المصدر ، والوَسْواسُ الاسم» .

(٤) من الآية (٢١٤) من سورة (البقرة)

الصلاة والسلام : (اللَّهمَّ اهزمهم وزلزلهم)(١) ، والجمهور على أن زلزلة الساعة هي كالمعهودة في الدنيا إلَّا أنها في غاية الشِّدَّة .

واختلف المفسرون في الزلزلة المذكورة ، هل هي في الدنيا على القوم الذين تقوم عليهم القيامة ، أم هي في يوم القيامة على جميع العالم ؟ فقال الجمهور : هي في الدنيا ، والضمير في [تَرَوْنَهَا] عائد على الزَّلْزلة ، وقوَّى قولهم أن الرضاع والحمْل إنما هو في الدُّنيا ، وقالت فرقة : الزَّلْزَلة في يوم القيامة ، واحتجت بحديث أنس المذكور آنفاً ؛ إذْ قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية ثم قال : (إنه اليوم الذي يقول فيه لآدم : أَخْرج بعث النار) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا الحديث لا حُجَّة فيه ؛ لأنه يحتمل أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ الآية المُتَضَمِّنَة ابتداءَ أمر السَّاعة ثم قصد في تذكيره وتخويفه إلى فصل من فصول يوم القيامة فنص ذكره ، وهذا من الفصاحة ، والضمير عند هذه الفرقة عائد على الساعة ، أيْ: يوم

(١) هذا جزءٌ من حديث شريف أخرجه البخاري في الجهاد والمغازي والتوحيد والدعوات ، وأخرجه كلٌّ من مسلم والترمذي وابن ماجه في الجهاد ، وأخرجه أحمد في مسنده (٤-٣٥٣ ، ٣٥٥ ، ٣٨١) ، ولفظه كما في المسند ، عن ابن أبي خالد ، وهو إسماعيل ، قال : سمعتُ ابن أبي أوفى يقول : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأحزاب فقال : (اللَّهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، هازم الأحزاب ، اهزمهم وزَلْزِلْهُمْ) .

يرون ابتداءها في الدنيا ، فيصح لهم بهذا التأويل ألَّا يلزمهم وجود الرضاع والحمل في يوم القيامة ، وإن أعادوه على الزَّلْزلة فسد قولهم بما يلزمهم . على أن النقاش ذكر أن المراد بـ «كُل ذاتِ حَمْلٍ» من مات من الإناث ولدُها في جوفها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف .

و «الذُّهولُ» : الغفلة عن الشيء بطُروءِ(١) ما يشغل عنه من همٍّ أو وجع أو غيره ، قال ابن زيد : المعنى : تترك ولدها للكرب الذي نزل بها . وقرأ ابن أبي عبلة : [تُذْهِلُ] بضم التاءِ وكسر الهاءِ ونصب [كُلَّ](٢)، وألحق الهاءَ في [مُرْضِعَةٍ] لأَنه أَراد فاعلات ذلك في ذلك اليوم فأَجراه على الفعل ، وأَمَّا إذا أَخبرتَ عن المرأة بأَن لها طفلاً ترضعه فإنما تقول : «مُرْضِعٌ» مثل «حامل»(٣) ، قال عليٌّ بن سليمان :

---

(١) في الأصل : «بِطَرَيَان ما يشغل عنه» .

(٢) قال الفراءُ في (معاني القرآن) : «ولو قيل : تُذْهِل كلَّ مرضعة ، وأنت تريد الساعة أنها تُذْهِل أهلها كان وجْهاً ، ولمْ أسمع أحداً قرأ به» . هذا وقد قرأ به اليماني أيضاً مع ابن أبي عبلة كما قال صاحب البحر المحيط .

(٣) قال الخليل ما خلاصتُه : إذا وصَفْتَ المرأة بفعل هي تفعلُه قلت مُفْعِلَةٌ ، كقوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾ ، أمَّا إذا وصفتها بفعل واقع منها أو لازم لها قلت: مُفْعِل ، كقولك : امرأةٌ مُطْفِلٌ ، أي ذاتُ طِفْلٍ ، بلا هاء ، وعلى هذا نفهم =

هذه الهاءُ في [مُرْضِعَةٍ] تردُّ على الكوفيِّين قولهم : إن الهاءَ لا تكون فيما لا تلبُّس له بالرجال ، وحكى الطبري أن بعض نحويِّي الكوفة قال : أمُّ الصبيِّ مرضعةٌ ، والمُسْتأْجَرة له مرضعٌ .

و «ٱلْحَمْلُ» بفتح الحاءِ : ما كان في بطنٍ أو على رأس شجرة .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلنَّاس سُكَارَى ﴾ تشبيه لهم ، أي : من الهَمِّ ، ثم نفي عنهم السُّكْر الحقيقي الذي هو من الخمر ، قاله الحسن وغيره .

وقرأ جمهور القراء : [سُكَارَى] بضم السِّين وثبوت الألف ، وكذلك في الثاني . وهذا هو الباب ، فمرَّةً جعله سيبويه جمعاً ، ومرَّةً جعله اسم جمع ، وقرأ أبو هريرة بفتح السِّين فيهما ، وهذا أيضاً قد يجيءُ في هذه الجموع ، قال أبو الفتح : هو تكسير ، وقال أبو حاتم : هي لغة تميم ، وقرأ حمزة والكسائي : [سَكْرَى] في الموضعين ، ورواه عمران بن حُصين ، وأبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم . وهي قراءة ابن مسعود ، وحذيفة ، وأصحاب عبد الله . قال سيبويه : وقوم يقولون «سَكْرَى» ، جعلوه مثل «مَرْضَى» لأنهما شيئان يدخلان على الإنسان ، ثم جعلوا «رَوْبَى» مثل «سَكْرَى»

= الوجه في قول امرئ القيس :

فَمِثْلِكِ حُبْلَى قَدْ طَرَقْتُ ومُرْضِعٍ فأَلْهَيْتُهَا عَنْ ذي تَمَائِمَ مُغْيِلِ

وقول الآخر :

كَمُرْضِعَةٍ أَوْلادَ أُخْرَى وضَيَّعَتْ بَنِي بَطْنِهَا ، هَذَا الضَّلالُ عَنِ القَصْدِ

وهم المستثقلون نوماً من شرب الرائب ، وقال أبو علي : ويصح أن يكون [سَكْرَى] جَمْع «سَكِرٍ» كَزَمْنَى وَزَمِنٍ ، وقد حكى سيبويه : رجل سَكِرٌ بمعنى سكران ، فيجيءُ سَكْرَى حينئذ لتأْنيث الجمع ، كما العلامة في «طائفة» لتأْنيث الجمع . وقرأ سعيد بن جبير : ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سَكْرَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى﴾ بالضم والألف . وحكى المهدوي عن الحسن أنه قرأ : ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سَكْرَى وَمَا هُمْ بِسَكْرَى﴾ ، وقرأ الحسن (١) ، والأعرج ، وأبو زُرْعة بن عمرو بن جرير في الموضعين: [سُكْرَى] بضم السين ، قال أَبو الفتح : «هو اسم مفرد كالبُشْرَى ، وبهذا أفتاني أبو علي ، وقد سأَلته عن هذا » (٢) . وقرأَ أَبو زُرْعَة ابن عمرو بن جرير ، وأبو هريرة ، وأَبو نُهَيْك : [وَتُرَى] بضم التاءِ ، [ٱلنَّاسَ] بالنصب ، قال : وإنَّما هي بحَسَبِه (٣) ، ورويت هذه القراءة ﴿وَتُرَى ٱلنَّاسُ﴾ بضم التاءِ والسين ، أَي : تُرى جماعة الناس (٤) .

---

(١) لم أجد في كتب التفسير من نسب قراءة [سَكْرَى] بفتح السين إلى الحسن إلاَّ ابن عطية هنا نقلاً عن المهدوي ، أمَّا قراءته بالضم [سُكْرَى] فقد نسبها له أبو الفتح في المحتسب . وصاحب البحر المحيط . وقد رواها عن الحسن ابن مجاهد .

(٢) راجع المحتسب (٢-٧٤) .

(٣) أي بحسب ظنّه وتَخَيُّلِه ، كأنه قال : تظنُّ ويُخَيَّل إليك . قال أبو حيان في البحر المحيط : «عُدِّي (تُرَى) إلى مفاعيل ثلاثة . أحدها الضمير المستكن في (تُرَى) وهو ضمير المخاطب مفعول لم يُسَمَّ فاعله ، والثاني والثالث ﴿ٱلنَّاسَ سُكَارَى﴾» .

(٤) أي أن التأنيث جاء لمعنَى الجماعة من الناس .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ الآية . قال ابن جريج : نزلت في النضر بن الحارث ، وأُبيٍّ بن خلف ، وقيل : في أبي جهل بن هشام ، ثم هي بَعْدُ تتناول كلَّ من يتصف بهذه الصفة . و « المُجَادَلَةُ » : المُحَاجَّة ، والمادَّة مأْخوذة من « الْجدْل » وهو الفَتْل ، والمعنى : [يجادلُ](١) في قدرة الله وصفاته (٢) . وكان سبب الآية كلامُ من ذُكر في أن الله

---

(١) زيادة لتوضيح المعنى المراد .

(٢) قيل : كان النضر جدلاً يقول : الملائكة بناتُ الله . والقرآن أساطير الأولين . ولا يقدر الله أن يحيي من بلي وصار تراباً . راجع (أسباب النزول) للسيوطي ١٥٠ من رواية ابن أبي حاتم ، وراجع (الدرّ المنثور) ٤—٣٤٤ فقد قال : « أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي مالك . وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن ابن جريج مثله » .

تبارك وتعالى لا يبعث الموتى ، ولا يقيم الأجساد من القبور . و «الشَّيْطانُ» هنا هو مُغْويهم من الجن ، ويحتمل أن يكون الشيطان من الإنس . والانحاءُ على مُتَّبعيه . و «الْمَرِيدُ» : المتجرِّد من الخير إلى الشَّرِّ . ومنه الأَمرد ، وشجرةٌ مرداءُ أي عارية من الورق ، وصَرْحٌ مُمَرَّد أي مُمَلَّسٌ من زجاج ، وصخرةٌ مرداءُ أي ملساءُ . والضمير في [عَلَيْهِ] عائد على «الشَّيْطَان» ، قاله قتادة ، ويحتمل أن يعود على «المُجَادل» . و [أَنَّهُ] في موضع رفع على المفعول الذي لم يُسَمَّ فاعله ، و [أَنَّهُ] الثانية عطف على الأُولى مؤكدة مثلها ، وقيل : هي مكررة للتأْكيد فقط ، وهو معترض بأَن الشيءَ لا يؤكد إلَّا بعد تمامه وتمام [أَنَّهُ] الأُولى إنما هو بصلتها في قوله : [ٱلسَّعِير] ، وكذلك لا يُعطف عليه ، ولسيبويه في مثل هذا أنه بدلٌ ، وقيل [أَنَّهُ] الثانية خبر ابتداءٍ محذوف تقديره : فشأْنه أَنه يضله ، وقدره أَبو علي : فَلَه أَن يُضِلَّه .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ويظهر لي أَن الضمير في [أَنَّهُ] الأُولى للشيطان ، وفي الثانية لـ [مَنْ] الذي هو المتولى . وقوله : [وَيَهْدِيه] بمعنى : يدُلُّه على طريق ذلك ، وليست بمعنى الإرشاد على الإطلاق . وقرأَ أَبو عمرو : ﴿إِنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلَّهُ﴾ بالكسر فيهما .

قوله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ ٱلْبَعْثِ﴾ الآية . هذا احتجاجٌ على العالم بالبدأة الأُولى ، وضرب الله تعالى في هذه الآية مثلين إذا اعتبرهما الناظر جوَّز في العقل البعثة من القبور ، ثم ورد خبر الشرع بوجوب ذلك ووقوعه . و «ٱلرَّيْبُ» : الشَّك ، وقوله : ﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾ شرط مضمنه التوقيف ، وقرأ الحسن بن أَبي الحسن : [ٱلْبَعَثِ] بفتح العين ، وهي لغة في «البَعْث» عند البصريين ، وهي عند الكوفيين تخفيف «بَعْث» .

وقوله : ﴿خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ يريد آدم ثم سلَّط الفعل عليهم من حيث هم ذريته ، وقوله : ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ يريد المنيَّ الذي يكون من البشر ، و «النُّطفة» تقع على قليل الماء وكثيره ، وقال النقاش : المراد نطفة آدم ، وقوله : ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ يريد من الدَّم الذي تعود النُّطفة إليه في الرَّحِم ، أَو المقارن للنطفة ، و «الْعَلَقُ» : الدَّم العبيط ، وقيل : «العَلَق» : الشديد الحمرة ، فسمي الدَّم لذلك ، وقوله : ﴿ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ﴾ يريد بضعة لحم على قدر ما يُمضغ ، وقوله : [مُخَلَّقَة] معناه : مُتَمَّمَة الْبِنْيَة ﴿وغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ غير مُتَمَّمة ، أَي الّتي تسقط ، قاله مجاهد ، وقتادة ، والشعبي ، وأَبو العالية ، فاللفظة بناءُ مبالغة من «خَلَق» ، ولمَّا كان الإِنسان فيه أَعضاءٌ متباينة وكلٌّ منها مختص بخَلْق حَسُنَ في جملته تضعيف الفعل لأَن فيه خِلَقاً كثيرة ، وقرأ ابن أَبي عبلة : [مُخَلَّقَةً] بالنصب [وَغَيْرَ] بالنصب في الراءِ .

ويتصل بهذا الموضع من الفقه أن العلماء اختلفوا في أُمِّ الولد إذا أسقطت بضْعَة لم تُصَوَّر ، هل تكون أُمَّ ولد بذلك ؟ فقال مالك ، والأوزاعي ، وغيرهما : هي أمٌّ ولد بالمضغة إذا علم أنها مضغة الولد ، وقال الشافعي ، وأبو حنيفة : حتى يتبيَّن فيه خلق ولو عضو واحد .

وقوله : ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ ، قالت فرقة : معناه : لنبين أمر البعث ، فهو اعتراض بين الكلامين ، وقرأت هذه الفرقة بالرَّفع في [نُقِرُّ] ، والمعنى: ونحن نُقِرُّ ، وهي قراءة الجمهور . وقالت فرقة : ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ معناه : تكون المضغة غير مُخَلَّقَة وطرح النِّساءِ إيَّاها كذلك نُبَيِّن للناس أن المناقل في الرَّحِم هي هكذا ، وقرأت هذه الفرقة : [وَنُقِرَّ] بالنصب ، وكذلك قرأت : [نُخْرِجكُمْ] بالنصب ، وهي رواية المفضل عن عاصم ، وحكى أبو عمرو الداني أن رواية المفضل هذه هي بالياءِ في [يُقِرُّ] [وَيُخْرِجُكُمْ] ، والرفع على هذا التأْويل شائع ، ولا يجوز النصب على التأْويل الأَول . وقرأ ابن وثاب : ﴿مَا نِشَاءُ﴾ بكسر النون . و «الْأَجَلُ الْمُسَمَّى» هو مختلف بحسب جنينٍ جنينٍ ، فثَمَّ من يسقط ، وثَمَّ من يَكْمُل أَمْرُه ويخرج حيًّا .

واختلف الناس في «الْأَشُدِّ» من ثمانية عشر ، إلى ثلاثين ، إلى اثنين وثلاثين ، إلى ستة وثلاثين ، إلى أربعين ، إلى خمسة وأربعين ، واللَّفظة تُقال باشتراك ، فأَشُدُّ الإنسان على العموم غير أَشُدِّ اليتيم

الذي هو الاحتلام (١) . و «الْأَشُدُّ» في الآية يحتمل المعنيين ، والرَّدُّ إلى أرذل العمر هو حصول الإنسان في زمانةٍ (٢) واختلال قوة حتّى لا يقدر على إقامة الطاعات ، واختلال عقل حتى لا يقدر على إقامة ما يلزمه من المعتقدات ، وهذا أبداً يلحق مع الكبر ، وقد يكون أرذل العمر في قليل من السن بحسب شخص مَّا لحقته زمانة ، وقد ذكر عن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه أن أرذل العمر خمسة وسبعون سنة ، وهذا فيه نظر ، وإن صحَّ عن علي رضي الله عنه فلا يتوجه إلّا أن يريد : على الأكثر ، فقد نرى كثيراً أبناء ثمانين سنة ليسوا في أرذل العمر ، وقرأ الجمهور : [ٱلْعُمُرِ] مشبعة . وقرأ نافع : [ٱلْعُمْرِ] مخففة الميم ، واختلف عنه .

وقوله تعالى : ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ﴾ أي : لينسى معارفه وعِلْمه الذي كان معه فلا يعلم من ذلك شيئاً ، فهذا مثال واحد يقضي المُعْتَقَدُ به أن القادر على هذه المناقل المُتْقِن لها قادرٌ على إعادة تلك الأجساد التي أوجدها بهذه المناقل إلى حالها الأُولى .

(١) يريد أن أشُدَّ الإنسان على العموم هو الاحتلام ، وهو غير الذي أشُدُّ اليتيم يراد به : القدرة على التصرف وحسن إدراك الأمور ، لقوله تعالى في الآية (١٥٢) من سورة الأنعام : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ راجع الجزء الخامس ص ٣٩٦ .

(٢) الزَّمانة : المرض .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝ ﴾

هذا هو المثال الذي يعطي للمعتبر فيه جواز بعث الأَجساد ، وذلك أَن إحياءَ الأَرض بعد موتها بَيِّن ، وكذلك الأَجساد ، و [هَامِدَةً] معناه : ساكنة ودارسة بالية ، ومنه قيل : همد الثوبُ إذا بلي ، قال الأَعشى :

قَالَتْ قُتَيْلَةُ مَالِجِسْمِكَ شَاحِباً ... وَأَرَي ثِيَابَكَ بَالِيَاتٍ هُمَّداً (١)

(١) قال الأعشى هذا البيت من قصيدة خاطب بها كسرى حين أراد منهم رهائن بعد أن أغار الحارث بن وعلة على بعض السواد . ومطلعها :

أَثْوَى وقَصَّرَ لَيْلَةً لِيُزَوَّدَا ... ومَضَى وأَخْلَفَ مِنْ قُتَيْلَةَ مَوْعِدَا

ورواية الديوان : « مَا لِجِسْمِكَ سَايِئاً » أي يسوءُ من يراك . والثوبُ الهامد : المتقطع من طول طيِّه ، ينظر إليه الناظر فيحسبه سليماً . فإذا لمسه تناثر قطعاً من البلَى . وهذا هو الشاهد هنا .

و «اهتزاز الأَرض» هو حركتها بالنبات وغير ذلك مما يعتريها بالماء ، و [رَبَتْ] معناه : نشرت وارتفعت ، ومنه الربوة ، وهي المكان المرتفع ، وقرأ أَبو جعفر بن القَعْقَاع (١) : [وَرَبَأَتْ] بالهمز ، ورويت عن أَبي عمرو ، وقرأَها عبد الله بن جعفر (٢) ، وخالد بن إلياس (٣) ، وهي غير وجيهة ، وَوَجْهُها أَن تكون من : «رَبَأْتُ القَوْمَ» إذا علوتَ شرفاً من الأَرض طليعة ، فكأَن الأَرض بالماءِ تتطاول وتعلو (٤). و «الزَّوْجُ»: النوع ، و «الْبَهِيجُ» فَعِيلٌ من البهجة وهي الحُسْن ، قاله قتادة وغيره.

وقوله : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ إشارة إلى ما تقدم ذكره . ف [ذَٰلِكَ] ابتداءٌ ، وخبره [بِأَنَّ] ، أَي : هو بأَن الله حقٌّ مُحْيي قادرٌ . وقوله : ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ ليس بسبب لما ذُكِرَ ، لكن المعنى أَن الأَمر مرتبط بعضه ببعض ، أَو على تقدير : والأَمْرُ أَن الساعة .

(١) هو أَبو جعفر القاريُ المدني المخزومي ، مولاهم ، اسمه يزيد بن القَعْقَاع ، وقيل : بل اسمه جندب بن صيرور . وقيل : فيروز ، قال عنه الحافظ العسقلاني في «تقريب التهذيب» : «وهو ثقة ، من الرابعة ، مات سنة سبع وعشرين . وقيل : سنة ثلاثين» .

(٢) هو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الهاشمي . أحد الأجواد ، ولد بأرض الحبشة ، وله صحبة . مات سنة ثمانين وله من العمر ثمانون سنة .

(٣) هو خالد بن إلياس وقيل : ابن إياسٍ — بن صخر بن أَبي الجهم بن حذيفة ، أبو الهيثم العدوي ، المدني ، إمام المسجد النبوي . قال عنه الحافظ العسقلاني في «تقريب التهذيب» : «متروك الحديث . من السابعة» .

(٤) الطليعة الذي يبعثه القوم يقال له : رَبِيءٌ وَرَبِيئَةٌ ، قال الشاعر :

بَعَثْنَا رَبِيئاً قَبْلَ ذَلِكَ مُخْمَلاً ... كذِئْبِ الغَضَا يَمْشِي الضَّراءَ ويَتَّقِي

والأصل أن يؤنث لأنه يقال له : العَيْن إذ هو ينظر بعينه . والعين مؤنثة . أما من ذكَّره فعلى أنه نقل من الجزء إلى الكُلّ . قال ذلك سيبويه . راجع اللسان .

وقوله تعالى : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ ٱللَّهَ﴾ الآية . الإشارة بقوله سبحانه : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ إلى القوم المتقدم ذكرهم ، وحكى النقاش ، عن محمد بن كعب أنه قال : نزلت هذه الآية في الأخنس بن شريق ، وكرر هذه على جهة التوبيخ ، فكأنه يقول : وهذه الأمثال في غاية الوضوح والبيان ، ومن الناس مع ذلك مَنْ يجادل . فكأن الواو واو الحال ، والآية المتقدمة الواوُ فيها واو عطفت جملة الكلام على ما قبلها ، والآية على معنى الإخبار ، وهي ها هنا مكررة للتوبيخ ، و [ثَانِيَ] حالٌ من الضمير في [يُجَادِلُ] ، ولا يجوز أن يكون مِنْ [مَنْ] لأنها ابتداءٌ ، والابتداءُ عمله الرفع لا النصب ، وإضافة [ثَانِيَ] غير مُعْتَدٍّ بها ؛ لأنها في معنى الانفصال إذْ تقديرها : ثانياً عِطْفَهُ . وقوله سبحانه : ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾ عبارة عن المتكبر المُعْرِض ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وذلك أن صاحب الكِبْر يرُدُّ وجهه عما يتكبَّر عنه ، فهو بِرَدِّ وجهه يصعِّر خدَّه ويلوي عنقه ، ويثني عِطْفه ، وهذه هي عبارات المفسرين . و «العِطْفُ» : الجانب . وقرأ الحسن : [عَطْفِهِ] بفتح العين ، والعِطَافُ : السيف ؛ لأن صاحبه يَتَعَطَّفه ، أي يصله بجنبه (١).

---

(١) في اللسان (عطف) : «العِطَافُ : السيف ؛ لأن العرب تسميه رداءً ، قال الشاعر :

وَلاَ مَالَ إلاَّ عِطافٌ ومِدْرَعٌ   لَكُمْ طَرَفٌ مِنْهُ حَدِيدٌ ولي طَرَفُ

يريد بالطرف الأول حدَّه الذي يُضْرَب به ، وبالطرف الثاني المِقْبَض الذي يمسك به» .

وقرأ الجمهور : [لِيُضِلَّ] بضم الياء ، وقرأ مجاهد وأهل مكة : [لِيَضِلَّ] بفتح الياء ، وكذلك قرأ أبو عمرو . و «الخِزْيُ» الذي تُوُعِّدَ به النضرُ بن الحارث صدق في أَسره يوم بدر ، وقَتْلِهِ صَبْراً (١) ، و «الْحَرِيقُ» : طبقة من طبقات جهنم .

وقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ بمعنى : يقال له ، ونسب التقديم إلى اليدين إذْ هُما آلة الاكتساب ، واختلف في الوقف على [يَدَاكَ] ـ فقيل : لا يجوز لأَن التقدير : «وبأَن الله» ، أَي أَنَّ هذا هو العدل فيك بجرائمك ، وقيل : يجوز بمعنى : والأَمْر أَن الله تعالى ليس بظَلَّامٍ . و «الْعَبِيد» ذُكر هنا في معنى مسكنتهم وقلَّة قدرتهم ، فلذلك جاءت هذه الصيغة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾

(١) في الأصول : «وقتله بالصفراء» ، والمعروف أن النبي صلى الله عليه وسلم قتل النضر ابن الحارث يوم بَدْرٍ صبراً .

هذه الآيات نزلت في أعراب وقوم لا يقين لهم ، كان أحدهم إذا أسلم فاتفقت له اتصافات حسان من نُمُوٍّ مالٍ وولد ذَكَرٍ يُرْزقه وغير ذلك قال : هذا دين جيِّدٌ ، وتمسَّك به لهذه المعاني ، وإن كان الأَمر بخلافٍ تشاءَم به وارتد كما صنع العُرَنِيُّونَ (١) وغيرهم ، قال هذا المعنى ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وغيرهم .

وقوله تعالى : ﴿عَلَى حَرْفٍ﴾ معناه : على انحراف منه عن العقيدة البيضاءِ ، أو على شَفَا منها (٢) ، مُعَدٌّ للزهوق ، و «الْفِتْنَةُ» : الاختبار ، وقوله : ﴿ٱنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ عبارةُ الْمُوَلِّي عن الأُمور . و «خَسَارته الدنيا والآخرة» أَما الدنيا فبالمقادير التي جرت عليه ، وأَما الآخرة فبارْتداده وسوءِ معتقده . وقرأَ مجاهد ، وحمزة ، والأَعرج : ﴿خَاسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ﴾ نصباً على الحال .

وقوله تعالى : ﴿مَالَا يَضُرُّهُ وَلَا يَنْفَعُهُ﴾ يريد الأَوثان ، ومعنى [يَدْعُو] : يعبد ، ويدعو أَيضاً في مُلِمَّاتِهِ . واختلف الناس في قوله تبارك وتعالى : ﴿يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ ـ فقالت فرقة من الكوفيين : اللام مُقَدَّمة على موضعها ، وإنما التقدير : يدعو من يضره ، ويؤيد هذا التأْويل أَن عبد الله بن مسعود قرأَ : ﴿يَدْعُو مَنْ

(١) بنو عَرين : بَطْنٌ من تميم ، وعُرَيْنة ـ مُصَغَّرٌ ـ : بَطْنٌ من بَجِيلَة . وفي اللسان : «العُرَنِيُّون مثالُ الْجُهَنِيِّين : ارتدُّوا فقتلهم النبي صلى الله عليه وسلم» .

(٢) الشَّفَا : حَرْفُ الشيءِ وحَدُّه ، قال تعالى : ﴿عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ . وقال : ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ .

ضَرُّهُ﴾ ، وقال الأخفش : [يَدْعُو] بمعنى يقول ، و [مَنْ] مبتدأ ، و [ضَرُّهُ] مبتدأ ، و [أَقْرَبُ] خبره ، والجملة صلة ، وخبر [مَنْ] محذوف ، والتقدير : يقول : لمن ضرُّه أقرب من نفعه إلٰهٌ ، وشبه هذا بقول عنترة :

يَدْعُونَ عَنْتَرَ والرِّماحُ كَأَنَّهَا .... (١)

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قول فيه نظر ، فتأمل إفساده للمعنى إذْ لم يعتقد الكافر قط أن ضرر الأوثان أقرب من نفعها ، واعتذار أبي عليٍّ هنا مموه ، وأيضاً فهو لا يشبه البيت الذي استشهد به (٢) . وقيل : المعنى في [يَدْعُو] : يُسَمِّي ، وهذا كالقول الذي قبله إلَّا أن المحذوف آخراً مفعول تقديره : إلٰهاً(٣) . وقال الزجاج : يجوز أن يكون [يَدْعُو] في موضع الحال وفيه هاءٌ محذوفة ، والتقدير : ذلك هو الضلال

---

(١) هذا صدر بيت من المعلقة ، والبيت بتمامه :

يَدْعُونَ عَنْتَرُ والرِّماحُ كَأَنَّهَا أَشْطَانُ بِئْرٍ في لَبَانِ الأَدْهَمِ

والأشْطان : جمع شَطَن وهو حبل البئر ، واللَّبَان ــ بفتح اللام ــ : الصدر ، والأدهم : الفرس ، يقول : إن الرماح في صدر هذا الفرس بمنزلة حبال البئر من الدلاء ، لأن البئر إذا كانت كثيرة الجَرْفة اضطربت الدلو فيها فيجعل لها حبلان حتى لا تضطرب .

(٢) وعلى هذا الرأي يكون قوله تعالى : ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ مستأنفاً لأنه لا يصح دخوله في الحكاية لأن الكفار لا يقولون عن أصنامهم : ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ .

(٣) وهذا لا يتم إلاّ بتقدير زيادة اللام ، أي : «يدعو من ضَرُّه» .

البعيد يدعو ، أي : يدعوه ، فيوقف على هذا(١) . قال أبو علي : ويحسن أن يكون [ذَٰلِكَ] بمعنى «الذي» ، أي : الذي هو الضلال البعيد يدعو ، فيكون قوله : [ذَٰلِكَ] موصولاً بقوله : ﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ ، ويكون [يَدْعُو] عاملاً في قوله : [ذَٰلِكَ] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

كون [ذَٰلِكَ] بمعنى «الذي» غير سهل (٢) ، وشبهه المهدوي بقوله تعالى : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾(٣) . وقد يظهر في الآية أن يكون قوله : [يَدْعُو] متصلاً بما قبله ، ويكون فيه معنى التوبيخ ، كأنه قال : يدعو من لا يضر ولا ينفع ، ثم كرَّر [يَدْعُو] — على جهة التوبيخ — غَيْرَ مُعَدًّى ؛ إذْ قد عُدِّي في أول الكلام ، ثم ابتدأ الإخبار بقوله : ﴿لَمَنْ ضَرُّهُ﴾ واللام مُؤذنة بمجيء القَسَم ، والثانية التي في [لَبِئْسَ] لام القَسَم وإن كان أبو علي مال إلى أنها لام الابتداء والثانية لام

(١) وقَدَّر «يَدْعُوه» مَدْعُوّاً ، ولهذا قيل : هذا الرأي ضعيف ؛ لأن «يدعوه» لا يقدر «مَدْعُوّاً» ، إنما يقدر «داعياً» .

(٢) وقال أبو حيان في البحر تعليقاً على رأي أبي عليٍّ هذا : «وهو لا يصح إلاّ على قول الكوفيين ؛ إذْ يجيزون في اسم الإشارة أن يكون موصولاً ، والبصريون لا يجيزون ذلك إلاّ في «ذا» بشرط أن يتقدمها الاستفهام ؛ (ما) أو (من) .

(٣) الآية (١٧) من سورة (طه) — ووجه الشبه أن [تِلْكَ] في هذه الآية اسم إشارة بمعنى «الذي» ، كأنه قال : ما الذي بيمينك ؟ فرأي المهدوي يعود إلى ما ذكره أبو عليٍّ من أن [ذَٰلِكَ] في آيتنا بمعنى «الذي» وهي في محل نصب بوقوع [يَدْعُو] عليه ، ويكون قوله : ﴿لَمَنْ ضَرُّهُ﴾ كلام مستأنف .

اليمين . ويظهر أيضاً في الآية أن يكون المراد : «يَدْعُو من ضرُّه» ، ثم علَّق الفعل باللام ، ويصحُّ أن يقدَّر هذا الفعل من الأفعال التي تعلَّق وهي أفعال النفس كظننت وحسبت ، وأشار أبو عليٍّ إلى هذا وردَّ عليه .

و «ٱلْعَشِيرُ» : القريب المعاشر في الأمور ، وذهب الطبري إلى أن المراد بـ «الْمَوْلَى» و «الْعَشِيرِ» هو الوثن الذي ضرُّه أقرب من نفعه ، وهو قول مجاهد ، والله أعلم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾

لَمَّا ذَكَر الله تبارك وتعالى من يعبد الله على حرف وسفَّه رأيهم وتوعَّدهم بخسارة الآخرة . عقَّب ذلك بذكْر حالة مخالفيهم من أهل الإيمان ، وذِكْر ما وعدهم به من إدخاله إيَّاهم الجنة ، ثم أخذت الآية في

توبيخ أُولئك الأَولين وإسلامهم إلى رأْيهم وإحالتهم على ما فيه عنتهم وليس فيه راحتهم ، كأَنه يقول : هؤلاءِ العابدون على حرف صحبهم القَلَق وظنُّوا أَن الله تعالى لن ينصر محمداً عليه الصلاة والسلام وأتباعه ، ونحن إنما أَمرناهم بالصبر وانتظار وعدنا ، فمن ظنَّ غير ذلك فليمدد بسبب وليختنق وينظر هل يذهب بذلك غيظه ؟ قال هذا المعنى قتادة ، وهو على جهة المثل السائر ، قولهم : «دونك الحبل فاختنق» ، يقال ذلك للذي يريد من الأَمر مالا يمكنه .

و «السَّبَبُ» : الحبل ، والنَّصْرُ معروف ، إلَّا أَن أَبا عبيدة ذهب به إلى معنى الرِّزْق ، كما قالوا : «أَرْض منصورة» أَي ممطورة (١) ، وكما قال الشاعر :

وَإنَّكَ لَا تُعْطِي امْرَءًا فَوْقَ حَقِّه وَلَا تَملِكُ الشِّقَّ الَّذي الْغَيْثُ ناصِرُه(٢)

---

(١) في اللسان : «قال ابن الأعرابي : النَّصْرَةُ : المَطْرَةُ التامة ، وقال أبو عبيد : نُصرت البلادُ إذا مُطرت ، ونُصر القوم إذا غيثوا ، وفي الحديث : إن هذه السحابة تنصر أرض بني كعب ، أي تمطرهم» .

(٢) البيت للفَقْعَسي ، وفقعس حيٌّ من بني أسد ، أبوهم فَقْعَس بن طريف بن عمرو بن الحارث ، واسمه : المَرَّارُ – بفتح الميم وتشديد الراء الأولى – ينسب تارة إلى فقعس أحد أقرباء آبائه الأقربين ، وتارة إلى جده الأعلى : أسد بن خزيمة بن مدركة . وفي (المؤتلف والمختلف) للآمدي أنه المَرّار بن سعيد بن حبيب ... إلى أن ينتهي بفقعس بن طريف . والشاهد في البيت قوله : «الغيث ناصِرُه» ، والناصر هو ما جاء من مكان بعيد إلى الوادي ، يقال : نصر البلاد إذا أتاها ، ونصرت أرض بني فلان أي أتيتها ، ونصر الغيث الأرض : أغاثها وسقاها وأنبتها ، قال الشاعر :

مَنْ كانَ أخْطَأَهُ الرَّبيعُ فَإنَّمَا نُصِرَ الحجَازُ بغَيْثِ عبد الواحد

راجع اللسان (نصر) .

وقال : وقف بنا سائل من بني أبي بكر فقال : من ينصرني ينصره الله ، و «السَّمَاءُ» ــ على هذه الأقوال ــ : الهواءُ عُلُوًّا ، فكأنه أراد : سقْفاً أو شجرةً أو نحوه . وقال ابن زيد : السماءُ هي المعروفة ، وذهب إلى معنى آخر ، كأنه قال لمن يظن أن الله لا ينصر محمداً : إنْ كنتَ تظن ذلك فامدد سبباً إلى السماء واقطعه إن كنت تقدر على ذلك ، فإن عجزت فكذلك لا تقدر على قطع سبب محمد عليه الصلاة والسلام من السماء ؛ إذْ نصرته من هنالك ، والوحي الذي يأْتيه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

و «القَطْعُ» ــ على هذا التأْويل ــ ليس بالاختناق ، بل هو جَزْم السبب ، وفي مصحف ابن مسعود : «ثُمَّ لْيَقْطَعْهُ بِهَا» ، والجمهور على أن القطع هنا هو الاختناق . قال الخليل : «وَقَطَعَ الرَّجلُ» إذا اختنق بحبل أو نحوه ، ثم ذكر الآية .

وتحتمل الآية معنى آخر ، وهو أن يراد به الكفار وكل من يغتاظ بأن ينصره الله ويطمع أَلَّا يُنْصَر ، قيل لهم : من ظنَّ أن هذا لا يُنْصر فليمت كمداً ، هو منصور لا محالة ، فليختنق هذا الظَّانُّ غيظاً وكمداً ، ويؤيد هذا أن الطبري والنقاش قالا : ويقال : نزلت في نفر من بني أسد وغطفان قالوا : نخاف أن يُنصر محمد فينقطع الذي بيننا وبين حلفائنا من يهود من المنافع .

والمعنى الأَول الذي قيل للعابدين على حرف ليس بهذا ، ولكنه بمعنى : مَنْ قَلِقَ واستبطأَ النصر وظن أَن محمداً عليه الصلاة والسلام لا يُنصر فليختنق سفاهةً إذْ تعدَّى الأَمر الذي حُدَّ له في الصبر وانتظار صنع الله تعالى . وقال مجاهد : الضمير في [يَنْصُرُهُ] عائد على [مَنْ] ، والمعنى : من كان من القلقين من المؤمنين .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والضمير في التأْويل الذي ذكرناه في أَن يُراد الكفار لا يعود إلَّا على النبي صلى الله عليه وسلم فقط . وقالت فرقة : الضمير عائد على الدِّين والقرآن .

وقرأَ أَبو عمرو ، وابن عامر : ﴿لِيَقْطَعْ فَلِيَنْظُرْ﴾ بكسر اللام فيهما على الأَصل ، وهي قراءَة الجمهور ، وقرأَ عاصم ، وحمزة ، والكسائي بسكون اللام فيهما وفي لام الأَمر في كل القرآن مع الواو والفاءِ وثُمَّ ، واختُلف عن نافع ، وهي قراءَة الحسن ، وأَبي عمرو ، وعيسى .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

أَما الفاءُ والواو – إذا دخلت (إحداهما)(١) على لام الأَمر – فحكى سيبويه أَنهم يرونها كأَنها من الكلمة فسكون اللام تخفيف ، وهو

(١) ما بين العلامتين (...) زيادة لسلامة التعبير وللتوضيح .

أفصح من تحريكها ، وأمَّا «ثُمَّ» فهي كلمة مستقلَّة فالوجه تحريك اللام بعدها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقد رأى بعض النحويين الميم من «ثُمَّ» بمنزلة الفاءِ والواو .

وقوله : ﴿مَا يَغِيظُ﴾ يحتمل أن تكون [مَا] بمعنى الذي ، وفي [يَغِيظُ] عائد عليها ، ويحتمل أن تكون مصدرية حرفاً فلا عائد عليها ، و «الكَيْدُ» هو مدة السبب .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وأبْيَن وجوه هذه الآية أن تكون مثلاً ، ويكون النصر المعروف ، والقطعُ الاختناقُ ، والسماءُ الارتفاعُ في الهواءِ بسقف أو شجر أو نحوه فتأمله .

قوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ...﴾ إلى ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٍ﴾ ، المعنى : وكما وعدنا بالنصر وأَمَرْنا بالصبر كذلك أنزلنا القرآن آية بيِّنةً لمن نظر واهتدى ، لا ليُقترح معها ويُستعجل القَدَر ، وقال الطبري : المعنى : كما بيَّنْتُ حُجَّتي على من جَحَدَ قُدرتي على إحياءِ الموتَى كذلك أَنزلْناه . والضمير في [أَنْزَلْنَاهُ] عائد على القرآن ، وجاءت هذه الضمائر هكذا وإنْ لم يتقدَّم لها ذكر لشُهْرة المشار إليه نحو قوله تعالى : ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾[1] وغيره .

(١) من الآية (٣٢) من سورة (ص) .

وقوله : ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ في موضع خبر الابتداء ، والتقدير : والأمر أن الله يهدي من يريد ، وهداية الله تبارك وتعالى هي خلْقُه الرَّشاد والإيمان في نفس الإنسان .

ثم أخبر الله تعالى عن فعله بالفِرَق المذكورين وهم المؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم وغيره ، واليهود ، والصابئون وهم قوم يعبدون الملائكة ويستقبلون القِبْلَة ويوحدون الله ويقرؤون الزبور ، قاله قتادة ، والنصارى ، والمجوس وهُمْ عَبَدَةُ النار والشمس والقمر ، والمشركون وهم عَبَدَة الأوثان . قال قتادة : الأَديان ستَّة ، خمسة للشيطان وواحد للرَّحمن . وخبر [إنَّ] قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ ، ثم دخلت [إنَّ] على الخبر مؤكدة ، وحَسُن ذلك لطول الكلام فهي وما بعدها خبر [إنَّ] الأُولى ، وقرن الزجاج هذه الآية بقول الشاعر :

إِنَّ الْخَلِيفَةَ إِنَّ اللهَ سَرْبَلَهُ سِرْبَالَ مُلْكٍ بِهِ تُرْجَى الْخَوَاتِيمُ(١)

نقله الطبري .

---

(١) هذا البيت لجرير ، وهو من قصيدة يمدح بها عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك ، ويُروى البيت : «يَكْفِي الْخَلِيفَةَ أنَّ اللهَ سَرْبَلَهُ» ، ويُروى أيضاً : «بِهِ تُزْجَى الْخَوَاتِيمُ» ، بمعنى : تُساق خواتيم الإمارة . والسِّرْبالُ : القميص ، وفي اللسان بعد أن ذكر البيت عن الزجاج قال : «إنَّما جمع خاتِماً على خواتيم اضطراراً» ، وقيل : إن خواتيم جمع خَاتَامٍ ، وهي لغة في الخاتِم ، فهو الخَتْم والخاتِمُ والخاتَم والخَاتَام والخَيْتَام ، والبيت شاهد على أن [إنَّ] دخلت على جزأي الجملة ، أي على المبتدأ والخبر لزيادة التأكيد ، وحسَّن ذلك طولُ الفصل في الكلام ، على أنه يجوز في البيت وجه آخر لا يجوز في الآية ، وهو أن يكون خبر [إنَّ] الأولى هو قول الشاعر : «بِهِ تُرْجَى الخواتيمُ» ، وجملة «إنَّ اللهَ سَرْبَلَهُ» جملة معترضة بين اسم (إنَّ) وخبرها . (راجع خزانة الأدب وشرح شواهد الكشاف) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وليس هذا البيت كالآية لأن الخبر في البيت قوله : «به تُرْجى الخواتيم» ، و (إن) الثانية وجملتها معترضة بين الكلامين . ثُمَّ تمَّ الكلام في قوله تعالى : [ٱلْقِيَامَةِ] ، واستُؤنف الخبر عن أن الله تبارك وتعالى على كل شيءٍ شهيدٌ وعالم به ، وهذا خبر مناسب للفصل بين الفِرَق ، وفَصْلُ الله تعالى بين هذه الفِرَق هو بإدخال المؤمنين الجنة والكافرين النار .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾ ۩ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تنبيهٌ ، من رؤْية القلب ، وهذه آية إعلام بتسليم المخلوقات جميعها لله تعالى وخضوعها . وذكر في الآية كلَّ ما عَبَدَ

الناس إذْ في المخلوقات أعظمُ ممَّا ذكر كالبحار والرياح والهواء ، فـ ﴿مَنْ فِي ٱلسَّمَوَاتِ﴾ : الملائكة ، و ﴿مَنْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من عُبِد من البشر . و «الشَّمس» كانت تعبدها حمير ، وهم قوم بلقيس ، و «الْقَمَرُ» كانت كنانة تعبده ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : وكانت تميم تعبد الدَّبران ، وكانت لَخْم تعبد المشترى ، وكانت طي تعبد الثُّرَيَّا ، وكانت قريش تعبد الشِّعرى ، وكانت أسد تعبد عُطارد ، وكانت ربيعة تعبد المرزم . و «الجبال والشَّجر» منها النار وأصنام الحجارة والخشب ، و «الدَّوَابُّ» منها البقر وغير ذلك ممَّا عُبد من الحيوان كالديك ونحوه .

و «السُّجُودُ» في هذه الآية هو بالخضوع والانقياد للأَمر ، وهذا كما قال الشاعر :

. . . . تَرَى الأُكْمَ فيها سُجَّداً لِلْحَوَافِرِ(١)

وهذا مما يتعذر فيه السجود المتعارف . قال مجاهد : سجود هذه الأَشياء

---

(١) هذا عجز بيت قاله زيد الخيل ، والبيت بتمامه :

بِجَمْعٍ تَضِلُّ البُلْقُ في حَجَرَاتِهِ تَرَى الأُكْمَ فيها سُجَّداً لِلْحَوَافِرِ

والبَلَق : سوادٌ وبياضٌ في الدابة ، أو هو ارتفاع التحجيل إلى الفخذين ، والحَجَرَات : النواحي ، والأَكَمة : المكان المرتفع ، وجمعها أكمات وأكَم ، وجمع الأكم إكامٌ ، وجمع الإكام : أُكمُ ، وتخفف هذه فيقال أُكْمٌ ، وسجود الأكم للحوافر كناية عن خضوعها لها لأن السجود بمعناه المتعارف عليه غير ممكن في الأكم .

هذا وزيد الخيل شاعر من طيئ ، جاهلي وأدرك الإسلام ، ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم وأسلم ، وسماه «زيد الخير» وقال له : (ما وُصف لي أحد في الجاهلية فرأيته في الإسلام إلاّ رأيته دون الصفة ليسك» .

هو بظلالها ، وقال بعضهم : سجودها هو بظهور الصنعة فيها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا وهم ، وإنما خلط هذه الآية بآية التسبيح ، وهنالك يحتمل أن يقال : هي بآثار الصنعة .

وقوله : ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ يحتمل أن يكون معطوفاً على ما تقدَّم ، أي : وكثير حق عليه العذابُ سَجَدَ ، أي كراهيةً وعلى رَغْمه ، إمَّا بِظِلِّه وإمَّا بخضوعه عند المكاره ونحو ذلك ، قاله مجاهد . وقال : سجوده بظلِّه ، ويحتمل أن يكون رفعاً بالابتداءِ مقطوعاً مّمَّا قبله ، وكأَن الجملة معادلةٌ لقوله : ﴿وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ لأَن المعنَى أنهم مرحومون بسجودهم ، ويؤيد هذا قوله تعالى بعد ذلك : ﴿وَمَنْ يُهِنِ ٱللَّهُ﴾ الآية .

وقرأ جمهور الناس : ﴿فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ بكسر الراءِ ، وقرأ ابن أبي عبلة بفتح الراءِ على معنى : من موضع ، أو على أنه مصدر كمدخل . وقرأ جمهور الناس : [وَٱلدَّوَابُّ] مشدَّدة الباءِ ، وقرأ الزهري وحده مخففة الباءِ ، وهي قليلة ضعيفة ، وهي تخفيف على غير قياس كما قالوا : ظلْتُ وأَحَسْتُ ، وكما قال علقمة :

كَأَنَّ إبْرِيقَهُمْ ظَبْيٌ عَلَى شَرَفٍ مُفَدَّمٌ بِسَبَا الكَتَّانِ مَلْثُومُ (١)

(١) البيت من قصيدة لعلقمة يقدم فيها آراءه وخواطره في الحياة ، وهو واحد من أبيات يصف فيها الخمر التي يحبها ويعشقها. والإبريق هنا هو الإناء الذي توضع فيه الخمر لتصب =

أَراد : بسَبَائِبِ الكتَّان ، وأَنشد أَبو علي في مثله :

حَتَى إِذَا مَا لَمْ أَجِدْ غَيْرَ الشَّرِ كُنْتُ امْرَءًا مِنْ مَالِكِ بْنِ جَعْفَرِ(١)

وهذا بابٌ إنما استعمل في الشعر فلذلك ضعِّفت هذه القراءة .

قوله تعالى : ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ الآية .

اختلف الناسُ في المشار إليه بقوله : [هَذَانِ] ـ فقال قيس بن عُبَادَة ، وهلال بن يساف : نزلت هذه الآية في المتبارزين يوم بدر ، وهم ستَّة : حمزة ، وعلي ، وعبيدة بن الحارث ، برزوا لعتبة بن ربيعة ، وشيبة ابن ربيعة ، والوليد بن عتبة (٢) ، وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله

= في الكئوس ، والشَّرَفُ : المكان المرتفع ، والمُفَدَّم : الذي غُطِّي فمه ، يقال: فَدَّم الإبريق إذا غَطَّى فمه . و (سَبَا الكَتَّان) أصلها : سَبَائِبُ الكتان حذف منها المحذوف على غير قياس للتخفيف . وهي موضع الشاهد هنا . والسَّبائب جمع سِبٍّ ، وهي شُقَّةُ كَتَّان رقيقة ، وقيل : السَّبائب واحدها سَبِيبَة وهي الثوب الرقيق يصنع من الحرير . وَلَثَمَ الإبريق : شَدَّ الفِدَامَ ـ أي الغطاء ـ على بعض رأسه وترك بعضه لِلتَّنَفسِ . ويُروى : مَرْثُوم ـ بالراء ـ ومعناها : في أنفه بياضٌ ، أو أنه مكسور وقد تقطَّر منه الدم ، يريد أن أنف الإبريق فيه بياض ، أو أنه مكسور تتقطر منه قطرات الخمر . والشاعر في البيت يشبه الإبريق في انتصابه وبياضه بظبي وقف على مكان مرتفع ، ويصور مدى العناية بالخمر إذ يضعونها في الإبريق ويغطون طرفه بنسيج رقيق من الكتان الأبيض .

(١) البيت في المحتسب ، وقد قال عن قراءة الزهري [وَٱلدَّوَابُ] بتخفيف الباء : إنها ضعيفة قياساً وسماعاً ، ولكن للتخفيف ضرب من العُذْر ، فهم إذا كرهوا تضعيف الحرف فقد يحذفون أحدهما فيقولون في (ظَلَلْتُ) : ظَلْتُ . وفي (أحْسَسْتُ) : أحَسْتُ . وقد أنشد أبو عليٍّ هذا البيت . والشاهد فيه أنه قال : (الشَّرِ) فحذف الراء الثانية ؛ وكان المفروض أن يقول : (غير الشَّرِّ) .

(٢) في أسباب النزول للنيسابوري عن قيس بن عبادة قال : سمعتُ أبا ذرٍّ يقول : أُقسم بالله لنزلت ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ في هؤلاء الستة : حمزة ، وعبيدة ، وعلي بن أبي طالب ، وعُتبة ، وشيبة ، والوليد بن عتبة . ثم قال: رواه البخاري عن حجاج =

تعالى عنه أنه قال : أنا أول من يجثو للخصومة بين يدي الله يوم القيامة (١) ، وأقسم أبو ذرٍّ رضي الله عنه على هذا القول .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ووقع أن الآية فيهم في صحيح البخاري رحمه الله .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : الإشارة إلى المؤمنين وأهل الكتاب ، وذلك أنه وقع بينهم تخاصم ، فقالت اليهود : نحن أقدم ديناً منكم ونحو هذا ، فنزلت الآية . وقال عكرمة : المخاصمة بين الجنة والنار ، وقال مجاهد ، وعطاءُ بن أبي رباح ، والحسن بن أبي الحسن ، وعاصم ، والكلبي : الإشارة إلى المؤمنين والكفار على العموم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قول تعضده الآية ، وذلك أنه تقدم قوله : ﴿وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ ، المعنى : فهم مؤمنون ساجدون ، ثم قال : ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ ، ثم أشار إلى هذين الصنفين بقوله : ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ﴾ ، والمعنى أن الإيمان وأهله والكفر وأهله خصمان مذ كانا إلى قيام الساعة

= ابن منهال ، عن هشيم بن هاشم . وفي الدر المنثور : «أخرج سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، وابن ماجه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل ، عن أبي ذرٍّ رضي الله تعالى عنه أنه كان يُقسم أن هذه الآية ... الخ الحديث» .

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ، والبخاري ، والنسائي ، وابن جرير ، والبيهقي ، من طريق قيس بن عبادة .

بالعداوة والجدال والحرب . وقوله : [خَصْمَانِ] يريد : طائفتين لأَن لفظة خَصْمٍ هي مصدرٌ يوصف به الجمع والواحد ، ويدل على أنه أَراد الجمع قوله تعالى : [ٱخْتَصَمُوا] ، فإنها قراءة الجمهور ، وقرأ ابن أَبي عبلة : ﴿ٱخْتَصَمَا فِي رَبِّهِمْ﴾ . وقوله : ﴿فِي رَبِّهِمْ﴾ معناه : في شأْن ربهم وصفاته وتوحيده ، ويحتمل أَن يريد : في رضى ربهم ، وفي ذاته . ثم بيَّن حكم الفريقين ، فتوعَّد تبارك وتعالى الكفَّار بعذاب جهنَّم ، و [قُطِّعَتْ] معناه : جُعلت لهم بتقدير كما يفصل الثَّوب ، ورُوي أَنها من نحاس ، وقيل : ليس شيءٌ من الحجارة أَحَرَّ منه إذا حمي . ورُوي في صَبِّ الحميم ـ وهو الماءُ المغلي ـ أَنه تُضرب رءُوسهم بالمقامع فتنكشف أَدمغتهم فيُصَبُّ الحميم حينئذ ، وقيل : بل يصب الحميم أَوَّلاً فيفعل ما وصف ثم تُضرب بالمقامع بعد ذلك . و «ٱلْحَمِيمُ» : الماءُ المغلي . و [يُصْهَرُ] معناه : يُذاب ، وقيل : معناه : يُعصر ، وهذه العبارة قلقة ، وقيل : معناه : ينضح ، ومنه قول الشاعر :

. . . . تَصْهَرُهُ الشَّمْسُ وَلَا يَنْصَهِرْ (١)

---

(١) هذا عجز بيت قاله ابن أحمر يصف فرخ قطاة ، والبيت بتمامه :

تَرْوِي لَقىً أُلْقِيَ فِي صَفْصَفٍ تَصْهَرُهُ الشَّمْسُ فَمَا يَنْصَهِرْ

وهو في اللسان (صَهَرَ) كما أثبتناه ، وفي الطبري «و لا يَنْصَهِرْ» كما ذكره المؤلف . وتَرْوِي معناه : تَسْتَقِي ، أي : تسوق إليه الماء فتصير له كالراوية ، يقال : رويتُ أهلي وعليهم إذا أتيتهم بالماء ، واللَّقَى كل شيءٍ مطروح متروك مُلْقى على الأرض لهوانه . والصَّفصف : الأرض الملساة المستوية . والصَّهْرُ : إذابة الشحم ، يقال : صَهَرَ الشحم يصهره صهراً : أذابه .

وإنما يُشْبِه ــ فيمن قال : يعصر ــ أنه أراد أن الحميم بحرارته يهبط ــ كُلَّمَا يُلْقَى ــ في الجوف ويكشطه ويَسْلِتُهُ ، وقد روى أبو هريرة نحوه عن النبي صلى الله عليه وسلم (أنه يَسْلِتُهُ ويَبْلُغُ به قدميه ويديه ثم يعاد كما كان)(١) . وقرأ الجمهور : [يُصْهَرُ] ، وقرأت فرقة : [يُصَهَّر] بفتح الصاد وشدِّ الهاءِ . و «المِقْمَعَةُ» ــ بكسر الميم ــ مقرعة من حديد يُقْمَع بها المضروب(٢) .

وقوله تعالى : [أَرَادُوا] رُوي فيه أن لهب النار إذا ارتفع رفعهم فيصلون إلى أبواب النار فيريدون الخروج فيُضربون بالمقامع وتردُّهم الزبانية . و [مِنْ] في قوله : [مِنْهَا] لابتداءِ الغاية ، وفي قوله : ﴿مِنْ غَمٍّ﴾ يحتمل أن تكون لبيان الجنس ، ويحتمل أن تكون لابتداءِ غاية أيضاً ، وهي بدلٌ من الأُولى . وقوله : [وَذُوقُوا] هنا حذف تقديره : ويقال لهم : ذوقوا ، و «ٱلْحَرِيق» فَعِيلٌ بمعنى مُفْعِل ، أي : محرق .

---

(١) أخرجه عبد بن حميد ، والترمذي وصححه ، وعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وأبو نعيم في «الحلية» ، وابن مردويه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، ولفظه أنه تلا هذه الآية فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إن الْحَمِيم ليُصَبُّ على رءوسهم فينفذُ الجمجمة حتى يخْلُصَ إلى جوفه فَيَسْلِتَ ما في جوفه حتى يمرق من قدمه ــ وهو الصَّهر ــ ثم يعادُ كما كان) .

(٢) وقوله تعالى : [وَٱلْجُلُودُ] معطوف على [مَا] في قوله سبحانه : ﴿مَا في بُطُونِهِمْ﴾ ، فالجلود تصهر أيضاً مع ما في البطون ، وقيل : بل التقدير : يُصْهَر ما في البطون وتحرق الجلود ؛ لأن الجلود لا تذاب إنما تجتمع على النار وتنكمش ، وهذا كقول الشاعر :

علَفْتُهَا تِبْناً ومَاءً بَارِداً

أي : وسقيتها ماءً .

وقرأ الجمهور : [هَذَانِ] بتخفيف النون ، وقرأ ابن كثير وحده : [هَذَانِّ] بتشديد النون ، وقرأها شبلٌ ، وهي لغة لبعض العرب في المبهمات كالَّذَانِ وهَذَانِ ، وقد ذكر ذلك أبو علي .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾

هذه الآية معادلةٌ لقوله تعالى : ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ ﴾ .
وقرأ الجمهور : [يُحَلَّوْنَ] بضم الياء وشد اللام من الحلي ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما : [يَحْلَوْنَ] بفتح الياء واللام وتخفيفها ، يقال : حَلِيَ الرجلُ وحَلِيَت المرأةُ إذا صارت ذات حَلْي . وقيل : هي من قولهم : «لم يَحْلُ فلانٌ بطائلٍ» (١) . و [مِنْ] في قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَسَاوِرَ ﴾ هي لبيان الجنس ، ويحتمل أن تكون للتبعيض .

(١) أي لم يظفر بطائل ، فكأنه جعل ما يُحَلَّوْن به هناك أمراً ظفروا به .

و «ٱلْأَسَاوِرِ» جمع سِوَارٍ وإِسْوَارٍ بكسر الهمزة ، وقيل : أساور جمع أَسْوِرَة ، وأَسْورة جمع سِوَار . وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما : «من أَسْوِرَةٍ مِنْ ذَهَبٍ» .

و «اللُّؤْلُؤُ» : الجوهر ، وقيل : صغاره ، وقيل : كباره ، والأَشهر أنه اسمٌ للجوهر . وقرأ نافع ، وعاصم – في رواية أَبي بكر(١) – : [وَلُؤْلُؤاً] بالنصب عطفاً على موضع «الأَسَاوِر» ؛ لأَن التقدير : يُحَلَّوْنَ فيها أَسَاوِرَ ، وهي قراءة الحسن ، والجحدري ، وسلام ، ويعقوب ، والأَعرج ، وأَبي جعفر ، وعيسى ، وابن عمر ، وحمل أَبو الفتح نصبه على إضمار فِعْل ، وقرأ الباقون من السبعة : [وَلُؤْلُؤٍ] بالخفض عطفاً إمَّا على لفظة «الأَسَاوِرِ» ، ويكون «اللؤلؤ» في غير الأَساور ، وإمَّا على «الذَّهَب» لأَن الأَساور تكون أَيضاً من ذهب ولؤلؤ قد جمع بعضها إلى بعض ، ورُويت هذه القراءة عن الحسن بن أَبي الحسن ، وطلحة ، وابن وثاب ، والأَعمش ، وأَهل مكة ، وثبتت في (الإِمام) أَلف بعد الواو ، قاله الجحدري ، وقال الأَصمعي : ليس فيها أَلف ، ورَوى يحيى عن أَبي بكر ، عن عاصم بهمز الواو الثانية دون الأُولى ، وروى المعلَّى بن منصور ، عن أَبي بكر ، عن عاصم ضِدَّ ذلك ، قال أَبو عليٍّ : فهمزهما وتخفيفهما وهمز إحداهما دون

---

(١) الثابت في المصحف أن رواية حفص عن عاصم بالنصب أيضاً ، فلا معنى لهذا التخصيص ، ولهذا لم يذكره أحد من المفسرين .

الأُخرى جائز كله . وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما : «لِثْلِثاً» بكسر اللامين .

وأخبر الله تعالى عنهم بلباس الحرير لأنها من أكمل حالات الآخرة ، وقد رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (مَنْ لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة)(١) . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : لا تشبه أمورُ الآخرة أمورَ الدنيا إلّا في الأسماءِ فقط ، وأما الصفات فمتباينة.

و «الطَّيِّبُ من القول» : لا إله إلّا الله وما جرى معها من ذكر الله تبارك وتعالى وتسبيحه وتقديسه ، وسائر كلام أهل الجنة من محاورة وحديث طيب ؛ فإنها لا تسمع فيها لاغية ، و «صِرَاطُ الْحَمِيدِ» هو طريق الله تعالى الذي دعا عباده إليه ، ويحتمل أن يريد بـ [ٱلْحَمِيدِ] نفس الطريق ، فأضاف إليه على حَدٍّ إضافته في قوله تعالى : ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ﴾(٢) .

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم عن عمر رضي الله عنه . وأخرج النسائي والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : (من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة ، ومن شرب الخمر في الدنيا لم يشربه في الآخرة . ومن شرب في آنية الذهب والفضة لم يشرب في الآخرة) ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لباس أهل الجنة وشراب أهل الجنة وآنية أهل الجنة) ، وأخرج النسائي والحاكم وابن حبان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة ، وإن دخل الجنة لبسه أهل الجنة ولم يلبسه) . (الدر المنثور) .

(٢) من قوله تعالى : ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ من الآية (١٠٩) من سورة (يوسف) — وتكررت في قوله تعالى في الآية (٣٠) من سورة (النحل) : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ﴾ الآية . قوله : [وَيَصُدُّونَ] تقديره : وهم يصدون ، وبهذا حَسُن عطف المستقبل على الماضي ، وقالت طائفة : الواو زائدة ، و [يَصُدُّونَ] خبر [إِنَّ] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا مفسد للمعنى المقصود ، وإنما الخبر محذوف مقدرٌ عند قوله : [وَٱلْبَادِ] ، تقديره : خَسِرُوا أَوْ هلكوا ، وجاءَ [يَصُدُّونَ] مستقبلاً إِذْ هو فعل يُديمونه ، كما جاءَ قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ﴾(١) ونحوه .

وهذه الآية نزلت عام الحديبية حين صُدَّ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم عن المسجد الحرام ، وذلك أنه لم يُعلم لهم صدٌّ قبل ذلك الجمع ، إلَّا أَن يراد صدهم الأَفراد من الناس فقد وقع ذلك في صدر المبعث ، وقالت فرقة : «المسجد الحرام» أَراد به مكة كلها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا صحيح لكنه قصد بالذكر المهم المقصود من ذلك .

وقرأ جمهور الناس : [سَوَاءٌ] بالرفع ، وهو على الابتداء ، و [ٱلْعَاكِفُ] خبر ، وقيل : الخبر [سَوَاءٌ] وهو مقدم ، وهو قول أَبي علي ، والمعنى : الذي جعلناه للناس قِبْلَةً أَو مُتَعبَّداً ، وقرأ حفص

---

(١) من الآية (٢٨) من سورة (الرعد) .

عن عاصم : [سَوَاءً] بالنصب ، وهي قراءة الأعمش ، وذلك يحتمل وجهين : أحدهما أن يكون مفعولاً ثانياً لـ «جَعَلَ» ويرتفع [ٱلْعَاكِفُ] به لأنه مصدر في معنى «مُسْتَوٍ» أعمل عمل اسم الفاعل ، والوجه الثاني أن يكون حالاً من الضمير في [جَعَلْنَاهُ] ، وقرأت فرقة : [سَوَاءً] بالنصب [ٱلْعَاكِفِ] بالخفض عطفاً على [ٱلنَّاسِ] (١) ، و «العَاكِفُ» : المقيم في البلد ، و «البَادِي» : القادم عليه من غيره . وقرأ ابن كثير في الوصل والوقف : [ٱلْبَادِي] بالياء ، ووقف أبو عمرو بغير ياءٍ وَوَصَل بالياء ، وقرأ نافع : [ٱلْبَادِ] بغير ياءٍ في الوصل والوقف في رواية المسيِّبي ، وأبو بكر وإسماعيل بن أبي أُويس (٢) ، وروى ورش الوصل بالياء ، وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي بغير ياءٍ وصلاً ووقفاً ، وهي في «الإمام» بغير ياءٍ .

---

(١) قال أبو حيان في البحر المحيط : «كأنه يريد عطف البيان ، والأَوْلى أن يكون بدل تفصيل» .

(٢) أما أبو بكر فهو عبد الحميد بن عبد الله بن عبد الله بن أُويس الأصبحي – أبو بكر ابن أبي أُويس – مشهور بكنيته ، كأبيه ، ثقة ، من التاسعة ، قال الإمام الحافظ العسقلاني : «ووقع عند الأزدي : أبو بكر الأعشى ، في إسناد حديث ، فنسبه إلى الوضع فلم يُصب ، مات سنة اثنتين ومائتين» .

وأما إسماعيل فهو إسماعيل بن عبد الله بن أُويس الأَصْبَحِي . أبو عبد الله بن أبي أُويس المدني ، صدوق ، أخطأ في أحاديث من حفظه ، من العاشرة ، مات سنة ست وعشرين ومائتين . والأَصْبَحِي – بفتح فسكون ففتح – نسبة إلى ذي أصبح ، واسمه الحارث بن عوف ، من يعرب بن قحطان . وأَصْبَح صارت قبيلة .

وأجمع الناسُ على الاستواءِ في المسجد الحرام واختلفوا في مكة ـ فذهب عمر بن الخطاب ، وابن عباس ، ومجاهد ، وجماعة معهم إلى أن الأمر كذلك في دُور مكة ، وأن القادم له النزول حيث وُجِدَ ، وعلى ربِّ المنزل أن يُؤْوِيه شاءَ أو أَبَى ، وقال ذلك سفيان الثوري وغيره ، وكذلك كان الأمر في الصدر الأول ، قال ابن سابط (١) : وكانت دورهم بغير أبواب حتى كثرت السرقة فاتخذ رجل باباً فأنكر عليه عمر رضي الله عنه وقال : أتغلق باباً في وجه حاج بيت الله ؟ فقال : إنما أردت حفظ متاعهم من السرقة ، فتركه فاتَّخذ الناس الأبواب . وقال جمهور من الأئمة منهم مالك رحمه الله : ليست الدور كالمسجد ، ولأهلها الامتناع بها والاستبداد ، وعلى هذا هو العمل اليوم .

وهذا الخلاف متركب على الاختلاف في مكة ، هل هي عَنْوة (٢) كما روي عن مالك والأوزاعي ؟ أو صلح كما روي عن الشافعي ؟ فمن رآها صلحاً فإن الاستواءَ عنده في المنازل بعيد ، ومن رآها عَنْوة أمكنه أن يقول : الاستواءُ فيها قدَّره الأئمة الذين لم يُقطعوها أحداً وإنما سُكْنى من سكن من قِبَل نفسه .

---

(١) هو عبد الرحمن بن سابط ـ بكسر الباء كما في المغني ـ ويقال : ابن عبد الله بن سابط ، قال العسقلاني : وهو الصحيح ، ثقة ، كثير الإرسال ، من الثالثة ، مات سنة ثمان عشرة .

(٢) يعني : هل هي مفتوحة عَنْوَة بقوة السلاح ، أو مفتوحة صلحاً ؟ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وظاهر قول النبي صلى الله عليه وسلم : (وهل ترك لنا عقيل منزلاً)(١) يقتضي الاستواء، وأنها مُتَمَلَّكَةٌ ممنوعة على التأويلين في قوله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه تُؤُوِّل بمعنى أنه وَرِث جميع منازل أبي طالب وغيره ، وتُؤُوِّل بمعنى أنه باع منازل بني هاشم حين هاجروا . ومن الحجة لتملُّك أهلها دورهم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه اشترى من صفوان بن أُمية داراً للسجن بأربعة آلاف ، ويصح مع ذلك أن يكون الاستواءُ في وقت الموسم للضرورة والحاجة فيخرج الأمر حينئذ عن الاعتبار بالعَنْوة والصلح .

وقوله تعالى : [بِإِلْحَادٍ] ، قال أبو عبيدة : الباءُ زائدة ، ومنه قول الشاعر :

بِوَادٍ يَمَانٍ يُنْبِتُ الشَّثَّ صَدْرُهُ وأَسْفَلُهُ بِالْمَرْخِ والشَّبَهَانِ (٢)

---

(١) أخرجه أبو داود في الفرائض .

(٢) البيت للأحول اليشكري ، واسمه يعلى ، وهو في اللسان (شث) و (سدر) ذلك لأنه رُوي أيضاً : (يُنْبِتُ السِّدْرَ) . والسِّدْر هو شجر النبق . والواحدة سدرة . والشَّث : شجر طيب الريح ، مرُّ الطعم ، يدبغ به . وينبت في جبال الغور وتهامة ونجد ، والمَرْخُ : شجر كثير الوري سريعه . والشَّبَهان : نبت يشبه الثُّمام ، قال ابن سيدة : والشَّبَهان — بالتحريك وبضمتين — ضرب من العضاه . وقيل : الشَّبَهان نبت شائك له وردٌ لطيف أحمر . والشاهد في البيت هو زيادة الباء في (بالمَرْخ) ، إذ الأصل : يُنبت المرخ . وقيل أيضاً : إن الباء ليست زائدة . بل هي للتعدية . والتقدير : وينبت أسفله بالمرخ .

ومنه قول الأَعشى :

ضَمِنَتْ بِرِزْقِ عِيَالِنَا أَرْمَاحُنَـــا . . . . (١)

وهذا كثير(٢). ويجوز أَن يكون التقدير : ومن يرد فيه الناس بإِلْحاد .

---

(١) في الطبري أن البيت لأعشى بني ثعلبة ، وهو غير موجود في الديوان ، بل ليس فيه قصيدة دالية مكسورة من بحر الكامل ، وفي اللسان (جرد) نسب للأعشى بيتاً يقول فيه :

ضَمِنَتْ لَنَا أَعْجَـــازَهُ أَرْماحُنَا مِلْءَ المَرَاجِلِ والصَّرِيحَ الأَجْـــرَدَا

وفي الديوان قصيدة دالية منصوبة فيها بيت يلتقي مع هذا البيت في كثير من الأمور ، إذ يتحدث الشاعر قبله عن الإبل ، ويقول : إن الله تعالى جعل طعامنا فيها ، وهي ضخمة كالهضاب ، ومضمونة لنا لا يطرُدها مُغير ، ولا يُرَوِّعُها مروِّع ، ثم يقول :

ضَمِنَتْ لَنَا أَعْجازُهُنَّ قُـــدُورَنَا وضُرُوعُهُنَّ لَنَا الصَّرِيحَ الأَجْرَدَا

والصريح الأجرد هو اللبن الصافي ، أي أن أعجازها تملأ قدُورنا وتضمن لنا اللحم الذي يكفي ضيوفنا ولا ينفد ، وأعجازها ضمنت لنا اللبن الصافي . لكن ليس في هذا البيت ولا في بيت اللسان شاهداً يصلح هنا ، لأن الشاهد هو زيادة الباء في (بِرِزْق) ، والتقدير : ضمنت رِزْق .

(٢) من ذلك قوله تبارك وتعالى في سورة مريم — الآية ٢٥ — : ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ ، والعرب تقول : خُذ الخطام ، وخُذ بالخطام ، وتقول : زوَّجتك فلانة ، وزوَّجتك بفلانة . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ ﴾ ، أي : تنبت الدُّهْنَ . ومن ذلك قول قيس بن زُهير العبسي :

أَلَمْ يَأْتِيكَ وَالأَنْبَاءُ تَنْمِـــي بِمَا لاقَتْ لَبُونُ بَنِي زِيَـــادِ ؟

وقول امرئ القيس :

أَلا هَلْ أَتَانَا والحَوَادِثُ جَمَّةٌ بِأَنَّ امْرَأَ القَيْسِ بنَ تَمْلِكَ بَيْقَرَا

أي : هاجر من أرض إلى أرض ، أو ذهب إلى حيث لا يدري . لكن الباء هنا دخلت على (انَّ) وهي في موضع رفع . أما في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ ﴾ فقد دخلت على (إِلْحَادٍ) وهو في موضع نصب ، وفي بيت قيس بن زهير دخلت على (ما) ، قال هذا الفراء في (معاني القرآن) . ومن زيادة الباء أيضاً قول الشاعر :

=

و «الإِلْحَادُ» : المَيْلُ ، وهذا الإلحاد والظلم يجمع جميع المعاصي من الكفر إلى الصغائر ، فَلِعِظَم حُرمة المكان توعد الله تعالى على نِيَّة السيئة فيه ، ومن نوى سيئة ولم يعملها لم يحاسب بذلك إلَّا في مكة . هذا قول ابن مسعود رضي الله تعالى عنه وجماعة من الصحابة وغيرهم ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : الإلْحادُ في هذه الآية : الشِّرك ، وقال أَيضاً : هو استحلال الحرام وحرمته ، وقال مجاهد : هو العمل السَّيِّءُ فيه ، وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : وقَوْلُ «لا والله ، وبلى والله» بمكة من الإلْحاد ، وقال حبيب بن أبي وثَّاب : الحكرة بمكة من الإلْحاد بالظلم .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والعموم يأْتي على هذا كله .

وقرأت فرقة : ﴿وَمَنْ يَرِدْ﴾ من الوُرُود ، حكاه الفراءُ ، والأَول أَبْيَنْ وأَعم وأَمدح للبقعة . و [مَنْ] شرط جازمة للفعل ، وذلك منع من عطفها على [ٱلَّذِينَ] . والله المستعان .

= نَحْنُ بَنُو جَعْدَةَ أَصْحَابَ الفَلَجْ نَضْرِبُ بالسَّيْفِ وَنَرْجُو بالفَرَجْ

أي : ونرجو الفَرَج . أما (الفَلَجُ) فهو موضع لبني جعدة بنجد . ويظهر من هذه الشواهد صدق ما قاله المؤلف من أن هذا كثير .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ﴾

المعنى : واذكر إذْ بَوَّأْنا ، و [بَوَّأ] هي تعدية بالتضعيف ، و (باءَ) معناه : رَجَع ، فكأن المُبَوِّئَ يردُّ المُبَوَّأَ إلى المكان ، واستعملت اللفظة بمعنى (سَكَنَ) ، ومنه قوله تعالى : ﴿ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾(١) ، وقال الشاعر :

كَمْ صاحِبٍ لِيَ صالِحٍ بَوَّأْتُهُ بِيَدَيَّ لَحْـدَا (٢)

واللام في قوله تعالى : ﴿ لِإِبْرَاهِيمَ ﴾ قالت فرقة : هي زائدة ، وقالت

---

(١) من قوله تعالى في الآية (٧٤) من سورة (الزُّمَر) : ﴿ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ﴾ بمعنى : ننزل ونسكن .

(٢) هذا البيت لعَمْرو بن معد يكرب الزَّبيدي . فارس العرب المشهور ، ويروى : (كَمْ مِنْ أَخٍ لِيَ مَاجِدٍ) . واللَّحْدُ ـ بفتح اللام المشدَّدة وبضمها ـ : الشق الذي يكون في جانب القبر موضع الميِّت ؛ لأنه قد أُميل عن وسطه إلى جانبه . قاله صاحب اللسان ، فإن كان في وسطه فهو الضَّريح والضَّريحة . وبوَّأته : هيَّأتُ له وأنزلته فيه ، وهو موضع الشاهد هنا .

فرقة : [بَوَّأْنَا] نازلةٌ منزلة فعل يتعدى باللام نحو جعلنا (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والأَظهر أن يكون المفعول الأَول بـ [بَوَّأْنَا] محذوفاً تقديره : (الناس) أو (العالم) ، ثم قال : ﴿لِإِبْرَاهِيمَ﴾ ، بمعنى : له كانت هذه الكرامة وعلى يديه بُوِّءُوا (٢) .

و «الْبَيْتُ» هو الكعبة ، وكان ـ فيما رُوي ـ قد جعله الله تعالى مُتَعَبَّداً لِآدم عليه السلام ، ثم درس بالطُّوفان وغيره ، فلمَّا جاءَت مُدَّة إبراهيم عليه السلام أَمره الله تعالى ببنائه ، فجاءَ إلى موضعه وجعل يطلب أَثراً ، فبعث الله ريحاً فكشفت له عن أَساس آدم فرتَّب قواعده عليه .

وقوله تعالى : ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً﴾ هي مخاطبة لإبراهيم عليه الصلاة والسلام في قول الجمهور حُكِيَت لنا ، بمعنى قيل له : ﴿أَلَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً﴾ ، وقرأَ عكرمة : ﴿أَن لَّا يُشْرِكَ بِي﴾ بالياءِ على معنى نقل معنى القول الذي قيل له ، قال أَبو حاتم : ولابُدَّ مِنْ نصب الكاف على هذه القراءَة ، بمعنى : لِئَلَّا يشرك .

---

(١) وقيل : اللام في قوله : ﴿لِإِبْرَاهِيمَ﴾ صلة للتأكيد ، كقوله تعالى : ﴿رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ ، يقال : بَوَّأْتُه منزلاً وبوَّأْت له ، كما يقال : مكَّنْتُك ومكَّنْت لك . وقد ذكر الفراءُ القولين ، وقال : إنَّ قوله تبارك وتعالى : ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ معناه : رَدِفَكُم .

(٢) فاللام في ﴿لِإِبْرَاهِيمَ﴾ لام العلّة ، أي : لأجل إبراهيم وكرامة له .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

يحتمل أن تكون [أَنْ] في قراءة الجمهور مفسِّرة ، ويحتمل أن تكون مُخَفَّفة من الثقيلة (١) .

وفي الآية طعن على من أشرك من قُطَّان البيت ، أي : هذا كان الشرط عَلَى أَبِيكُمْ فَمَنْ بعده وأنتم ، فلم تفوا بل أشركتم ، وقالت فرقة : الخطاب من قوله : ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ﴾ لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وأُمِر بتطهير البيت والأذان بالحج .

قال لقاضي أبو محمد رحمه الله :

والجمهور على أن ذلك لإبراهيم عليه السلام ، وهو الأَصحُّ .

و «تَطْهير الْبَيْت» عامٌّ في الكفر والبِدَع وجميع الأنجاس والدماء وغير ذلك ، و «القائمون» هم المصلُّون ، وذكر الله تعالى من أركان الصلاة أعظمها وهي : القيام والرُّكوع والسُّجود .

وقرأ جمهور الناس : [وَأَذِّنْ] بشد الذال ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن ، وابن مُحَيْصن : [وَآذِنْ] بمدّة وتخفيف الذال ، وتصحَّف هذا على ابن جني ؛ فإنه حكى عنهما «وَأَذِنَ» على أنه فعل ماض وأعرب

---

(١) ويحتمل أن تكون زائدة ، كقوله تعالى في سورة يوسف : ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ ، وقد أجاب الزمخشري عن سؤال يَعْرِض إذا قدرنا [أنْ] مفسرة ، وتقدير السؤال : كيف يكون النهي عن الشِّرك والأمر بتطهير البيت تفسيراً للتَّبْوئة ؟ أجاب الزمخشري بقوله : «كانت التَّبْوئة مقصودة من أجل العبادة ، فكأنه قيل : تَعَبَّدنا إبراهيم ، قلنا له : لا تُشْرِكْ بي شيئاً وطَهِّر بيتي من الأصنام والأوثان والأقذار أن تُطرح حوله» .

على ذلك بأن جعله عطفاً على [بَوَّأْنَا](١) . ورُوي أن إبراهيم عليه السلام لمَّا أُمر بالأذان بالحج قال : يا رب وإذا ناديت فمن يسمعني ؟ قيل له : ناد يا إبراهيم ، فعليك النداءُ وعلينا البلاغ ، فصعد على أبي قُبَيْس ــ وقيل : على حجر المقام ــ ونادى : أَيُّهَا الناس ، إن الله قد أمركم بحجِّ هذا البيت فحجُّوا ، واختلفت الروايات في ألفاظه عليه السلام ، واللازم أن يكون فيها ذكر البيت والحج . ورُوي أنه يوم نادي أسمع كلَّ من يحج إلى يوم القيامة في أصلاب الرجال ، وأجابه كل شيءٍ في ذلك الوقت من جمادٍ وغيره : لبَّيك اللَّهم لبَّيْك ، فجرت التلبية على ذلك ، قاله ابن عباس وابن جبير .

وقرأ جمهور الناس : [بِالْحَجِّ] بفتح الحاءِ ، وقرأ ابن أبي إسحق في كل القرآن بكسرها . و [رِجَالاً] جمع راجلٍ كتاجرٍ وتِجار ، [وصاحب وصحاب](٢) ، وقرأ عكرمة ، وابن عباس ، وأبو مجلز ، وجعفر بن محمد : [رُجَّالاً] بضم الراءِ وشد الجيم ، ككاتب وكُتَّاب .

---

(١) نقل القرطبي كلام ابن عطية هذا عن ابن جني ولم يعلِّق عليه . ونقله أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط وعلَّق عليه بقوله : «وليس بتصحيف ، بل قد حكى أبو عبد الله الحسين بن خالويه في (شواذِّ القراءات) مِن جَمْعِه ، وحَكَى صاحبُ (اللوامح) أبو الفضل الرازي ذلك عن الحسن وابن مُحَيْصن . قال صاحب اللوامح : وهو عطف على ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا﴾ ، فيصير في الكلام تقديم وتأخير ، ويصير [يَأْتُوكَ] جزماً على جواب الأمر الذي هو (وَطَهِّرْ)» . وإذا رجعنا إلى كلام ابن جني في (المحتسب) نجد أنه يقول نفس الكلام تقريباً ، إذ قال : «فأما قوله : ﴿يَأْتُوكَ رِجَالاً﴾ فإنه انجزم لأنه جواب قوله : ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾ ، وهو على قراءة الجماعة جواب قوله : ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾» .

(٢) زيادة من القرطبي الذي نقل كلام ابن عطية منسوباً إليه هكذا .

وقرأ عكرمة أيضاً ، وابن أبي إسحق : [رُجَالاً] بضم الراء وتخفيف الجيم ، وهو قليل في أبنية الجمع ، ورويت عن ابن مجاهد ، وقرأ مجاهد : [رُجَالَى] على وزن فُعَالَى ، فهو مثل كُسَالَى .

و «الضَّامِرُ» قالت فرقة : أراد بها الناقة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وذلك أنه يقال : ناقة ضامر ، ومنه قول الأعشى :

عَهْدِي بِهَا فِي الْحَيِّ قَدْ دُرِّعَتْ هَيْفَاءَ مِثْلَ الْمُهْرَةِ الضَّامِرِ (١)

فيجيءُ قوله تعالى : [يَأْتِينَ] مستقيماً على هذا التأويل . وقالت فرقة : «الضَّامِرُ» كل ما اتصف بذلك من جملٍ وناقة وغير ذلك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا هو الأظهر ، لكنه يتضمن معنى الجماعات أو الرفاق ، فيحسن لذلك قوله : [يَأْتِينَ] . وقرأ أصحاب ابن مسعود رضي الله عنه : [يَأْتُونَ] ، وهي قراءة ابن أبي عبلة ، والضحاك .

---

(١) البيت من قصيدة للأعشى قالها يهجو علقمة بن عُلاثة ويمدح عامر بن الطفيل في المنافرة التي جرت بينهما ، والرواية في الديوان : (قَدْ سُرْبِلَتْ) . وبعد هذا البيت يقول :

قَدْ نَهَدَ الثَّدْيُ عَلَى صَدْرِهَا فِي مُشْرِقٍ ذي صَبَحٍ نَائِرِ
لَوْ أَسْنَدَتْ مَيْتاً إلى نَحْرِهَا عَاشَ وَلَمْ يُنْقَلْ إلى قَابِرِ
حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ مِمَّا رَأَوْا : يَا عَجَباً لِلْمَيِّتِ النَّاشِرِ

فذهبت أبياته في الناس .

وفي تقديم [رِجَالاً] تفضيل للمُشاة في الحج ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : ما آسَى على شيءٍ فاتني إلَّا أن أكون حَجَجْتُ مَاشياً ، فإني سمعت الله تعالى يقول : ﴿يَأْتُوكَ رِجَالاً﴾ ، وقال ابن أبي نجيح : حجَّ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام مَاشِيَيْن ، واستدل بعض العلماء بسقوط ذكر البحر في هذه الآية على أن فرض الحج بالبحر ساقط .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

قال مالك في المَوَّازِيَّة : لا أسمع للبحر ذكراً .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا تأنُّس ، لا أنه يلزم من سقوط ذكر البحر سقوط الفرض ، وذلك أن مكَّة ليست في ضفة بحر فيأْتيها الناس في السُّفن ، ولابد لمن ركب البحر أن يصير في إتيان مكة إمَّا راجلاً وإمَّا على ضامر ، فإنَّما ذُكرت حالتا الوصول ، وإسقاط فرض الحج بمجرد [عدم ذِكْر](١) البحر ليس بالكثير ولا بالقويِّ ، فأَما إذا اقترن به عدوٌّ أوخوف أو هولٌ شديد أو مرض يلحق شخصاً مَّا فمالك والشافعي وجمهور الناس على سقوط الوجوب في ذلك ، وأنه ليس بسبيل يُستطاع ، وذكر صاحب كتاب (الاستظهار) في هذا المعنى كلاماً ظاهره أن الوجوب لا يُسقطه شيء من هذه الأعذار .

(١) ما بين العلامتين [. . . .] زيادة للتوضيح وسلامة التعبير .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف (١) .

و «الفَجُّ» : الطريق الواسعة ، و «الْعَمِيقُ» معناه : البعيد ، قال الشاعر :

إِذَا الْخَيْلُ جاءَتْ مِنْ فِجَاجٍ عَمِيقَةٍ يَمُدُّ بها في السَّيْرِ أَشْعَثُ شَاحِبُ (٢)

و «الْمَنَافِعُ» في هذه الآية : التجارة في قول أكثر المتأولين ، ابن عباس رضي الله عنهما وغيره ، وقال أبو جعفر محمد بن علي : أراد الأجر ومنافع الآخرة ، وقال مجاهد بعموم الوجهين .

وقوله تعالى : ﴿ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ ، يصح أن يريد بالاسم ها هنا المُسَمَّى ، بمعنى : ويَذْكُرُوا اللهَ ، على تجوُّز في هذه العبارة ، إلَّا أن يقصد ذكر القلوب ، ويحتمل أن يريد بالاسم التسميات ، وذكر الله تعالى إنما هو بذكر أسمائه ، ثم يذكر القلب السلطان والصفات ، وهذا كله على أن يكون الذِّكْر بمعنى حمده وتقديسه شكراً على نعمته في الرِّزق ، ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام : (إنها أيام أكل وشرب

---

(١) نقل الطبري كلام ابن عطية كله عن «البَحْرِ» إلى أن قال : وهذا ضعيف ، ثم علّق عليه بقوله : «قلت : وأضعف من ضعيف» .

(٢) الفِجَاج : جمع فجٍّ وهو الطريق الواسعة بين جبلين ، والعميق : البعيد ، وأصله البُعْد سفلاً ، يقال : بئر عميقة ، أي بعيدة القَعْر ، وهذا هو موضع الشاهد في البيت ، وتشَعَّثَ شعره : تَلَبَّدَ واغبَرَّ ، والشَّعث والأشْعث : المُغْبَرُّ الرأس ، المُنْتَتَف الشعر ، والشَّاحِبُ : المتغير من هُزالٍ ، أو جوع ، أو سفر ، أو عمل ، ولم يقيده في الصحاح ، بل قال : شحب جسمه إذا تغيَّر ، ولم أقف على قائل هذا البيت فيما بين يديَّ من المراجع .

وذكر الله)(١)، وذهب قوم إلى أن المراد ذكْر اسم الله تعالى على النحر والذبح ، وقالوا : إن في ذكر الأيام دليلاً على أن الذبح في اللَّيل لا يجوز ، وهو مذهب مالك وأصحاب الرأي . وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : الأيام المعلومات هي أيام العشر ويوم النحر وأيام التشريق ، وقال ابن سيرين : هي أيام العشر فقط ، وقالت فرقة : بل أيام التشريق ، ذكره القتيبي ، وقالت فرقة فيها مالك وأصحابه : بل الأيام المعلومات يوم النحر ، ويومان بعده ، وأيام التشريق الثلاثة هي المعدودات . فيكون يوم النحر معلوماً لا معدوداً ، واليومان بعده معلومات ومعدودات والرابع معدود لا معلوم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وحمل هؤلاء على هذا التفصيل أنهم أخذوا «ذكر اسم الله» هنا على الذبح للأضاحي والهَدْي وغيره ، فاليوم الرابع لا يُضَحَّى فيه عند مالك وجماعة ، وأخذوا التَّعجل والتأخر بالنَّفْر في الأيام

---

(١) أخرجه مسلم في الصيام ، وأبو داود في الأضاحي ، والترمذي في الصوم ، والنسائي في الحج ، وابن ماجه في الصيام ، وكذلك الدارمي ، ومالك في الحج في موطئه ، والإمام أحمد ٥ـ٧٥ ، ولفظه فيه عن نبيشة الهذلي ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله عزّ وجلّ) ، وفي رواية أخرى عنه : (وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنَّا كنَّا نهيناكم أن تأكلوا لحومها فوق ثلاث كي تسعكم ، فقد جاء الله بالسَّعة ، فكلوا وادّخروا واتَّجروا ، ألا وإن هذه الأيام أيام أكل وشرب وذكر الله تبارك وتعالى) .

المعدودات ، فتأمل هذا يَبِنْ لك قصدهم ، ويظهر أن تكون المعلومات والمعدودات بمعنى ، أي تلك الأيام الفاضلة كلها ، ويبقى أمر الذبح وأمر الاستعجال لا يتعلق بمعدود ولا بمعلوم ، وتكون فائدة قوله : [مَعْلُومَاتٍ] و [مَعْدُودَاتٍ] التحريض على هذه الأيام وعلى اغتنام فضلها ؛ إذ ليست كغيرها ، فكأنه قال : هي مخصوصات فَلْتُغْتَنَم .

وقوله تعالى : [فَكُلُوا] ندب ، واستحب أهل العلم للرجل أن يأكل من هديه أو ضحيته مع التَّصدُّق(١) بأكثرها ، مع تجويزهم الصدقة بالكل وأكل الكل . و «الْبَائِسِ» : الذي قد مسَّه ضُرُّ الفاقة وبؤسها ، يقال : بأس الرجل يبؤس(٢) ، وقد يستعمل فيمن نزلت به نازلة دهر وإن لم تكن فقراً ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : (لكن البائس سعد بن خولة)(٣) ، والمراد في هذه الآية أهل الحاجة .

---

(١) في بعض النسخ «وأنَّ يتصدق» .

(٢) الذي في اللسان (بأس) هو : «بَؤُسَ الرجلُ يَبْؤُس بأساً إذا كان شديد البأس شجاعاً ، فهو بئيس، أي شجاع ، وبَئِسَ يَبْأَسُ بُؤْساً وبأساً وبَئِيساً إذا افتقر واشتدت حاجته ، فهو بائس ، أي فقير» .

(٣) هذا جزء من حديث أخرجه البخاري في باب الجنائز ومناقب الأنصار والفرائض ، وأخرجه مسلم في الوصية ، وأخرجه مالك في موطئه أيضاً في الوصية ، ولفظه كما في البخاري ، عن سعد بن أبي وقاص ، عن أبيه رضي الله عنه ، قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعودني عام حجة الوداع من وجع اشتد بي ، فقلت : إني قد بلغ بي من الوجع ، وأنا ذو مالٍ ، ولا يرثني إلاَّ ابنة ، أفأتصدق بثُلُثَيْ مالي ؟ قال : لا ، فقلت : بالشطر ؟ فقال : لا ، ثم قال : الثُّلث والثُّلث كبير أو كثير ، إنك إنْ تذَر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالةً يتكفَّفُون الناس ، وإنك لن تنفق نفقةً تبتغي بها وجه الله إلاَّ أُجرتَ بها حتَّى ما تجعل في في امرأتك ، فقلت : يا رسول الله ، أُخلَّف بعد أصحابي ، قال : إنك لن تُخلَّف فتعمل =

قوله عزّ وجلّ :

﴿ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُواْ الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَٰنِ وَاجْتَنِبُواْ قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾

اختلفت القراءة في سكون اللام من قوله تعالى : ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا﴾ وفي تحريك جميع ذلك بالكسر ، وفي تحريك [لِيَقْضُوا] وتسكين الاثنتين ، وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾(١) توجيه جميع ذلك .

و «التَّفَثُ» ما يفعله المُحْرِم عند حلِّه من تقصير شعره وحلقه وإزالة شعث ونحوه من إقامة الخمس من الفطرة حسب الحديث (٢) ،

= عملاً صالحاً إلاّ ازددْت به درجةً ورفعةً ، ثم لعلك تُخلَّف حتى ينتفع بك أقوامٌ ويُضَرّ بك آخرون ، اللّهم أمْضِ لأصحابي هجرتهم ، ولا تردّهم على أعقابهم ، لكن البائس سعد ابن خوله يرثي له رسول الله صلى الله عليه وسلم أن مات بمكة) .

(١) من الآية (١٥) من هذه السورة (الحج) راجع ص (٢٤١) من هذا الجزء .

(٢) حديث خمسٌ من الفطرة أخرجه البخاري في اللباس ، ومسلم ، والنسائي ، وابن ماجه في الطهارة، وأبو داود في الترجُّل ، والترمذي في الأدب ، ومالك في موطئه في صفة =

وفي ضمن ذلك قضاءُ جميع مناسكه إذْ لا يقضي التَّفَثَ إلَّا بعد ذلك. وقرأ عاصم وحده – في رواية أبي بكر – : [وَلْيُوَفُّوا] بفتح الواو وشدِّ الفاءِ ، و (وَفَّى) و (أَوْفى) لغتان مستعملتان في كتاب الله تعالى ، و (أَوْفَى) أكثر(١) . و «النُّذُورُ» ما معهم من هدْي وغيره ، و «الطَّوَافُ» المذكور في هذه الآية هو طواف الإفاضة الذي هو من واجبات الحج ، قال الطبري : لا خلاف بين المتأَولين في ذلك . قال مالك : هو واجب يرجع تاركه من وطنه إلَّا أن يطوف طواف وداعٍ فإنه يجزيه منه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويحتمل بحسب الترتيب أن تكون الإشارة إلى طواف الوداع إذ المستحسن أن يكون ولابد ، وقد أَسند الطبري عن عمرو بن أَبي سلمة قال : سأَلت زهيراً (٢) عن قوله تعالى : ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾

= النبي صلى الله عليه وسلم ، وأحمد في مسنده ٢–٢٢٩ ، ٢٣٩ ، ٢٨٣ ، ٤١٠ ، ولفظه فيه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (خمسٌ من الفطرة : قصُّ الشارب ، وتقليم الأظافر ، ونتف الإبط ، والاستحداد ، والختان) .

(١) مما جاء بوَفَّى قوله تعالى : ﴿وَإِبْرَاهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّى﴾ – ٣٧ النجم ، ﴿وَوَجَدَ ٱللهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ – ٣٩ النور ، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ – ١٧٣النساء ، وممَّا جاء بأَوْفَى قوله تعالى : ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَٱتَّقَى فَإِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ – ٧٦ آل عمران ، وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ ٱللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ – ١٠ الفتح .

(٢) في بعض النسخ : «سألت زيداً» . واخترنا ما يوافق الطبري .

فقال : هو طواف الوداع . وقال مالك في الموطأ : واختلف المتأولون في وجه وصف البيت بالعتيق ـ فقال مجاهد ، والحسن : العَتيق : القديم ، يقال : سيف عتيق ، وقد عَتُق الشيءُ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قول يعضده النظر ؛ إذ هو أول بيت وضع للناس ، إلَّا أن الزبير قال : سُمِّي عتيقاً لأن الله تعالى أعتقه من الجبابرة بمنعه إياه منهم ، وروى في هذا حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا نظر مع الحديث(١) . وقالت فرقة : سُمِّي عتيقاً لأنه لم يُملك موضعه قط ، وقالت فرقة : سُمِّي عتيقاً لأن الله تعالى يعتق فيه رقاب المذنبين من العذاب .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا يردُّه التصريف(٢) . وقيل : سُمِّي عتيقاً لأنه أُعتق من غرق الطوفان ، قاله ابن جبير ، ويحتمل أن تكون [ٱلْعَتِيق] صفة مدح

(١) أخرجه البخاري في تاريخه ، والترمذي وحسَّنه ، وابن جرير ، والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل ، عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه ، ولفظه كما في الدر المنثور : قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنما سُمِّي البيت العتيق لأن الله أعتقه من الجبابرة ، فلم يظهر عليه جبارٌ قط) . قالوا : قصده تُبَّع ليهدمه فأصابه الفالج فأشار الأخيار عليه أن يكف عنه ، وقالوا : له ربٌّ يمنعه ؛ فتركه وكساه ، وهو أول من كساه ، وقصده أبرهة فأصابه ما أصابه من الطير الأبابيل ، أمَّا الحجَّاج فلم يقصد التسلُّط على البيت ، لكن تحصَّن به عبد الله بن الزبير فاحتال لإخراجه ثم بناه .

(٢) قال أبو حيان في البحر : «ولا يردُّه التصريف لأنه فسَّره تفسير معنى ، وأما مِنْ حيث الإعراب فلأن (العتيق) فعيل بمعنى مُفْعِل ، أي مُعْتِق رقاب المذنبين ، ونسب الإعتاق إليه مجازاً إذْ بزيارته والطواف به يحصل الإعتاق» .

تقتضي جودة الشيء ، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : «حَمَلْتُ على فرس عتيق» الحديث(١) ، ونحوه قولهم : «كلام حر» .

وقوله تعالى : [ذَلِكَ] يحتمل أن يكون في موضع رفع بتقدير : فَرْضُكم ذلك ، أو الواجب ذلك ، ويحتمل أن يكون في موضع نصب بتقدير : امتثلوا ذلك ونحو هذا الإضمار ، وأحسن الأشياء مضمراً أحسنها مُظهراً ، ونحو هذه الإشارة البليغة قول زهير :

هَذَا وَلَيْسَ كَمَنْ يَعْيَا بِخُطَّتِهِ وَسْطَ النَّدِيِّ إِذَا مَا نَاطِقٌ نَطَقَا(٢)

و «ٱلْحُرُمَاتُ» المقصودة ها هنا هي أفعال الحج المشار إليها في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ ، ويدخل في ذلك تعظيم المواضع . قاله ابن زيد وغيره ، ووعد على تعظيمها بعد ذلك تحريضاً وتحريصاً . ثم لفظ الآية ـ بعد ذلك ـ يتناول كل حرمة لله تعالى في جميع الشرع . وقوله تعالى : ﴿فَهُوَ خَيْرٌ﴾ ظاهره أنها ليست للتفضيل ، وإنما هي عِدَةٌ بخير ، ويحتمل أن يجعل [خَيْرٌ] للتفضيل على تجوُّز في هذا الموضع .

---

(١) أخرجه مسلم في الهبات ، ومالك في الزكاة ، ولفظه كما في مسلم : حَمَلْتُ على فرس عتيق في سبيل الله ـ أي تصدقت به ـ فأضاعه صاحبه ، فظننت أنه بائعه بِرُخْص ، فسألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال : لا تَبْتَعهُ ، ولا تَعُد في صدقتك ، فإن العائد في صدقته كالمطلب يعود في قيئه) . ومعنى (أضَاعَه) : همله .

(٢) البيت من قصيدة زهير بن أبي سُلْمى التي يمدح بها هرم بن سنان وأباه وإخوته ، والتي بدأها بقوله :

إنَّ الخَليطَ أجَدَّ البَيْنَ فانْفَرَقَا وعُلِّقَ القَلْبُ مِنْ أسْمَاء مَا عَلِقَا

والبيت يصف هرماً بالبلاغة والفصاحة ، وبأنه لا يعيا بخُطَّتِه في النديّ ، أي في مجلس القوم ، وذلك بعد أن وصفه في الأبيات السابقة بالكرم وبالشجاعة . والشاهد فيه الإشارة البليغة بقوله في أوّل البيت : «هذا» .

وقوله تعالى : ﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَامُ ﴾ إشارة إلى ما كانت العرب تفعله من تحريم أشياء برأيها كالبحيرة والسائبة ، فأذهب الله تعالى جميع ذلك وأحلَّ لهم جميع الأنعام إلَّا ما يُتلى عليهم في كتاب الله تبارك وتعالى في غير موضع ، ثم أمرهم باجتناب الرِّجس من الأوثان ، والكلام يحتمل معنيين : أحدهما أن تكون [مِنْ] لبيان الجنس فيقع نهيه عن رجس الأوثان فقط ، وتبقى سائر الأرجاس نَهْيُها في غير هذا الموضع ، والمعنى الثاني أن تكون [مِنْ] لابتداء الغاية ، فكأنه نهاهم عن الرِّجس عامًّا ثم عيَّن لهم مبدأه الذي منه يلحقهم ؛ إذ عبادة الوثن جامعة لكل فساد ورجس ، ويظهر أن الإشارة إلى الذبائح التي كانت للأوثان ، فيكون هذا مما يتلى عليهم . ومن قال : إن [مِنْ] للتبعيض قَلَب معنى الآية وأفسده ، والمروي عن ابن عباس ، وابن جُريج أن الآية نهي عن عبادة الأوثان .

و «الزُّور» عامٌّ في الكذب والكفر ، وذلك أن كلَّ ما عدا الحق فهو كذب وباطل وزور ، وقال ابن مسعود ، وأيمن بن خُرَيْم (١) : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (عدلت شهادة الزُّور بالشِّرك) وتلا هذه الآية (٢) ، و «الزُّورُ» مشتق من الزَّوَر وهو الميل ، ومنه :

---

(١) هو أيْمَن بن خُرَيْم ــ بالمعجمة ثم الرَّاء مصغراً ــ ابن الأخرم ، الأسدي ، أبو عطية الشامي الشاعر ، مختلف في صحبته . وقال العجلي : تابعي ثقة .

(٢) أخرج أحمد ، والترمذي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، عن أيْمَن ابن خُرَيْم قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً فقال: (يَأَيها الناس ، عَدَلَت =

في جانب فلان زَوَرٌ ، ويظهر أَن الإِشارة إِلى زُور أَقوالهم في تحريم وتحليل ما كانوا قد شَرَّعوه في الأَنعام .

و [حُنَفَاءَ] معناه : مستقيمين أَو مائلين إِلى الحق بحسب أَن لفظة «الْحَنَف» من الأَضداد ، تقع على الاستقامة وتقع على الميل . و [حُنَفَاءَ] نصب على الحال . وقال قوم : [حُنَفَاءَ] معناه : حُجَّاجاً .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا تخصيص لا حُجَّة معه .

و ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ﴾ يجوز أَن تكون حالاً أُخرى ، ويجوز أَن تكون صفة لقوله : [حُنَفَاءَ] .

ثم ضرب الله تعالى مثلاً للمشرك بالله سبحانه وتعالى أَظهره به في غاية السقوط ويحتمل الهول والانبتات من النجاة ، بخلاف ما ضرب للمؤمن في قوله تعالى : ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ﴾(١) ،

= شهادة الزُّور إشراكاً بالله — ثلاثاً — ثم قرأ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ . وأخرج عبد الرزاق . والفريابي ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والطبراني . والخرائطي في مكارم الأخلاق . والبيهقي ، عن ابن مسعود قال : شهادة الزُّور تعدل الشرك بالله ، ثم قرأ : ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ . والحديث المشهور في ذلك هو ما رواه البخاري ، ومسلم ، والترمذي . وأحمد . عن أبي بكرة . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا : بلى يا رسول الله . قال : الإشراك بالله . وعقوق الوالدين — وكان مُتَّكِئاً فجلس — فقال : ألا وقول الزور . ألا وشهادة الزُّور . فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت) .

(١) من الآية (٢٥٦) من سورة (البقرة) .

ومثله قول علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه : «إذا حدَّثتكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلئن أَخِرَّ من السماء إلى الأَرض أهون عليّ من أن أكذب عليه» الحديث .

وقرأ نافع وحده : ﴿فَتَخَطَّفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ بفتح الخاء وشد الطاء على حذف تاء التفعل ، وقرأ الباقون : ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ بسكون الخاء وتخفيف الطاء ، وقرأ الحسن – فيما رُوي عنه : [فَتِخِطِّفُهُ] بكسر التاء والخاء وفتح الطاء مشددة ، وقرأ الحسن أيضاً ، وأبو رجاء بفتح التاء وكسر الخاء والطاء وشدها ، وقرأ الأعمش : ﴿مِنَ ٱلسَّمَاءِ تَخْطِفُهُ﴾ بغير فاء وعلى نحو قراءة الجماعة . وعطف المستقبل على الماضي لأنه بتقدير : فهو تَخْطَفُه الطير . وقرأ أبو جعفر : [ٱلرِّيَاحُ] .

و «ٱلسَّحِيقُ» : البعيد ، ومنه قولهم : أَسْحَقَهُ ٱللهُ ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : (فأَقول سُحْقاً سُحْقاً) (١) ، ومنه : «نَخْلَةٌ سحوق» للبعيدة في السماء .

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق والفتن ، ومسلم في الطهارة والفضائل والزهد ، وابن ماجه في الزهد ، ومالك في الزهد ، وأحمد (٢–٣٠٠ ، ٣–٢٨ ، ٥–٣٣٣) . ولفظه فيه عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أتى المقبرة فسلم على أهل المقبرة فقال : (سلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنَّا إن شاء الله بكم لاحقون ، ثم قال : وَدِدْتُ أنَّا قد رأينا إخواننا . قال : فقالوا : يا رسول الله أَلَسْنَا بإخوانك ؟ قال : بل أنتم أصحابي ، وإخواني الذين لم يأتوا بعد ، وأنا فرطهم على الحوض . قالوا : يا رسول الله كيف تعرف من لم يأت من أمَّتك بعد ؟ قال : أرأيت لو أن رجلاً كان له خيل غير محجلة بين ظهراني خيل بهم دهم ألم يكن يعرفها ؟ قالوا : بَلَى . قال : فإنهم يأتون يوم القيامة غُرًّا مُحَجَّلِين من أثر الوضوء ، وأنا فَرَطُهم على الحوض . ثم قال : أَلاَ لَيُذَادَنَّ رجالٌ منكم عن حوضي كما يُزَاد البعير الضال ، أُناديهم : أَلاَ هَلُمَّ ، فيقال : إنهم بدَّلوا بعدك . فأقول : سُحْقاً سُحْقاً) ، وفي رواية البخاري : (فأقول : سُحْقاً سُحْقاً لمن بدَّلَ بعدي) . قال ابن الأثير=

قوله عزّ وجلّ :

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

التقدير في هذا الموضع : الأَمر ذلك . و «ٱلشَّعَائِرُ» جمع شعيرة ، وهو كلُّ شيءٍ لله تعالى فيه أَمْرٌ أَشْعَرَ به وأَعْلَم ، وقالت فرقة : قصد بالشعائر في هذه الآية الهَدْي والأَنعام المشعرة ، ومعنى «تعظيمها» التسمين والاهتبال بأَمرها والمغالات بها ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وجماعة . وعود الضمير في [فَإِنَّهَا] على التعظمة والفَعْلة التي تضمنها الكلام ، وقرئ [ٱلْقُلُوبُ] بالرفع على أَنها فاعلة بالمصدر الذي هو [تَقْوَى] ، ثم اختلف المتأَولون في قوله تعالى : ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ الآية ــ فقال مجاهد وقتادة : أَراد أَن للناس في أَنعامهم منافع من الصوف واللَّبن وغير ذلك ما لم يبعثها ربُّها هدياً ، فإِذا بعثها فهو

= في كتاب (النهاية في غريب الحديث والأثر) : «أنا فَرَطُكم على الحوض . أي: مُتَقَدِّمكم إليه ، يقال : فَرَط يَفْرِط فهو فارطٌ وفَرَطٌ إذا تقدم وسبق القوم ليرتاد لهم الماء ، ويُهَيِّئ لهم الدِّلاء والأرْشية» .

«الْأَجَلُ ٱلْمُسَمَّى» ، وقال عطاءُ بن أبي رباح : أراد : لكم في الهَدْي المبعوث منافع من الركوب والاحتلاب من اضطر ، و «الْأَجلُ الْمُسَمَّى» : نحرها ، وتكون [ثُمَّ] لترتيب الْجُمَل ، لأَن «المَحِلَّ» قبل «الأَجل» ، ومعنى الكلام عند هاتين الفرقتين : ثمَّ مَحِلُّها إلى موضع النحر ، فذكر البيت لأَنه أَشرف الحرم وهو المقصود بالهَدْي وغيره ، وقال ابن زيد ، وابن عمر ، والحسن : تلك الشعائر في هذه الآية مواضع الحج كلها ومَعَالمه بمِنى وعرفة والمزدلفة والصفا والمروة والبيت وغير ذلك ، وفي الآية التي تأْتي أن البُدْن من الشعائر ، و «المَنَافِـعُ» : التجارة وطلب الرِّزق ، ويحتمل أَن يريد كسب الأَجر والمغفرة ، وبكلٍّ احتمال قالت فرقة ، و «ٱلْأَجَلُ» : الرجوع إلى مكة وطواف الإفاضة .

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا﴾ مأْخوذٌ من إحْلَال المُحْرِم معناه ، ثم أَخَّر هذا كله إلى طواف الإفاضة بالبيت العتيق ، فالبيت — على هذا التأْويل — مراد بنفسه ، قاله مالك في «الموطأ» .

ثم أَخبر تعالى أَنه جعل لكل أُمة من الأُمم مَنْسكاً ، أَي موضع نُسُك وعبادة ، على أَن المَنْسَك ظرفٌ كالمذبح ونحو هذا ، ويحتمل أَن يريد المصدر ، كأَنه قال : عبادة ونحوها ، والنَّاسِكُ : العابد ، وقال مجاهد : سُنَّة في إراقة دماءِ الذبائح ، وقرأَ معظم القراء : [مَنْسَكاً] بفتح السين ، وهو من : نَسَك ينْسُك بضم السين في المستقبل ، وقرأَ حمزة والكسائي : [مَنْسِكاً] بكسر السين ، قال أَبو الفتح : «الفتح

أَولى ؛ لأَنه إما المصدر وإما المكان وكلاهما مفتوح ، والكسر في هذا من الشَّاذِّ في اسم المكان أَن يكون (مَفْعِل) من : فَعَلَ يَفْعُلُ ، مثل مَسْجِد ، من : سَجَدَ يَسْجُدُ ، ولا يسوغ فيه القياسُ ، ويشبه أَن الكسائي سمعه من العرب» .

وقوله تعالى : ﴿لِيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللهِ﴾ معناه : أَمرناهم عند ذبائحهم بذكر الله ، وأَن يكون الذبح له لأَنه رازق ذلك ، ثم رجع اللفظ من الخبر عن الأُمم إلى إخبار الحاضرين بما معناه : فالإِلٰه واحد لجميعكم ، فكذلك الأَمر في الذَّبيحة إنما ينبغي أَن تُخلص له ، و [أَسْلِمُوا] معناه : لِحَقِّه ولِوَجْهِه ولإِنْعَامِه آمنوا وأَسْلِموا ، ويحتمل أَن يريد الاستسلام .

ثم أَمر تبارك وتعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم أَن يبشِّر بشارة على الإطلاق ، وهي أَبلغ من المفسَّرة لأَنها مرسلة مع نهاية التخيل ، و [ٱلْمُخْبِتِينَ] : المتواضعين الخاشعين من المؤمنين ، و «الخبت» : ما انخفض من الأَرض ، والمُخْبِتُ : المتواضع الذي مشيه متطامن كأَنه في حدورٍ من الأَرض ، وقال عمرو بن أَوْس (١) :

---

(١) في الأصول : عمرو بن أويس . وفي بعض النسخ : عمرو بن أبي أويس . والتصويب عن تفسير القرطبي . وهو : عمرو بن أَوْس بن أبي أَوْس . الثقفي الطائفي . تابعي كبير ، من الثانية ، قال عنه الحافظ العسقلاني في تقريب التهذيب : «وَهِمَ من ذكره في الصحابة . مات بعد التسعين من الهجرة» .

المُخْبِتُون : الذين لا يَظْلِمُون وإنْ ظُلِمُوا لم ينتصروا .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا مثال شريف من خلق المؤمن الهيِّن اللَّيِّن ، وقال مجاهد : هم المطمئنون بأمر الله تعالى ، ووصفهم تعالى بالخوف والوجل عند ذكر الله ، وتلك لِقُوَّة يقينهم ومراعاتهم لربِّهم وكأنهم بين يديه ، ووصفهم تبارك وتعالى بالصَّبر والصَّلاة وإقامة الصَّلاة وإدامتها ، وقرأ الجمهور : [ٱلصَّلَاةِ] بالخفض ، وقرأ ابن أبي إسحق ، والحسن : [ٱلصَّلَاةَ] بالنصب على توهم النون وأن حذفها للتخفيف ، ورُويت عن أبي عمرو(١) ، وقرأ الأعمش : ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَاةَ﴾ بالنون والنصب في «الصلاة» ، وقرأ الضحاك : ﴿وَٱلْمُقِيم ٱلصَّلَاة﴾ . وروي أن هذه الآية ـ قوله تعالى : ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ ـ نزلت في أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعليٍّ رضي الله تعالى عنهم .

---

(١) شُبِّه ذلك بحذف النون من اللّذَيْن والّذين في قول الأخطل :

أبَنِي كُلَيْبٍ إنَّ عَمَّيَّ اللَّذا قتَلا المُلُوكَ وفَكَّكَا الأغْلالا

وفي قول أشهب بن رُمَيْلَة :

وَإنَّ الَّذي حَانَتْ بِفَلْجٍ دِمَاؤُهُمْ هُمُ القَوْمُ كُلُّ القَوْمِ يا أُمَّ خَالِدِ

قال سيبويه : حذفوا النون منهما حيث طال الكلامُ وكان الاسمُ الأول منتهاه الاسم الآخر .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

«البُدْنُ» : جمع بَدَنَة ، وهي ما أُشعر من ناقة أو بقرة ، قاله عطاءٌ وغيره ، وسميت بذلك لأَنها تَبْدُن ، أَي تَسْمُن ، وقيل : بل هذا الاسم خاص بالإبل ، وقالت فرقة : «البُدْنُ» : جمع بَدَن – بفتح الباءِ والدال – ، ثم اختلفت ، فقال بعضها : البُدْن مفردٌ اسْمُ جنس يُراد به العظيم السمين من الإِبل والبقر ، ويقال للسمين من الرِّجال : بَدُن (١) ، وقال بعضها : البُدْن جمع بَدَنَةٍ كَثَمَرَةٍ وثُمْر ،

---

(١) قال في اللسان : «بَدَنَ الرَّجُل بالفتح يَبْدُن فهو بادِنٌ إذا ضَخُم ، وكذلك بَدُنَ بالضم» وقال : «وبَدَّنَ الرَّجُلُ : أسَنَّ وضعُف ، وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم : (لا تُبَادروني بالرُّكوع ولا بالسُّجود ، فإنه مهما أسبقكم به إذا ركعت تدركوني إذا رفعتُ ، ومهما أسبقكم إذا سجدتُ تدركوني إذا رفعتُ ، إني قد بَدُنْتُ) . هكذا رُوي بالتخفيف . قال الأمويُّ : إنما هو بَدَّنْتُ بالتشديد ، يعني كبِرْتُ وأسْنَنْت ، والتخفيف من البدانة ، وهي كثْرة اللحم» .

وقرأ الجمهور : [وَٱلْبُدْنَ] ساكنة الدال ، وقرأ ابن جعفر ، وشيبة ، والحسن ، وابن أبي إسحق : [وَٱلْبُدُنَ] بضم الدال . فيحتمل أن يكون جمع بَدَنَة كثُمُر ، وعدَّد الله تعالى في هذه الآية نِعمه على الناس في هذه البُدْن ، وقد تقدم القول في الشعائر . و «الْخَيْرُ» قيل فيه ما قيل في «المنافع» التي تقدم ذكرها ، والصواب عمومه في خير الدنيا والآخرة .

وقوله تعالى : [عَلَيْهَا] يريد : عند نحرها .

وقرأ جمهور الناس : [صَوَافَّ] بفتح الفاء وشدها ، جمع صافَّةٍ ، أي : مطيعة في قيامها ، وقرأ الحسن ، ومجاهد ، وزيد بن أسلم ، وأبو موسى الأشعري ، وشقيق ، وسليمان التيمي . والأعرج : [صَوَافِي] جمع صافية ، أي : خالصة لوجه الله تعالى ، لا شركة فيها لشيءٍ كما كانت الجاهلية تشرك ، وقرأ الحسن أيضاً : [صَوَافٍ] بكسر الفاءِ وتنوينها مخففة ، وهي بمعنى التي قبلها لكن حذفت الياءُ تخفيفاً على غير قياس ، وفي هذا نظر ، وقرأ ابن مسعود ، وابن عمر ، وابن عباس ، وأبو جعفر محمد بن علي : [صَوَافِنَ] بالنون جمع صافِنَةٍ ، وهي التي قد رفعت إحدى يديها بالعقل لئلا تضطرب ، والصَّافن من الخيل : الرافع لفراهته إحدى يديه ، وقيل : إحدى رجليه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ٱلصَّافِنَاتُ ٱلْجِيَادُ﴾(١) ، وقال عمرو

(١) من الآية (٣١) من سورة (ص) .

ابن كلثوم :

تَرَكْنَا الْخَيْلَ عَاكِفَةً عَلَيْهِ مُقَلَّدَةً أَعِنَّتَهَا صُفُونَا (١)

و [وَجَبَتْ] معناه : سقطت بعد نحرها ، ومنه : وجبت الشمس ، ومنه قول أَوْس بن حجر :

أَلَمْ تُكْسَفِ الشَّمْسُ وَالْبَدْرُ وَالْـ ـكَوَاكِبُ لِلْجَبَلِ الْوَاجِبِ (٢)

وقوله تعالى : [فَكُلُوا] ندبٌ ، وكل العلماء يستحب أن يأكل الإنسانُ من هديه ، وفيه أجرٌ وامتثال إذ كان أهل الجاهلية لا يأكلون من هديهم ، وقال مجاهد ، وإبراهيم ، والطبري : هي إباحة .

---

(١) البيت من معلقة عمرو بن كلثوم ، وقبله يقول :

وسَيِّدِ مَعْشَرٍ قَدْ تَوَّجُوهُ بتَاجِ الْمُلْكِ يَحْمِي الْمُحْجَرِينَا

فالضمير في قوله : « عَلَيهِ » يعود على « سيِّد المعشر » ، ومعنى « عاكفة عليه » أنها وقفت مقيمة عليه ، والأعِنَّة : جمع عِنَان ، وهو سير اللجام الذي تُمسك به الدابة ، وهو طاقان مستويان ، ومُقَلَّدَة : لابِسَةً أعِنَّتَها ، والصُّفُون : جمع صافِن . وقال الفراءُ : الصَّافِنُ : القائم على ثلاث ، قال الشاعر :

أَلِفَ الصُّفونَ فما يَزَالُ كأنَّهُ مِمَّا يَقُومُ عَلَى الثَّلاثِ كَسِيراً

و « عاكفةً » نصب بِتَرَكْنَا ، ومُقَلَّدة تابعٌ لعاكفة ، وكذلك صفونا .

(٢) هذه هي رواية الديوان ، ويروى البيت : « ألم تكسِفِ الشَّمْسُ ضوءَ النهار » ، والجبل هنا : رجُلٌ عظيم ، قالوا : يريد به فضالة بن كلدة ، والبيت من قصيدة يرثيه بها ، وفيها يصرح باسمه ويقول :

لِيَهْنِكَ فَضَالَةَ لا تَسْتَوِي الْـ ـفُقُودُ وَلا خَلَّةُ الذَّاهِبِ

والواجب : الذي ماتَ ، يقال : وَجَبَ الرجل يجب وجوباً : مات ، يقول : إن الشمس والبدر والكواكب كلها كسفت لموت فضالة والبيت شاهد على أنَّ وَجَبَ بمعنى : سقط على جنبه .

و «الْقَانِعُ» : السائل ، يقال : قَنَع الرجل يَقْنَع قنوعاً إذا سأل ، بفتح النون في الماضي ، وقنِع بكسر النون يَقْنَع قناعة فهو قَنِعٌ إذا تَعَفَّفَ واستغنى بِبُلْغَتِهِ ، قاله الخليل ، ومن الأول قول الشماخ :

لَمَالُ ٱلْمَرْءِ يُصْلِحُهُ فَيُغْنِي مَفَاقِرَه أَعَفُّ مِنَ الْقُنُوعِ (١)

فَمُحَرِّرُوا القول من أهل العلم قالوا : القانع : السائل .

و «ٱلْمُعْتَرُّ» : المعترض من غير سؤالٍ ، قاله محمد بن كعب القرظيُّ ، ومجاهد ، وإبراهيم ، والكلبي ، والحسن بن أبي الحسن ، وعكست فرقة هذا القول ، حكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : القانِع : المستغني بما أعطيته ، والْمُعْتَرُّ هو المعترض ، وحكى عنه أنه قال : القانع : المُتَعَفِّف ، والمُعْتَرُّ : السائل ، وحكى عن مجاهد أنه قال : القَانع : الجارُ وإن كان غنيًّا ، وقرأ أبو رجاءٍ [ٱلْقَنِعَ] ، فعلى هذا التأويل معنى الآية : أطعموا المتعفف الذي لا يأتي معترضاً ، وذهب أبو الفتح ابن جنِّي إلى أنه أراد «القَانِع» فحذف الألف تخفيفاً (٢).

---

(١) البيت في اللسان (قنع) . قال : «فالقانِع : الذي يَسْأل ، والمعْتَرُّ : الذي يتعرض ولا يسأل ، قال الشَّماخُ : لَمَالُ المرءِ ... البيت» ، ثم فسَّر القُنُوعَ بأنه مسألة الناس ، ثم نقل عن ابن السِّكِّيت قوله : «ومن العرب من يجيز القُنُوع بمعنى القناعة ، وكلام العرب الجيِّد هو الأول ، ويُروى (البيت) من الكنوع - بالكاف - والكنوع : التَّقبض والتصاغر» .

(٢) استشهد أبو الفتح على حذف الألف تخفيفاً بقول الشاعر :

أصْبَحَ قَلْبي صَرِدَا لا يَشْتَهِي أنْ يَرِدَا

إلاَّ عَرَادًا عَرِدَا وَصِلِّيَاناً بَرِدَا

يريد : عارداً وبارداً .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا بعيد ؛ لأن توجيهها على ما ذكرته آنفاً أحسن ، وإنما يُلْجَأُ إلى هذا إذا لم توجد مندوحة ، وقرأ أبو رجاءٍ ، وعمرو بن عبيد : [ٱلْمُعْتَرِي] ، والمعنى واحد (١) ، ويروى عن أبي رجاءٍ [وَٱلْمُعْتَرِ] بتخفيف الراءِ ، وقال الشاعر :

لَعَمْرُكَ مَا ٱلْمُعْتَرُّ يَغْشَى بِلادَنَا   لِنَمْنَعَهُ بالضَّائِعِ ٱلْمُتَهَضَّمِ (٢)

وذهب ابن مسعود رضي الله عنه إلى أن الهديَ أَثْلاث ، فقال جعفر ابن محمد عن أبيه : أُطعم القانع والمُعْتَر ثلثاً ، والبائس الفقير ثلثاً ، وأهلي ثلثاً ، وقال ابن المسيَّب : ليس لصاحب الهَدْي منه إلّا الرُّبع .

---

(١) المُعْتَري خفيفة ، قال أبو الفتح : من اعتريت ، يقال : عَرَاهُ يَعْرُوهُ عَرْواً ، واعتراه يعتريه اعتراءً ، فهو مُعْتَرٍ ، قال طرفة :

في جِفَانٍ تَعْتَرِي نَادِيَنَا   وسَدِيفٍ حينَ هاجَ الصِّنَّبِرْ

والسَّديف : شحم السنام ، والصِّنَّبِرْ: أشدُّ البرد ، يريد أنهم يطعمون الطعام وقت الشدَّة » .

(٢) المُعْتَرُّ : الفقير ، أو المُتَعَرِّضُ للمعروف من غير أن يسأل . ويغشى البلادَ : يأتيها ، والضائع : المُهْمَل ، يقال : ضاع الشيءُ يضيع ضيعةً وضَياعاً ــ بالفتح ــ : هَلَكَ ، والمتَهَضَّم : المظلوم المغصوب المقهور، وفي اللسان : « قال أبو عبيد : المُتَهَضَّم والهَضيمُ جميعاً : المظلوم ، والهضيمة : أن يتهَضَّمك القوم شيئاً ، أي يظلموك » .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا كله على جهة الاستحسان لا عَلَى الفرض ، ثم قال تعالى : [كَذَلِكَ] ، أَيْ : كما أمرتكم فيها بهذا كله سخَّرناها لكم ، و [لَعَلَّكُمْ] تَرَجٍّ في حقنا وبالإضافة إلى نظرنا .

وقوله تعالى : [يَنَالَ] عبارة مبالغة وتوكيد ، وهي بمعنى : لن يرتفع عنده ويتحصل سبب ثواب (١) ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : إن أهل الجاهلية كانوا يُضَرِّجُونَ(٢) البيت بالدماء فأراد المؤمنون فعل ذلك فنهى الله تعالى عن ذلك ونزلت هذه الآية ، والمعنى : ولكن ينالُ الرفعةَ عنده والتحصل حسنةً لديه التقوى ، أي الإخلاص وعمل الطاعات . وقرأ مالك بن دينار ، والأعرج ، وابن يَعْمَر ، والزهري : ﴿لَنْ تَنَالَ﴾ ، ﴿وَلَكِنْ تَنَالُهُ﴾ بتاءٍ فيهما .

والتسمية والتكبير على الهَدْي والأُضحية أن يقول الذابح : باسم الله والله أكبر ، ورُوي أن قوله تعالى : ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ نزلت في الخلفاءِ الأربعة رضي الله تعالى عنهم حسبما تقدم في التي قبلها (٣) ، فأمَّا ظاهر اللَّفظة فيقتضي العموم في كل محسن .

---

(١) النيل لا يتعلق بالله تعالى ، ولكنه تعبير مجازي عن القبول عند الله .
(٢) أي : يصبغونه ويلطّخونه ، مبالغة في ضَرَّجَ .
(٣) يريد قوله تعالى : ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ في الآية (٢٤) .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ * إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

روي أن هذه الآية نزلت بسبب المؤمنين ، لمَّا كثروا بمكة وآذاهم الكفار وهاجر من هاجر إلى أرض الحبشة أراد بعض مؤمني مكة أن يقتل من أمكنه من الكفار ويغتال ويغدر ويحتال ، فنزلت هذه الآية إلى قوله تعالى : [كَفُورٍ] ، ووعد فيها بالمدافعة ، ونهى أفصح نَهْي عن الخيانة والغدر . وقرأ نافع ، والحسن ، وأبو جعفر : [يُدَافِعُ] ﴿ وَلَوْلَا دِفَاعُ ﴾ ، وقرأ أبو عمرو ، وابن كثير : [يَدْفَعُ] ، ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ﴾ . وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : [يُدَافِعُ] ، ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ﴾ ، قال أبو علي : أُجريت (دَافَعَ) في هذه القراءة مجري (دَفَعَ) ، كعاقبت اللصَّ وطارقت النعل ، فجاء المصدر دَفْعاً . قال أبو الحسن الأخفش : أكثر الكلام أن الله يدفع ، ويقولون : دافع الله عنك إلَّا أن دَفَع أكثر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

يحسن في الآية [يُدَافِع] لأنه قد عنَّ للمؤمنين من يدفعهم ويؤذيهم فتجيءُ معارضته ودفعه مدافعةً عنهم ، وحكى الزهراوي أن (دفاعاً) مصدر (دَفَعَ) ، كحسبت حساباً.

ثم أذن الله تعالى في قتال المؤمنين لمن قاتلهم من الكفار بقوله : [أُذِنَ](١) ، وصورة الإذن مختلفة بحسب القراءات ، فبعضها أقوى من بعض ، فقرأ نافع ، وحفص عن عاصم : [أُذِنَ] بضم الألف [يُقَاتَلُونَ] بفتح التاء ، أي : في أن يقاتلوهم ، فالإِذْن في هذه القراءة ظاهرٌ أنه في مجازاة ، وقرأ أبو عمرو ، وأبو بكر عن عاصم ، والحسن ، والزهري : [أُذِنَ] بضم الألف [يُقَاتِلُونَ] بكسر التاء ، فالإِذن في هذه القراءة في ابتداء القتال ، وقرأ ابن كثير ، وحمزة ، والكسائي : [أَذِنَ] بفتح الألف [يُقَاتِلُونَ] بكسر التاء ، وقرأ ابن عامر بفتح الألف والتاء جميعاً ، وهي في مصحف ابن مسعود رضي الله عنه : «أَذن لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ في سَبِيلِ اللهِ» بكسر التاء ، وفي مصحف أُبيٍّ «أُذِنَ» بضم الهمزة «لِلَّذِين قَاتَلُوا» ، وكذلك قرأ طلحة والأعمش إلَّا أنهما فتحَا همزة [أُذِنَ] .

(١) روى الترمذي ، والنسائي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : لمَّا أُخرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم ، ليَهْلِكُنَّ ، فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : لقد علمتُ أنه سيكون قتال .

وقوله تعالى : ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ معناه : كان الإذن بسبب أنهم ظُلموا ، قال ابن جريج : وهذه الآية أول ما نقض الموادعة . قال ابن عباس ، وابن جبير : نزلت عند هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : لمَّا سمعتُ علمتُ أنه سيكون قتال ، وقال مجاهد : الآية في مؤمنين بمكة أرادوا الهجرة إلى المدينة فمنعوا .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وما بعد هذه الآية يردُّ هذا القول ؛ لأن هؤلاء مُنعوا الخروج لا أُخرجوا . ثم وعد تعالى بالنصر في قوله سبحانه : ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ يريد كلَّ من نَبَتْ به مكة وآذاه أهلها حتى أخرجوه بإذايتهم ، طائفة إلى الحبشة وطائفة إلى المدينة ، ونسب الإخراج إلى الكفار لأن الكلام في معرض تقرير الذنب وإلزامه (١) . وقوله تعالى : ﴿إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ استثناءٌ منقطع ليس من الأول ، هذا قول سيبويه ، ولا يجوز

(١) أي أن سبب الإخراج يرجع إلى الكفار ، ولذلك قال العلماء : إن في هذه الآية دليلاً على صحة نسبة الفعل الواقع من المُلْجأ المُكْرَه إلى الذي ألْجأه وأكْرَهه ، وهذه الآية مثل قوله تعالى : ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ﴾ .

عنده فيه البدل ، وجوّزه أبو إسحق ، والأول أصوب(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ ﴾ الآية تقويةٌ للأمر بالقتال ، وذكر الحجة بالمصلحة فيه ، وذكر أنه متقدم في الأُمم ، وبه صلحت الشرائع واجتمعت المُتَعَبَّدات(٢) ، فكأنه قال : أُذن في القتال فليقاتل المؤمنون ، ولولا القتال والجهاد لَتُغُلِّب على الحق في كل أُمة . هذا أصوب تأويلات الآية . ثم ما قيل بَعْدُ من مُثُل الدفاع تبع للجهاد . وقال مجاهد : ولولا دفع الله ظلم قوم لشهادة العدول ونحو هذا ، وقالت فرقة : ولولا دفع الله ظلم الظلمة بعدل الولاة ، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : ولولا دفع الله بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم الكفار عن التابعين فمن بعدهم .

---

(١) الاستثناء المنقطع يجعل قوله تعالى : ﴿ أَنْ يَقُولُوا ﴾ في موضع نصب ، لأنه لا يمكن توجيه العامل عليه ، فهو مقدر بِلكن من حيث المعنى ، أما لو كان الاستثناء متصلاً لجازَ في ﴿ أَنْ يَقُولُوا ﴾ أن يكون في موضع النصب أو في موضع الرفع .

وقد أجاز أبو إسحق فيه الجرّ على البدل ، وتبعه في ذلك الزمخشري . فهو عندهما مبدل من قوله تعالى : (حَقٍّ) . والتقدير : بغير موجِبٍ سوى التوحيد الذي ينبغي أن يكون موجب الإقرار والتمكين لا موجب الإخراج والتبشير . ومثله قوله تعالى : ﴿ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إلاّ أَنْ آمَنَّا ﴾ . وقد ناقشهما أبو حيان الأندلسي في ذلك مناقشة مستفيضة ، وقال : إن البدلَ لا يجوز ؛ لأنه لا يكون إلاّ إذا سبقه نفيٌ أو نهيٌ أو استفهامٌ في معنى النفي . أمّا إذا كان الكلام موجباً أو أمراً فلا يجوز البدل . لأن البدل لا يكون إلاّ حيث يتسلّط عليه العامل ، وفي الآية يستحيل أن يتسلّط العامل على البدل إذ يفسد المعنى ، ثم إنّ الزمخشري حين مثّل البدل قدّره : « بغير موجب سوى التوحيد » . وهذا تمثيل للصفة جعل (إلاّ) بمعنى (سوى) ، ويصح على الصفة ، فقد التبس عليه باب الصفة بباب البدل » . راجع البحر المحيط (٦–٣٧٤) ففيه أمثلة وتحليل طويل .

(٢) في بعض النسخ : « واجتمعت المعتقدات » ، وما أثبتناه هو الموافق لما في القرطبي .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا كله فيه دفع قوم بقوم إلَّا أن معنى القتال أليق بما تقدم من الآية . وقالت فرقة : ولولا دفع الله العذاب بدعاء الفُضلاء والأَخيار ونحـــوه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا وما شاكله مفسد لمعنى الآية ، وذلك أن الآية تقتضي ولابُدَّ مدفوعاً من الناس ومدفوعاً عنه ، فتـأَمله .

وقرأ نافع ، وابن كثير : [لَهُدِمَتْ] مخففة الدال ، وقرأ الباقون : [لَهُدِّمَتْ] مشدَّدة الدال .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه تَحْسُن من حيث هي صوامع كثيرة ففي هدمها تكرارٌ وكثرة ، كما قال تعالى : ﴿في بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾[1] فثقَّل الياءَ ، وقال : ﴿قَصْرٍ مَشيد﴾[2] فخفف لكونه فرداً ، ومنه ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَابَ﴾[3]، و ﴿مُفَتَّحَةً لَهُمُ ٱلْأَبْوَابُ﴾[4] .

(١) من الآية (٧٨) من سورة (النساء) .
(٢) من الآية (٤٥) من سورة (الحج) .
(٣) من الآية (٢٣) من سورة (يوسف) .
(٤) من الآية (٥٠) من سورة (ص) .

و «الصَّوْمَعَةُ» : موضع العبادة ، وزنها فَوْعَلَةٌ ، وهي بناءٌ مرتفع منفرد حديد الأعلى ، والصَّوْمَعُ من الرجال : الحديد القلب ، وكانت قبل الإسلام مختصة برهبان النصارى وبعُبَّاد الصابئين ــ قاله قتادة ــ ثم استعمل في مئذنة المسلمين .

و «الْبِيَعُ» : كنائس النصارى ، واحدتها بِيعَة ، وقال الطبري : «وقيل : هي كنائس اليهود» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ثم أدخل عن مجاهد مالا يقتضي ذلك (١) .

و «الصَّلَوَاتُ» مشتركة لكل ملَّة ، واستُعير الهدم للصلوات من حيث تُعَطَّل ، أو أراد : موضع صلوات ، وذهبت فرقة إلى أن «الصَّلَوَات» اسم لكنائس اليهود ، وأن اللَّفظة عبرانية عُرِّبت ، وليست بجمع صلاة . وقال أبو العالية : الصَّلَوات مساجد الصابئين . واختلفت القراءة فيها ــ فقرأ جمهور الناس : [صَلَوَاتٌ] بفتح الصاد واللام وبالتاء بنقطتين ، وذلك إمَّا بتقدير : مواضع صلوات ، وإمَّا على أن تعطيل الصلوات هدمها ، وقرأ جعفر بن محمد : [صَلْوَاتٌ] بفتح الصاد وسكون اللام ، وقرأت فرقة : [صِلْوَاتٌ] بكسر الصاد وسكون اللام ، حكاهما ابن جنِّي ، وقرأ الجحدري ــ فيما روي عنه ــ :

---

(١) فقد نقل عن مجاهد أنه قال : «البيع : الكنائس» ولم ينسبها لأحد .

[وَصُلُوتٌ] بنقطتين من فوق وبضم الصاد واللام ، على وزن فُعُول ، قال : وهي مساجد النصارى ، وقرأ الجحدري ، والحجاج بن يوسف : [وَصُلُوبٌ] بضم الصاد واللام وبالباء ، على أنه جمع صليب ، وقرأ الضحاكُ والكلبي : [وَصُلُوثٌ] بضم الصاد واللام والثاء منقوطة ثلاثاً ، قالوا : وهي مساجد اليهود ، وقرأت فرقة : [صَلْوتٌ] بفتح الصاد وسكون اللام (١) ، وقرأت فرقة : [وَصُلُوَاتٌ] بضم الصاد واللام ، حكاها ابن جنِّي ، وقرأت فرقة : [صُلُوتَى] بضم الصاد واللام وقصر الألف بعد التاء ، وحكى ابن جنِّي أن خارج باب الموصل بيوت تدفن فيها النصارى يقال لها : صَلَوات ، وقرأ عكرمة ، ومجاهد : [صِلْوِتَى] بكسر الصاد وسكون اللام وكسر الواو وقصر الألف بعد التاء (٢) .

---

(١) لم يبين هل هي بألف بعد الواو أو بدون ألف ، واخترنا أن تكون بغير ألف حتى لا تتكرر مع القراءة التي نقلها عن جعفر بن محمد .

(٢) ذكر القرطبي عشر قراءات في (صَلَوَاتٌ) ، وقال : ذكر ابن عطية تسع قراءات ، وذكر من بينها ما لم نجده في الأصول مثل : (صُلْوَاتٌ) بضم الصاد وسكون اللام وبالتاء المثناة بعد الألف . و (صُلُولَى) بلامين على وزن فُعُولَى ، و (صِلْوِثَى) بكسر الصاد والواو وسكون اللام وبالثاء المثلثة والألف المقصورة . وأشار محققه في الهامش إلى أن هذه الأخيرة هي عبارة أبي حيان ، وما في أصول القرطبي يختلف عنها . وفي المحتَسَب لابن جني ضَبَط محققوه قراءة جعفر بن محمد بضم الصاد واللام وفتح الواو وتاء مثناة بعد الألف . وزادوا في ضبط قراءة عكرمة ياءً بعد الواو المكسورة وقبل التاء . وهذا يختلف عما وجدناه في الأصول هنا . والله أعلم بالصواب .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وذهب خصيف إلى أن هذه الأَسماء قصدها تقسيم متعبدات الأُمم ، فالصوامع للرهبان .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقيل : للصابئين ، والبِيعُ للنصارى ، والصَّلَوات لليهود ، والمساجد للمسلمين .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والأَظهر أنه قُصد بها المبالغة في ذكر المتعبدات . وهذه الأَسماءُ تشترك الأُمم في مُسَمَّياتها إلَّا البِيعَة فإنها مختصة بالنصارى في عرف لغة العرب ، ومعاني هذه الأَسماءِ هي في الأُمم التي لهم كتاب على قديم الدهر ، ولم يذكر في هذه الآية المجوس ولا أَهل الشِّرك لأَن هؤلاءِ ليس لهم ما تجب حمايته ، ولا يوجد ذكر الله تعالى إلَّا عند أهل الشرائع .

وقوله تعالى : ﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللهِ كَثِيراً﴾ الضمير عائد على ما تقدَّم . ثم وعد الله تبارك وتعالى بنصره ونصر دينه وشرعه ، وذلك حضٌّ على القتال والجدِّ فيه ، ثم الآية تَعُمُّ كلَّ من نصر حقًّا إلى يوم القيامة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٖ ﴿٤٣﴾ وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰۖ فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ ﴾

قالت فرقة : هذه الآية في الخلفاءِ الأَربعة رضي الله عنهم .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ومعنى هذا التخصيص أَن هؤلاءِ خاصة مُكِّنُوا في الأَرض من جملة الذين يُقَاتَلُونَ المذكورين في صدر الآية ، والعموم في هذا كله أَبْيَن ، ويتَّجه الأَمر في جميع الناس ، وإنما الآية آخذةٌ عهداً على كل من مكَّنه الله تعالى ، كلٌ على قدر ما مُكِّن . فأَمَّا الصلاة والزكاة فكلٌّ مأْخوذ بإقامتها ، وأَمَّا الأَمر بالمعروف والنهي عن المنكر فكلٌّ بحسب قوته ، والآية أَمكن ما هي في الملوك ، والمعروف والمنكر يعُمَّان الإِيمان والكفر فما دونهما .

وقالت فرقة : نزلت هذه الآية في أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم خاصةً من الناس ، وهذا على أن [ٱلَّذِينَ] بدل من قوله تبارك وتعالى : [يُقَاتَلُونَ] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

أو على أن [ٱلَّذِينَ] تابع لـ [مَنْ] في قوله تعالى : ﴿مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ . وقولُه تعالى : ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ توعُّدٌ للمخالف عن هذه الأوامر التي تقتضيها الآية لمن مُكِّن .

قوله تعالى : ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ﴾ يعني قريشاً ، وهذه آية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ووعيد لقريش ، وذلك أنه مثَّلهم بالأُمم المكذِّبة المعذَّبة . وأسند فعلاً فيه علامة التأْنيث إلى [قَوْمُ] من حيث أراد الأُمة والقبيلة ليطَّرد القول في عادٍ وثمود ، وقومُ نوح هم أول أُمة كذَّبت نبيَّها ، ثم أسند التكذيب في موسى عليه السلام إلى ما لم يُسَمَّ فاعله من حيث لم يكذبه قومه بل كذبه القبط وقومه مؤمنون به . و [أَمْلَيْتُ] معناه : أمهلت ، وكأَن الإملاءَ أَن تُمهل من تنوي فيه المعاقبة وأَنت في حيِّز إمهالك عالمٌ بفعله . و «النَّكِيرُ» مصدر كالغدير بمعنى الإنكار والإعذار ، وهو في هذه المصادر بناءُ مبالغة ، فمعنى هذه الآية : فكما فعلتُ بهذه الأُمم كذلك أفعل بقومك .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ ﴾

[كَأَيِّنْ] هي كاف التشبيه دخلت على «أي» : قاله سيبويه ، وقد أوعبت القول في معنى هذه اللَّفظة وقراءَتها في سورة آل عمران ، في قوله تعالى : ﴿ وكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ ﴾(١) . وهي لفظة إخبار ، وقد تجيءُ استفهاماً ، حكى الفراءُ : كأيِّن مالُك ؟ أي : كمْ مالُك ؟ وقرأت فرقة : [أَهْلَكْنَاهَا] . وقرأت فرقة : [أَهْلَكْتُهَا] بالإفراد ، والمراد أهل القرية ، و [ظَالِمَةٌ] معناه : بالكفر ، و [خَاوِيَةٌ] معناه :

(١) من الآية (١٤٦) من سورة (آل عمران) ، راجع ج ٣ ص ٣٥٢ وما بعدها . وكثير من اللغويين يرون أن (كأين) غير مركبة . بل هي بسيطة وهي كلمة وضعتها العرب للإخبار بعدد كثير نحو : (كم) . ولا دليل على أنها مركبة ، والدليل على أنها بسيطة إثبات نونها في الخط لأن الأصل في نون التنوين عدم اثباتها . وأن العرب يتلاعبون بها . إذ فيها خمس لغات ، وأبو حيان الأندلسي يميل إلى هذا الرأي .

خالية ، ومنه : خوى النجم إذا خلا من القوة ، ونحوه «ساقطةٌ على عروشها » ، و « الْعُرُوشُ » : السُّقوف ، فالمعنى أن السُّقوف سقطت ثم **وقعت** الحيطان عليها فهي على العروش .

وقوله تعالى : ﴿ وبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ ﴾ ، قيل : هو معطوف على « العروش » ، وقيل : على « القرية » ، وهو أَصوب (١) . وقرأت فرقة : [وَبِئْرٍ] بهمزة على الياءِ ، وسهَّلها الجمهور ، وقرأت فرقة : [مَعْطَلَةٍ] بفتح الميم وسكون العين وفتح الطاءِ وتخفيفها . والجمهور على [مُعَطَّلَةٍ] بضم الميم وفتح العين وشد الطاءِ . و « الْمَشِيدُ » : المبني بالشِّيدِ وهو الجِصُّ ، وقيل : الْمَشِيدُ : المُعَلَّى بالآجُرِّ ونحوه فمن الْمَشيد قول عديٍّ بن زيد :

شَادَهُ مَرْمَراً وجَلَّلَهُ كِلْـ ـساً فلِلطَّيْرِ في ذُرَاهُ وُكُورُ (٢)

---

(١) قال الفراءُ في (معاني القرآن) : « البئر والقصر يخفضان على العطف على « العروش » . وإذا نظرت في معناها وجدتها ليست تحسُن فيها (علَى) ؛ لأن العروش أعالي البيوت ، والبئر في الأرض وكذلك القصر ، لأن القرية لم تخو على القصر ، ولكنه أتبع بعضه بعضاً » ، وهذا يوضح سبب الضعف في العطف على « العروش » ، ولهذا قال أبو حيان الأندلسي في (البحر المحيط) : « وجَعْل ﴿ وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وقَصْرٍ مَشِيدٍ ﴾ معطوفين على [عُرُوشِهَا] جهلٌ بالفصاحة » . ومع هذا فقد عاد الفراءُ في نهاية كلامه إلى تفضيل العطف على العروش قائلاً : « إنَّهُ أحَبُّ إليَّ » .

(٢) البيت من قصيدة نظمها عديٌّ بن زيد وهو في السجن ، وتحدث فيها عن صروف الدّهر وعِبَرِ الأيّام ، وأورد أسماء الملوك والأباطرة والأكاسرة الذين أدركوا غاية الثراء والأُبَّهَة والسُّلطة ، ثم تركوا كل ذلك مخلفين قصورهم المرمريَّة كشاهد على هزيمة الإنسان أمام الزّمن ، وهو في هذا البيت يصل الحديث عن قصر يُسمَّى (الحَضْر) بناه الضَّيْزَنُ ابن معاوية القضاعي فيقول: إنه قد شيَّد هذا القصر بالمرمر ، وجَلَّله بالكِلْس فارتفع وشمخ =

شادَهُ : بناه بِالشِّيد ، والأَظهر في البيت أَنه أَراد : علاه بالمرمر ، وقالت فرقة في هذه الآية : إن «مَشِيداً» معناه : مُعلَّى مُحصَّناً ، ومعنى الآية يقتضي أَنه كان كذلك قبل خرابه .

ثم وبَّخهم على الغفلة وترك الاعتبار بقوله تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ، أَي : في البلاد فينظروا في أَحوال الأُمم المكذِّبة المعذَّبة ، وهذه الآية تقتضي أَن العقل في القلب ، وذلك هو الحق ، ولا ينكر أَن للدماغ اتصالاً بالقلب يوجب فساد العقل إذا اختل الدماغ . وقوله تعالى : [فَتَكُونَ] نصب بالفاءِ في جواب الاستفهام ، صُرف الفعل من الجزم إلى النصب .

وقوله تعالى : ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَارُ﴾ لفظة مبالغة كأَنه قال : ليس العمى عمى الأَبصار وإنما العمى حق العمى عمى القلب ، ومعلوم أَن الأَبصار تَعْمَى ولكن المقصود ما ذكرناه ، وهكذا قوله عليه الصلاة والسلام : (ليس الشديد بالصُّرَعة) (١) ، و (ليس المسكين

= حتى أوت الطُّيور إلى أعاليه تبني أعشاشها . والكِلْسُ هو الجير ، والذُّرَى : جمع ذِرْوَة وهي أعلى الشيء ، والذَّرى — بالفتح — الكِنُّ وما سترك وكَنَّك من حائط أو شجر . والبيت في اللسان شاهداً على أن المَشيد هو المبني بالشِّيدِ . وفي اللِّسان أيضاً مناقشة طويلة بين اللغويين في الفرق بين (مَشِيد) و (مُشَيَّدَة) . هذا والشِّيدِ : كل شيء طليت به الحائط من بلاط أو جص .

(١) أخرجه البخاري ، ومسلم ، وأحمد ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، ورمز له الإمام السيوطي في الجامع الصغير بأنه حديث صحيح ، ولفظه كما ذكره : (ليس الشَّديد بالصُّرَعَة ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب) . ولفظه في (النهاية) لابن الأثير : (ما تعُدُّون الصُّرَعة فيكم ؟ قالوا : الذي لا يصرعه الرجال ، قال : هو الذي يملك نفسه عند الغضب) ، ثم فسَّر الصُّرَعة بقوله : المبالغ في الصراع الذي لا يُغْلَب .

بهذا الطَّوَّاف)(١)، والضمير في [فَإِنَّهَا] للقصة ونحوها من التقدير . وقوله تعالى : ﴿ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ مبالغة، كقوله تعالى : ﴿بِأَفْوَاهِكُمْ﴾(٢)، وكما تقول : نظرتُ إليه بعيني ، ونحو هذا .

والضمير في [وَيَسْتَعْجِلُونَكَ] لقريش ، وقوله : ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُ﴾ وعيدٌ وإخبارٌ بأَن كلَّ شيءٍ إلى وقت محدود ، والوعد هنا مقيد بالعذاب فلذلك ورد في مكروه .

وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ﴾ ، قالت فرقة : وإن يوماً من أيام عذاب الله تعالى كألف سنة مِمَّا تَعُدُّون من هذه لِطُول العذاب وبؤسه ، فكأَن المعنى : فما أجهل من يستعجل هذا ،وقالت فرقة : وإنَّ يوماً عند الله لإحاطته به وعلمه وإنفاذ قدرته كألف سنة عندكم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فهذا التأويل يقتضي أن عشرة آلاف سنة إلى مالا نهاية من العدد في حكم الألف ، ولكنهم قالوا : ذكر الأَلْف لأَنها منتهى العدد دون تكرار فاقتصر عليه .

---

(١) أخرجه البخاري ، ومسلم ، وأحمد في مسنده ، وأبو داود ، والنسائي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، ولفظه كما ذكره في الجامع الصغير (ليس المسكين الذي يطوف على الناس فتَردُّه اللُّقمة واللُّقمتان والتَّمرة والتَّمرتان ، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ، ولا يُفْطَن له فَيُتَصدَّق عليه ، ولا يقوم فيسأل الناس) ، وقد رمز له الإمام السيوطي في الجامع الصغير بالصحة .

(٢) من قوله تعالى في الآية (١٥) من سورة (النور) : ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ ، ومن قوله تعالى في الآية (٤) من سورة (الأحزاب) : ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا التأويل لا يناسب الآية(١). وقالت فرقة : إن المعنى أن اليوم عند الله تعالى ألْف سنة من هذا العد ، فمن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : (إنِّي لأَرجو أن تؤخر أُمتي نصف يوم)(٢)، وقوله : (يدخل فقراءُ المسلمين الجنة قبل الأَغنياءِ بنصف يوم ، وذلك خمسمائة سنة)(٣) ، ومنه قول ابن عباس رضي الله عنهما : «مقدار الحساب يوم القيامة ألف سنة» ، فكأَن المعنى : وإن طال الإمهال فإنه في بعض يوم من أيام الله .

وكرر قوله تعالى : [وَكَأَيِّن] لأَنه جلب معنى آخر ، ذكر أولاً القُرى المُهلكة دون إملاءٍ بل بعقب التكذيب ، ثم ثَنَّى بالمهلة

(١) اختلف المفسرون في التشبيه الوارد في قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ﴾ ، فقيل : إن التشبيه في الطول ، وهو الذي ذكره ابن عطية أولاً ، وسبب الطول في هذا اليوم هو ما فيه من شدة وعذاب ؛ لأن أيام المحنة يراها الإنسان طويلة ممتدة لا تنتهي . وقيل : إن التشبيه وقع بالنسبة لعلم الله تعالى وقدرته وإنفاذه ما يريد ، وهذا هو القول الثاني في كلام ابن عطية ، وعلّق عليه بأنه لا يناسب الآية ، أي لا يناسب موردها ولا الغاية منها، وقيل: إن التشبيه في العدد، وهذا ما ذكره ابن عطية ثالثاً، واستشهد عليه بحديثين شريفين.

(٢) أخرجه أبو داود في الملاحم .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم عن صفوان بن سليم ، ولفظه كما في الدر المنثور أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (فقراءُ المسلمين يدخلون الجنة قبل الأغنياءِ من المسلمين بنصف يوم ، قيل : وما نصف اليوم ؟ قال : خمسمائة عام ، وتلا ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ ، وأخرجه ابن جرير ، وابن مردويه من طريق ضمير بن نهار عن أبي هريرة ، وأخرجه أحمد في الزهد عن ضمير بن نهار عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم . (الدر المنثور) ، والذي في ابن جرير الطبري : عن (سُمَيْر بن نهار) بدلاً من (ضُمَيْر ابن نهار) .

لِئَلَّا يفرح هؤلاءِ بتأخر العذاب عنهم . وقرأت فرقة : [تَعُدُّونَ] بالتَّاءِ ، وقرأت فرقة : [يَعُدُّونَ] بالياءِ على الغائب .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْاْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ ﴾

المعنى : قل يا محمد : إنما أنا نذير عذاب الله ، ليس إليَّ أن أُعجِّل عذاباً ولا أن أُؤخِّره عن وقته (١) ، ثم قسَّم حالة المؤمنين فَمَا

(١) وهذا كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ﴾ ، وقوله : ﴿ [illegible] أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ ﴾ ، وقوله : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ ، والآيات بهذا المعنى كثيرة جداً .

والكافرين بأَن للمؤمنين سُتْرَةُ ذنوبهم ورِزْقُه إيَّاهم في الجنة ، و «الكريم» صفة نفي المذام ، كما تقول : ثوب كريم ، وبأَن للكافرين المعاجزين عذاب الجحيم ، وهذا كلُّه مِمَّا أُمر أَن يقوله ، أَى : هذا معنى رسالتي لا ما تتمنَّوْن أَنتم

وقوله تعالى : [سَعَوْا] معناه : تحيَّلوا وكادوا ، من السِّعاية ، و «الآيات» : آيات القرآن ، أَيْ : كادوا بالتكذيب وسائر أَقوالهم . وقرأَت فرقة : [مُعَاجِزِينَ] ، معناه : مغالبين ، كأَنهم طلبوا عجز صاحب الآيات ، والآيات تقتضي تعجيزهم ، فصارت مُفاعلة . وعبَّر بعض الناس في تفسير [مُعَاجِزِينَ] بِظانِّين أَنهم يغلبون الله تعالى .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا تفسير خارج عن اللَّفظة . وقرأَت فرقة : [مُعَجِّزِينَ] بغير أَلف وبشد الجيم ، ومعناه : معجِّزين الناس عن الإِيمان ، أَي جاعلوهم بالتثبيط عجزة عن الإِيمان . وقال أَبو علي : [مُعَجِّزِين] معناه : ناسبين أَصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى العجز ، كما تقول : فَسَّقتُ فلاناً وزَيَّنْتُه ، أَي نَسَبْته إلى ذلك .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم عن النازلة التي أَلقى الشيطان فيها في أُمنية النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

و [تَمَنَّي] معناه المشهور : أَراد وأَحبَّ ، وقالت فرقة : هو معناها في الآية ، والمراد أَن الشيطان أَلقى أَلفاظه بسبب ما تَمَنَّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم من مقاربة قومه وكونهم متبعين له ، قالوا : فلما تمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك ما لم يَقْضِهِ الله تبارك وتعالى وجد الشيطان السبيل ، فحين قرأَ رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة النجم في مسجد مكة وقد حضر المسلمون والمشركون بلغ إلى قوله : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ ٱللَّاتَ وَٱلْعُزَّى وَمَنَاةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَى﴾ (١) أَلقى الشيطان «تلك الغرانقة العُلَى وإِنَّ شفاعتهن لَتُرْتَجى» ، فقال الكفار : هذا محمد يذكر آلهتنا بما نريد ، وفرحوا بذلك ، فلما انتهى إلى السجدة (٢) سجد الناسُ أَجمعون إِلَّا أُمية بن خلف ، فإِنه أَخذ قبضة من تراب فرفعها إلى جبهته وقال : يكفيني هذا ، قال البخاري : هو أُمية بن خلف ، وقال بعض الناس : هو الوليد بن المغيرة ، وقال بعض الناس : هو أَبو أُحَيْحَة سعيد بن العاصي ، ثم اتصل بمهاجرة الحبشة أَن أَهل مكة اتبعوا محمدًا صلى الله عليه وسلم ففرحوا لذلك ، وأَقبل بعضهم فوجدوا أُلْقِيَة الشيطان قد نُسخت وأَهل مكة قد افتُتنوا (٣).

---

(١) الآيتان (١٩ ، ٢٠) من سورة (النجم).

(٢) في قوله تعالى في الآية الأخيرة من السورة ورقمها (٦٢) : ﴿فَاسْجُدُوا لله وَاعْبُدُوا﴾

(٣) قال ابن كثير في تفسير هذه الآية : «ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغَرَانيق ، ولكنها من طُرق كلها مرسلة ، ولم أرها مُسْندةً من وجه صحيح ، والله أعلم» ، ثم ذكر أهم الروايات ، وبيَّن أنها مُرْسَلَة ، وقال أبو بكر البزار : «وهذا الحديث لا نعلمه يُروى =

وقالت فرقة : [تَمَنَّى] معناه : تَلَا ، والأُمنية : التِّلاوة ، ومنه قول الشاعر :

تَمَنَّى كِتَابَ اللهِ أَوَّلَ لَيْلَةٍ وَآخِرَهَا لَاقَى حِمَام ٱلْمَقَادِرِ(١)

ومنه قول الآخر :

. . . . تَمَنِّيَ داودَ الزَّبُور عَلَى رِسْلِ (٢)

وتأوَّلوا قوله تعالى : ﴿إِلَّا أَمَانِيَّ﴾(٣) ، أي : إلَّا تلاوة . وقالت هذه

= عن النبي صلى الله عليه وسلم بإسناد متصل يجوز ذكره . إلاَّ ما رواه شُعبة ، عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فيما أحسب . والشك في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان بمكة . ولم يسنده عن شُعبة إلاَّ أُمية بن خالد ، وغيره يرسله عن سعيد بن جبير ، وإنَّما يُعرف عن الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس » ، ويُتَمِّم هذا الكلام أن نوضح الآتي : أن طريق أبي بشر عن سعيد بن جبير هو الوحيد الذي يجوز ذكره عند أهل السَّند ، ومع ذلك وقع الشَّك في وصله . ولم يروِ هذا الخبر عن سعيد بن جبير إلاَّ أُمية بن خالد ، وهو وإن كان ثقة فقد شَكَّكَ في وصلها . وقد قال البزَّار : « إنما يُروى من طريق الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس . والكلبي متروك » .

وقال القاضي عياض في كتاب الشفا : « هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ، ولا رواه بسند سليم متصل ثقة ، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب ، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم » . ونلحظ أن ابن عطية لم يذكر الخبر على أنه حديث ، وإنما اكتفى بقوله : « قالوا : فلما تمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ... » بالإضافة إلى ما سنذكره بعد ذلك من تعليق . وقال القرطبي : « الأحاديث المروية في نزول هذه الآية ، ليس منها شيءٌ يصح » .

(١) البيت في اللسان ، والتاج ، ومجاز القرآن ، وهو لحسَّان بن ثابت في عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه ، ومعنى [تَمَنَّى] : (قرأ وتلا) ، والحِمَام : قضاءُ الموت وقدره .

(٢) هذا عجز بيت ذكر أيضاً للاستشهاد به على أن (تمنَّى) تأتي بمعنى (قرأ وتلا) ، وهو في اللسان ، والتاج ، ومجاز القرآن ، والبيت بتمامه :

تَمَنَّى كتابَ اللهِ آخِرَ لَيْلِهِ تَمَنِّيَ داوُدَ الزَّبُورَ عَلَى رِسْلِ

و (عَلَى رِسْلِ) : على تُؤَدَة ورفق ودون تعَجُّل .

(٣) من قوله تعالى في الآية (٧٨) من سورة (البقرة) : ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَابَ إلاَّ أَمَانِيَّ﴾ .

الفرقة في معنى سبب إلقاءِ الشيطان في تلاوة النبيِّ صلى الله عليه وسلم ما تقدم آنفاً من ذكر الآلهة .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا الحديث الذي فيه هذه الغرانقة وقع في كتب التفسير ونحوها ، ولم يدخله البخاري ولا مسلم ، ولا ذكره – في علمي – مصنف مشهور(١) ، بل يقتضي مذهب أَهل الحديث أَنَّ الشيطان أَلْقَى ، ولا يُعَيِّنون هذا السبب ولا غيره ، ولا خلاف أَن إلقاءَ الشيطان إنما هو لأَلفاظ مسموعة بها وقعت الفتنة ، ثم اختلف الناس في صورة هذا الإلقاءِ – فالذي في التفاسير – وهو مشهور القول – أَن النبيَّ صلى الله عليه وسلم تكلم بتلك الأَلفاظ ، وأَن الشيطان أَوهمه ووسوس في قلبه حتى خرجت تلك الأَلفاظ على لسانه ، ورُوي أَنه نزل إليه جبريل عليه السلام بعد ذلك فدارسه سورة النجم ، فلما قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له جبريل : لم آتِك بهذا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : افتريت على الله وقلت ما لم يقل لي ، وجعل يتفجَّعويغْتَمُّ ، فنزلت هذه الآية ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُول ﴾ الآية.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وحدثني أَبي رحمه الله أَنه لقي بالمشرق من شيوخ العلماءِ والمتكلمين من قال : هذا لا يجوز على النبي صلى الله عليه وسلم وهو المعصوم

(١) يتفق هذا مع ما ذكره ابن كثير في تفسيره ، وما نقلناه عن القاضي عياض . وأبو بكر البزار ، والقرطبي وهو كلام المحققين .

في التبليغ ، وإنما الأَمر أَن الشيطان نطق بلفظ أَسمعه الكفار عند قول النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ ٱللَّاتَ وَٱلْعُزَّىٰ ، وَمَنَاةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾(١) ، وقرَّب صوته من صوت النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى التبس الأَمر على المشركين وقالوا : محمد قرأَها (٢) .

---

(١) الآيتان (١٩ ، ٢٠) من سورة (النجم) .

(٢) بهذا التأويل أخذ كثير من العلماء ، ومنهم القرطبي الذي نقل عن القاضي عياض قوله : «والذي يظهر ويترجَّح في تأويله — على تسليمه — أن النبي صلى الله عليه وسلم كان كما أمره ربُّه يرتِّل القرآن ترتيلاً ، ويفصل الآي تفصيلاً في قراءته ، كما رواه الثقات عنه ، فيمكن ترصد الشيطان لتلك السكنات ودسُّه فيها ما اختلقه من تلك الكلمات محاكياً نغمة النبي صلى الله عليه وسلم ، بحيث يسمعه من دنا إليه من الكفار . فظنوها من قول النبي صلى الله عليه وسلم وأشاعوها ، ولم يقدح ذلك عند المسلمين لحفظ السورة قبل ذلك على ما أنزلها الله ، وتحققهم من حال النبي صلى الله عليه وسلم في ذم الأوثان وعيبها ما عُرِف عنه ، فيكون ما رُوي من حزن النبي صلى الله عليه وسلم لهذه الإشاعة والشبهة وسبب هذه الفتنة ، وقد قال الله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ . » اهـ . وكلام القاضي عياض واضح في أن هذا الإلقاء كان من الشيطان للكافرين ، ولم يكن للمسلمين ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لمَّا عَرَفَ حزن وتألَّم ، ولكن الله آنسه بالآية الكريمة . ويلتقي مع هذا التأويل ما قاله سليمان بن حرب من أن [في] في الآية بمعنى (عند) ، أي : أَلْقَى الشيطان عند أمنيَّة النبي صلى الله عليه وسلم ، أي عند تلاوته ، وهذا كقوله تبارك وتعالى : ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ ، أي : ولبثت عندنا . وقال القاضي أبو بكر العربي : «وهذه الآية نَصٌّ في براءة النبي صلى الله عليه وسلم مما ينسب إليه أنه قاله ، وذلك أن الله تعالى يقول : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى ٱلشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ أي : في تلاوته . فأخبر الله تعالى أن من سنَّته في رسله وسيرته في أنبيائه إذا قالوا عن الله تعالى قولاً زاد الشيطان فيه من قِبَل نفسه كما يفعل سائر المعاصي . فهذا نصٌّ في الشيطان أنه زاد في الذي قاله النبي صلى الله عليه وسلم ، لا أن النبي صلى الله عليه وسلم تكلم به .

وقال الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن حسين البيهقي : «هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ، وإن رواتها مطعون عليهم ، وليس في الصحاح ولا في التصانيف الحديثية شيء مما ذكروه ، =

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

و [تَمَنَّى] — على هذا التأْويل — بمعنى : (تَلَا) ولابُدَّ ، وقد ورد هذا التأْويل عن الإمام أَبي المعالي رحمه الله وغيره .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والرَّسول أَخص من النبي ، وكثير من الأَنبياء لم يُرْسلوا ، وكل رسول نبي ، و «النَّسْخُ» في هذه الآية : الإذهابُ ، كما تقول : نسخت الشمسُ الظِّلَّ ، وليس برفع ما استقر من الحكم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وطوَّف الطبري وأشبع الإسناد في أَن إلقاءَ الشيطان كان على لسان النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، واختلفت الروايات في الأَلفاظ ففي بعضها : «تلك الغرانقة» ، وفي بعضها : «تلك الغرانيق» وفي بعضها : «وإن شفاعتهم» ، وفي بعضها : «وإن شفاعتهن» ، وفي بعضها : «منها الشفاعة تُرْتَجى» .

= فوجب إطراحه . والعجب ممن نقل هذا وهم يتلون في كتاب الله تعالى : ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَى . مَا ضَلَّ صَاحِبُكُم وَمَا غَوَى . وَمَا يَنْطِقُ عَنِ ٱلْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ . وقال تبارك وتعالى : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلأَقَاوِيلِ﴾ الآية ، وقال : ﴿وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾ ، فالتثبيت واقع ، والمقاربة منفيَّة ، وقال : ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ وقال : ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسَى﴾ ، وقال آمراً نبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ ، وهذه نصوص تشهد بعصمته صلى الله عليه وسلم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والغَرَانيق : السَّادة العظام الأَقدار ، ومنه قول الشاعر :

أَهْلًا بصَائِدَةِ ٱلْغُرَانِق (١)

قوله تعالى : ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَانُ﴾ الآية . اللام في قوله تعالى : [لِيَجْعَلَ] متعلِّقة بقوله : ﴿فَيَنْسَخُ ٱللَّهُ﴾(٢) ، و «الفتنة» : الامتحان والاختبار ، و «الَّذِينَ في قُلُوبهم مَرَض» هم عامة الكفار ، و «الْقَاسِيَةُ قُلُوبُهم» خواص منهم عُتاة كأَبي جهل ، والنَّضْر ، وعُقْبة . و «الشِّقاقُ» : البعد عن الخير ، والضلالُ ، والكونُ في شق غير شق الصلاح ، و [بَعِيد] معناه أَنه انتهى بهم وتعمق فَرَجْعَتُهم منه غير مرجوة .

و ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ﴾ هم أَصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، والضمير في [أَنَّهُ] عائد على القرآن ، و [فَتُخْبِتَ] معناه : تتطامن وتخضع ، وهو مأْخوذ من الخَبْت ، وهو المطمئن من الأَرض . وقرأَت فرقة : [لَهَادِ] بغير ياءٍ بعد الدال ، وقرأَت فرقة : [لَهَادِي] بياءٍ ،

(١) جاء في اللسان (غرنق) : «الغُرْنُوق والغِرْنُوقُ والغِرْناقُ والغُرَانِقُ ، كلُّه : الأبيض الشاب الناعم الجميل . وفي حديث عليٍّ رضي الله تعالى عنه : فكأَنّي أنظر إلى غُرْنُوق من قريش يتشحّط في دمه . أي شابٍّ ناعم ، وامرأة غُرَانِقَة وغُرَانِق : شابة ممتلئة» . وفيه أن الغرانيق طيرٌ مثل الكراكي . واحدها : غِرْنَوْقٌ وغِرْنَيْق ، سمّي به لبياضه .

(٢) وقال الحوفي : متعلقة بـ [يُحْكِمُ] ، وقيل : متعلقة بـ [أَلْقَى] ، وقال أبو حيان الأندلسي : الظاهر أنها للتعليل ، وقيل : هي لام العاقبة .

وقرأت فرقة : [لَهَادٍ] بالتنوين وترك الإضافة ، وهذه الآية معادلةٌ لقوله تعالى قبل : ﴿وَإِنَّ ٱلظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ * ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ ﴾

«المِرْيَةُ» : الشَّك ، والضمير في قوله تعالى : [مِنْهُ] قالت فرقة : هو عائد على القرآن ، وقالت فرقة : على محمد صلى الله عليه وسلم ، وقالت فرقة : على ما أَلْقى الشيطان . وقال سعيد بن جبير أيضاً : على سجود النبي صلى الله عليه وسلم في سورة النجم ، و [ٱلسَّاعَة] :

قالت فرقة : أراد يوم القيامة و «اليوم العقيم» يوم بدر ، وقالت فرقة : [ٱلسَّاعَةُ] ساعة موتهم أو قتلهم في الدنيا كيوم بدر ونحوه ، و «اليوم العقيم» يوم القيامة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذان القولان جيِّدان لأنهما أحرزا التقسيم بـ (أَوْ) ، ومن جعل «الساعة واليوم العقيم» يوم القيامة فقد أفسد رتبة (أَوْ) ، وسمي يوم القيامة أو يوم الاستئصال عقيماً لأنه لا ليلة بعده ولا يوم ، والأيام كأنها نتائج ؛ لمجيء واحد إثر واحد ، فكأن آخر يوم قد عقم ، وهذه استعارة ، وجُملة هذه الآية توعد .

وقوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ السابق منه(١) أنه يوم القيامة حيث لا مُلْك فيه لأحد ، ويجوز أن يريد به يوم بدر ونحوه من حيث ينفذ قضاءُ الله وحده ويبطل ما سواه ، ويمضي حكمه فيمن أراد تعذيبه ، فأَمَّا من تأَوَّله في يوم القيامة فاتَّسق له قوله : ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلى قوله : ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ ، ومن تأَوَّله في يوم بدر ونحوه جعل قوله تعالى : ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ ابتداءَ خبر عن حالهم المتركبة على حالهم في ذلك اليوم العقيم من الإيمان والكفر .

وقوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية ابتداءُ معنى آخر ، وذلك أنه لمَّا مات بالمدينة عثمان بن مظعون ، وأبو سلمة بن عبد الأَسد قال بعض الناس : مَنْ قتل من المهاجرين أفضل

---

(١) يعني : المتبادر إلى الذهن .

ممن مات حتف أنفه ، فنزلت هذه الآية مُسَوِّية بينهم في أن الله تبارك وتعالى يرزق جميعهم رزقاً حسناً ، وليس هذا بقاضٍ بتساويهم في الفضل ، وظاهر الشريعة أن المقتول أفضل ، وقد قال بعض الناس : المقتول والميت في سبيل الله شهيدان ، ولكن للمقتول مزيَّة ما أصاب في ذات الله تعالى ، و «الرِّزق الحسن» يحتمل أن يريد به رزق الشهداء عند ربهم في البرزخ ، ويحتمل أن يريد به بعد يوم القيامة في الجنة .

وقرأت فرقة : [مَدْخَلاً] بفتح الميم من (دَخَل) ، فهو محمول على فعل مقدر تقديره : فَيَدْخُلُون مَدخلاً ، وقرأت فرقة : [مُدْخَلاً] بضم الميم من (أدخل) (١) .

وأسند الطبري عن سلمان بن عامر (٢) قال : كان فَضَالة (٣) برُودِس أميراً على أرباع ، فخرج بجنازتي رجلين أحدهما قتيل

---

(١) قال الإمام ابن خالويه في كتاب «الحجة في القراءات السبع» : «الحُجّة لمن ضمَّ أنه جعله مصدراً من أدخل يُدخل ، ودليله قوله تعالى : ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ ، والحُجّة لمن فتح أنه جعله مصدراً من دَخَل يَدْخُلُ مَدْخلاً ودُخُولاً ، ودليله قوله تعالى : ﴿حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ ، ويجوز أن يكون الفتح اسماً للمكان ، وربما جاء بالضم» .

(٢) اختلفت الأصول وكتب التفسير في هذا الاسم ، فهو في بعض الأصول ، وفي الطبري : (سلامان بن عامر) ، وفي بعض الأصول (سلمان بن عامر) ، وفي تفسير القرطبي (سليمان ابن عامر) . وهو سَلْمان بن عامر بن أوْس بن حُجْر بن عمرو بن الحارث الضَّبِّي ، قال عنه الحافظ العسقلاني في تقريب التهذيب : إنه صحابي سكن البصرة .

(٣) هو فَضَالة بن عُبَيْد بن نَافِذ بن قيس الأنصاري ، أول ما شهد أحد ، ثم نزل دمشق ووليَ قضاءها ، ومات سنة ثمان وخمسين ، وقيل : مات قبل ذلك .

والآخر متوفى ، فرأى ميل الناس مع جنازة القتيل ، فقال : أراكم أيها الناس تميلون مع القتيل وتفضلونه ، فوالَّذي نفسي بيده ما أُبالي من أيِّ حفرتيهما بعثت ، اقرءُوا قول الله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقاً حَسَناً﴾ ... إلى ﴿لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ المعنى : الأَمر ذلك . ثم أَخبر تعالى عمن عاقب مِنَ المؤمنين مَنْ ظَلَمَه مِنَ الكفرة ، ووعد المبغيَّ عليه بأَنه ينصره ، وسمِّي الذنب في هذه الآية باسم العقوبة كما تُسَمَّى العقوبة كثيراً باسم الذنب ، وهذا كلُّه تجوُّزٌ واتِّساع .

وذُكر أَن هذه الآية نزلت في قوم من المؤمنين لقيهم كفار في الشَّهر الحرام ، فأَبى المؤمنون من قتالهم ، وأَبى المشركون إلَّا القتال ، فلمَّا اقتَتَلُوا جَدَّ المؤمنون ونصرهم الله تعالى فنزلت الآية فيهم .

وقوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱللَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ معناه : نصر الله تعالى أَولياءَه ومَن بُغي عليه بأَنه القادر على العظائم ، الذي لا تُضاهى قدرته ، فأَوجز العبارة بأَن أَشار بـ [ذَٰلِكَ] إلى النصر ، وعبَّر عن القدرة بتفصيلها ، فذكر منها مثالاً لا يُدَّعى لغير الله تعالى ، وجعل تقصير اللَّيل وزيادة النهار وعكسها إيلاجاً تَجَوُّزاً وتشبيهاً ، وقوله : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ معناه نحو ما ذكرناه . وقرأَت

فرقة : [تَدْعُونَ] بالتاءِ من فوق ، وقرأَت فرقة : [يَدْعُونَ] ، والإِشارة بما يدعى من دونه ، قالت فرقة : هي إلى الشيطان ، وقالت فرقة : هي إلى الأَصنام ، والعموم ها هنا أَحسن .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تنبيهٌ(١) وبعده خبر أَن الله أنزل من السماءِ ماءً فظلت الأَرض تخضر عنه . وقوله : [فَتُصْبِحُ] بمنزلة قوله : فتضحي أَو فتصير ، عبارة عن استعجالها أَثر نزول الماءِ واستمرارها

(١) قال الفراءُ في (معاني القرآن) : المعنى في ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ خبَرٌ ، كأنَّك قلت في الكلام : اعْلَمْ أن الله ينزل من السماءِ ماءً فتصبح الأرضُ ، وهو مثل قول الشاعر :

أَلَمْ تَسْأَلِ الرَّبْعَ الْقَدِيمَ فَيَنْطِقُ فَهَلْ تُخْبِرَنْكَ الْيَوْمَ بَيْدَاءُ سَمْلَقُ ؟

وقال سيبويه : « وسأَلْتُ الخليل عن ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ فقال : هذا واجب وهو تنبيه ، كأنك قلت : أتَسْمع ؟ أنزل الله من السماءِ ماءً فكان كذا وكذا » ثم ذكر البيت السابق ، والبيت لجميل صاحب بثينة ، والسَّمْلَق : الأرض السهلة المستوية التي لا تُنبت . ا هـ .

كذلك عادة ، ووقع قوله : [فَتُصْبِحُ] من حيث الآية خَبَراً ، والفاءُ عاطفة وليست بجواب لأن كونها جواباً لقوله : ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ فاسد المعنى (١) ، ورُوي عن عكرمة أنه قال : هذا لا يكون إلَّا بمكة أو تِهامة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ومعنى هذا أنه أخذ قوله : [فَتُصْبِحُ] مقصوداً به صباح ليلة المطر ، وذهب إلى أن ذلك الاخضرار في سائر البلاد يتأَّخر (٢) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقد شاهدتُ هذا في السوس الأَقصى ، نزل المطر ليلاً بعد قحط وأصبحت تلك الأَرض الرملة التي نسفتها الرياح قد اخضرت بنبات

---

(١) لأنك إذا أجبت النفي بالفاء كان على معنيين ينتفي الجواب في كل منهما : إذا قلت : ما تأتينا فَتُحَدِّثَنَا بالنصب فالمعنى : ما تأتينا محدِّثاً ، إنما يأتي ولا يُحَدِّث ، ويجوز أن يكون المعنى : إنك لا تأتي فكيف تُحَدِّث ؟ فالحديث مُنْتَفٍ في الحالتين ، والتقرير بأداة الاستفهام كالنفي المحض في الجواب ، يَثْبُتُ ما دخلته الهمزة وينتفي الجواب ، فيلزم من هذا الذي تقرر إثبات الرؤية في الآية ونفي الاخضرار ، وهو خلاف المقصود . هذا هو المراد بقوله : «فاسد المعنى» . وأيضاً قالوا : إن جواب الاستفهام ينعقد منه مع الاستفهام السابق شرطٌ وجزاءٌ ، ولا يصح في الآية هنا أن يتقدر أن ترى إنزال المطر فتصبح الأرض مخضرة ، لأن الاخضرار ليس مترتباً على علمك أو رؤيتك ، إنما هو مترتب على إنزال المطر . قال ذلك الفراءُ .

(٢) إذا جعلنا [فَتُصْبِحُ] بمعنى : (فَتَصير) لا يلزم أن يكون الاخضرار في وقت الصباح ، وقد خصَّ الله تعالى وقت الصباح بالذكر دون سائر أوقات النهار لأن رؤية الأشياء المحبوبة في أول النهار أبهج للعين وأسَرُّ للنفس .

ضعيف دقيق . وقرأ الجمهور : [مُخْضَرَّةً] ، وقرأت فرقة : [مَخْضَرَة](١) .
و «اللَّطِيفُ» : المُحكِم للأُمور برفق . واللام في [لَهُ] لام الملك ، و [ٱلْغَنِيُّ] الذي لا حاجة به إلى شيءٍ ، هكذا هو على الإطلاق .

وقوله تعالى : ﴿سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يريد : من الحيوان والمعادن وسائر المرافق ، وقرأ الجمهور : [وَٱلْفُلْكَ] بالنصب، وذلك يحتمل وجهين من الإعراب : أحدهما أن يكون عطفاً على [مَا] بتقدير : وسخَّر الفُلْكَ ، والآخر أن يكون عطفاً على المكتوبة (٢) ، بتقدير : وأن الفُلْكَ ، وقوله : [تَجْرِي] على الإعراب الأول في موضع الحال، وعلى الإعراب الثاني في موضع الخبر. وقرأت فرقة : [وَٱلْفُلْكُ] بالرفع ، ف [تَجْرِي] خبر على هذه القراءة .

وقوله تعالى : ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ يحتمل أن يريد يوم القيامة ، كأن طيّ السماء ونقص هذه الهيئة كوقوعهما ، ويحتمل أن يريد بذلك الوعيد لهم في أنه إنْ أَذِنَ في سقوط السماء عليكم سقطت . ويحتمل أن يعود قوله : ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ على «الإمساك» ؛ لأن الكلام يقتضي : بغير عَمَد ونحوه ، فكأنه أراد : إِلَّا بِإِذْنِهِ فَبِه نُمسكها . وباقي الآية بيِّن .

---

(١) قال في البحر المحيط : «على وزن مَسْبَعَة» .
(٢) يريد بالمكتوبة لفظ الجلالة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

الإِحياءُ والإِماتة في هذه الآية ثلاث مراتب ، وسقط منها الموت الأَول الذي نصَّ عليه في غيرها (١) ، إلَّا أَنه بالمعنى في هذه ، و « ٱلْمَنْسَكُ » المصدر ، فهو بمعنى العبادة والشريعة ، وهو أَيضاً موضع النُّسك ، وقرأَت فرقة بفتح السين وفرقة بكسرها ، وقد تقدم القول فيه في هذه السورة (٢) ، وقوله تعالى : ﴿ هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ يعطي أَن « المَنْسَكَ » المصدر ، ولو كان الموضع لقال : هم ناسكون فيه (٣) ، ورَوت فرقة

(١) وذلك في قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٢٨ البقرة) .

(٢) في قوله تعالى في الآية (٣٤) : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً ﴾ ، راجع ص (٢٧٧) .

(٣) قال أبو حيان الأندلسي : « ولا يتعين ما قال ؛ إذ قد يتسع في معمول اسم الفاعل كما يتسع في معمول الفعل ، فهو موضعٌ اتُّسع فيه فأُجري مجرى المفعول به على السَّعة ، ومن الاتساع في ظرف المكان قول الشاعر :

وَمَشْرَبٍ أَشْرَبُهُ لاَ آجِنُ الماءِ وَلاَ وَبِيلُ

فإن (مَشْرَب) مكان الشرب ، وقد عاد عليه الضمير ، وكان أصله : « أشرب فيه » فاتَّسع فيه فتعدى الفعل إلى ضميره » .

والوَبِيلُ : الوخيمُ الثقيلُ (المعجم الوسيط) .

أن هذه الآية نزلت بسبب جدال الكفار في أمر الذبائح ، وقولهم للمؤمنين : تأكلون ما ذبحتم وهو من قتلكم ، ولا تأكلون مما قتل الله من الميتة ، فنزلت الآية بسبب هذه المنازعة . قوله تعالى : ﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ . هذه البِنْيَةُ من الفعل والنهي تحتملُ معنى التخويف وتحتمل معنى احتقار الفاعل وأنه أقلُّ من أن يُفاعل ، وهذا هو المعنى في هذه الآية ، وقال أبو إسحق : المعنى : فلا تنازعهم فينـــازعوك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا التقدير الذي قَدَّر إنما يَحْسُن مع معنى التخويف ، وإنما يحسن أن يُقَدَّر هنا المعنى : فلا تبدأهم بمنازعتك ، فالنهي إنما يراد به معنى من غير اللفظ ، كما يراد في قولهم : «لا أرينك ها هنا» ، أي : لا تكن ها هنا . وقرأت فرقة : ﴿فَلَا يَنْزَعَنَّكَ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿فِي ٱلْأَمْرِ﴾ معناه ـ على تأويل أن «المَنْسَكَ» الشريعة ـ : لا ينازعنك في الدين والكتاب ونحوه ، وعلى أن «المَنْسَك» موضع الذبح عَلَى ما روت الفرقة المذكورة من أن الآية نزلت في الذبائح ، فيكون [ٱلْأَمْر] : الذبح . و «ٱلْهُدَى» في هذه الآية : الإرشاد .

وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ﴾ الآية موادعةٌ محضة ونسختها آية السيف ، وباقي الآية وعيد .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ ﴾

لمَّا أخبر الله تعالى في الآية قبلها بأنه يحكم بين الناس يوم القيامة فيما اختلفوا فيه أَتْبَعَ ذلك الخبر بأن عنده علْم كل شيءٍ ليقع الحكم في معلوم . فخرجت العبارة على طريق التشبيه على علم الله تعالى وإحاطته ، وأن ذلك كله في كتاب وهو اللوح المحفوظ .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يحتمل أن تكون الإشارة إلى كون ذلك في كتاب وكونه معلوماً ، ويحتمل أن تكون الإشارة إلى الحكم في الاختلاف .

ثم ذكر تعالى ــ على جهة التوبيخ ــ فعل الكفرة في أنهم يعبدون من الأَصنام من دون الله ما لم يُنَزِّل الله فيه حُجَّة ولا بُرهاناً ،

و «السُّلْطَانُ» : الحُجَّة حيث وقع في القرآن الكريم . وقوله تعالى : ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ توعُّد .

والضمير في [عَلَيْهِمْ] عائد على كفار قريش ، والمعنى أنهم كانوا إذا سمعوا القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم ، أو من أحد أصحابه ، وسمعوا ما فيه من رفض آلهتهم والدعاء إلى التوحيد ، عُرفت المساءة في وجوههم ، و «ٱلْمُنْكَر» مِنْ معتقدهم وعداوتهم وأنهم يدبِّرون ويسرعون إلى السطوة بالتالي ، والمعنى أنهم يكادون يسطون دهرهم أجمع ، وأما في الشَّاذِّ من الأَوقات فقد يُسْطَى بالتَّالين نحو ما فُعِل بعبد الله بن مسعود وبالنبي صلى الله عليه وسلم حين أغاثه وحل الأَمر أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، وبعمر رضي الله عنه حين أجاره العاصي بن وائل ، وبأَبي ذرٍّ رضي الله عنه وغير ذلك ، و «السَّطْوُ» إيقاع بمباطشة أَوْ أَمْر بها .

ثم أَمر الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم أَن يقول لهم على جهة التوعُّد والتقريع : أَأُنَبِّئُكُمْ ، أَي أُخبركم بشَرٍّ من ذلكم ، والإشارة بـ «ذلكم» إلى السَّطْو ، ثم ابتدأ ينبئُ ، كأَن قائلاً قال له : وما هو ؟ قال النارُ ، أَي نار جهنم ، وقوله تعالى : ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يحتمل أَن يكون أَراد أَن الله وعدهم بالنار ، فيكون الوَعْد بالشرِّ ونحو ذلك لَمَّا نصَّ عليه ولم يجئْ مطلقاً ، ويحتمل أَن يكون أَراد أَن الله تعالى وعد النار بأَن يطعمها الكفار ، فيكون الوعد على بابه

الذي يقتضيه تسرعها إلى الكفار وقولها : ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾(١) ونحو ذلك من مساوئها . و «الْمَصِيرُ» مَفْعل من (صار) إذا تحوَّل من حالٍ إلى حالٍ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويقتضي كلام الطبري في هذه الآية أن الإشارة بـ [ذَلِكُمْ] هي إلى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم التَّالين ، ثم قال : أَلَا أُخبركم بأَكْرَهَ إليكم من هؤلاءِ أنتم الذين وُعِدْتُم النار (٢) ، وأسند نحو هذا القول إلى قائل لم يُسَمِّه . وهذا كله ضعيف .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾

---

(١) من الآية (٣٠) من سورة (ق) .

(٢) عبارة الطبري أوضح من هذه العبارة التي قالها ابن عطية ، قال الطبري : «وقد ذُكر عن بعضهم أنه كان يقول : إن المشركين قالوا : والله إن محمداً وأصحابَه لشرُّ خلق الله . فقال الله لهم : قل أفأنبئكم أيها القائلون هذا القول بِشَرٍّ من محمد صلى الله عليه وسلم ؟ أنتم أيها المشركون الذين وعدهم الله النار» . وقوله : «بِشَرٍّ من محمد» يعني على زعمهم .

الخطاب بقوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ قيل : هو خطاب يعم جميع العالم ، وقيل : هو خطاب للمؤمنين حينئذ الذين أَراد الله تعالى أَن يبين عندهم خطأَ الكافرين ، ولا شك أَن المخاطب هم ولكنه خطاب يعم جميع الناس ، متى نظره أَحد في أَمر عبادة الأَوثان توجَّه له الخطاب .

واختلف المتأَولون في فاعل (ضَرَبَ) ، من هو ؟ فقالت فرقة : المعنى : ضَرَب أَهلُ الكفر مثلاً لله أَصنَامَهُم وأَوْثَانَهُمْ (١) ، فاستمعوا أَنتم أَيها الناسُ لأَمر هذه الآلهة ، وقالت فرقة : المعنى : ضَرَب اللهُ تعالى مثلاً لهذه الأَصنام وهو كذا وكذا ، فالمثال والمثل في القول الأَول هي الأَصنام ، والذي جُعل له المثال الله تعالى ، والمثال الذي في التأْويل الثاني هو في الذباب وأَمره ، والذي جُعل له هي الأَصنام ، ومعنى [ضُرِبَ] : أُثبت وأُلزم ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ ﴾(٢) ، وقولنا : ضُربت الجزية وضُرب البعث ، ويحتمل أَن يكون «ضَرْبُ المثلِ» من الضَّرْب الذي هو المثل ، ومن قولك : «هَذَا ضَرْبُ هذا» ، فكأَنه قال : مُثِّلَ مَثَلٌ .

(١) يعني أن الكفار جعلوا لله مَثَلاً حين عبدوا غيره ، فكأنه قال : جعلوا لي شبيهاً في عبادتي ، فاستمعوا خبر هذا الشَّبَه ، وليس ثَمَّ مَثَلٌ ، وهذا هو قول الأخفش .

(٢) من الآية (٦١) من سورة (البقرة) ، وتكررت في (١١٢) من سورة (آل عمران) .

وقرأت فرقة : [يَدْعُونَ] بالياءِ من تحت والضمير للكفار ، وقرأت فرقة : [يُدْعَوْنَ] بضم الياءِ وفتح العين (١) على ما لم يُسَمَّ فاعله والضمير للأصنام .

وبدأ تعالى بنفي الخَلْق والاختراع عنهم من حيث هي صفة ثابتة له مختصة به ، فكأنه قال : ليس لهم صفتي ، ثم ثَنَّى بالأَمر الذي بلغ بهم غاية التعجيز ، وذكر تعالى أمر سلْب الذباب لأَنه كان كثيراً محسوساً عند العرب ، وذلك أَنهم كانوا يُضَمِّخُون أوثانهم بأَنواع الطيب فكان الذباب يذهب بذلك (٢) ، وكانوا متأَلمين من هذه الحجة فجعلت مثلاً . والذُّباب جمعه أَذبَّة في القليل وذِبَّان في الكثير كغُراب وأَغربة وغِرْبَان ، ولا يقال ذبابات إلَّا في الذيول لا في الحيوان (٣) .

واختلف المتأَولون في قوله تعالى : ﴿ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ ـ فقالت فرقة : أَراد بالطالب الأَصنام وبالمطلوب الذبابَ ، أَي أَنهم ينبغي أَن يكونوا طالبين لما سُلب من طيبهم على معهود الأَنفة في الحيوان. وقالت فرقة : معناهُ ضَعْفُ الكفار في طلبهم الصواب والفضيلة من جهة الأَصنام ، وضَعْفُ الأَصنام عن إعطاءِ ذلك وإنالته .

---

(١) القراءة الأولى قراءة الحسن،ويعقوب ، وهارون،والخفاف، ومحبوب عن أبي عمرو، والثانية قراءة اليماني ، وموسى الأسواري ، أمَّا قراءة الجمهور فهي بالتاء مع البناء للفاعل .

(٢) يعني أن الذباب يأكل هذا الطيب ويذهب به من على الأصنام .

(٣) يريد بالذيول الأطراف والنهايات ؛ إذ ذباب السيف حَدّ طرفه الذي يُضرب به ، والذباب من أذن الإنسان والفرس : ما حدّ من طرفها ، فهذا ونحوه يقال فيه : ذبابات ، ولا يقال ذلك في الحيوان المعروف .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويحتمل أن يريد : ضَعُفَ الطالبُ وهو الذُّبابُ في استلابه ما على الأصنام ، وضَعُف الأصنام في ألَّا مَنَعَة لهم ، وعلى كل قول فدلَّ ضَعْفُ الذباب الذي هو محسوسٌ مُجْمع عليه وضَعْفُ الأصنام في ألَّا منعة لهم عن هذا المُجْمع على ضعفه على أن الأصنام في أحط رُتْبة وأخَسِّ منزلة .

وقوله تعالى : ﴿مَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ خطابٌ للناس المذكورين ، والضمير في [قَدَرُوا] للكفار ، والمعنى : ما وفَّوه حقَّه من التعظيم والتوحيد . ثم أخبر بقوَّة الله تعالى وعزَّته ، وهما صفتان مناقضتان لعجز الأصنام .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

روي أن هذه الآية إلى قوله تعالى : [ٱلْأُمورُ] نزلت بسبب قول الوليد بن المغيرة : ﴿أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾(١) الآية ، فأخبر

(١) من الآية (٨) من سورة (ص) .

الله تعالى أنه [يَصْطَفِى] أي يختار ﴿مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ رُسُلاً﴾ إلى الأنبياء وغيرهم حسبما ورد في الأحاديث ، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وهم الأنبياءُ المبعوثون لإصلاح الخلق الذين اجتمعت لهم النُّبُوَّة والرِّسالة .

وقوله تعالى : ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ عبارة عن إحاطة علمه بهم ، وحقيقتها : ما قبلهم من الحوادث وما بعدهم ، و [ٱلْأُمُورُ] جمع أمر ، ليس يراد به المصدر .

ثم أمر الله تعالى بعبادته ، وخصَّ الرُّكوع والسُّجود بالذِّكر تشريفاً للصَّلاة .

واختلف الناس ، هل في هذه الآية سجدة ؟ ـ ومذهب مالك رحمه الله أَلَّا يُسْجد ها هنا(١) ، وقوله تعالى : ﴿وَٱفْعَلُوا ٱلْخَيْرَ﴾ ندبٌ فيما عدا الواجبات التي صحَّ وجوبها من غير هذا الموضع . وقوله تبارك وتعالى : ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ترجٍّ في حق المؤمنين ، كقوله سبحانه : ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾(٢) ، و «الفَلَاحُ» في هذه الآية نَيْلُ ٱلبُغْيَة وبلوغ الأمل .

---

(١) وهو مذهب أبي حنيفة أيضاً ،وحُجَّتُهما في ذلك أن الله تعالى قرن الركوع بالسجود في هذه الآية فدلَّ ذلك على أن المراد هو الصلاة ، فالآية الكريمة تأمر بالصلاة ، وقد خصَّ الله تعالى الركوع والسجود بالذكر لتشريفهما وتشريف الصلاة على غيرها من العبادات .

(٢) من الآية (٤٤) من سورة (طه) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾

قالت فرقة : هذه الآية أمر الله تعالى فيها بالجهاد في سبيله ، وهو قتال الكفار ، وقالت فرقة : هي أعم من ذلك ، وهو جهاد النفس ، وجهاد الكافرين ، وجهاد الظَّلَمة ، وغير ذلك ، أمر الله عباده بأن يفعلوا ذلك في ذات الله حق فعله .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والعُموم حسَنٌ ، وبيِّنٌ أن عرف اللَّفظة يقتضي الجهاد في سبيل الله (١) ، وقال هِبَةُ الله وغيره : إن قوله تعالى : ﴿حَقَّ جِهَادِهِ﴾ وقوله في الأُخرى : ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ (٢) منسوخ بالتخفيف إلى الاستطاعة .

(١) في القرطبي ما يدل على أن هنا كلاماً سقط في الأصول ، فقد نقل كلام المؤلف هنا قائلا : «قال ابن عطية : وقال مقاتل : وهذه الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ ، وكذا قال هبة الله وغيره : إن قوله تعالى ... الخ» .

(٢) من الآية (١٠٢) من سورة (آل عمران) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ومعنى الاستطاعة في هذه الأوامر هو المرادُ من أَوَّل الأَمر ، فلم يستقر تكليف بلوغ الغاية شرعاً ثابتاً فيقال إنه نُسخ بالتخفيف ، وإطلاقهم النسخ في هذا غير محدق(١) . و [ٱجْتَبَاكُمْ] معناه : تخيَّركم .

قوله تعالى : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ معناه : من تضييق ، يريد : في شرعة المِلَّة ، وذلك أَنها حنيفية سَمْحَة ، ليست كشدائد بني إسرائيل وغيرهم ، بل فيها التَّوبة والكَفَّارات والرُّخص ونحو هذا مِمَّا كثر عدُّه . و «الحَرْجة» : الشجر المُلْتَفُّ المتضايق ، ورفع الحَرَج صحَّ لجمهور هذه الأُمة ولمن استقام على منهاج الشَّرْع ، وأَما السَّلَّابَةُ والسُّرَّاقُ وأَصحاب الحدود فعليهم الحرج ، وهم جاعلوه على أَنفسهم بمفارقتهم الدين . وليس في الشَّرع أَعظم حرجاً من إلزام ثبوت (٢) رجلٍ لاثنين في سبيل الله تعالى (٣) ، ومع صحَّة اليقين وجودة العزم ليس بِحَرَجٍ .

وقوله : [مِلَّةَ] نصب بفعل مضمر تقديره : بل جعلها ، أو نحوه من أَفعال الإِغراءِ ، وقال الفراءُ : هو نصب على تقدير حذف

(١) هكذا في جميع النسخ ، ولعلها بالذّال من الحذق بمعنى المهارة .

(٢) الثبوت مصدر ثَبَتَ .

(٣) ثبت هذا في قوله تعالى في الآية (٦٦) من سورة (الأنفال) : ﴿ٱلآنَ خَفَّفَ ٱللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللهِ وَٱللهُ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ﴾ .

الكاف ، كأنه قال : «كَمِلَّة»(١) ، وقيل : هو كما ينصب المصدر . وقوله : ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ﴾ ، قال أبو زيد : الضمير لإبراهيم والإشارة إلى قوله : ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾(٢) . وقال ابن عباس ، وقتادة ، ومجاهد : الضمير لله تعالى ، و ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ معناه : في الكتب القديمة ، ﴿وَفِي هَذَا﴾ : في القرآن ، وهذه اللفظة تضعف قول مَنْ قال : الضمير لإبراهيم ، ولا يتوجّه إلّا على تقدير محذوف من الكلام مستأنف . وقوله تعالى : ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ﴾ أي بالتبليغ ، وقوله : ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي بتبليغ رسلهم إليهم على ما أخبركم نبيُّكُم .

وأسند الطبريُّ إلى قتادة أنه قال : أُعطيت هذه الأُمة ما لم يُعْطَه إلّا نَبيٌّ ، كان يقال للنبي : أَنت شهيد على أُمَّتك ، وقيل لهذه الأُمة : ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ ، وكان يقال للنبي : ليس عليك حرجٌ ، وقيل لهذه الأُمَّة : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ ، وكان يقال للنبي : سَلْ تُعْطَ ، وقيل لهذه الأُمَّة : ﴿ٱدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ .(٣)

---

(١) في الأصول : كأنه قال : «كَلِمَةً» ، والتصويب عن (معاني القرآن) للفراء .
(٢) من الآية (١٢٨) من سورة (البقرة) .
(٣) من الآية (٦٠) من سورة (غافر) .

ثم أَمر الله تعالى بالصلاة المفروضة أَن تُقام ويُدَاوم عليها بجميع حدودها ، وبالزكاة أَن تُؤدَّى ، كما أَنعم عليكم فافعلوا كذا ، ثم أَمر بالاعتصام بالله تعالى ، أَي بالتَّعلُّق به والخُلُوصِ له وطلبِ النجاة منه ورَفْضِ التوكُّل على سِواه . و «ٱلْمَوْلَى» في هذه الآية معناه : الذي يُليكم نصره وحفظه ، وباقي الآية بَيِّن .

كمل تفسير سورة الحج بحمد الله تعالى وعونه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين

سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



تفسير سورة المؤمنون (١)

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ ﴾

---

(١) هذه السورة مكية بإجماع . وقد روى الامام أحمد في مسنده ، والترمذي في التفسير ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أُنزل عليه الوحي سُمع عند وجهه كدويِّ النحل ، وأُنزل عليه يوماً فمكثنا ساعة فسُرِّي عنه فاستقبل القبلة فرفع يديه وقال : (اللّهم زدنا ولا تنقصنا ، وأَرْضِنا وارض عنا) ، ثم قال : (أُنزل عليَّ عشر آيات من أقامهُنَّ دخل الجنة) ، ثم قرأ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ ، وقد ذكر الإمام السيوطي هذا الحديث في «الدر المنثور» ، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد ، وعبد الرزاق ، وابن المنذر ، والعقيلي ، والبيهقي في الدلائل ، والضياء في المختارة ، وقيل : إن في سنده « يونس بن سليم » وهو مجهول .

أخبر الله تبارك وتعالى عن فلاح المؤمنين وأنهم نالوا البُغْية وأحرزوا البقاء الدائم ، وروي عن كعب الأَحبار أن الله تعالى لمَّا خلق جنة عدن قال لها : تكلَّمي ، فقالت : «قد أفلح المؤمنون» ، وروي عن مجاهد أن الله تعالى لمَّا خلق الجنة وأتْقن حسنها قال : «قد أفلح المؤمنون» . وقرأ طلحة بن مصرف : ﴿قَدْ أَفْلَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ بضم الحاء ، يريد : قد أفلحوا ، وهي قراءة مردودة(١)، وروي عنه ﴿قَدْ أُفْلِحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ بضم الهمزة وكسر اللام .

ثم وصف تعالى هؤلاء المفلحين فقال : ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ ، والخشوعُ : التَّطامن وتساكن الأَعضاء والوقار ، وهذا إنما يظهر في الأَعضاء لمن في قلبه خوف واستكانة ، ورُوي عن بعض العلماء أنه رأى رجلا يعبث بلحيته في الصلاة فقال : لو خشع هذا خشعت جوارحُه(٢) ، وروي أن سبب هذه الآية أن المسلمين كانوا يلتفتون في صلاتهم يَمْنة ويَسْرة ، فنزلت هذه الآية ، وأُمروا أن

(١) قال عيسى بن عمر : «سمعت طلحة بن مصرف يقرأ : ﴿قَدْ أَفْلَحُوا ٱلْمُؤْمِنُون﴾ ، فقلت له : أتلحن ؟ قال : نعم كما لحن أصحابي» ، قال أبو حيان الأندلسي تعقيباً على ذلك : «يعني أن مرجوعه في القراءة إلى ما روي ، وليس بلحن لأنه على لغة «أكلوني البراغيث» ، وقال الزمخشري : «أو على الإبهام والتفسير» ، وفي كتاب ابن خالويه كتبت بواو بعد الحاء ، وفي اللوامح : وحذفت واو الجمع بعد الحاء لالتقائهما في الدَّرْج ، وكانت الكتابة عليها محمولة على الوصل ، نحو ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَاطِلَ﴾ .

(٢) أخرج الحكيم الترمذي ، عن أبي هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى رجلا يعبث بلحيته في صلاته فقال : (لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه) .

يكون بصر المصلّي حذاء قبلته أو بين يديه ، وفي الحرم إلى الكعبة ، وروي عن ابن سيرين وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يلتفت في صلاته إلى السماء فنزلت الآية في ذلك(١) .

و «اللَّغْوُ» : سقط القول ، وهذا يعم جميع مالا خير فيه ، ويجمع آداب الشرع ، وكذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وكأن الآية فيها موادعة

وقوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ ، ذهب الطبري وغيره إلى أنها الزكاة المفروضة في الأموال ، وهذا بيِّن ، ويحتمل اللفظ أن يريد بالزكاة الفضائل ، كأنه أراد الأزكى من كل فعل ، كما قال تعالى : ﴿خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً﴾(٢) .

وقوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ صفة العفة (٣) ، وقوله تعالى : ﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ الآية ،

(١) أخرجه سعيد بن منصور ، وابن جرير ، والبيهقي في سننه . (الدر المنثور) . وفي القرطبي أن المُعْتَمَد رواه عن خالد ، عن ابن سيرين .

(٢) من الآية (٨١) من سورة (الكهف) .

(٣) قال ابن العربي : «من غريب القرآن أن هذه الآيات العشر عامة في الرجال والنساء ، كسائر ألفاظ القرآن التي هي محتملة لهم فإنها عامة فيهم ، إلا قوله : ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ فإنما خاطب بها الرجال خاصة دون الزوجات ، بدليل قوله : ﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَامَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ . وإنما عُرف حفظ المرأة فرجها من أدلة أُخرى كآيات الإحْصان عموماً وخصوصاً ، وغير ذلك من الأدلة» .

وعلى هذا فإنه لا يحل للمرأة أن تَتَسَرَّرَ بغلامها المملوك لها بإجماع من العلماء ؛ لأنها غير داخلة في الآية ، وقد حدث ذلك في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وأراد أن يرجم المرأة لولا أنها قررت له أنها فهمت الآية على أنها عامة في الرجال والنساء ، فدرأ الحد عنها لأنها تأولت الآية ، وعاقبها بأنه لن يحلها لحر بعده أبداً .

يقتضي تحريم الزنى والاستمناء ومواقعة البهائم ، وكل ذلك في قوله سبحانه : ﴿وَرَاءَ ذَٰلِكَ﴾ ، ويريد : وراء هذا الحدِّ الذي حُدَّ ، ومعنى ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ من النساء ، ولما كان [حَافِظُونَ] بمعنى (محجوزون) حسُن استعمال [عَلَى] ، و «الْعَادِي»: الظالم .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾

قرأ جمهور الناس : ﴿لأَمَانَاتِهِمْ﴾ بالجمع ، وقرأ ابن كثير : ﴿لِأَمَانَتِهِمْ﴾ بالإفراد ، والأَمانةُ والعهدُ يجمع كل ما يحمله الإنسان من أَمر دينه ودنياه قولاً وفعلاً ، وهذا يعم معاشرة الناس والمواعيدَ وغير ذلك ، ورعايةُ ذلك : حفظُه والقيامُ به ، والأَمانة أَعمُّ من العهد ؛ إذ كلُّ عهد فهو أَمانة فيما تقدم فيه قول أَو فعل أَو معتقد ، وقد تَعِنُّ الأَمانة فيما لم يعهد فيه تقدم ، وهذا إذا أَخذناهما بنسبتهما إلى العبد ، فإن أَخذناهما من حيث هُمَا(١) ــ عَهْد الله إلى عباده وأَمانته التي حَمَّلَهم ــ كانا في رتبة واحدة .

---

(١) في بعض النسخ : «من حيث صلحا» .

وقرأ الجمهور : [صَلَوَاتِهِمْ] ، وقرأ حمزة ، والكسائي : [صَلَاتِهِمْ] بالإفراد ، وهذا الإفراد اسم جنس فهو بمعنى الجمع ، والمحافظةُ على الصلوات ترقُّبُ أوقاتها والمبادرةُ إلى وقت الفضل فيها . و [ٱلْوَارِثُونَ] يريد : الجنة. ورُوي في حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى جعل لكل إنسان مسكناً في الجنة ومسْكناً في النار ، فأما المؤمنون فيأخذون منازلهم ويرثون الكفار ، ويحصل الكفار على منازلهم في النار(١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويحتمل أن يسمي الله تعالى الحصول على الجنة وراثة من حيث حصلوها دون غيرهم ، فهو إسمٌ مستعار على الوجهين . و« الْفِرْدَوْسُ » : مدينة الجنة ، وهي جنة الأعناب ، واللفظة ـ فيما قال مجاهد ـ روميَّة عُرِّبت ، وقيل : هي فارسية عُرِّبت ، والعرب تقول للكروم : فراديس ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأُمِّ حارثة : (إنها جنات كثيرة ، وإن ابنك قد أصاب الفردوس) (٢) .

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور ، وابن ماجه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم وابن مردويه ، والبيهقي في البعث ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وكان تخريج ابن ماجه له بمعناه ، وقال عنه القرطبي : إسناده صحيح .

(٢) أخرج عبد بن حميد ، عن أنس أنَّ الرُّبَيِّعَ بنت النضر أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان ابنها الحارث بن سراقة أُصيب يوم بدر ، أصابه سهم غَرْبٌ ، فقالت : أخبرني عن حارثة ، =

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

هذا ابتداءُ كلام ، والواو في أوله عاطفة جملة الكلام على جملة وإن تباينت في المعاني . واختلف المفسرون في قوله : [ٱلإِنْسَانَ] ـ فقال قتادة وغيره : أراد آدم عليه السلام لأَنه استُلَّ من الطين .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويجيءُ الضمير في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ﴾ عائداً على ابن آدم ـ وإن كان لم يذكره ـ لشهرة الأَمر ، وأَن المعنى لا يصلح إلَّا له ، نظير ذلك ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾(١) وغيره . وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وغيره : المراد بقوله : [ٱلإِنْسَانَ] ابن آدم . و ﴿سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ صفوة الماءِ .

= فإن كان أصاب الجنة احتسبت وصبرت ، وإن كان لم يصب الجنة اجتهدت في الدعاء ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا أمَّ حارثة إنها جنانٌ في جنة ، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى ، والفردوس رَبْوَة الجنة وأوسطها وأفضلها اهـ. والسيف الغَرْبُ هو القاطع الحديد ، قال الشاعر :

غَرْباً سَرِيعاً في العِظام الخُرُسِ

(١) من الآية (٣٢) من سورة (ص) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا على أنه اسم الجنس ، ويترتب عليه أنه سلالة من حيث كان الكل عن آدم عليه السلام أو عن الأبوين المتقدمين بما يكون من الطين ، وذلك السبع التي جعل الله تعالى رزق ابن آدم فيها ، وسيجيءُ قول ابن عباس رضي الله عنهما فيها إن شاء الله (١) ، وعلى هذا يجيءُ قول ابن عباس رضي الله عنهما : إن السلالة هي صفوة الماء ، يعني المنِيَّ . وقال مجاهد : ﴿سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ : بني آدم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا بيِّن ؛ إذ آدم من طين وذريته من سلالة ، وما يكون عن الشيءِ فهو سلالته ، وتختلف وجوه ذلك الكون ، فمنه قولهم للخمر : «سلالةٌ» ؛ لأنها سلالة العنب ، ومنه قول الشاعر :

إِذَا أُنْتِجَتْ مِنْها المَهَارَى تشَابَهَتْ   عَلَى العَوْد إِلَّا بالأُنُوفِ سَلَائِلُهْ (٢)

---

(١) سيأتي ذلك عند تفسير قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ ، وسيبين المؤلف السبع التي جعل الله تعالى رزق ابن آدم فيها .

(٢) البيت شاهد على أن السلائل جمع سلالة، وأن السُّلالة هي ما يكون عن الشيء ، أو ما يَنْسَلُّ منه، ويختلف الانسلال باختلاف الأشياء، والمهْر ولد الفرس ، والإبل المهْرية منسوبة إلى حيٍّ عظيم هم ولد مَهْرَة بن حيدان ، وجمعها مهارى ومَهَارٍ ، والعَوْدُ : الجمل المُسِنُّ وفيه بقية، والرواية في الطبري : « على القود » ، ولم أجد هذا البيت في معاجم اللغة ، ولا في كتب التفسير إلا الطبري ، ولا في معاني القرآن للفراء ، أو في مجاز القرآن لأبي عبيدة .

ومن اللفظة قول هند بنت النعمان بن بشير :

. . . . سَلِيلَةُ أَفْرَاسٍ تَجَلَّلَهَا بَغْلُ (١)

ومنه قول الآخر

فجاءَتْ به عَضْبَ الأَديم غَضَنْفَرَا سُلالَةَ فرْجٍ كانَ غيرَ حَصِينِ(٢)

وهذه الفِرقة يترتب مع قولها عود الضمير في [جَعَلْنَاهُ] و [أَنْشَأْنَاهُ] .

و «النُّطْفَةُ» تقع في اللغة على قليل الماءِ وكثيره ، وهي هنا لمني ابن آدم ، و «القَرَارُ الْمَكِينُ» من المرأة هو موضع الولد ، و «الْمَكِينُ» : المتمكن ، فكأَن «القرار» هو المتمكن في الرحم . و «العَلَقَةُ» : الدم العريض ، و «المُضْغَةُ» : بضعة اللحم قَدْر ما يُمْضغ .

---

(١) هذا عجز بيت ذكره في اللسان (سَلَل) ونسبه إلى هند بنت النعمان كما قال ابن عطية ، والبيت بتمامه :

وَمَا هِنْدُ إلا مُهْرَةٌ عَرَبِيَّةٌ سَلِيلَةُ أَفْرَاسٍ تَحَلَّلَهَا بَغْلُ

والرواية في الطبري : (وهل كنت إلا مهرة) والمهر ، أول ما ينتج من الخيل والحمر الأهلية ، والأنثى مهرة . وتَجَلَّلَها : علاها ، ويروى : تَحلَّلها — بالحاء المهملة — أي جعلها حليلةً له ، والسليلة : بنت الرجل من صلبه . والمراد بالبغل هنا الرجل الذي يشبه البغل . والبغل مذموم مكروه . تندب حظها وتقول : إنها مهرة عربية أصيلة وقد تزوجت رجلاً فظاً يشبه البغل في صفاته وطباعه ، وقد قيل : إن كلمة بغل تصحيف عن نغل بالنون ، وهو الخسيس من الناس والدواب ، وذلك لأن البغل لا ينسل ، ونميل إلى غير هذا ؛ لأنها إنما أرادت سوء حظها ، وأنها برقتها وجمالها وأصالتها قد نكبت بهذا البغل بما فيه من فظاظة وجلافة وانعدام الحساسية والذوق .

(٢) البيت لحسان بن ثابت ، وهو في اللسان أيضاً (سلل) . وفي الطبري ، والقرطبي ، ورواية الطبري : «حَمَلَتْ به» بدلا من «فجاءت به» ، ويستشهدون به على أن السلالة هي نطفة الإنسان ، وأن سلالة الشيء هي ما استُلّ منه ، وعَضْب الأديم : غليظ الجلد . يعني أنه شديد قوي الجلد ، وقد قال محقق اللسان : «لعلَّه بالصاد المهملة بدلا من الضاد ؛ لأن هذا التعبير غير موجود في اللغة .

وقرأ الجمهور : [عِظَاماً] في الموضعين ، وقرأ ابن عامر ، وعاصم - في رواية أبي بكر - : [عَظْماً] بالإفراد في الموضعين ، وقرأ سلمة ، وقتادة ، والأعرج ، والأعمش بالإفراد أولاً وبالجمع في الثاني ، وقرأ مجاهد ، وأبو رجاء ، وإبراهيم بن أبي بكر بعكس ذلك ، وفي قراءة ابن مسعود : «ثم جعلنا المُضْغَة عَظْماً وعَصَباً فكسوناه لحماً» .

واختلف الناس في الخلق الآخر - فقال ابن عباس رضي الله عنهما ، والشعبي ، وأبو العالية ، والضحاك ، وابن زيد : هو نَفْخ الروح فيه ، وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - أيضاً : خروجه إلى الدنيا ، وقال قتادة - عن فِرْقة - : نبات شَعره ، وقال مجاهد : كمال شبابه ، وقال ابن عباس أيضاً : تصرفه في أمور الدنيا .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا التخصيص كله لا وجه له ، وإنما هو عام في هذا ، وغيرُه من وجوه النطق والإدراك وحسن المحاولة هو بها آخَر ، وأول رتبة من كونه آخَر هو نفْخ الروح فيه ، والطرف الآخر من كونه آخَر تحصيله المعقولات إلى أن يموت .

و «تَبَارَكَ» هو مطاوع «بارك» ، كأنها بمنزلة «تعالى وتقدّس» ، من معنى البركة ، وهذه الآية يروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه

لما سمع صدر الآية إلى قوله : [آخَرَ] قال : « فتبارك اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (هكذا أُنزلت)(١) . ويروى أَن قائل ذلك معاذ بن جبل رضي الله عنه(٢) ، ويروى أَن قائل ذلك عبد الله ابن أَبي سَرْح ، وبهذا السبب ارتدَّ وقال : أَنا آتي بمثل ما يأْتي به محمد – عليه الصلاة والسلام – ، وفيه نزلت : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ

---

(١) أخرج الطيالسي ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وابن عساكر ، عن أنس قال : قال عمر : وافقتُ ربي في أربع : قلت : يا رسول الله ، لو صليت خلف المقام . فأنزل الله : ﴿وَٱتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ ، وقلت : يا رسول الله ، لو اتخذتَ على نسائك حجاباً فإنه يدخل عليك البَرُّ والفاجر ، فأنزل الله ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ ، وقلت لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم : لتَنْتَهُنَّ أو ليبدلنه الله أزواجاً خيراً منكن ، فأُنزلت ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ﴾ الآية ، ونزلت ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ الآية ... إلى قوله : ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ﴾ ، فقلتُ أنا : « فتبارك اللهُ أحسَنُ الخالِقين » فنزلت ﴿فَتَبَارَكَ ٱللهُ أَحْسَنُ ٱلْخَالِقِينَ﴾ .

وأخرج الطبراني ، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : لما نزلت ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ الآية قال عمر رضي الله عنه : « فتبارك الله أحسن الخالقين » فنزلت ﴿فَتَبَارَكَ ٱللهُ أَحْسَنُ ٱلْخَالِقِينَ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، عن صالح أبي الخليل ، قال : نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ إلى قوله : ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ﴾ ، قال عمر : « فتبارك الله أحسن الخالقين » ، فقال : والذي نفسي بيده إنها خُتِمت بالذي تكلمت به يا عمر .

(٢) أخرج ابن راهويه ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني في الأوسط ، وابن مردويه ، عن زيد بن ثابت قال : أملى عليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ إلى قوله : ﴿خَلْقاً آخَرَ﴾ فقال معاذ بن جبل : « فتبارك الله أحسن الخالقين » . فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له معاذ : ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال : إنها خُتِمت ﴿فَتَبَارَكَ ٱللهُ أَحْسَنُ ٱلْخَالِقِينَ﴾ .

افْتَرَى عَلَى ٱللهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾(١) .

وقوله تعالى : ﴿ أَحْسَنُ ٱلْخَالِقِينَ ﴾ معناه : أحسن الصانعين ، يقال لمن صَنَع شيئاً : خلقه ، ومنه قول الشاعر :

ولأَنْتَ تَفْــري ما خَلَقْتَ وَبَعْــ ضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثمَّ لا يَفْري(٢)

وذهب بعض الناس إلى نفي هذه اللفظة عن الناس ، فقال ابن جُرَيْج : إنما قال : [ٱلْخَالِقِينَ] لأنه تبارك وتعالى قد أَذِنَ لعيسى عليه السلام في أن يخلق ، واضطرب بعضهم في ذلك (٣) .

---

(١) هذه هي الآية (٩٣) من سورة (الأنعام) ، وقد قيل : إنها نزلت في عبد الله بن أبي سَرْح الذي كان يكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ارتد ولحق بالمشركين ، وسبب ذلك أنه لما نزلت آية المؤمنين هذه دعاهُ النبي صلى الله عليه وسلم وأملاها عليه ، فلما انتهى إلى قوله : ﴿ خَلْقاً آخَرَ ﴾ قال عبد الله متعجباً من هذا التفصيل : « تبارك الله أحسن الخالقين » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (هكذا أنزلت عليّ) ، فشكّ عبد الله حينئذ وقال : لئن كان محمدٌ صادقاً لقد أوحي إليّ كما أُوحي إليه ، ولئن كان كاذباً لقد قلتُ كما قال ، فارتد عن الإسلام ولحق بالمشركين ، راجع الجزء الخامس صفحة ٢٨٦ وما بعدها .

(٢) البيت لزهير بن أبي سُلْمى ، وهو في الديوان ، والطبري ، والقرطبي ، واللسان ، والتاج ، ومختار الشعر الجاهلي ، وهو من قصيدة له يمدح بها هرم بن سنان ، ومطلعها : « لِمَن الديارُ بقُنَّة الحَجْر » . وتَفْري : تَقْطَع . و « ما خلقت » معناها : ما قدرتَ وهيأتَ للقطع . والفَرْيُ : القَطْع بعد التقدير . ويقال : خَلَق الأديم خلقاً ، بمعنى قدَّره لما يريد قبل القطع . وقاسه ليقطع منه مزادةً أو قربة ، ولذلك تسمي العرب كل صانع كالنجار والخيّاط خالقاً ، وهذا هو موضع الشاهد ، يقول لهرم : أنت إذا قدرتَ أمراً قطعته ، أي أنفذته وأمضيتَه ، وغيرك يُقَدِّر ثم لا ينفذ لأنه ليس مثلك ماضي العزم .

(٣) كثر الكلام في المعنى المراد بهذه الآية ، وفي الجمع بينها وبين قوله تعالى في الآية (٣) من سورة (فاطر) : ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ ٱللهِ ﴾ . ومن أحسن ما قيل في ذلك هو ما أشار إليه ابن عطية في تفسيره لمعنى قول الله هنا : ﴿ أَحْسَنُ ٱلْخَالِقِينَ ﴾ ، وهو أن الخلق يكون بمعنى الإيجاد ولا موجد سوى الله تعالى ، ويكون بمعنى التقدير كما في قول زهير ، وهو المراد هنا . فأبناء آدم قد يصنعون ويقدّرون ، والله تعالى هو خير الصانعين والمقدرين .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولا تُنْفَى اللفظة عن البشر في معنى الصنع ، وإنما هي منفية بمعنى الاختراع والإيجاد من العدم ، ومن هذه الآية قال ابن عباس لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما حين سأل مشيخة الصحابة عن ليلة القدر فقالوا : الله أعلم ، فقال عمر رضي الله عنه : ما تقول يا ابن عباس ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الله تعالى خلق السموات سبعاً والأرض سبعاً ، وخلق ابن آدم من سبع ، وجعل رزقه في سبع ، فأراها في ليلة سبع وعشرين ، فقال عمر : أَعْجَزَكُمْ أن تأْتوا بمثل ما أتى به هذا الغلام الذي لم تجتمع شئون رأسه ، وهذا الحديث بطوله في مسند ابن أبي شيبة ، فأراد ابن عباس رضي الله عنهما بقوله : «خلق ابن آدم من سبع» هذه الآية ، وبقوله : «وجعل رزقه في سبع» قوله تعالى : ﴿ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وعِنَباً وَقَضْباً وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً وَحَدَائِقَ غُلْباً وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾(١) الآية ، السَّبع منها لابن آدم ، والأَبُّ للأَنعام ، والقَضْبُ يأْكله ابن آدم وتسمن به النساءُ ، وهذا قول ، وقيل : القضب : البقول لأَنها تقضب ، فهي رزق ابن آدم ، وقيل : القَضْب والأَبُّ للأَنعام والسِّتَّة الباقية لابن آدم ، والسابعة هي الأَنعام إذْ هي من أَعظم رزق ابن آدم .

---

(١) الآيات (٢٧ – ٣١) من سورة (عبس) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَـٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

[ذَلِكَ] إشارة إلى ما ذكر من هذه الأحوال ، وقرأ ابن أبي عبلة : [لَمَائِتُونَ] بالألف . و [تُبْعَثُونَ] معناه : من قبوركم أحياءً ، وهذا خبر بالبعث والنشور ، و «الطَّرَائِقُ» كل ما كان من طبقات بعضه فوق بعض ، ومنه : طارقت نعلي ، ويريد بالسَّبع الطرائق السموات ، ويجوز أن تكون «الطرائق» بمعنى المبسوطات ، من : طرقت الشيء ، وقوله تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ نفيٌ عام ، أي : في إتقان خلقهم وعن مصالحهم وعن أعمالهم .

وقوله تعالى : ﴿مَاءً بِقَدَرٍ﴾ قال بعض العلماء : أراد المطر ، وقال بعضهم : إنما أراد الأنهار الأربعة : سيحان وجيحان والفرات والنيل .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والصواب أن هذا كله داخل تحت الماءِ الذي أنزل الله تعالى .
وقال مجاهد : ليس في الأرض ماءٌ إلَّا وهو من السماءِ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويمكن أن يقيد هذا بالعذب ، وإلَّا فالأُجاج ثابت في الأَرض مع القحط ، والعذب يقل مع القحط ، وأيضاً فالأَحاديث تقتضي الماءَ الذي كان قبل خلق السموات والأَرض ، ولا محالة أن الله تعالى قد جعل في الأَرض ماءً وأنزل من السماءِ ماءً .

وقوله تعالى : [بِقَدَرٍ] أي على مقدار مصلح ؛ لأَنه لو كثر أهلك .

و [فَأَنْشَأْنَا] معناه : أوجدنا وخلقنا ، وذكر تعالى النخيل والأَعناب لأَنها ثمرة الحجاز بالطائف والمدينة وغيرهما ، قاله الطبري ، ولأَنها أيضاً أشرف الثمار ، فذكرها مثالا لا تشريفاً لها وتنبيهاً عليها .

وقوله تعالى : ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ يحتمل أن يعود الضمير على « الجنَّات » فيريد حينئذ جميع أنواع الفواكه . ويحتمل أن يعود على « النخيل والأَعناب » خاصة إذْ فيها مراتب وأنواع ، والأَول أعم اسائر الثمرات .

وقوله تعالى : [وَشَجَرَةً] عطف على قوله : [جَنَّاتٍ] ، ويريد بها الزيتونة ، وهي كثيرة في طور سيناءَ من أَرض الشام ، وهو الذي

كلم الله تعالى فيه موسى عليه السلام ، قاله ابن عباس – رضي الله عنهما – وغيره . و «الطُّور» : الجبل في كلام العرب ، وقيل : هو مما عُرِّب من كلام العجم . واختلف في [سَيْنَاءَ] ـ فقال قتادة : معناه : الحسن ، ويلزم على هذا التأويل أن ينون «الطُّور» ، وقال مجاهد : معناه : مبارك ، وقال مَعْمر عن فرقة : معناه : ذو شجر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويلزمهم أن يُنَوِّن «الطُّور» .

وقال الجمهور : هو اسم الجبل ، كما تقول : جبل أُحد ، و [سَيْنَاءَ] اسم مضاف إليه الجبل .

وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وابن كثير : [سِينَاءَ] بكسر السين ، وقرأ الباقون وعمر بن الخطاب رضي الله عنه : [سَيْنَاءَ] بفتح السين ، وكلُّهم بالمدِّ ، فعلى فتح السين لا ينصرف الاسم بوجه ، وعلى كسر السين فالهمزة كهمزة حِرباءٍ ، ولم ينصرف في هذه الآية لأَنه جعل اسم بُقعة أَو أَرض .

وقرأ الجمهور : [تَنْبُتُ] بفتح التاءِ وضم الباءِ ، فالتقدير : تَنْبُت ومعها الدهن ، كما تقول : خرج زيد بسلاحه ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : [تُنْبِتُ] بضم التاءِ وكسر الباءِ ، واختلف في التقدير على هذه القراءة ، فقالت فرقة : الباءُ زائدة ، وهكذا قوله تعالى :

﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾(١) ، وهذا المثال عندي معترض وإن كان أبو علي قد ذكره ، كقول الشاعر :

نَحْنُ بَنُو جَعْدَةَ أَرْبَابُ الْفَلَجْ نَضْرِبُ بالبِيضِ ونَرْجُو بالفَرَجْ(٢)

ونحو هذا ، وقالت فرقة : التقدير : تُنبت جناها ومعه الدهن ، فالمفعول محذوف ، قاله أبو علي الفارسي أيضاً ، وقد قيل : نَبَتَ وأنبَت بمعنى ، فيكون المعنى كما مضى في قراءة الجمهور ، والأصمعي يُنكر أنبت ويتّهم قصيدة زهير التي فيها :

. . . . أَنْبَتَ البَقْلُ (٣)

---

(١) من الآية (١٩٥) من سورة (البقرة) .

(٢) هذا الرجز للنابغة الجعدي ، وهو في الديوان ، والخزانة ، ومعجم البكري ، ومغني اللبيب ، والطبري ، والقرطبي . والفَلَج : الماءُ الجاري ، وهو في هذا الرجز موضع لبني جعدة ، وهو في أعلى بلاد قيس . والبِيض — بكسر الباء — : السيوف ، أي : نقاتل بالسيوف ، و (نَحْنُ) مبتدأ وخبره (بَنُو جعدة) ، وروي البيت (بني جعدة) بالنصب على الاختصاص ، فيكون خبر المبتدإ هو (أربابُ) ، والشاهد في البيت هو زيادة الباء في (بالفرج) ، قال ابن عصفور في (الضرائر) : زيادة الباء هنا ضرورة . ولكن ابن السِّيد قال في (شرح أدب الكاتب) : إنما عدّى الرجاء بالباء لأنه بمعنى الطّمع ، والطّمعُ يتعدى بالباء ، قال الشاعر — وهو البعيث — :

طَمِعْتُ بِلَيْلَى أَنْ تَجُودَ وَإِنَّمَا تُقَطِّعُ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ المَطَامِعُ

(٣) هذه آخر جملة في بيت قاله زهير بن أبي سُلْمَى من قصيدة له يمدح فيها سنان بن أبي حارثة المري ، يقول في مطلعها : (صَحَا القلبُ عن سَلْمَى وقَدْ كادَ لا يَسْلُو) ، والبيت بتمامه مع بيت قبله :

=

وقرأ الزهري ، والحسن ، والأعرج : [تُنْبَتُ] برفع التاء ونصب الباء ، قال أبو الفتح : هي باءُ الحال ، أي : تُنْبَتُ ومعها دهنها(١) ، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه : «تخرجُ بالدُّهْن» ، وهي أيضاً باءُ الحال ، وقرأ زرُّ بن حُبَيْش : [تُنْبِتُ] بضم التاء وكسر الباء [ٱلدُّهْنَ] بحذف الباء ونصبه ، وقرأ سليمان بن عبد الملك ، والأشهب : [بالدِّهَان] . والمراد في هذه الآية تعديد نعمة الزيت على الإنسان ، وهي من أركان النِّعم التي لا غنى للصحة عنها ، ويدخل في معنى الزيتونة شجر الزيت كله على اختلافه بحسب الأمصار .

وقرأت فرقة : [وَصِبْغٍ] ، وقرأت فرقة : [وَأَصْبَاغٍ] بالجمع ، وقرأ عامر بن قيس : «وَمَتَاعاً للآكلينَ» (٢) .

= إذا السَّنَةُ الشَّهباءُ بالنَّاسِ أجْحَفَتْ ونَالَ كِرَامَ المَالِ في الحَجْرَةِ الأكْلُ
رأيْتَ ذَوي الحاجاتِ حَوْلَ بُيُوتِهِم قَطِيناً بها حتَّى إذَا أنْبَتَ البَقْلُ

والبيت في الديوان ، وفي اللسان ، والطبري ، والقرطبي . والسنة الشهباء هي البيضاء من شدة الجدب لشدة ما فيها من ثلج وعدم النبات ، وأجْحفت : أضرت ضرراً بالغاً وأهلكت الأموال ، والحَجْرة : السَّنة الشديدة التي تَحْجر الناس في البيوت ، والمراد بقوله (نال كرام المال الأكلُ) أنهم لشدة الحاجة أكلوا أكرم ما عندهم وهو الإبل ، والقطين : السكان المقيمون . والبيت يذكر شاهداً على أن نَبَتَ وأنْبَتَ بمعنى واحد ، قال الفراء : هما لغتان ، والأصمعي يتهم القصيدة .

(١) فهي كقولك : خرج بثيابه ، أي : وثيابه عليه ، كأنه قيل : خرج لابساً ثيابه ، بهذا عبَّر أبو الفتح في المحتسب .

(٢) قال أبو حيان الأندلسي في البحر : «كأنه يريد تفسير الصِّبغ» .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

«الأَنْعَامُ» هي الإبل والبقر والضأْن والمعز ، و «العِبْرة» في خلقها وسائر أَخبارها .

وقرأ الجمهور : [نُسْقِيكُمْ] بضم النون من «أَسْقي» ، ورويت عن عاصم . وقرأ نافع ، وعاصم وابن عامر : [نَسْقِيكُمْ] بفتح النون من «سَقَى» ، فمن الناس من قال : هما لغتان بمعنى ، ومنهم من قال : سَقَيْتُه إذا أعطيته للشَّفة ، وأَسْقَيْتُه إذا جعلت له سقيا لأَرض أَو ثمرة أَو نحوه ، فكأَن الله جعل الأَنعام لعباده سقيا يشربون وينتجعون . وقرأ أَبو جعفر : [تَسْقِيكُمْ] بالتاء من فوق ، أي : تسقيكم الأنعام .

و «المنافع» : الحَمْلُ عليها ، وجلودها ، وأَصوافها ، وأَوبارها ، وغير ذلك مما يطول عدُّه .

و «الفُلْك» : السفن ، واحدها فُلْك ، الحركاتُ في الواحد كحركات قُفْل وبُرْد ، والحركات في الجمع كحركات أُسْد وكُتُب(١).

(١) قال في اللسان (فلك) : « والفُلْك بالضم : السفينة . تُذَكَّر وتؤنث وتقع على الواحد والاثنين والجمع ، فإن شئت جعلته من باب جُنُب ، وإن شئت من باب دِلاصٍ وهجان ، وهذا الوجه الأخير مذهب سيبويه ، أعني أن تكون ضمة الفاء من الواحد بمنزلة ضمة باء بُرْد وخاء خُرْج ، وضمة الفاء في الجمع بمنزلة ضمة حاء حُمْر وصاد صُفر في جمع أحمر وأصفر » .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ ﴾

هذا ابتداءُ تمثيل لكفار قريش بأُمم كفرت بأنبيائها فأُهلكوا ، وفي ضمن ذلك الوعيد بأن يحل بهم بلاءٌ نحو ما حلَّ بأُولئك .

ونوح عليه السلام أول نبي أُرسل إلى الناس ، وإدريس عليه السلام أول من نُبِّئَ ولم يُرْسَل .

و « المَلَأُ » : الأَشراف لأَنهم عنهم يصدر الملأُ ، وهو جمع القوم . وفي قَوْل هؤلاءِ استبعادُ بعثة البشر ، وهم قوم مُقِرُّون بالملائكة . وذلك لاشك مستقر عندهم من بقايا نبوة آدم وإدريس عليهما السلام وغيرهما ، ولم يكن ذالك عن علم صحيح ولا معرفة بأخبار نُبُوَّة .

و « الجِنَّةُ » : الجنون ، و [تَرَبَّصُوا] معناه : اصبروا وانتظروا هلاكه ، و ﴿حَتَّى حِينٍ﴾ معناه : إلى وقت ، ولم يُعَيِّنُوه ، وإنما أرادوا : إلى وقت يريحكم القدر منه .

ثم إنَّ نوحاً عليه السلام دعا على قومه حين يئس منهم وإن كان دعاؤُه في هذه الآية ليس بنصٍّ، وإنما هو ظاهر من قوله: ﴿ بِمَا كَذَّبُونِ ﴾، فهو يقتضي طلب العقوبة، وأمَّا النُّصرة بمجردها فكانت تكون بِرَدِّهم إلى الإيمان.

وقرأ أبو جعفر، وابن محيصن: ﴿ رَبُّ ٱنْصُرْنِي ﴾ برفع الباء، وكذلك ﴿ رَبُّ ٱحْكُمْ ﴾(١) وشبهه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ۝٢٧ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٨ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٢٩ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ۝٣٠ ﴾

قد تقدم القول في صفة السفينة وقدرها في سورة هود، و «الفُلْك» هنا مفرد لا جمع.

(١) من الآية (١١٢) من سورة (الأنبياء).

وقوله تعالى : ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ عبارة عن الإدراك على مذهب الحذاق ، ووقفت الشريعة على أَعْيُن وعَيْن ، ولا يجوز أَن يقال : عينان من حيث لم توقف الشريعة على التثنية ، و [وَحْيِنَا] معناه : في كيفية العمل ووجه البيان ، وذلك أَن جبريل عليه السلام نزل إلى نوح عليه السلام فقال له : اصنع كذا وكذا لجميع حكم السفينة وما يحتاج إليه . واستَجَنَّ الكفار نوحاً لادعائه النبوة بزعمهم أنها دعوى ، وسخروا منه لعمله السفينة على غير مجرى ، أَو لكونها أَول سفينة إن صح ذلك .

وقوله تعالى : [أَمْرُنَا] يحتمل أَن يكون مصدراً بمعنى أن نأْمر الماء بالفيض ، ويحتمل أَن يريد واحد الأُمور ، أَي إهلاكنا للكفرة ، وقد تقدم القول في معنى قوله تعالى : ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ . والصحيح من الأَقوال أَنه تنُّور الخُبز ، وأَنه أَمارةٌ كانت بين الله تبارك وتعالى وبين نوح عليه السلام .

وقوله تعالى : [فَاسْلُكْ] معناه : فَأَدْخِل ، ومنه قول الشاعر :

حَتَّى سَلَكْنَ الشَّوَى مِنْهُ فِي مَسَكٍ ... مِنْ نَسْلِ جَوَّابَةِ الآفاقِ مِهْدَاجِ (١)

---

(١) البيت لأبي وَجْزَةَ السَّعْدِي ، واسمه يزيد بن عُبَيْد ، من بني سعد بن بكر أظآر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو في اللسان (مسَكَ وهدَجَ) . وسَلَكَ الشيء في الشيء : أدخله فيه ، سَلْكاً أي : إدخالا ، كقوله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ،=

وقال الآخر :

وكُنْتُ لِزَازَ خَصْمِكَ لَمْ أُعَرِّدْ وقَدْ سَلَكُوكَ في يَوْم عَصِيبِ (١)

يقال : سَلَكَ وأَسْلَكَ بمعنى

وقرأ حفص عن عاصم : ﴿مِنْ كُلٍّ﴾ بتنوين [كُلٍّ] ، وقرأ الباقون وأبو بكر عن عاصم بإضافة [كُلِّ] دون تنوين (٢) ، و «الزَّوْجَانِ» كل ما شأنه الاصطحاب من كل شيءٍ كالذكر والأُنثى من الحيوان ونحو النِّعال وغيرها كل واحد زوج للآخر ، هذا موقع اللفظة في

= وهذا هو موضع الشاهد هنا ، والشَّوَى هنا : اليدان والرجلان من الأُتن . والمَسَك : الأَسْوِرَةُ والخلاخيل من الذَّبْل والقرون والعاج ، واحدته مَسَكَة . وقد استعاره أبو وجزة هنا فجعل ما تُدْخل فيه الأتن أرجلها من الماء مَسَكاً ، وجوّابة الآفاق : السحابة التي تجوب آفاق السماء من مكان إلى مكان ، والمهداج هنا : الريح التي لها حنين . يعني أن الماء من نسل الريح التي تستدر السحاب وتلاحه فيمطر . فهو من نسلها . يصف أبو وجزة الأتُن التي وردت الماء ليلا ونزلت فيه بقوائمها أي أدخلت قوائمها في الماء فصار لها مثل الأساور التي تجعلها المرأة في يديها ، وهذا الماء الذي أدخلت الأتن قوائمها فيه كان من نسل سحاب مهداج عصرته الريح منه .

(١) هذا البيت لِعَدِيِّ بن زيد العباديِّ ، وهو في اللسان . وقد تكرر الاستشهاد به في هذا التفسير (راجع جـ ٧ ص ٣٥٨) ، وفيه يخاطب الشاعر النعمان في قصيدة اعتذار ، ويقول : إني ظللت ملازماً لأعدائك لا أتراجع ولا أفرُّ حين وقعت في يوم عصيب شديد ، ولزاز الخصم : الملازم له ، والتَّعريد : الفرار وسرعة الذهاب في الهزيمة . وسلكوك : أدخلوك ، والعصيب : الشديد . والشاهد هنا هو أن سَلَكَ بمعنى أدخل .

(٢) من قرأ بالتنوين حذف المضاف إليه . والتقدير : من كل حيوانٍ أو نحوه ، ومن قرأ بالاضافة أعمل [اسْلُكْ] في قوله : [اثْنَيْنِ] . وجاء قوله تعالى [زَوْجَيْنِ] بمعنى العموم ، أي : من كلٍّ ماله ازدواج ، قال ذلك أبو علي الفارسي .

اللغة ، والعدديُّون يوقعون الزوج على الاثنين ، وعلى هذا أَمْرُ استعمال العامة للزوج .

وقوله تعالى : [وَأَهْلَكَ] يريد قرابته ، ثم استثنى من سبق عليه القول بأَنه كافر وهو ابنه وامرأته . ثُم أَمَرَ نُوحًا عليه السلام أَلا يراجع ربه ولا يخاطبه شافعاً في أَحد من الظالمين ، والإشارة إلى من استثني إذ العُرف من البشر الحُنُوُّ على الأَهل ، ثم أَمره تعالى بأَن يحمد ربَّه على النجاة من الظَّلَمة عند استوائه وتمكنه في الفلك ، ثم أَمره بالدعاءِ في بركة المنزل . وقرأَ عاصم – في رواية أَبي بكر – : [مَنْزِلاً] بفتح الميم وكسر الزاي ، وهو موضع النزول ، وقرأَ الباقون وحفصٌ عن عاصم : [مُنْزَلاً] بضم الميم وفتح الزاي ، وهو مصدر بمعنى الإنزال ، ويجوز أَن يراد به موضع النزول (١) .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ خطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم ، أَي : إن فيما جرى على هذه الأُمم لعبراً أَو دلائل لمن له نظر وعقل ، ثم أَخبر تعالى أَنه يبتلي عباده الزَّمن بعد الزَّمن على جهة الوعيد لكفار قريش بهذا الإخبار ، و [إِنْ] عند سيبويه هي المخفَّفة

---

(١) قال ابن عباس رضي الله عنهما : إن نوحاً قال ذلك حين خرج من السفينة . وقال بعضهم : بل حين دخلها . وعلى كل فالآية الكريمة تعليم من الله عزَّ وجلَّ لعباده إذا ركبوا أَو نزلوا أن يقولوا هذا . قال العلماء : بل وإذا دخلوا بيوتهم . وروي عن علي رضي الله عنه أنه كان إذا دخل المسجد قال : اللَّهم أنزلني منزلا مباركاً وأنت خير المنزلين .

من الثقيلة ، واللام لام تأكيد ، والفراءُ يقول : [إنْ] نافية واللام بمعنى «إلَّا» ، و [مُبْتَلِينَ] معناه مصيبين ببلاءٍ ومُختَبِرين اختباراً يؤدي إلى ذلك .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

قال الطبري رحمه الله : إن هذا القَرْنَ هم ثمود ، ورسولهم صالح عليه السلام ، وفي الروايات ما يقتضي أن قوم عادٍ أقدم إلَّا أنَّهم لم يهلكوا بصيحة (١) ، وفي هذا احتمالات كثيرة ، والله أعلم .

و [أَتْرَفْنَاهُمْ] معناه : نعَّمناهم وبسطنا لهم الآمال والأرزاق ، ومقالة هؤلاءِ أيضاً تقتضي استبعاد بعثة البشر ، وهذه الطائفة وقوم

(١) يعني أن بعض الروايات تقول : إن القَرْن المقصود هم قوم عادٍ لأنهم بعد نوح وكانوا قبل ثمود ، ولكن قوم عادٍ لم يهلكوا بصيحة ، والقرن المقصود أهلكهم الله بصيحة بدليل قوله تبارك وتعالى بعد هذا في الآية (٤١) : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ ﴾ .

نوح لم يذكر في هذه الآيات أن المعجزة ظهرت لهم وأنهم كذبوا بعد وضوحها ، ولكن ذلك مقدر معلوم وإن لم يعين لنا المعجزة ، والعقاب لا يتعلق بأحد إلا بعد تركه الواجب عليه ، ووجوب الاتباع إنما هو بعد قيام الحجة على المرء أو على من هو المقصد والجمهور ، كالعرب في معجزة القرآن ، والأطباء لعيسى ، والسحرة لموسى ، فقيام الحجة على هؤلاء قامت على جميع من وراءهم .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ ﴾

قوله تعالى : [أَيَعِدُكُمْ] استفهام بمعنى التوقيف ، على جهة الاستبعاد ، وبمعنى الهزء بهذا الوعد ، و [أَنَّكُمْ] الثانية بدل من الأُولى عند سيبويه ، وفيها معنى تأكيد الأول ، وكُرِّرت لطول الكلام ، وإن كان المبرد أَبَى عبارة البدل لكونه غير مستقل إذ لم يذكر خبر «أَنَّ» الأُولى ،

والخبر عند سيبويه محذوف وتقديره : «أنكم تبعثون إذا متم» ، وهذا المقدر هو العامل في [إذا] ، وفي قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : «أَيَعِدُكُم إذا متم وكنتم تُراباً وعِظاماً أَنَّكُم مُخْرَجُونَ» بحذف [أَنَّكُمْ] الأُولى . ويعنون بالإخراج النشور من القبور .

وقولهم : ﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ ﴾ استبعادٌ ، وهذه كلمة لها معنى الفعل ، التقدير : بَعُدَ كذا ، فطوراً تلي الفاعل دون لام ، تقول : هيهات مجيءُ زيد ، أي : بَعُدَ ذلك ، ومنه قول جرير :

فَهَيْهَاتَ هَيْهَاتَ الْعَقيــقُ ومَنْ بِهِ وهَيْهَاتَ خِــلٌّ بالْعقيق نُوَاصِلُه (١)

وأحياناً يكون الفاعل محذوفاً ، وذلك عند اللام كهذه الآية ، والتقدير : بَعُدَ الوجود لما توعدون ، ومن حيث كانت هذه اللفظة بمعنى الفعل أشبهت الحروف مثل «مَهْ» وغيرها ، فلذلك بنيت على الفتح (٢) ،

---

(١) البيت لجرير بن عطية الخطفي كما قال المؤلف . وهو من قصيدة له يرد على الفرزدق فيما كان بينهما ، والرواية في الديوان :

فَأَيْهَاتَ أَيْهَاتَ الْعَقِيقُ وَمَنْ بِهِ وأَيْهَاتَ وَصْلٌ بالعَقِيقِ تُوَاصِلُهْ

والبيت في اللسان (هيه) ، والرواية فيه :

فَهَيْهَاتَ هَيْهَاتَ الْعَقِيقُ وأَهْلُـــهُ وهَيْهَاتَ خِلٌ بالعَقِيق نُحَاوِلُـــهْ

والعقيق : وادٍ بالعالية . قال في اللسان : «وهيهات : كلمة معناها البُعْد ، والتاءُ مفتوحة مثلُ كيف وأصلها هاءٌ ، وناسٌ يكسرونها على كل حالٍ بمنزلة نون التثنية» .

(٢) مذهب البصريين أن هذه الألفاظ (هيهات . وصَهْ . ومَهْ) وأمثالها أسماءٌ حقيقة ونابت عن الفعل في لفظه فهي بمعناه ، وهي المعروفة بأنها «أسماء الأفعال» ، ومذهب =

وهذه قراءة الجماعة بفتح التاء ، وهي مفرد سُمِّي به الفعل في الخبر ، أَي : بَعُدَ ، كما أَن «شَتَّانَ» اسم «افترق» ، وعُرْف تسمية الفعل أَن تكون في الأَمر كصَهْ وهَسْ(١) .

وقرأَ أَبو جعفر : [هَيْهَاتِ] بكسر التاء غير منونة . وقرأَها عيسى ابن عمر ، وأَبو حيوة - بخلاف عنه - بتاءٍ مكسورة منونة ، وهي على هاتين القراءتين عند سيبويه جمع «هَيْهَاتَ» ، وكان حقها أَن تكون «هَيْهَيَاتٍ» إِلَّا أَن ضعفها لم يقتض إظهار الياء ، وقال سيبويه رحمه الله : هي مثل «بَيْضات» ، أَراد : «في أَنها جمع» ، وظن بعض النحاة أَنه أَراد : «في اتفاق المفرد» فقال : واحد «هَيْهَاتٍ» : «هَيْهَه» ، وليس كما قال ، وتنوين عيسى أَراد التنكير ، وتَرْك أَبي جعفر التنوين على إرادة التعريف . وقرأَ عيسى الهمداني : ﴿هَيْهَاتْ هَيْهَاتْ﴾ بتاءٍ ساكنة ، وهي - على هذا - جماعة لا مفرد ، وقرأَها كذلك الأَعرجُ ، ورُويت عن أَبي عمرو ، وقرأَ أَبو حيوة : [هَيْهَاتٌ] بتاء مرفوعة منونة ، وهذا على أَنه اسم معرب مستقل وخبره ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾ ،

= الكوفيين أنها أفعال حقيقة ، وهذه الأسماء لا موضع لها من الاعراب، وهيهات اسم فعل ماض بمعنى بَعُد ، كما أن «شَتَّان» بمعنى افترق ، و «مَهْ»اسم فعل أمر بمعنى : انكَفِفْ عن فعل هذا الشيء .

(١) «صَهْ» : اسم فعل أمر بمعنى اسكت ، و «هَسْ» : اسم فعل أمر فيه زجر للغنم كما أن «عَدَسْ» زجرٌ للبغل ، و «هَلا» للجواد .

أي : البُعْد لوعدكم ، كما تقول : النجمُ لسعيكم(١) ، ورُوي عن أبي حيوة [هَيْهَاتُ] بالرفع دون تنوين ، وقرأ خالد بن إلياس : ﴿هَيْهَاتاً هَيْهَاتاً﴾ بالنصب والتنوين . والوقف على [هَيْهَاتَ] من حيث هي مبنيَّة بالهاءِ ، ومن قرأ بكسر التاءِ وقف بالتاءِ ، وهي في اللفظة لغاتٌ : هَيْهَا ، وهَيْهَاتَ ، وهَيْهَان ، وأَيْهَاتَ ، وهَيْهَاتِ ، وهَيْهَاتُ ، وهيهاتٌ ، وهَيْهَاهْ(٢) ، قال رؤبة :

هَيْهَاتَ مِنْ مُنْخَرِقٍ هَيْهَاؤُهُ (٣)

---

(١) قال أبو الفتح ابن جنّي : «من قال : هَيْهَاةٌ هَيْهَاةٌ» فإنه يكتبها بالهاء لأن ذلك يحتمل أمرين : أحدهما أن يكون أخلصها اسماً معرباً فيه معنى البعد ولم يجعله اسماً للفعل فيبنيه كما بنى الناسُ غيره ، وقوله تعالى : ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾ خبر عنه ، كأنه قال : البُعْد لوعدكم ، كما يقول القائل : الخُلْف لموعدك . والأمر الآخر أن تكون مبنية على الضم ، كما بنيت «نحنُ» عليه ، ثم اعتقد فيه التنكير فلحقه التنوين» . ولكن مذهب أبي عليّ الفارسي أنها تكتب بالتاء .

(٢) حكى بعض العلماء في «هيهات» ستّاً وثلاثين لغة : هَيْهَاه ، وأَيْهَاه ، وهيهات ، وأيْهات ، وهيهَان ، وأيْهَان ، وكل واحدة من هذه الست مضمومة الآخر ومفتوحته ومكسورته ، وكل واحدة منونة وغير منونة ، بل حكى بعضهم زيادة على ذلك : هيهاكَ ، وأيْهاك، وأيْهاء ، وأيْهاه ، وهيهاء ، وهيهاه . (حاشية الصبان على شرح الأشموني) .

(٣) هذا البيت من قصيدة لرؤبة بن العجاج يصف المفازة والسراب ، يقول في مطلعها :

وبَلَدٍ عَامِيَةٍ أعْمَاؤهُ
كأنَّ لَوْنَ أرْضِهِ سَمَاؤهُ

والرواية في الديوان «في مُنْخَرِق» بدلا من «مِنْ مُنْخَرِق» ، قال أبو الفتح : «كأنه قال : بَعُدَ بُعْدُهُ ، وهو كقولهم: جُنَّ جُنُونُه ، وضلَّ ضلالُه ، وقولهم : موتٌ مائتٌ ، =

وقرأ ابن أبي عبلة : ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ مَا تُوعَدُونَ﴾ بغير لام .

وقولهم : ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ أرادوا أنه لا وجود لنا غير هذا الوجود ، وإنما تموت منا طائفة فتذهب وتجيءُ طائفة جديدة ، وهذا كفر الدهرية . و ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ معناه : بِمُصَدِّقِينَ ، ثم دعا عليهم نبيُّهم وطلب عقوبتهم على تكذيبهم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَـٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَـٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾

المعنى : قال الله تعالى لهذا النبي الداعي : عمَّا قليل يندم قومك على كفرهم حين لا ينفعهم الندم . ومن ذِكْر الصيحة ذهب الطبري

= وشِعْرٌ شاعِرٌ على طريقة المبالغة ، وهَيْهَاؤهُ إذاً فَعْلا لَهُ ، كَزَلْزَالِهِ وقَلْقَالِهِ ، والهمزة فيه منقلبة عن ياءٍ ؛ لأنه من باب حاحَيْتُ وعاعَيْتُ » .

والبيت في اللسان (هيه) ، وقد نسبه لِلْعَجَّاج ، وذكر بعده عن ابن سيدَه أن ابن جنّي أنشده ولم يفسره ، ثم قال ابن سيدَهْ : « ولا أدري ما معنى « هيهاؤه » . وقد رأيت ما نقلناه عن ابن جني من توضيح للمراد بِهَيْهَاؤهُ . وبهذا فسَّره ابن بَرِّي أيضاً .

إلى أنهم قوم ثمود ، وقوله : [بِالْحَقِّ] معناه : بما استحقوا بأفعالهم وبما حقَّ منا في عقوبتهم . و « الغُثَاءُ » : ما يحمله السيل من زَبَدِهِ ومعتاده الذي لا يُنتفع به ، فَيُشَبَّهُ كل هامدٍ وتالفٍ بذلك . و [بُعْداً] منصوب بفعل متروك إظهاره .

ثم أخبر تعالى عن أنه أنشأ بعد هؤلاء أُمماً كثيرة ، كل أُمَّة بأَجل وفي كتاب لا تتعداه في وجودها وعند موتها .

و [تَتْرَى] مصدر بمنزلة فِعْل مثل الدعوى والعدوى ونحوهما ، وليس [تَتْرَى] بفعل ، وإنما هو مصدر من : تَوَاتَرَ الشيءُ ، وقرأ الجمهور : [تَتْرَى] كما تقدم ، ووقفهم بالأَلف ، وحمزة والكسائي يميلانها ، قال أَبو حاتم : هي أَلِف تأْنيث (١) ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : [تَتْرًى] بالتنوين ، ووقفهما بالأَلف ، وهي أَلِف إلحاق (٢) ، قال ابن سِيدَهْ : يقال : جاءُوا تَتْرَى وتَتْرًى ، أَي متواترين ، التاءُ مُبْدلة من الواو على غير قياسٍ ؛ لأَن قياس إبدال الواو تاءً إنما هو في « افْتَعَلَ » وما تَصَرَّف منها إذا كانت ياؤُه واواً ، فإن فاءه تنقلب تاءً وتُدغم في تاءِ « افْتَعَلَ » ، وذلك نحو « اتَّزَنَ واتَّجَهَ » .

---

(١) فهي بمنزلة الألف في « سَكْرَى وغَضْبَى » .

(٢) فهي بمنزلة الألف في « أرْطَى ومِعْزَى » .

وقوله تعالى : ﴿ أَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً ﴾ أي : في الإهلاك . وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ يريد أحاديث مَثَل (١) ، وقلَّما يستعمل الجعل حديثاً إلّا في الشَّرّ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾

[ثُمَّ] هنا على بابها لترتيب الأُمور واقتضاء المُهْلَة ، و «الآيَاتُ» التي جاء بها موسى وهارون هي اليَدُ والعصا اللتان اقترن بهما التحدي ، وهما «السُّلْطَان الْمُبِين» ، ويدخل في عموم اللفظ سائر آياتهما كالبحر والمرسلات السِّت (٢) ، وأما غير ذلك مما جرى بعد الخروج من البحر فليست تلك لفرعون بل هي خاصة ببني إسرائيل .

---

(١) أيْ أحاديث عِبْرة ومَثَل للآخرين ، والأحاديث جمع أُحْدوثة وهي مايُتحدث به ، كأعاجيب جمع أُعجوبة وهي ما يُتعجب منه ، ويجوز أن يكون الحديث بالخير إذا قُيِّد بذلك ، فهو حديث حَسَن ، قال ابن دريد :

وإنَّمَا المَــرْءُ حَــدِيثٌ بَعْدَهُ فَكُنْ حَدِيثــاً حَسَنــاً لِمَنْ وَعَى

(٢) المرسلات السِّتُّ هي التي أرْسلها الله عليهم وذكرها في سورة الأعراف ، وهي : الطوفانُ والجرادُ والقُمَّل والضَّفادِعُ والدَّم والرِّجْزُ .

و «الْمَلَأُ» ها هنا : الجمع ، يعمُّ الأشراف وغيرهم ، و[ٱسْتَكْبَرُوا] معناه : عن الإيمان بموسى وأخيه عليهما السلام لأنهم أنِفوا من ذلك . و [عَالِينَ] معناه : قاصدين العُلُوَّ بالظلم والكبرياء .

وقوله تعالى : [عَابِدُونَ] معناه : خادمون مُتَذَلِّلُونَ ، ومن هذا قيل لعرب الحِيرَة : العِبَادُ ؛ لأنهم دخلوا من بين العرب في طاعة كسرى ، وهذا أحد القولين في تسميتهم ، والطَّريق المُعَبَّد : المذَلَّل ، وعلُوُّ هؤلاءِ هو الذي ذكر الله تعالى في قوله : ﴿تِلْكَ الدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً﴾ (١) . وقوله : ﴿مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾ يريد : بالغرق .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾

[الكِتابَ] هو التوراة ، و [لَعَلَّهُمْ] يريد بني إسرائيل لأن التوراة إنما نزلت بعد هلاك فرعون والقبط ، والترجِّي في «لعل» في حيِّز

---

(١) من الآية (٨٣) من سورة (القصص) .

البشر ، أي : كان من فعلنا معهم ما يرجو معه ابن آدم إيمانهم وهداهم ، والقضاءُ قد حكم بما حكم .

و «ابنُ مَرْيَمَ» عيسى عليه السلام ، وقصتهما كلها آية عظمى بمجموعها ، وهي آيات مع التفصيل ، وأخذها من كلا الوجهين متمكن ، و «آوَى» معناه : ضَمَّ ، واستعمال اللفظة في الأَماكن ، أي أقررناهما ، و «الرَّبْوَة» : المرتفع من الأَرض . وقرأ جمهور الناس : [رُبْوَةٍ] ، وقرأ عاصم ، وابن عامر بفتحها ، وهي قراءة الحسن وأبي عبد الرحمن . وقرأ ابن عباس ، ونصر عن عاصم بكسرها . وقرأ محمد بن إسحق : [رُبَاوَةٍ] بضم الراء ، وقرأ الأَشهب العقيلي بفتحها ، وقرأت فرقة بكسرها ، وكلها لغات قرىً بها . و «القَرَارُ» : المتمكن ، فمعنى هذا أنها مستوية بسيطة للحرث والغراسة ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، وقال قتادة : القرار هنا : الثمار والحبوب(١)

ومعنى الآية أنها من البقاع التي كملت خصالها فهي أهلٌ أن يُسْتَقَر فيها ، وقد يمكن أن يُسْتَقَرَّ على الكمال في البقاع التي ماؤُها آبارٌ ، فَيَبِينُ بَعْدُ أن ماءَ هذه الربوة يُرى معيناً جارياً على وجه الأَرض ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، وهذا كمال الكمال .

و «المَعِينُ» : الظاهرُ الجري للعين ، فالميم زائدة ، وهو الذي يُعايَنُ جريه ، لا كالبئر ونحوه ، وكذلك أدخل الخايل هذه اللفظة

---

(١) لأن الثمار والحبوب تعمل على الاستقرار في المكان .

في باب (ع ي ن) ، وقد يحتمل أن يكون من قولهم : «مَعَن الماءُ» إذا كثُر . ومن قولهم : المعنُ المعروف والجود . فالميم فاءُ الفعل ، وأنشد الطبري على هذا قول عبيد بن الأَبرص :

وَاهِيَةٌ أَوْ مَعينٌ مُمْعِـنٌ أَوْ هَضْبَةٌ دُونَها لُهُوبُ (١)

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يرحم الله هاجر او تركت زمزم لكانت عيناً معيناً)(٢) . وهذا يحتمل الوجهين ، وهذه الربوة هي الموضع الذي فرت إليه مريم حين استحيت في قصة عيسى عليه

---

(١) البيت من قصيدة عبيد المشهورة : «أقْفَرَ من أهْلِهِ مَلْحُوبُ» . وهو من أبيات البداية التي صوَّر فيها المنازل المقفرة وتقلّب صروف الدهر عليها . وقبل هذا البيت يقول عبيد :

عَيْناكَ دَمْعُهُمَا سَرُوبُ كَأن شَأنَيْهِمَا شَعِيبُ

فهو يقول : إن دمع عينيك دائم الجريان . كأن عروق الدمع في رأسك قِرْبة ماءٍ ممزقة . وسروب : دائمة السيلان، والشأن واحد الشئون وهي عروق تجري منها الدموع . والشَّعيب هي السقاءُ البالي ، أو القربة الممزقة. ثم في بيتنا يصف القربة بأنها واهية ، أي ضعيفة ممزقة ، والمَعينُ : الماءُ ، والمُمْعِنُ : الجاري ، واللُّهوب : جمع لِهْبٍ وهو الشّعب في الجبل أو الفُرجة بين جبلين . والهَضْبَةُ : المكان المرتفع . وهو يقول : الماءُ يجري من هذه القربة الواهية كأنه الماءُ الجاري على وجه الأرض في سهولة ، أو الماءُ الهابط من الهضبة العالية إلى شق منحدر في الجبل .

(٢) أخرجه البخاري في المساقاة . وأحمد في مسنده ١ــ٣٤٧ ، عن سعيد بن جبير قال : قال ابن عباس رضي الله عنهما : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (يرحم الله أمَّ إسماعيل ، لو تركت زمزم ـــ أو قال : لو لم تغْرف من الماءِ ـــ لكانت عيناً معيناً ، وأقبل جرهم فقالوا : أتأذنين أن ننزل عندك ؟ قالت : نعم ، ولا حقَّ لكم في الماءِ ، قالوا : نعم) .

السلام ، وهو الذي قيل لها فيه : ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾(١) ، هذا قول بعض المفسرين .

واختلف الناس في موضع الربوة — فقال ابن المسيب سعيد : هي الغوطة بدمشق . وهذا أشهر الأَقوال لأَن صفة الغوطة أَنها ذات قرار ومعين على الكمال . وقال أَبو هريرة رضي الله عنه : هي الرملة في فلسطين ، وأَسْنَدَهُ الطبريُّ ، عن كريب ، عن مُرَّةَ البَهْزِيِّ ، عن النبي صلى الله عليه وسلم(٢) ، ويعارض هذا القول أَن الرملة ليس يجري بها ماءٌ البتَّةَ ، ذكره الطبري وضعَّف القول به ، وقال كعب الأَحبار : الرَّبوة بيتُ المقدس ، وزعم أَن في التوراة أَن بيت المقدس أَقرب الأَرض إلى السماء ، وأَنه يزيد على الأَرض ثمانية عشر ميلاً .

---

(١) من الآية (٢٤) من سورة (مريم) .

(٢) أخرجه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والطبراني في الأوسط ، وابن مردويه ، وابن عساكر ، عن مُرَّة البَهْزيِّ قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (الرَّمْلة الرَّبْوَة) .

وأخرج الطبراني ، وابن السكن ، وابن منده ، وأبو نعيم ، وابن عساكر — من طرق — عن الأقرع بن شفي العكي رضي الله عنه ، قال : دخل عليَّ النبي صلى الله عليه وسلم في مرض يعودني ، فقلت : لا أحسب إلاَّ أني ميِّت من مرضي . قال : (كلاَّ ، لتبقَيَنَّ ولتُهاجِرَنَّ منها إلى أرض الشام وتموت وتدفن بالربوة من أرض فلسطين) ، فمات في خلافة عمر رضي الله عنه ودفن بالرملة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويترجَّح أن الربوة في بيت لحم من بيت المقدس لأن ولادة عيسى هنالك كانت ، وحينئذ كان الإيواءُ . وقال أبو زيد : الرَّبوة بأَرض مصر ، وذلك أنها رُبىً يجري فيض النيل إليها فيملأُ الأَرض ولا ينال تلك الرُّبَى وفيها القرى وبها نجاتها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويضعف هذا القول أنه لم يُرْوَ أَن عيسى عليه السلام ومريم كانا بأَرض مصر ولا حفظت لهما بها قصة .

وقوله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ يحتمل أَن يكون معناه : وقلنا يأَيُّها الرسل ، فتكون هذه بعض القصص التي ذَكَر ، وكيف كان قول المعنى(١) ، فلم يخاطبوا قطُّ مجتمعين وإنما خوطب كل واحد في عصره . وقالت فرقة : الخطابُ بقوله : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ لمحمد صلى الله عليه وسلم ، ثم اختُلف ـ فقال بعضهم : أَقامه مقام الرسل ، كما قال : ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾(٢)، وقيل غير هذا مما لا يثبت مع النظر . والوجه في هذا

(١) اختلفت النسخ الأصلية في هذه الجملة ، ففي بعضها : « فكيف بأمور من المعنى » ، وفي بعضها : « وكيف ما تحول المعنى » .

(٢) من الآية (١٧٣) من سورة (آل عمران) .

أن يكون الخطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وخرج بهذه الصيغة ليفهم وجيزاً أن هذه المقالة قد خوطب بها كل نبي ، أو هي طريقتهم التي ينبغي لهم الكون عليها ، وهذا كما تقول لتاجرٍ : يا تُجَّار ينبغي أن تجانبوا الرِّبَا ، فأنت تخاطبه بالمعنى ، وقد اقترن بذلك أن هذه المقالة تصلح لجميع صنفه ، وقال الطبريُّ : الخطاب بقوله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ لعيسى عليه السلام ، ورُوِي أنه كان يأْكل من غزل أُمه ، والمشهور أنه كان يأْكل من بقل البريَّة ، ووجه خطابه لعيسى عليه السلام ما ذكرناه من تقدير لمحمد صلى الله عليه وسلم .

و «الطَّيِّبَاتُ» هنا : الحلالُ بِلَذَّة وبغير ذلك (١) .

وفي قوله تعالى : ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ تنبيه على التحفظ ، وضرب من الوعيد بالمباحثة ، صلى الله على جميع أنبيائه ورسله ، وإذا كان هذا معهم فما ظنُّ كل الناسِ بأَنفسهم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

(١) كذلك اختلفت الأصول في كتابة هذه الجملة ، ففي بعضها « الحلال ملذة وغير ذلك » .

قرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : ﴿وَإِنَّ هَذِهِ﴾ بكسر الألف وشدِّ النون . وقرأ ابن عامر : ﴿وَأَنْ هَذِهِ﴾ بفتح الألف وتخفيف [أَنْ] . وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : ﴿وَأَنَّ هَذِهِ﴾ بفتح الألف وتشديد [أَنَّ] . فالقراءة الأُولى بَيِّنَةٌ على القطع، وأما فتح الألف وتشديد النون فمذهب سيبويه أنها متعلقة آخراً بـ [فَاتَّقُونِ] على تقدير : «لأَن» ، أي : فاتَّقُونِ لأَنَّ أُمتكم أُمَّة واحدة وأَنِّي ربكم ، وهذا عنده نحو قوله عزَّ وجلَّ : ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾(١)، و [أَنَّ] عنده في موضع خفض ، وهي عند الخليل في موضع نصب لما زال الخافض ، وقد عكس هذا الذي نسبتُ إليهما بعضُ الناس . وقال الفراءُ : [أَنَّ] متعلقة بفعل مضمر تقديره : واعلموا أو احفظوا .

وقرأ الحسن، وابن أبي إسحق : ﴿أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ﴾ بالرفع على البدل . وقرأ نافع ، وعاصم ، وأبو عمرو : ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ بالنصب على الحال ، وقيل على البدل من [هَذِهِ] ، وفي هذا نظر .

وهذه الآية تقوِّي أَن قوله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ إنما هو مخاطبة لجميعهم ، وأنه بتقدير حضورهم ، وتجيءُ هذه الآية بعد ذلك بتقدير : وقلنا للناس ، وإذا قدرت ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ مخاطبة لمحمد

(١) الآية (١٨) من سورة (الجن) .

صلى الله عليه وسلم قَلِقَ اتصالُ هذه واتصال قوله : ﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ ﴾ ، أما إن قوله : ﴿ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُون ﴾ وإن كان قيل للأنبياء فأُممهم داخلون فيه بالمعنى فيحسن بعد ذلك اتصال [فَتَقَطَّعُوا] ، ومعنى «الأُمَّة» هنا المِلَّةُ والشريعة (١) ، والإشارة بـ [هَذِهِ] إلى الحنيفية السمحة ملَّةِ إبراهيم عليه السلام وهو دين الإسلام . وقوله : [فَتَقَطَّعُوا] يريد الأُمم ، أي : افترقوا ، وليس بفعل مطاوع كما تقول «تقطَّع الثوبُ» ، بل هو فعل متعد بمعنى «قطعوا» ، ومثله تجهَّمني الليل ، وتخوَّفني السَّيْر ، وتَعَرَّفني الزمن .

وقرأ نافع : [زُبُراً] بضم الزاي والباء ، جمع زبور . وقرأ الأَعمش ، وأبو عمرو ـ بخلاف ـ : [زُبَراً] بضم الزاي وفتح الباء . فأَما الأُولى فتحتمل معنيين : أَحدهما أَن الأُمم تنازعت أَمرها كُتُباً منزلة ، فاتبعت فرقة الصُّحف وفرقة التوراة وفرقة الإنجيل ، ثم حَرَّفَ الكلُّ وبدَّل ، وهذا قول قتادة ، والثاني أَنهم تنازعوا أَمرهم كتُباً وضعوها وضلالات أَلَّفوها ، وهذا قول ابن زيد ، وأَما القراءة الثانية فمعناها : فِرَقاً كزُبَر الحديد .

ثم ذكر تعالى أَن كل فريق منهم معجب برأْيه وضلالته ، وهذا غاية الضلال ؛ لأَن المرتاب بما عنده ينظر إلى طلب الحق ، ومن حيث

---

(١) ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ﴾ ، وقول النابغة :

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً وهَلْ يَأْثَمَنْ ذُو أُمَّةٍ وهُوَ طَائِعُ ؟

كان ذكر الأُمم في هذه الآية مثالاً لقريش خاطب محمداً عليه الصلاة والسلام في شأْنهم متصلاً بقوله : [فَذَرْهُمْ] ، أي : فذَرْ هؤلاء الذين هم بمنزلة من تقدم . و «الغَمْرَةُ» : ما عمَّهم من ضلالهم وفَعَلَ بهم فعل الماءِ الغَمْرِ(١) بما حصل فيه ، وقرأ أبو عبد الرحمن : ﴿فَذَرْهُمْ في غَمَرَاتِهِمْ﴾ . و ﴿حَتَّى حِينٍ﴾ أي إلى وقت فتحٍ فيهم غير محدود . وفي هذه الآية موادعة منسوخة بآية السيف .

ثم وقفهم على خطإ رأْيهم في أن نعمة الله عندهم بالمال ونحوه إنما هي لرضاه عن حالهم ؛ وبيَّن تعالى أن ذلك إنما هو إملاءٌ واستدراج ، وخبر [أَنَّ] في قوله : [نُسَارِعُ] .

وقرأ جمهور الناس : [نُسَارِعُ] بنون العظمة ، وفي الكلام ـ على هذه القراءة ـ ضمير عائد تقديره : «لَهُمْ به»(٢) . وقرأ عبد الرحمن ابن أَبي بكرة(٣) : [يُسَارِعُ] بالياءِ وكسر الراءِ بمعنى أن إمدادنا يسارع ،

---

(١) الماءُ الغَمْرُ : الماءُ الكثير لأنه يغمُرُ وجه الأرض ، أي يغطيها . والمراد هنا أن الغفلة والضلالة قد غطت على قلوبهم .

(٢) وقد حذفت «بِهِ» للعلم بها ، وهذا كما حذف الضمير في قولهم : «السَّمن مَنَوَان بدرهم» ، أي : مَنَوَان منه بدرهم . وكأن [بِهِ] المتقدمة في الصلة من قوله تعالى : ﴿نُمِدُّهُمْ بِهِ﴾ قد صارت عوضاً أوْ مغنية عن الثانية .

(٣) هو عبد الرحمن بن أبي بكرة الثقفي ، أول مولود بالبصرة ، روى عن أبيه ، وروى عنه ابن سيرين وجماعة ، وثَّقه ابن حجر العسقلاني ، من الثانية ، واسمه نُفَيع ـ بالتصغير ـ ابن الحارث . مات سنة ست وثلاثين ، وقيل : بل سنة ست وثلاثين بعد المائة . (تهذيب التهذيب ، وتقريب التهذيب ، وخلاصة تذهيب الكمال) .

ولا ضمير مع هذه القراءة إلَّا ما يتضمن الفِعْل(١)، ورُوي عن أَبي بكرة المذكور [يُسَارَعُ] بفتح الراءِ ، وقرأَ الحرُّ النحوي : [نُسْرِعُ] بالنون وسقوط الأَلف ، و «الْخَيْرَات» هنا تعم الدنيا .

وقوله تعالى : ﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وعيد وتهديد ، و «الشُّعور» مأْخوذ من الشِّعار وهو ما يلي الإِنسانَ من الثياب .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

لما فرغ من ذِكر الكفرة وتوعُّدهم عقَّب ذلك بذكر المؤمنين ووعدهم . وذكر ذلك بأَبلغ صفاتهم . و «الإِشْفَاقُ» أَبلغ التوقع والخوف ، و [مِنْ] في قوله تعالى : ﴿مِنْ خَشْيَةِ﴾ لبيان جنس الإِشفاقِ ، والإِشفاقُ إنما هو من عذاب الله تعالى ، و «مِنْ» في قولنا : «مِنْ عذاب الله» هي لابتداءِ غاية .

---

(١) أي : لا حاجة إلى تقدير الضمير ، لأن في الفعل ضميراً يعود على [ما] في قوله تعالى : ﴿ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ ﴾ . قال ذلك أبو الفتح ابن جني في المحتسب .

و «الآيَةُ» تعمُّ القرآن وتعمُّ العِبَر والمصنوعات التي لله تعالى، وغير ذلك مما فيه نظر واعتبار .

وفي كُلِّ شَيْءٍ لَـــهُ آيَةٌ . . . . (١)

ثم ذَكَرَهُم تعالى من الطرف الآخر وهو نَفْي الإشراك ؛ لأَن لِكُفَّار قريش أَن يقولوا : ونحن نؤمن بآيات ربنا ، ونريد أَن نصدق بأَنه المخترع الخالق ، فذكر تعالى نفي الإشراك الذي لاحظَّ لهم فيه بسبب أَصنامهم (٢) .

وقوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ على قراءة الجمهور معناه : يُعطون ما أَعطوا ، وقال الطبري : يريد الزكاة المفروضة وسائر الصدقة ، وروي نحوه عن ابن عمر رضي الله عنهما ، ومجاهد .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وإنما ضمَّهم إلى هذا التخصيص أن العطاءَ مستعمل في المال على الأَغلب ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما ، وابن جبير : هو عامٌّ في

---

(١) هذا صدر بيت معروف متداول ، وهو بتمامه :

وفي كُلِّ شيْءٍ لَـــهُ آيَـــةٌ تَـــدُلُّ عَلَى أَنَّـــهُ الْوَاحِـــدُ

(٢) وقيل : ليس المراد منه الإيمان بالتوحيد ونفي الشِّرْك لله ؛ لأن ذلك داخل في قوله تبارك وتعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ ، بل المراد نفي الشِّرْك للحق ، وهو أن يخلصوا في العبادة ، فلا يقدم عليها المؤمن إلا خالصةً لوجه الله وطلباً لرضوانه .

جميع أعمال البرِّ ، وهذا حسن ، كأنه قال : والذين يُعطون من أنفسهم في طاعة الله ما بلغه جهدهم . وقرأت عائشة أُم المؤمنين ، وابن عباس ، وقتادة ، والأعمش : «يَأْتُونَ مَا أَتَوْا» ، ومعناه : يفعلون ما فعلوا ، ورويت هذه القراءة عن النبي صلى الله عليه وسلم(١) . وذهبت فرقة

---

(١) أخرج سعيد بن منصور ، وأحمد ، والبخاري في تاريخه ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أشته وابن الأنباري معاً في «المصاحف» ، والدارقطني في «الأفراد» ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، عن عبيد بن عمير أنه سأل عائشة رضي الله عنها : كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه الآية ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا ﴾ أوْ ﴿ وَٱلَّذِينَ يَأْتُونَ مَا أَتَوْا ﴾ ؟ فقالت : أيهما أحبُّ إليك ؟ قلت : والذي نفسي بيده لإحداهما أحبُّ إليَّ من الدنيا جميعاً . قالت : أيهما ؟ قلت : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَأْتُونَ مَا أَتَوْا ﴾ ، فقالت : أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك كان يقرؤها ، وكذلك أُنزلت ، ولكن الهجاء حُرِّف . (الدُّرُّ المنثور) .

ولنا وقفة أمام هذا وخصوصاً ما ذكر عن تحريف الهجاء ؛ لأنه لوكان الأمر أمر تحريف لما غفل عنه القراءُ والمحققون ، لأنهم أصحاب غيرة على القرآن بالذات ، وعلى الحقيقة في أي رواية ، وهم دائماً يتحرون وجه الصواب في كل ما يُروى ويُنقل حتى ولو كان في غير القرآن ، وإذاً فالأمر أمر رواية لا تحريف .

ولو كان الأمر أمر تحريف فلنا أن نسأل : هل وقع هذا التحريف في بعض المصاحف أم في كل المصاحف ؟ لو أن هذا التحريف وقع في بعض المصاحف فكيف اتفق عليه كل القراء أو أكثرهم بهذه الصورة ؟ وكيف لم يقرأ «بالصواب» إلا قلة ضئيلة ؟ هل يعقل أن تتفق الكثرة على الخطأ وأن يكون الصواب موضع اتجاه القلة ؟ ولو أن هذا التحريف وقع في جميع المصاحف لما كان تحريفاً ، بل هو اتفاق وإجماع ، ولا يمكن أن نقول عنه تحريف .

ولو تصورنا أن التحريف واردٌ في [آتَوا] لأن الفرق بين رسم المدة فوق الألف فيها وبين رسم الهمزة في [أَتَوْا] لما كان وارداً أبداً في قوله تعالى [يُؤْتُونَ] ، لأن الفرق في الرسم بينها وبين الرسم في [يَأْتُونَ] واضح قوي لا يتأتى معه الخطأ من القارئْ وبخاصة في القرآن الكريم .

ومن ناحية أُخرى يقول الفراءُ : «ولو صحَّت هذه القراءةُ عن عائشة رضي الله عنها =

إلى أن معناه : من المعاصي ، وذهبت فرقة إلى أن ذلك في جميع الأعمال طاعتها ومعصيتها ، وهذا أمدح ، وأسند الطبري عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت : قلتُ : يا رسول الله ، قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ

= لم تخالف قراءة الجماعة ؛ لأن الهمز من العرب من يلزم فيه الألف في كل الحالات إذا كتب ، فيكتب « سئِلَ الرجلُ » بألف بعد السين ، و « يستهزئون » بألف بين الزاي والواو ، « شيءٌ » و « شيء » بألف بعد الياء ، فغير مُسْتَنْكَر أن يكتب « يُؤْتُون » بألف بعد الياء ، وكلام الفراء يوضح أمرين : أولهما أنه يَشُكُّ في صحة الرواية بدليل قوله : « ولو صحَّت » ، والثاني أنه يبين السبب في رسم الهمزة على ألف بعد الياء بأن هذه قاعدة يلتزمها بعض العرب ، وعليه فتكون القراءة لِلرَّسْم بالألف هي كالقراءة للرسم بالواو .

وإذا تأملنا في رواية ابن جرير الطبري في تفسيره نراه ينقلها عن أبي خلف ، وفيها يقول : « دخلت مع عبيد بن عمير على عائشة رضي الله عنها ، فسألها عبيد : كيف نقرأُ هذا الحرف ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا ﴾ ، فقالت : ﴿ يَأْتُونَ مَا أَتَوْا ﴾ ، وكأنها تأولت في ذلك : والذين يفعلون ما يفعلون من الخيرات وهم وجلون من الله . وليس فيها أنها سألته وأنه أجاب ، ثم قالت : أشهد ... الخ ... لأنه من غير المعقول أن تسأل عائشة رضي الله عنها أحداً مثل هذا السؤال ، والقرآن ليس على هوى الناس ، فهو توقيف من الله فكيف نجعله عرضة للأهواء والميول ؟ هذا السؤال نفسه يجعلنا نشك في هذه الرواية ، ونؤيد رواية أبي خلف التي ينص فيها على أن عائشة رضي الله عنها تأولت الآية ، فهو فهم منها وتأويل. وقد روي الحديث عن أبي مُلَيْكَة أنها قالت : لأن تكون هذه الآية كما أقرأ أحبُّ إليَّ من حُمر النعم ، فقال لها ابن عباس رضي الله عنهما ما هي ؟ فقالت : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا ﴾ — هكذا في الدر المنثور . فكيف نجمع بين هذه الرواية وبين الرواية الأخرى ، مع ملاحظة أن كلمة التحريف والتصحيف كلمة عُرفت وأُلفت بعد عائشة رضي الله تعالى عنها ، فلم تكن الكتابة والقراءة في أيامها بالكثرة التي حدثت بعد ذلك ودخل فيها التحريف والتصحيف كما اتفق عليه المحققون . فهو في رأينا اصطلاح لاحق ورد على ألسنة بعض الناس وليس من صلب الحديث ، وصحيح أنها وردت في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ﴾ ، ولكن من الصحيح أيضاً أن عائشة رضي الله عنها لا يمكن أن تقصد هذا المعنى الذي أوردته الآية الكريمة ، والله أعلم .

يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ الذي يزني ويسرق ؟ قال : (لا يا بنت أبي بكر ، هي في الرجل يصوم ويتصدق وقلبُه وجل يخاف أَلَّا يُتقبل منه)(١)،

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولا نظر مع الحديث .

و «الْوَجَلُ» نحو الإشفاق والخوف ، وصورة هذا الوجل أمَّا المخلِّط فينبغي أن يكون أبداً تحت خوف من أن يكون ينفذ عليه الوعيد بتخليطه ، وأما التَّقي التائب فخوفه من الخاتمة وما يطلع عليه بعد الموت ، وفي قوله سبحانه : ﴿أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ تنبيه على الخاتمة . وقال الحسن : معناه : الذين يفعلون ما يفعلون من البر ويخافون أَلَّا يُنجيهم ذلك من عذاب ربهم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه عبارة حسنة .

---

(١) رواه أحمد في مسنده ، والترمذي ، وابن ماجه ، والحاكم وصححه ، والذهبي ، وذكره السيوطي في الدرّ المنثور ، وزاد أن ممن رواه عبد بن حميد ، وابن جرير ، والفريابي ، وابن أبي الدنيا في «نعت الخائفين» ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في «شعب الإيمان» .

ورُوي عن الحسن أَيضاً أَنه قال : المؤمن يجمع إحساناً وشفقة ، والمنافق يجمع إساءَةً وأَمْناً .

وقرأَ الجمهور : [أَنَّهُمْ] بفتح الأَلف ، والتقدير : بأَنَّهم أَو لأَنهم أَو من أَجل أَنهم ، ويحتمل أَن يكون قوله : [وَجِلَةٌ] عاملاً في [أَنَّ] من حيث هي بمعنى : خائفة . وقرأَ الأَعمش : [إِنَّهُمْ] بكسر الأَلف على إخبارٍ مقطوع في ضمنه تخويف .

ثم أَخبر تعالى عنهم أَنهم يبادرون إلى فعل الخيرات ، وقرأَ الجمهور : [يُسَارِعُونَ] ، وقرأَ الحُرُّ النحوي : [يُسْرِعُون] و «أَنَّهُمْ إلَيْهَا سَابِقُونَ» ، وهذا قول بعضهم في قوله تعالى : [لَهَا] ، وقالت فرقة : معناه : من أَجلها سابقون ، فالسباق – على هذا التأْويل – هو إلى رضوان الله ، وعلى الأَول هو إلى الخيرات ، وقال الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما : المعنى : سبقت لهم السعادة في الأَزل فهم لها ، ورجحه الطبري بأَن اللام متمكنة في المعنى (١) .

---

(١) ورجح القرطبي وأبو حيان الأندلسي أن اللام بمعنى «إلى» ، وهي كاللام في قوله تبارك وتعالى : ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴾ ، أي أَوْحَى إليها ، وأنشد سيبويه شاهداً لذلك قول الأعشى :

تَجَانَفُ عَنْ جَوِّ اليمامَةِ نَاقَتِي وَمَا قَصَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا لِسِوَائِكَا

أي : إلى سواك ، والتجانف : الميْل .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾ نَسْخٌ لجميع ما ورد في الشرع من تكليف مالا يطاق على الحقيقة ، وتكاليف مالا يُطاق أَربعة أَقسام : ثلاثة حقيقة ورابع مجازي ، وهو الذي لا يطاق الاشتغال بغيره مثل الإِيمان للكافر والطاعة للعاصي ، وهذا التكايف باقٍ وهو تكاليف أَكثر الشريعة ، وأَما الثلاثة فورد اثنان منها ، وفيها وقع النسخ المحال عقلاً في نازلة أَبي لهب والمحال عادة في قوله : ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾(١) الآية ، والثالث لم يرد فيه شيءٌ ، وهو النوع المهلك لأَن الله تعالى لم يكلفه عباده ، فأَما قتل القاتل ورجم الزاني فعقوبته بما فعل ، وقد مضى القول مستوعباً في مسأَلة تكليف مالا يطاق في سورة البقرة(٢)، وفي قولنا «ناسخ» نظر من جهة التواريخ وما نزل بالمدينة وما نزل بمكة ، والله المعين .

---

(١) من الآية (٢٨٤) من سورة (البقرة) .

(٢) راجع الجزء الثاني صفحة (٥٣٩) وما بعدها . وهناك وضحنا المراد بنازلة أبي لهب وعلّقنا على كثير من الآراء التي ذكرها ابن عطية رحمه الله .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ ﴾ أظهر ما قيل فيه أنه أراد كتاب إحصاءِ الأَعمال الذي ترفعه الملائكة ، وفي الآية ـ على هذا التأْويل ـ تهديدٌ وتأْنيس من الحيف والظلم ، وقالت فرقة : الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ ﴾ إلى القرآن .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله

وهذا يحتمل ، والأَول أَظهر .

وقوله تعالى : ﴿ فِي غَمْرَةٍ ﴾ يريد : في ضلال قد غمرها كما يفعل الماءُ الغَمْر بما حصل فيه ، وقوله سبحانه : ﴿ مِنْ هَذَا ﴾ يحتمل أَن يشير إلى القرآن ، ويحتمل [أَن يشير](١) إلى كتاب الإحصاء ، ويحتمل أَن يشير إلى الأَعمال الصالحة المذكورة قبل ، أَي : هم في غمرة من اطِّراحها وتركها ، ويحتمل أَن يشير إلى الدين بجملته ، أَو إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وكل تأْويل من هذه قد قالته فرقة .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُم أَعمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ ﴾ ، الإشارة بـ [ذَلِكَ] إلى الغَمْرة والضلال المحيط بهم ، فمعنى الآية : بل هم ضالُّون معرضون عن الحق ، وهم ـ مع ذلك ـ لهم سعايات فساد ، فوسمهم تعالى بحالَتي شرٍّ ، قال هذا المعنى قتادة وأَبو العالية ، وعلى هذا التأْويل فالإخبار عما سلف من أَعمالهم وعمَّا هم فيه . وقالت فرقة : الإشارة

(١) زيادة يحتاج إليها التعبير .

بـ [ذَلِكَ] إلى قوله سبحانه : ﴿مِنْ هَذَا﴾ فكأنه قال : لهم أعمال من دون الحق أو القرآن ونحوه ، وقال الحسن بن أبي الحسن ومجاهد : إنما أخبر سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ولَهُم أَعمَالٌ﴾ عما يُستأنف من أعمالهم ، أي أنهم لهم أعمال من الفساد سيعملونها .

و [حَتَّى] حرفُ ابتداءٍ لاغير . و [إِذَا] الأُولى و [إِذَا] الثانية (١) - التي هي جواب - تمنعان من أن تكون غاية لـ [عَامِلُونَ] .

و «المُتْرَفُ» هو المنعّم في الدنيا الذي هو منها في سَرَف ، وهذه حال شائعة في رؤساءِ الكفرة من كل أُمة .

و [يَجأَرُونَ] معناه : يستغيثون بصياح كصياح البقر . وكثر استعمال الجأْر في البشر ، ومنه قول الأعشى :

يُرَاوِحُ مِنْ صَلَـوَاتِ الْمَلِيـ ـكِ طَوْراً سُجوداً وطَوراً جُـؤَارا (٢)

---

(١) نصُّ الكلام في الأصول «وإذا والثانية هي جواب» .

(٢) البيت من قصيدة للأعشى يمدح بها قيس بن معديكرب . وقبله يقول :

وَمَا أَيْبُلِيٌّ على هَيْكَلٍ بَنَاهُ وَصَلَّبَ فيهِ وصَارَا

والأَيْبُلِيُّ هو الراهب الذي يحمل العصا التي يضرب بها الناقوس وتسمى الأَيْبُل ، ويُرَاوِح بين الأمرين: يفعل هذا مرّةً ويفعل هذا مرّةً . والجُؤَار : رفع الصوت مع تضرع واستغاثة . والجُؤار كالخُوَار ، معناهما واحد . وجواب قوله : «وَمَا أَيْبُلِيٌّ ...» يأتي في بيت ثالث يقول فيه : «بأعْظَمَ منْهُ تُقىً في الحسَاب» . فالأعشى يقول عن ممدوحه الذي وصفه قبل ذلك بالكرم والشجاعة : إنه تَقِيٌّ نَقِيٌّ يرعى الله ويخافه ، ويتضرع إليه في صلواته ، وحتى الراهب المنقطع للعبادة والصلاة ، والذي لا يكف عن السجود والجؤار لله ليس بأتقى من قيس هذا . والمؤلف يستشهد بالبيت على أن الجؤار هو رفع الصوت بالدعاء ، وأنه يوصف به البشر كما يوصف به البقر .

وذهب مجاهد وغيره إلى أن العذاب المذكور هو الوعيد بيوم بدر ، وفيه نقد على مترفيهم . والضمير في قوله : ﴿إِذَا هُم﴾ يعود على «المُترفين» فقط لأنهم صاحوا حين نزل بهم الهزم والقتل يوم بدر ، ويحتمل أن يعود على الباقين بعد المُعَذَّبين ، وقد حكى ذلك الطبري عن ابن جريج ، قال : المُعَذَّبون : قتْلى بدرٍ ، والذين يجأرون : أهل مكة لأنهم ناحوا واستغاثوا (١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَـٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

المعنى : يقال يوم العذاب عند حلوله : ﴿لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ﴾ ، وهذا القول يجوز أن يكون حقيقة ، أي تقول لهم ذلك الملائكة ، ويحتمل أن يكون مجازاً ، أي : لسانُ الحال

---

(١) وبهذا يكون قد جمع بين الرأيين الواردين في معنى الآية ، واللذين يعرفان من كلام المؤلف رحمه الله .

يقول ذلك ، وهذا على أن الذين يجأرون هم المعذبون ، وأما على قول ابن جريج فلا يحتمل أن تقول ذلك الملائكة .

وقوله تعالى : ﴿قَد كَانَتْ آياتِي تُتْلَى عَلَيكُم﴾ الآية يريد بها القرآن . و [تَنْكِصُونَ] معناه : ترجعون وراءكم ، وهذه استعارة للإعراض والإدبار عن الحق ، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه : «عَلَى أَدباركم تَنْكُصُونَ» بضم الكاف وبذكر الأدبار بدلا من الأعقاب . و [مُستَكْبِرِينَ] حالٌ ، والضمير في [بِهِ] قال الجمهور : هو عائد على الحَرَم والمسجد وإن لم يتقدم له ذكرٌ لشهرته في الأمر ، والمعنى : إنكم تعتقدون في أنفسكم أن لكم بالمسجد والحَرَم أعظمَ الحقوق على الناس والمنازل عند الله ، فأنتم تستكبرون لذلك ، وليس الاستكبارُ من الحق ، وقالت طائفة : الضمير «في [بِهِ]» (١) عائد على القرآن من حيث ذكرت الآيات ، والمعنى : يُحدث لكم سماع الآيات كفراً وطغياناً .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قولٌ جيِّد .

---

(١) في الأصول : الضمير عائد على القرآن .

وذكر مُنذر بن سعيد أن الضمير لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وهو متعلق بما بعده ، وكأن الكلام تمَّ في قوله : [مُستَكْبِرِينَ] ، ثم قال لمحمد صلى الله عليه وسلم : ﴿سَامِراً تَهجُرُونَ﴾ .

وقوله : [سَامِراً] حالٌ ، وهو مفرد بمعنى الجمع(١) ، يقال : قومٌ سَمْرٌ وسُمَّرٌ وسَامِرٌ . ومعناه سَهَرُ الليل ، مأخوذ من السَّمَر وهو ما يقع على الأشخاص(٢) من ضوء القمر ، فكانت العرب تجلس للسَّمر تتحدث(٣) ، وهذا أوجب معرفتها بالنجوم ؛ لأنها تجلس في الصحراء فترى الطوالع مع الغوارب . وقرأ الجمهور : [سَامِراً] . وقرأ أبو رجاءٍ : [سُمَّاراً] . وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما ، وعكرمة ، وابن محيصن : [سُمَّراً](٤) ، ومن هذه اللفظة قول الشاعر :

---

(١) وهذا كقوله تعالى : ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ أي : أطفالاً ، وكقول العرب : الحَاضر ، وهم القوم النازلون على الماء ، والبَاقِر لجمع البقر ، والجامِل لجمع الإبل ، للذكور والإناث .

(٢) نقل القرطبي كعادته كلام ابن عطية هنا ولم يشر إليه ، وذكر كلمة «الأشجار» بدلاً من «الأشخاص» .

(٣) كانت تجلس تتحدث حول الكعبة في ضوء القمر أو في سَمَره ، فسُمِّيَ التَّحدُّث سَمَراً .

(٤) أما قراءة أبي رجاء [سُمَّاراً] فهي مثل كاتِبٍ وكُتَّاب ، وشارب وشُرَّاب ، وأمَّا قراءة ابن عباس وعكرمة رضي الله عنهم [سُمَّراً] فقد قرأ بها أيضاً عبد الله بن مسعود والسُمَّر : جمع سامِرٍ ، والسَّامِرُ : القوم يَسْمُرون ، قال ذو الرُّمَّة :

وكَمْ عَرَّسَتْ بَعْدَ السُّرَى مِنْ مُعَرَّسٍ بِهِ مِنْ كَلامِ الجِنِّ أَصْوَاتُ سَامِرِ

يتحدث عن الناقة ، والتَّعْرِيس : النزول آخر الليل للنوم والراحة .

مِنْ دُونِهِمْ إنْ جِئْتَهُمْ سَمَـراً   عَزْفُ القِيَانِ ومَجْلِسٌ غَمْـرُ (١)

وكانت قريش تسْمُر حول الكعبة مجالسَ في أباطيلها وكفرها . وقرأ الجمهور : [تَهْجُرُونَ] بفتح التاءِ وضم الجيم ، واختلف المتأَولون في معناها — فقال ابن عباس رضي الله عنهما : معناها : تَهْجرون الحقَّ وذِكْرَ الله تعالى ، من الهَجْر المعروف ، وقال ابن زيد : هو من هَجَرَ المريضُ إذا هَذَى ، أَي : تقولون اللَّغْوَ من القول ، وقاله أَبو حاتم. وقرأ نافع وحده من السبعة : [تُهْجِرُونَ] بضم التاءِ وكسر الجيم ، وهي قراءَة أَهل المدينة ، وابن محيصن ، وابن عباس أَيضاً ، ومعناه : تقولون الفُحْش والهُجْر من القول ، وهذه إشارة إلى سبِّهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأَصحابه ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما أَيضاً وغيره ، وفي الحديث : (كنتُ نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ولا تقولوا هُجْراً) (٢)، وقرأَ ابن محيصن ، وأَبو نهيك [تُهَجِّرُونَ]

---

(١) البيت في اللسان (سمر) — ذكره مرتين ، في المرة الأولى استشهد به على أنّ السَّمَر هو حديث الليل ، ورواه كما رواه ابن عطية هنا ، ولم يَنْسُبه ، ثم عاد وذكره مرة ثانية شاهداً على أن السَّمَر هو الليل ، ونسبه إلى ابن أحمر ، ولفظه :

مِنْ دُونِهِمْ إنْ جِئْتَهُمْ سَمَراً   حَيٌّ حِلالٌ لَمْلَمٌ عَكِـرُ

فالسَّمِرُ هنا : الليل ، والحيُّ الحِلالُ — بكسر الحاء — هم القوم النازلون على الماء أو نحوه ، ولَمْلَمٌ : كثير مجتمع ، والعَكِرُ : الكثير المتراكم بعضه فوق بعض أو المجتمع بعضه إلى بعض ، أما المجلسُ الغَمْرُ — على رواية المؤلف — فهو الجماعة الكثيرة يجتمعون للحديث والسَّمر.

(٢) أخرجه النسائي في الجنائز ، ومالك في الموطأ في الضحايا ، وأحمد في مسنده (٣—٦٣ ، ٦٦ ، ٢٣٧ ، ٢٥٠ — ٥—٣٦١) . ولفظه في مسند أحمد عن محمد بن عمرو بن ثابت عن =

بضم التاءِ وفتح الهاءِ وشدِّ الجيم مكسورة ، وهو تضعيف هَجَر وتكثير الهَجْر أَو الهُجْر على المعنييْن المتقدمين ، وقال ابن جني : لو قيل إن المعنى أَنكم تبالغون في المهاجرة حتى إنكم وإن كنتم سُمَّراً باللَّيل فكأَنكم تُهَجِّرون في الهَاجِرَةِ على غاية الافتضاح لكان وجهاً [1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ولا تكون هذه القراءة تكثير «تُهْجِرُونَ» بضم التاءِ وكسر الجيم لأَن أَفعل لا يتعدى ولا يُكَثَّر بتضعيف ؛ إذ التضعيف والهمزة متعاقبان .

ثم وبخهم على إعراضهم بعد تدبُّر القول لأَنهم — بعد التدبر والنظر الفاسد — قال بعضهم : شِعْرٌ ، وقال بعضهم : سِحْرٌ ، وسائر ذلك .

= أبيه ، قال : مرَّ بي ابن عمر رضي الله عنهما فقلت : من أين أصبحت غادياً أبا عبد الرحمن ؟ — وفي رواية أين تريد يا أبا عبد الرحمن ؟ — قال : إلى أبي سعيد الخدري ، فانطلقت معه ، فقال أبو سعيد رضي الله عنه : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إني نهيتكم عن لحوم الأضاحي وادخاره بعد ثلاثة أيام ، فكلوا وادّخروا فقد جاء الله بالسَّعة ، ونهيتكم عن أشياءَ من الأشربة والأنبذة ، فاشربوا ، وكلُّ مسكر حرام ، ونهيتكم عن زيارة القبور ، فإن زرتموها فلا تقولوا هُجْراً) . والحديث في لسان العرب (هجر)، وقد نقل بعد أن ذكر الحديث أن الكسائي والأصمعي قالا : الهُجْر : الإفحاش في المنطق والخَنَا ، وهو بالضمّ من الإهجار ، ويقال منه : يُهْجِرُ .

(١) ومن كلام ابن جني الذي ذكره لتوضيح رأيه : «فهذا كقولك لصاحبك : أنت مُسَاتراً مُعْلن ، وأنت مُحْسِناً مُسيءٌ ، أي : أنت في حال مُسَاترتك مُعْلن ، وأنت في حال إحسانك عندي مسيءٌ» . وقياساً على ذلك يقال : أنت في حال سَمَرِك ليلا مُهَجِّر ، أي كأنك تفعل الشيء الفاضح في وقت الهاجرة ولو كنت في سواد الليل لأنك مجاهر لا تحتشم .

وقوله تعالى : ﴿أَمْ جَآءَهُمْ﴾ كذلك توبيخ أيضاً ، والمعنى : أَأَبْدَعَ لهم أمراً لم يكن في الناس قبلهم؟ بل قد جاء الرسلُ قَبْلُ كنوح وإبراهيم وإسماعيل عليهم السلام ، وفي هذا التأويل من التجوز أن جعل سالف الأمم آباء ؛ إذ الناس في الجملة آخرهم من أولهم . ويحتمل اللفظ معنى آخر على أن يُراد بآبائهم الأولين مَن فرَطَ من سلفهم في العرب ، كأنه قال : أفلم يَدَّبَّروا القول أم جاءهم أمر غريب من عند الله لم يأت آباءهم فبهر عقولهم ، ونَبَتْ عنه أذهانُهم ، فكأن التوبيخ يتّسق بأن يُقَدَّر الكلام : أفلم يدَّبَّروا أم بُهرت عقولهم ونَبَت أذهانهم عن أمر من أمور الله غريب في سلفهم؟ والمعنى الأول أبين .

قوله عزّ وجلّ :

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾

هذا أيضاً توبيخ ، والمعنى : ألم يعرفوه صادقاً مدة عمره ولم يقع قط منهم إنكار لمعرفة وجه محمد صلى الله عليه وسلم ، وإنما أنكروا صدقه .

وقوله تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ توبيخٌ أيضاً لأَن الفرق بين الحكمة وفصل الخطاب الذي جاء به وبين ذي الجِنَّة لا يخفى على ذي فِطْرة . ثم بيَّن تعالى حاله عليه الصلاة والسلام في مجيئه بالحق .

وقوله تعالى : ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ﴾ . قال ابن جريج وأَبو صالح : الحقُّ : الله تعالى .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا ليس من نَمَط الآية. وقال غيرهما : الحقُّ هنا: الصوابُ والمستقيم .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا هو الأَحرى ، على أَن يكون المذكور قَبْلُ (١) الذي جاء به محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويستقيم — على هذا — فساد السموات والأَرض ومن فيهن لو كان بحكم هوى هؤلاء ، وذلك أَنهم جعلوا لله شركاء وأَولاداً ، ولو كان هذا حقًّا لم تكن لله تبارك وتعالى الصِّفاتُ العليَّة ، ولو لم يكُن له لم تكُن له تلك الصنعة ولا القدرة ، وكان ذلك فساد السموات والأَرض ومن فيهن ، ومن قال إن الحق في الآية اللهُ تعالى تشَعَّبت له لفظة [ٱتَّبَعَ] وصعُب عليه ترتيب الفساد المذكور في الآية ؛ لأَن لفظة «الاتِّباع» — على كلا الوجهين — إنما هي استعارة بمعنى أَن تكون أَهواؤُهم يصونها الحقُّ ويُقَرِّرها ، فنحن

(١) في قوله تعالى : ﴿بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ .

نجد الله تعالى قد قدَّرَ كُفْرَ أُمَمٍ وأَهواءَهم ، فليس في ذلك فساد سموات ، وأَما الحق نفسه الذي هو الصواب فلو كان طبْق أَهوائهم لفسد كلُّ شيءٍ ، فتأَمَّلْهُ .

وقرأَ ابن وثاب : ﴿وَلَوُ ٱتَّبَعَ﴾ بضم الواو ، قال أَبو الفتح : الضَّمُّ في هذه الواو قليل ، والوجه تشبيهها بواو الجمع كقوله تعالى : ﴿ٱشْتَرَوُا ٱلضَّلَالَةَ﴾(١) .

وقوله تعالى : [بِذِكْرِهِمْ] يحتمل أَن يريد : بِوَعْظهم والبيان لهم ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، وقرأَ(٢) قتادة : [نُذَكِّرُهُمْ] بنون مضمومة وذال مفتوحة وكسر الكاف مشددة(٣) . ويحتمل أَن يريد : بِشَرَفهم ، وهو مروي . وقرأَ عيسى بن عمر ، وابن أَبي إسحق : ﴿أَتَيْتُهُمْ بِذِكْرِهِمْ﴾ بضم تاءِ المتكلم ، وقرأَ ابن أَبي إسحق أَيضاً : ﴿بَلْ أَتَيْتَهُمْ﴾ خطاباً لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقرأَ الجمهور : ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ﴾ أَي جئناهم ، ورُوي عن أَبي عمرو [آتَيْنَاهُمْ] بالمدِّ ، بمعنى أَعطيناهم .

---

(١) من الآية (١٦) من سورة (البقرة) . وذلك أَنهم حركوا الواو بالضم لالتقاء الساكنين لأَنها واو جمع ، على أن بعضهم قد شبه واو الجمع في [ٱشْتَرَوا] بواو ﴿لَوِ ٱتَّبَعَ﴾ هذه وحركها بالكسر فقرأ : ﴿ٱشْتَرَوِا ٱلضَّلَالَةَ﴾ . راجع المحتسب لابن جني .

(٢) في الأصل : وقال قتادة . وفي بعض النسخ سقطت الكلمة فليس فيها قال ولا قرأ .

(٣) أي مع الفعل [أَتَيْنَاهُمْ] بمعنى جئناهم ، وهي قراءة الجمهور .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾ * وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

هذا توبيخ لهم كأَنه قال : أَم سأَلناهم مالا فقلقوا لذلك واستثقلوك من أَجله ؟

وقرأَ حمزة والكسائي : ﴿خَرَاجاً فَخَرَاجُ﴾ . وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وأَبو عمرو ، وعاصم : ﴿خَرْجاً فَخَرَاجُ﴾ . وقرأَ ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : ﴿خَرْجاً فَخَرْجُ﴾ ، وهو المال الذي يُجْبَى ويُؤْتَى به لأَوقاف محدودة ، قال الأَصمعي : الخَرْجُ الجُعْل مرة واحدة ، والخَرَاجُ ما تَرَدَّد لأَوقات مَّا .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا فرق استعمالي ، وإلَّا فهما في اللغة بمعنى ، وقد قرئَ [خَرَاجاً] في قصة ذي القرنين(١) .

---

(١) في قوله تعالى في الآية (٩٤) من سورة الكهف : ﴿ قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً ﴾ .

وقوله : ﴿ فَخَرَاجُ رَبِّكَ﴾ يريد ثوابَه ، سمَّاهُ خراجاً من حيث كان معادلا للخراج في هذا الكلام ، ويحتمل أن يريد بخراج ربك رِزْقَ ربك ، ويؤيد هذا قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّازِقِينَ ﴾ . و « الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ » : دين الإسلام . و [نَاكِبُونَ] معناه : عادلون ومعرضون .

ثم أخبر الله تعالى عنهم أنهم لو زال عنهم القحط ومَنَّ الله عليهم بالخصب ورحمهم بذلك لبقوا على كفرهم ولَجُّوا في طغيانهم . وهذه الآية نزلت في المدة التي أصابت فيها قريشاً السنون الجدبة والجوع الذي دعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : (اللَّهم سبعاً كسني يوسف ...) الحديث (١) .

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الدخان ، ومسلم في المنافقين ، وأحمد في مسنده (١-٣٨٠ ، ٤٣١ ، ٤٤١) ، وقد رواه البخاري من طرق عن مسروق ، وفي الطريق الأول قال : دخلت على عبد الله فقال : إن من العلم أن تقول لمالا تعلم : الله أعلم ، إن الله قال لنبيِّه صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ إن قريشاً لما غلبوا النبي صلى الله عليه وسلم واستعصوا عليه قال : اللّهم أعنِّي عليهم بسبعٍ كسبع يوسف ، فأخذتهم سنةٌ أكلوا فيها العظام والميتة من الجَهْد حتى جعل أحدهم يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجوع ، قالوا : ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ، فقيل له : إن كشفنا عنهم عادوا ، فدعا ربَّه فكشف عنهم فعادوا فانتقم الله منهم يوم بدر ، فذلك قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴾ إلى قوله جلَّ ذكره : ﴿ إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴾ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

هذا إخبارٌ من الله عزَّ وجلَّ عن استكبارهم وطغيانهم بعد ما نالهم من الجوع ، هذا قول رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وابن جريج أن «العذابَ» هو الجوع والجدب المشهور نزوله بهم حتَّى أكلوا الجلود وما جرى مجراها ، وأن «الباب» المتوعد يومُ بدر ، وهذا القول يردُّه أن الجدب الذي نالهم إنما كان بعد وقعة بدر ، ورُوي أنهم لما بلغهم الجهد جاءَ أبو سفيان إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ألست تزعم يا محمد أنك بُعثت رحمة للعالمين ؟ قال : بلى ، قال : فقد قتلت الآباءَ بالسيف والأَبناءَ بالجوع ، وقد أكلنا العِلْهِز ، فنزلت الآية (١) . و [ٱسْتَكَانُوا] معناه : انخفضوا وتواضعوا ، ويحتمل

(١) أخرج ابن جرير ، وأبو نعيم في المعرفة ، والبيهقي في الدلائل ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ثُمامة بن أثال الحنفي لما أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأسلم وهو أسير فخلَّى سبيله لحق باليمامة فحال بين أهل مكة وبين الميرة من اليمامة حتى أكلت قريش العِلْهِز ، فجاء أبو سفيان إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أليس تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين ؟ قال : بلى ، قال : فقد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع . فأنزل الله ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ . هذا والعلهز هو الوَبَرُ بالدم .

أَن يكون من السُّكون ، ويلزمه أَن يكون «اسْتَكَنُوا» ، ووجهه أَن فتحة الكاف مطلت فتولدت أَلف ، ويعطي التصريف أَنه من «كان» ، وأَن وزنه (اسْـتَفْعَلَ) ، وعلى الأَول وزنه (افْتَعَـلَ) ، وكـونه من «كان» أَبْين ، والمعنى : فما طلبوا أَن يكونوا لربهم أَهل طاعة ، وعبيد خير. ورُوي عن الحسن رحمه الله أَنه قال : «إِذا أَصاب الناس من قِبَل الشيطان بلاءٌ فإنما هي نعمة ، فلا تستقبلوا نعمة الله بالحميَّة ، ولكن استقبلوها بالاستغفار ، واستكينوا وتضرعوا إِلى الله» ، وقرأَ هذه الآية ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ .

و «ٱلْعَذَابُ ٱلشَّدِيدُ» إِمَّا يوم بدر بالسيوف كما قال بعضهم ، وإِمَّا توعُّدٌ بعذاب غير معين ، وهو الصواب لما ذكرناه من تقدم بدر للمجاعة ، وروي عن مجاهد أَن العذاب والباب الشديد هو كله في مجاعة قريش .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا حَسَنٌ ، كان «الأَخْذُ» في صدر الأَمر ، ثم فتح الباب عند تناهيه حيث أَبْلَسوا وجاءَ أَبو سفيان .

و «الْمُبْلِسُ» : الذي قد نزل به شرٌّ وييئس من زواله ونسخه بخير .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلۡ قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

ابتدأ تعالى بتعديد نعم في نفس تعديدها استدلال بها على عظيم قدرته ، وأنها لا يعزب عنها أمر البعث ولا يعظم .

و [أَنْشَأَ] بمعنى اخترع ، و «السَّمْعُ» مصدر ، فلذلك وُحِّد ، وقيل : أراد الجنس ، و [ٱلأَفْئِدَةَ] : القلوب ، وهذه إشارة إلى النطق والعقل ، وقوله تعالى : [قَلِيلاً] نعت لمصدر محذوف تقديره : شكراً قليلاً ما تشكرون ، وذهبت فرقة إلى أنه أراد : قليلاً منكم من يشكر ، أي من يؤمن ويشكر حق الشكر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والأول أظهر .

و [ذَرَأَ] معناه : بثَّ وخلق ، وقوله تعالى : ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيه حذف مضاف ، أي : إلى حكمه وقضائه ، و [تُحْشَرُونَ] يريد آية البعث .

وقوله تعالى : ﴿وَلَهُ ٱخْتِلَافُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي : له القدرة التي عنها ذلك . و «الاختلاف» هنا التعاقب والكون خلفه ، ويحتمل أن يكون الذي هو المغايرة البيِّنة .

وقوله تعالى : [بَلْ] إضرابٌ ، والجَحْدُ قبله مقدر . كأنه قال : ليس لهم نظر في هذه الآيات ، أو نحو هذا ، و «الأَوَّلُونَ» يشير به إلى الأُمم الكافرة كعاد وثمود ، وقوله تعالى : ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾ أي لَمُعَادُونَ أحياءً ، وقولهم : [وَآبَاؤُنَا] إنْ حَكَى المقالة عن العرب فمـــرادهم من سلف من العـــالَم ، جعلوهم آباءً من حيث النـــوع واحد ، وإن حَكَى ذلك عن الأَولين فالأَمر مستقيم فيهم . و «الأَسَاطِيرُ» قيل : هي جمع أُسطورة كأُعجوبة وأَعاجيب وأُحدوثة وأَحـــاديث ، وقيل : هي جمـــع جمع ، يقـــال : سطْرٌ وأَسْطَـــارٌ وأَساطـــير .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بتوقيفهم على هذه الأَشياءِ التي لا يمكنهم إلا الإقرار بها ، ويلزم من الإقرار بها أن يؤمنوا بِبَارِئِهَا ويذعنوا لِشَرْعه ورسالة رسوله .

وقرأ الجميع في الأول : [لِلَّهِ] بلا خلاف ، واختلف في الثاني والثالث ، فقرأ أبو عمرو : [ٱللَّهُ] جواباً على اللفظ ، وقرأ باقي السبعة : [لِلَّهِ] جواباً على المعنى ، كأَنه قال في السؤال : لِمَنْ ملك السموات السبع ؟ إذ قولك : لمن هذه الدار ؟ وقولك : من مالك هذه الدار ؟ واحدٌ في المعنى (١) .

---

(١) لا خلاف في الأول بين القراء فهو : ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ لأن اللام تقدمت في قوله : ﴿ لِمَنِ ٱلْأَرْضُ ﴾ عند السؤال فجاءت في الجواب ، واختلف القراء في الثاني والثالث حملا على اللفظ أو على المعنى لأن السؤال خلا من اللام ، فمن قرأ : [ٱللَّهُ] نظر إلى اللفظ ، ومن قرأ [لِلَّهِ] نظر إلى المعنى ، ومن هذا قول الشاعر :

إذا قِيلَ مَنْ رَبُّ المَزَالِفِ والقُرَى ... ورَبُّ الجِيادِ الجُرْدِ قُلْتُ لِخَالِدِ

إذ التقدير : لِمَن المزالف ؟ وهي القرى التي تقع بين البر والبحر .

ثم جعل التوبيخ مدرجاً بحسب وضوح الحجة شيئاً شيئاً ، فوقف على الأَرض ومَنْ فيها وجعل بإزاءِ ذلك التذكُّر ، ثم وقف على السموات السبع والعرش وجعل بإزاءِ ذلك التقية وهي أَبلغ من التذكر ، وهذا بحسب وضوح الحجة ، وفي قوله : ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ وعيد ، ثم وقف على ملكوت كل شيءٍ ، وفي الإِقرار بهذا التزام ما تقع به الغلبة في الاحتجاج ، فوقع التوبيخ بعده في غاية البلاغة بقوله : ﴿فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ . ومعنى [أَنَّى] : كيف؟ ومن أَين؟ ، وفي هذا تقرير سحرهم ، وهو سؤال عن الهيئة التي سحروا بها ، والسحر هنا مستعار لهم ، وهو تشبيه لما وقع منهم من التخايط ووضع الأَفعال والأَقوال غير مواضعها بما يقع من المسحور ، عبَّر عنهم بذلك . وقالت فرقة : [تُسْحَرُونَ] معناه : تمنعون ، وحكى ذلك بعضُهم لغةً .

وقرأ ابن محيصن : [ٱلْعَظِيمُ] برفع الميم ، و [مَلَكُوتُ] مصدر في بنائه مبالغة (١) . و «الإجارة» : المنع من الإنسان ، والمعنى أَن الله تبارك وتعالى إذا منع أَحداً فلا يُقدر عليه ، وإذا أَراد أَحداً فلا مانع له ، وكذلك في سائر قدرته وما نفذ من قضائه ، لا يُعارض ذلك شيءٌ ولا يحيله عن مجراه .

---

(١) وهو كالجَبَرُوت والرَّهَبُوت .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

المعنى : ليس الأَمر كما يقولون من نِسبتهم إلى الله تعالى مالا يليق به ، بل أَتَيْنَاهُمْ . وقرأَ ابن أَبي إسحق : [أَتَيْتَهُمْ] على الخطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم ، و [لَكَاذِبُونَ] يراد به : فيما ذكروا لله تعالى من الصاحبة والولد والشريك . وفي قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلٰهٍ﴾ دليل التمانع ، وهذا هو الفساد الذي تضمنه قوله تعالى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (١) ، والخبر المُخترع محالٌ أَن تتعلق به قدرتان فصاعداً ، ولو اختلف إلٰهانِ في إدارة فمُحال نفوذهما ومحال عجزهما ، فإذا انفردت إرادة الواحد فهو العالي والآخر ليس بإلٰه ، فإن قيل : نُقَدِّرهما (٢) لا يختلفان في إرادةٍ قيل : ذلك يعرض فإذا جوَّزه الكفار قامت الحجة عليهم فإن ما التزم جوازه جارٍ (٣) في الحُجَّة مجرى ما التزم وقوعه .

---

(١) من الآية (٢٢) من سورة (الأنبياء) .

(٢) في بعض النسخ : «فإن قيل : بقُدْرتهما لا يختلفان» .

(٣) في بعض النسخ : «يجري في الحُجَّة» .

وقوله تعالى : [إذاً] جواب لمحذوف تقديره : لو كان معه إلٰه إذاً لذهب كلُّ إلٰه . وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : ﴿عَالِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ بكسر الميم إتباعاً للمكتوبة (١) في قوله : ﴿سُبْحَانَ ٱللَّهِ﴾ ، وقرأ الباقون وأبو بكر عن عاصم : ﴿عَالِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ بالرفع ، والمعنى : هو عالم ، قال الأخفش : الجرُّ أَجْوَد ليكون الكلام من وجه واحد . وقال أبو علي : ووجه الرفع أن الكلام قد انقطع .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والابتداءُ عندي (٢) أبرع .

والفاءُ في قوله تعالى : [فَتَعَالَى] عاطفة بالمعنى ، كأنه قال : «عالم الغيب والشهادة فتعالى» ، وهذا كما تقول : «زيد شجاعٌ فعظمت منزلته» ، أي : شَجُع فعظمت . ويحتمل أن يكون المعنى : فأقول تعالى عما يشركون على إخبار مؤتنف . و «الْغَيْبُ» : ما غاب عن الناس ، و «الشَّهَادَةُ» : ما شهدوه .

---

(١) المكتوبة هي لفظ الجلالة «الله» .

(٢) في بعض النسخ «عنده» أي عند أبي عليٍّ . واخترنا التي نقلها أبو حيان عن ابن عطية وهي التي تتفق مع سياق الكلام . وكذلك جاء في بعض النسخ : «والابتداء عندي أبدع» «بدلا من أبرع» .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾

أَمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يدعو لنفسه بالنجاة من عذاب الظَّلَمة إن كان قضي أن يرى ذلك ، و [إنْ] شرطٌ و [مَا] زائدة ، و [تُرِيَنِّي] جزم بالشرط لزمته النون الثقيلة ، وهي لا تفارق «إمَّا» عند المبرد . ويجوز عند سيبويه أن تفارقها فيقال : «إمَّا تُرِيَنِي» ، لكن استعمال القرآن لزومها فمن هنالك التزمه المبرد .

وهذا الدعاءُ فيه استصحاب الخشية والتحذير من الأَمر المُعَذَّب من أَجله (١) ، ثم نظيره لسائر الأُمة دعاءٌ في جودة الخاتمة . وفي هذه الآية بجملتها إعلامٌ بقرب العذاب منهم كما كان في يوم بدر . وقوله ثانياً : [رَبِّ] اعتراضٌ بين الشرط وجوابه .

---

(١) من المعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم معصوم مما يكون سبباً لجعله مع القوم الظالمين ، وكان صلوات الله وسلامه عليه يعلم ذلك . ويعلم أن الله تعالى لا يجعله في القوم الظالمين إذا نزل بهم العذاب . لكن الله تعالى أمره بذلك إشهاراً للعبودية . وليزيد أجره . وليكون دائماً على ذكر لربه . ولهذا كان صلى الله عليه وسلم كثير الاستغفار لربه .

وفي قوله تعالى : ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ الآية .. أَمْرٌ بالصفح ومكارم الأَخلاق ، وما كان منها لهذا فهو محكم باق في الأُمة أَبداً (١) ، وما فيها من معنى موادعة الكفار وتَرْك التعرض لهم والصفح عن أُمورهم منسوخٌ بالقتال ؛ وقوله تعالى : ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ يقتضي أَنها آية موادعة . وقال مجاهد : الدَّفْع بالتي هي أَحسن هو السلام ، تسلِّم عليه إذا لقيته ، وقال الحسن : والله لا يُصيبها أَحد حتى يكظم غيظه ويصفح عما يكره .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

هذان الطرفان (٢) ، وفي هذه الآية عِدَةٌ للنبي صلى الله عليه وسلم ، أَي : اشتغل أَنت بهذا وكِلْ تعذيبهم والنقمة منهم إلينا ، وأَمره بالتعوُّذ من الشيطان في همزاته ، وهي سورات الغضب التي لا يملك الإنسان فيها نفسه ، وكأَنها هي التي كانت تصيب المؤمنين مع الكفار فتقع الْمُحَادَّة (٣) ، فلذلك اتصلت بهذه الآية ، وقال ابن زيد : هَمْزُ الشيطان : الجنون .

---

(١) نقل القرطبي معنى هذه الآية عن ابن عطية دون أن يشير إليه . وهذه الجملة عنده جاءت في عبارة أوضح . نَصُّها : « فما كان منها لهذه الأمة فيما بينهم فهو محكم باقٍ في الأمة أبداً » . ونعتقد أنها هي العبارة الصحيحة لابن عطية .

(٢) لعلّ المقصود أنهما طرفا هذه المنزلة ، فأدناها كظم الغيظ ، وأعلاها الصفح عن المكروه .

(٣) الحدّة : الغضب والغلظة في القول ، والعنف في المجادلة والحوار . والمحادّةُ : المخالفة والمعاداة والمنازعة ، وهي مفاعلة من الحَدّ ، كأن كل واحد منهما يجاوز حده إلى الآخر . (لسان العرب) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وفي مصنف أَبي داود أَن رسول الله صلى الله عايه وسلم قال : (اللَّهم إني أَعوذ بك من الشيطان همزه ونفخه ونفثه)(١) . قال أَبو داود : وهمْزُه الْمُوتَة وهي الجنون(٢) . ونَفْخُه الكِبر ، ونَفْثُهُ السحر .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والنَّزَعَاتُ وسوراتُ الغضب من الشيطان ، وهي الْمُتَعَوَّذ منها في الآية ، والتَّعوذ من الجنون أَيضاً وكيد ، وفي قراءة أُبيٍّ بن كعب : «ربِّ عائذاً بك من همزات الشياطين . وعائذاً بك ربِّ أَن يحضرون» . وقوله : ﴿أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ معناه : أَن يكونوا معي في أُموري ، فإنهم إذا حضروا الإنسان كانوا معدين للهمز ، فإذا لم يكن حضورٌ فلا همز .

---

(١) والحديث أيضاً في مسند الإمام أحمد . (٣–٥٠ . ٥–٢٥٣) . ولفظه فيه عن أبي أمامة الباهلي : كان نبي الله صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة كبَّر ثلاث مرات . ثم قال : لا إله إلاّ الله ثلاث مرات . وسبحان الله وبحمده ثلاث مرات . ثم قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، من همزه ونفخه ونفثه) .

(٢) ذكرَ في اللسان (همز) الحديث كما سبق ثم زاد عليه : «قيل : يا رسول الله ، ما هَمْزُه ونَفْثُه ونَفْخُه ؟ قال : أمَّا هَمْزُه فالْمُوتَةُ . وأمَّا نَفْثُه فالشعرُ . وأمَّا نَفْخُه فالكِبْرُ» ، وساق هذا على أنه جزءٌ من الحديث . والتفسير للنبي صلى الله عليه وآله وسلم . ثم حكى بعد ذلك عن أبي عبيدة أن المُوتَةَ هي الجنون . وفي كتاب (النهاية في غريب الحديث والأثر) «الهَمْزُ : المُوتَةُ ، الهَمْزُ : النَّخْسُ والغَمْزُ . وكل شيءٍ دفعتَه فقد همزته ، والْمُوتَةُ : الجنون ، والْهَمْزُ أيضاً : الغِيبَةُ والوقيعة في الناس وذكر عيوبهم» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وأصل الهمزِ الدفعُ والوخذ بيدٍ وغيرها ، ومنه هَمْز الخيل وهمز الناس باللسان ، وقيل لبعض العرب : أتهْمز الفارةَ ؟ سُئل بذلك عن اللفظة فظن أن المراد شخص الفأرة فقال : الهِرُّ يهمزها .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ (١٠١) فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (١٠٢) ﴾

[حَتَّى] في هذا الموضع ابتداءٌ ، ويحتمل أن تكون غاية مجردة بتقدير كلامٍ محذوف ، والأول أبْيَن لأن ما بعدها هو المعنيُّ به المقصودُ ذِكْرُه(١) . والضمير في [أَحَدَهُمُ] للكفار ، وقوله : [ٱرْجِعُونِ]

---

(١) نقل أبو حيان الأندلسي هذا الكلام عن ابن عطية ، ثم علّق عليه بقوله : «توهم ابن عطية أن (حتّى) إذا كانت حرف ابتداءٍ لا تكون غاية ، وهي إذا كانت حرف ابتداء لا تفارقها الغاية ، ولم يبين الكلام المحذوف ، والذي يظهر لي أن قبلها جملة محذوفة تكون (حتى) غاية لها ، يدل عليها ما قبلها ، والتقدير : فلا أكون كالكفار الذين تهمزهم الشياطين ويحضرونهم ، حتى إذا جاء أحدهم الموت ، ونظير حذف هذه الجملة قول الشاعر :

فيا عَجَباً حتّى كُلَيْبٌ تَسُبُّني

أي : يَسُبُّني الناسُ حتى كليب ، فدلّ ما بعد حتّى على الجملة المحذوفة ، وفي الآية دلّ ما قبلها عليها » .

معناه : إلى الحياة الدنيا . وجَمْعُ الضمير يتخرج على معنيين : إمَّا أَن يخاطبه مخاطبة الجمع تعظيماً . على نحو إخباره تعالى عن نفسه بنون الجماعة في غير موضع ، وإمَّا أَن تكون استغاثته بربِّه أَوَّلاً ثم خاطب ملائكة العذاب بقوله : [ٱرْجِعُونِ] . وقال الضحاك : هي في المشرك ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها : (إذا عاين المؤمن قالت له الملائكة : نُرجعك ؟ فيقول : إلى دار الهموم والأَحزان ؟ بل قدما إلى الله تعالى ، وأَما الكافر فيقول : (ارجعون لعلِّي أَعمل صالحاً)(١) . وقرأَ الحسن والجمهور : [لَعَلِّي] بسكون الياءِ ، وقرأَ طلحة بن مصرف : [لَعَلِّيَ] بفتح الياءِ ، و [كَلَّا] كلمة زجر وهي من كلام الله تعالى .

وقوله : ﴿ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ﴾ يحتمل ثلاثة معانٍ : أَحدها : الإِخبار المؤكد بأَن هذا الشَّيْءَ يقع ويقول هذه الكلمة ، والآخر: أَن يكون المعنى : إنها كلمة لا تغني أكثر من أَن يقولها ، ولا نفع له فيها ولا غوث ، والثالث : أَن تكون إشارةً إلى أَنه لو رُدَّ لعادَ ، فتكون آية ذمٍّ لهم . والضمير في [وَرَائِهِمْ] للكفار ، أَي يأْتي بعد موتهم حاجزٌ من المُدَّة ، و «البَرْزَخُ» في كلام العرب : الحاجز بين المسافتين ، ثم يستعار

---

(١) أخرجه ابن جرير ، وابن المنذر ، عن ابن جريج ، ذكر ذلك في الدر المنثور ، وفيه : «قال : زعموا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعائشة رضي الله عنها ... الخ الحديث» ، وليس في ابن جرير الطبري كلمة (زعموا) هذه .

لما عدا ذلك . فهو هنا للمُدَّة التي بين موت الإنسان وبين بَعْثه ، هذا إجماعٌ من المفسرين . و [يَوْمِ] مضاف إلى [يُبْعَثُونَ](١) .

وقرأ الجمهور : ﴿في ٱلصُّورِ﴾ وهو القَرْن ، وقرأ ابن عياض(٢). ﴿في ٱلصُّوَرِ﴾ بفتح الواو جمع صورة ، وقوله تعالى : ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ ، اختلف المتأولون في صفة ارتفاع الأنساب - فقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره : هذا عند النفخة الأُولى ، وذلك أن الناس بأجمعهم يموتون فلا يكون بينهم نسب في ذلك الوقت وهم أموات .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا التأويل يزيل ما في الآية من ذكر هول الحشر .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه وغيره : إنما المعنى أنه عند النفخة الثانية وقيام الناس من القبور فهم حينئذ لهول المطلع قد اشتغل كل امرئٍ بنفسه ، قد انقطعت بينهم الوسائل وزال انتفاع الأنساب ، فلذلك نفاها ، فالمعنى : فلا أنساب نافِعَة ، وروي عن قتادة أنه ليس

(١) في الأصول وردت هذه الجملة «و [يَوْمِ] مضاف إلى] يُبْعَثُونَ] » بعد قول المؤلف : «وقرأ ابن عياض [الصُّوَر] بفتح الواو جمع صورة» ، وقدمناها هنا لتكون في الموضع المناسب من الآية التي ذكرت فيها .

(٢) في بعض النسخ : «وقرأ ابن عياض» ، وفي نسخة أخرى : «وقرأ ابن عباس» ، وفي نسخة ثالثة : «وقرأ ابن عامر» ، والذي في البحر المحيط : «وقرأ ابن عباس ، والحسن ، وابن عياض» .

أحد أبغض إلى الإنسان في ذلك اليوم ممن يعرف ، لأنه يخاف أن يكون عنده مظلمة ، وفي ذلك اليوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، ويفرح كل أحد يومئذ أن يكون له حق على ابنه وأبيه ، وقد ورد بهذا حديث . وكذلك ارتفاع التساؤل لهذه الوجوه التي ذكرناها ، ثم يأتي في القيامة مواطن يكون فيها السؤال والتعارف .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا التأويل حسن، وهو مروي المعنى عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وثقل الموازين هو بالحسنات ، والثقل والخفة إنما يتعلقان بأجرام يخترع الله تعالى فيها ذلك ، وهي فيما روي براءات (١) .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾

---

(١) راجع تفسير قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ في الجزء الخامس صفحة ٤٣١ وما بعدها .

جمع «الموازين» من حيث المَوْزون جمع وهي الأَعمال ، ومعنى الوزن : إقامةُ الحجة على الناس بالمحسوس على عادتهم وعرفهم ، ووزن الكافر على أَحد وجهين : إما أَن يوضع كُفره في كفَّة فلا يجد شيئاً يعادله به في الكِفَّة الأُخرى ، وإما أَن توضع أَعماله من صلة رحم ووجْه بِرٍّ في كفَّة الحسنات ثم يوضع كُفره في الكِفَّة الأُخرى فتخف أَعماله .

و «لَفْح النار» : إصابتها بالوهج والإحراق ، وقرأَ أَبو حيوة : [كَلِحُونَ] بغير أَلف ، و «الكَلَحُ» : انكشاف الشفتين عن الأَسنان ، وهذا يعتري الإنسان عند المباطشة عند الغضب ، ويعتري الرؤوس عند النار ، وقد شبَّه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ما في هذه الآية بما يعتري رؤوس الكباش إذا شيطت بالنار فإنها تكْلَح(١) ، ومنها كُلُوح الكلب والأَسد ، ويستعار للزمان والخطوب .

وقوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ قبله محذوف تقديره : يقال لهم ، و «الآياتُ» هنا : القرآن ، وأَخبر عنهم تعالى

---

(١) أخرج الإمام أحمد ، وعبد بن حميد ، والترمذي وصححه ، وابن أبي الدنيا في صفة النار ، وأبو يَعْلى ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في الحلية ، عن أبي سعيد الخدري ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ قال : تشويه النار فتَقَلَّصُ شفته العُلْيا حتى تبلغ وسط رأسه ، وتسترخي شفته السفلى حتَّى تضرب سُرَّته) .

أنهم إذا سمعوا هذا التقرير أذعنوا ، وأقروا على أنفسهم ، وسلموا بقولهم : ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ﴾ . وقرأ جمهور الناس : [شِقْوَتُنَا] بكسر الشين دون ألف ، وهي قراءة الحرميّيْن ، وقرأ حمزة والكسائي : [شَقَاوَتُنَا] بفتح الشين وألف بعد القاف ، وهي قراءة ابن مسعود ، وخير عاصم في الوجهين ، وهما مصدران من شَقِيَ يَشْقَى(١) ، ثم تدرجوا من الإقرار إلى الرغبة والتضرع ، وذلك أنهم ذلُّوا ؛ لأَن الإِقرار بالذنب اعتذار وتنصُّل ، فوقع جواب رغبتهم بحسب ما حَتَم الله تعالى من عذابهم بقوله تعالى : ﴿ٱخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ ، وجاءَ ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ بلفظ نهي وهم لا يستطيعون الكلام على ما رُوي ، فهذه مبالغة في المنع ، ويقال : إن هذه الكلمة إذا سمعوها يئسوا .

وحكى الطبري حديثاً طويلاً في مقاولة تكون بين الكفار وبين مالك خازن النار ، ثم بينهم وبين ربهم ، وآخرها هذه الكلمة «اخْسَئُوا فيها» . قال : فتنطبق عليهم جهنم ، ويقع اليأْسُ ، ويبقون يَنْبَح بعضهم في وجه بعض(٢) .

---

(١) يقال : شَقِيَ يَشْقَى شقاً وشقاءً وشقاوةً وشَقْوةً وشِقْوَةً ، فهذه كلها مصادر للفعل شَقِي . قال الفراءُ : إن (شِقْوَة) كثيرة في كلام العرب ، وأنشد أبو ثَرْوان :

كُلِّفَ مِنْ عَنَائِهِ وشِقْوَتِهْ بِنْتَ ثَمَانِي عَشْرَةٍ مِنْ حَجَّتِهْ

(٢) الحديث أيضاً في الدر المنثور ، وقد ذكر من رواته غير ابن جرير الطبري ، الترمذي ، وابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه ، والبيهقي في البعث . وهو عن أبي الدرداء رضي الله عنه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

واختصرت ذلك الحديث لعدم صحته ، لكن معناه صحيح ، عافانا الله من ناره بِمَنِّه .

وقوله تعالى : [ٱخْسَئُوا] زجْرٌ ، وهو مستعمل في زجر الكلاب ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم لابن صياد : (اخْسَأْ فلن تعدو قَدْرَك) (١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

قرأ هارون : ﴿أَنَّهُ كَانَ﴾ بفتح الألف ، وهي قراءة أُبَيِّ بن كعب رضي الله عنه ، ورُوي أَنَّ في مصحف أُبي بن كعب «أَنْ كان» ،

(١) أخرجه البخاري في الجنائز والجهاد والقدر والأدب ، ومسلم والترمذي في الفتن ، وأبو داود في الملاحم . والدارمي في المقدمة ، وأحمد في المسند ١ـ٣٨٠ ، ولفظه كما في مسند أحمد عن عبد الله قال : كنا نمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فمرَّ بابن صياد ، فقال : إني قد خبأتُ لك خبأ ، قال ابن صيادٍ : دُخْ ، قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اخسأ فلن تعدو قدرك) ، فقال عمر : يا رسول الله دعني أضرب عنقه ، قال : لا ، إن يكن الذي تخاف فلن تستطيع قتله .

وهذا كله متعاضد ، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه : «وَلَا تُكَلِّمُونِ كَانَ فَرِيقٌ» بغير «إنه» ، وهذه تعضد كسر الأَلف من [إِنَّهُ] لأَنها استئناف ، وهذه الهاءُ مبهمة ضمير الأَمر ، والكوفيون يُسَمُّونَهَا المجهولة ، وهي عبارة فاسدة . وهذه الآية كلها ممَّا يقال للكفرة على جهة التوبيخ .

والفريق المشار إليه كلُّ مستضعف من المؤمنين يتفق أَن يكون حاله مع كفار مثل هذه الحال ، ونزلت الآية في كفَّار قريش مع صهيب وعمَّار وبلال رضي الله عنهم ونظرائهم ، ثم هي عامة فيمن جرى مجراهم قديماً وبقية الدهر .

وقرأَ نافع ، وحمزة ، والكسائي : [سُخْرِيًّا] بضم السين ، وقرأَ الباقون : [سِخْرِيًّا] بكسرها ، قالت طائفة هما بمعنى واحد ، ذكر ذلك الطبري ، وقال أَبو زيد الأَنصاري : إنهما بمعنى الهزءِ ، وقال أَبو عبيدة وغيره : إن ضم السين من السخرة والتخديم ، وكسر السين من السخر وهو الاستهزاءُ ، ومنه قول الأَعشى :

إِنِّي أَتاني حَديثٌ لا أُسَــــرُّ بِهِ مِنْ عَلْوَ لا كَذِبٌ فيه وَلَا سَخَرُ (١)

---

(١) البيت لأعشى باهلة ، عامر بن الحارث بن رباح ، وهو مطلع قصيدة يرثي بها أخاه المنتشر ، وهي من المراثي المعدودات ، والبيت في اللسان (لَسَنَ) ، وقد استشهد به على أن (اللسان) بمعنى الرسالة والمقالة ، إذ الرواية فيه : (إنِّي أتتني لِسَانٌ لا أُسَرُّ بها) ، ولهذا أنث الشاعر الفعل فقال : (أَتَتْني) ، كما استشهد به صاحب اللسان في (سخر) على أن السُّخْر =

قال أبو علي : قراءة كسر السين أوجه لأنه بمعنى الاستهزاء والكسر فيه أكثر ، وهو أليق بالآية ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ ؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ألا ترى إلى إجماع القراء على ضم السين في قوله تعالى : : ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا﴾(١) لما تخلَّص الأمر للتخديم ، قال يونس : إذا أُريد التخديم فهو بضم السِّين لاغير ، وإذا أُريد الهُزْءُ فهو بالضم والكسر . وقرأ أصحابُ عبد الله ، والأعرجُ ، وابن أبي إسحق كلَّ ما في القرآن بضم السين ، وقرأ الحسن ، وأبو عمرو كلَّ ما في القرآن بالكسر إلَّا التي في الزخرف (١) فإنهما ضما السين كما فعل الناسُ لأنها من التخديم ، وأضاف الإنساءَ إلى الفريق من حيث كان بسببهم ، والمعنى أن اشتغالهم بالهزء بهؤلاء أنساهم ما ينفعهم .

= والسَّخَر بمعنى الهُزْء، وقال إنه يروى بضم السين وسكون الخاء ، ويروى بفتحهما ، والقصيدة كاملة في الأصمعيات ، والبيت فيها مختلف كثيراً ، عن هذه الروايات التي ذكرناها ، فهو :

قد جاءَ مِنْ عَلِ أنباءٌ أُنَبَّؤُها إليَّ لا عَجَبٌ منها ولا سَخَرُ

وضبط المحقق كلمة (سَخَر) بفتح السين والخاء وبضمهما معاً ، والقصيدة في (جمهرة أشعار العرب) ، وفي (مختارات ابن الشَّجري) ، وفي (أمالي الشريف المرتضي) ، وفي (خزانة الأدب) . مع الاختلاف في بعض الألفاظ ، وفي عدد الأبيات .

(١) في الآية (٣٢) . وفيها يقول عزَّ وجلَّ : ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً﴾ .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر : ﴿ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَائِزُونَ ﴾ بفتح الألف ، ف [جَزَيْتُهُمْ] عامل في [أَنَّ] ، ويجوز أن يعمل في مفعول محذوف ، ويكون التقدير : لأنهم . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وخارجة عن نافع : ﴿ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَائِزُونَ ﴾ بكسر الألف ، فالمفعول الثاني لـ [جَزَيْتُ] مقدر ، تقديره : الجَنَّةَ والرضوان . و [ٱلْفَائِزُونَ] : المُنْتهون إلى غايتهم التي كانت أملهم . ومعنى الفوز : النجاة من هلكة إلى نعمة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَـٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾

قرأ نافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر : ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ ﴾ ، و ﴿ قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ ﴾ ، وروى البَزِّي (١) عن ابن كثير ﴿ قُلْ كَمْ لَبِثْتُمْ ﴾ على الأمر ، و ﴿ قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ ﴾ على الخبر ، وأدغم أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي التَّاء ، والباقون لا يدغمونها ، فمعنى

(١) هو أحمد بن محمد بن عبد الله البَزِّي ، أبو الحسن ، من كبار القراء ، من أهل مكة ، وتوفي بها ، قال ابن الجزري عنه : هو أستاذٌ محقق ضابط متقن ، وعرَّفه ابن الأثير في (اللباب) بصاحب قراءة ابن كثير ، وكان ضعيفاً في الحديث . (اللباب ، وغاية النهاية ، والأعلام) .

الأَول : الإِخبارُ بأَن الله يوفقهم للسؤال عن المدة ثم يعلمهم آخراً بلبثهم قليلا ، ومعنى الثانية : الأَمر لواحد منهم مُشَارٌ إليه ، بمعنى : يقال لأَحدهم قل كذا ، فإذا قال غير القويم قيل له : قل : إن لَبثتم ، ومعنى رواية البزي : التوقيفُ ثم الإِخبارُ ، وفي المصاحف [قَالَ] فيهما ، إلا في مصحف الكوفة فإن فيه [قُلْ] بغير أَلف .

وقوله تعالى : ﴿فِي الأَرْضِ﴾ . قال الطبري : معناه : في الدنيا أَحياءً ، وعن هذا وقع السؤال ، ونسوا لفرط هول العذاب حتى قالوا : ﴿يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والغرض من هذا توقيفهم على أَن أَعمارهم قصيرة ، أَدَّاهم الكفر فيها إلى عذاب طويل .

وقال جمهور المتأَولين : في جوف التراب أَمواتاً .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا هو الأَصوب من حيث أَنكروا البعث وكان قولهم : إنهم لا يقومون من التراب ، قيل لهم لمَّا قاموا : كم لبثتم ؟ وقوله آخراً : ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ يقتضي ما قلناه .

و [عَدَدَ] نصب بـ [كَمْ] على التمييز . وقرأ الأَعمش : ﴿عَدَداً سِنِينَ﴾ بتنوين [عدَداً] .

وقال مجاهد : أَرادوا بـ [ٱلْعَادِّينَ] الملائكة ، وقال قتادة : أَرادوا أَهل الحساب .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وظاهر اللفظة أَنهم أَرادوا من يتصف بهذه الصفة ولم يعيِّنوا ملائكة ولا غيرها ؛ لأَن النائم والميت لايعد الحركة فيقدَّر له الزمان .

وقوله تعالى : ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً﴾ مقصده ــ على القول بأَن المكث في الدنيا ــ أَي قليل القدر في جنب ما تُعَذَّبونَ ، وعلى القول بأَن المكث في القبور معناه أَنه قليلٌ ، إِذْ كُلُّ آتٍ قريبٌ . ولكنكم كذبتم به إِذ كنتم لا تعلمون ؛ إِذْ لم ترغبوا في العلم والهدى .

و [عَبَثاً] معناه : باطلاً لغير غاية مُرَادة . وقرأَ الجمهور : [تُرْجَعُونَ] بضم التاءِ وفتح الجيم ، وقرأَ حمزة والكسائي : [تَرْجِعُونَ] بفتح التاءِ وكسر الجيم ، والمعنى فيهما بيِّن .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾

المعنى : فتعالى الله عن مقالتهم في جهته من الصاحبة والولد ، ومن حسابهم أَنهم لا يرجعــون ، أَي : تَنَزَّه الله عن تلك الأُمــور

وتعالى عنها . وقرأ ابن محيصن : [ٱلْكَرِيمُ] بالرفع صفةً للرَّبِّ .

ثم توَّعد جلَّت قدرته عَبَدَةَ الأَوثان بقوله تبارك وتعالى : ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلٰهاً آخَرَ﴾ الآية ، والوعيد قولُه : ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ .

و «ٱلْبُرْهَانُ» : الحُجَّة ، وظاهر الكلام أَن [مَنْ] شرط ، وجوابه في قوله : ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ ، وقوله : ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ في موضع الصفة . وذهب قومٌ إلى أَن الجواب في قوله : ﴿لَا بُرْهَانَ﴾ ، وهذا هروب من دليل الخِطَاب من أَن يكونَ ثمَّ داع له بُرهان .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا تحفُّظ مما لا يلزم ، ويلحقه حذف الفاءِ من جواب الشرط وهو غير فصيح ، قاله سيبويه . وفي حرف عبد الله : «عِنْد رَبِّكَ» ، وفي حرف أُبيٍّ : «عند الله» ، ورُوي أَن فيه «عَلَى الله» . ثم حتم وأَكَّد أَن الكافر لا يبلغ أُمنيته ولا ينجح سعيُه . وقرأَ الجمهور : ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ﴾ بكسر الأَلف ، وقرأَ الحســـن وقتـــادة : ﴿أَنَّهُ لا يُفْلِحُ﴾ بفتحها ، والمعنى أَنه إِذْ لا يَتَذكَّر ولا يفلح يؤخر حسابه وعذابه حتى يلقى ربَّه . وقرأَ الحسن : [يَفْلَحُ] بفتح الياءِ واللام (١) .

---

(١) يقول بعض العلماء : «افتتح الله السورة بقوله : ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ، وأورد في ختامها قوله : ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ ٱلْكَافِرُونَ﴾ ، فانظر تفاوت ما بين الافتتاح والاختتام .

ثم أَمر رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بالدعاءِ في المغفرة والرحمة والذِّكر له تعالى بأَنه خير الرَّاحمين : لأَن كلَّ راحم فمتصرفٌ على إرادة الله تعالى وتوفيقه وتقديره لمقدار هذه الرحمة . ورحمته تعالى لا مشاركة لأَحدٍ فيها ، وأَيضاً فرحمة كلِّ راحم في أَشياءَ وبأَشياءَ حقيرات بالإضافة إلى المعاني التي تقع في رحمة الله تبارك وتعالى من الاستنقاذ من النار ، وهيئة نعيم الجنة ، وعلى ما في الحديث فرحمة كل راحم مجموعها كلها جزءٌ من مائة من رحمة الله تعالى جلَّت قدرته ؛ إذْ بثَّ في العالَم واحدة وأَمسك عنده تسعة وتسعين (١) .

وقرأَ ابن محيصن : ﴿وَقُلْ رَبُّ ٱغْفِرْ﴾ بضم الباءِ من [رَبُّ](٢) .

تمَّ تفسير سورة المؤمنون والحمد لله ربِّ العالمين

---

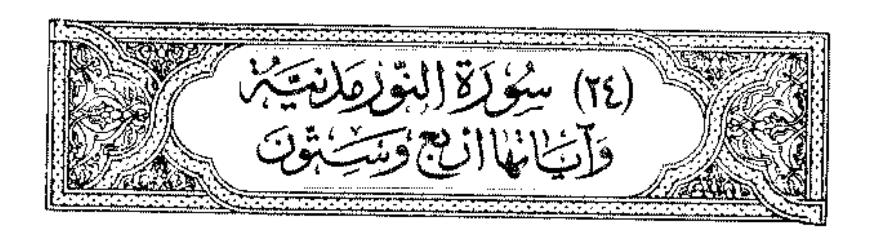
(١) يشير إلى حديث شريف أخرجه البخاري في التوبة والرقاق ، ومسلم في التوبة ، والترمذي في الدعوات ، وابن ماجه في الزهد ، والدارمي في الرقاق ، وأحمد في مسنده (٢-٤٣٣ ، ٥١٤ - ٣-٥٥ ، ٥٦ - ٥-٤٣٩) . وهو في البخاري عن أبي هريرة ، ولفظه فيه أنه رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييْأس من الجنة ، ولو يعلم المؤمن بكلّ الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار) .

(٢) أسند الثعلبيُّ من حديث ابن لَهِيْعَة ، عن عبد الله بن هبيرة ، عن حنش بن عبد الله الصنعاني ، عن عبد الله بن مسعود أنه مرَّ بمصابٍ مُبْتَلىً فقرأ في أُذنه ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً﴾ حتى ختم السورة فبرئ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ماذا قرأتَ في أُذنه) ؟ فأخبره ، فقال : (والّذي نفسي بيده لو أنّ رجلا موقناً قرأها على جبل لزال) .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين

سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



هذه السُّورة كلها مدنية (١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ① ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ② ﴾

قرأ الجمهور : [سُورَةٌ] بالرفع ، وقرأ عيسى بن عمر ، ومجاهد : [سُورَةً] بالنصب ، ورُوي ذلك أيضاً عن عمر بن عبد العزيز ،

(١) بلا خلاف بين العلماء ، وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ، والزُّبَيْر أنهما قالا : « أُنزلت سورة النور بالمدينة » .

وعن أمِّ الدرداءِ (١)، فوَجْه الرفع أنه خبر ابتداءٍ مضمر تقديره : هذه سورة ، أو ابتداءٌ وخبره مفهوم تقديره : فيما يُتلى عليكم ، ويحتمل أن يكون قوله : [سُورَةٌ] ابتداءً ، وما بعدها صفةٌ لها أخرجتها عن حدِّ النكرة المحضة ، فحسُن الابتداءُ لذلك ، ويكون الخبر في قوله تعالى : ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾ وفيما بعد ذلك ، والمعنى : السورةُ المُنَزَّلَةُ المفروضة كذا وكذا ؛ إذ السورة عبارة عن آيات مسرودة لها بدْءٌ وخَتْمٌ ، ولكن يلحق هذا القول أن كون الابتداءِ هو الخبر ليس بالبَيِّن إلَّا أن يُقَـدَّر الخبر في السُّورة بأَسْرِها ، وهذا بعيد في القياس (٢) .

---

(١) في بعض النسخ : «وعن أبي الدرداء» . وأبو الدرداء اسمه عُوَيْمر بن زيد بن قيس الأنصاري ، مشهور بكنيته ، وقيل : اسمه عامر ، وعويمر لقب ، وهو صحابي جليل ، كان عابداً ، مات في آخر خلافة عثمان رضي الله عنه . أمَّا أم الدرداء فهي زَوْجُه ، واسمها هُجَيْمَة ، وقيل : جُهَيْمَة الأوصابية الدمشقية . قال عنها الحافظ العسقلاني : «ثقة ، فقيهة ، ماتت سنة إحدى وثمانين» .

(٢) نقل أبو حيان في البحر المحيط هذه الفقرة عن ابن عطية مع اختلاف في بعض الألفاظ عمَّا هنا ؛ إذ جاء فيه «إلا أن يكون المبتدأ ليس بالبَيِّن أنه الخبر ، إلا أن يقدر الخبر في السورة كلها» ، ومعنى هذا أن قوله تعالى : ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾ وهو مبتدأ ومعطوف عليه ليس بالبَيِّن أنه خبر عن المبتدأ الأول وهو قوله تعالى : [سُورَةٌ] ، لكن لو قَدَّرْنا أن الخبر في السورة كلها لأصبح الأمر بيِّناً واضحاً . وقد جاء في كثير من النسخ زيادة عما هنا قوله : وقول الشاعر : «فارسٌ مَّا تركوه» فقد جاز الابتداء بالنكرة هنا لأنها وصفت بصفة أخرجتها عن حدِّ النكرة المحضة وجاء الخبر بعد ذلك ، فأي تخصيص للنكرة يجعلها صالحة للابتداء .

ووَجْه النصب إضمار فعل قدَّره بعضهم : اتْلُ سورةً . أو نحوه . وجعله بعضهم : أنزلنا سورةً أنزلناها (١)، وقال الفراءُ : هي حالٌ من الهاءِ والألف ، والحال من المكنى يجوز أن تتقدم عليه (٢) .

وقرأ جمهور الناس : [وَفَرَضْنَاهَا] بتخفيف الراءِ ، ومعناه الإثبات والإيجاب بأبلغ وجوهه ، إذ هو مشبَّه بالفرض في الإلزام . وقرأ مجاهد وغيره ، وأبو عمرو ، وابن كثير ، وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، وابن مسعود رضي الله عنه : [وَفَرَّضْنَاهَا] بشدِّ الرَّاءِ ، ومعناه : جعلناها فرائض ، فمن حيث تردَّد ذلك ضُعِّف الفعل للمبالغة والتكثير (٣) . وقرأ الأعمش : ﴿وَفَرَضْنَاهَا لَكُمْ﴾، وحكى الزهراوي عن بعض العلماءِ أنه قال : كلُّ ما في السُّورة من أمر ونهْي فرض .

---

(١) فيكون من باب اشتغال الفعل عن الفاعل بضميره ، ولا محلَّ هنا لجملة [أَنْزَلْنَاهَا] لأنها جملةٌ مفسِّرةٌ ، بخلاف الوجه الأول فإن [أَنْزَلْنَاهَا] في محلٍّ نصب على أنها صفة لقوله سبحانه : [سُورَةً] ، ولكن يترتب على القول بالاشتغال الابتداءُ بالنكرة من غير مُسَوِّغ ، إلا إذا قدرنا لها صفة بحيث يكون التقدير : سورةٌ عظيمة .

(٢) وقيل : إنها منصوبة على الإغراء ، أي : « دُونك سورة » . قال ذلك الزمخشري في الكشاف ، وقد ردَّه أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط وقال : إنه لا يجوز حذف أداة الإغراء .

(٣) وقد يكون التضعيف لبيان أن الله أنزلها قطعاً قطعاً أو نجماً نُجُماً ، لأن الفرض هو القطع . قال ذلك القرطبي .

و «الآيَاتُ البَيِّنَاتُ» : أَمثالُهَا ومواعظها وأَحكامها ، وقال الزهراوي : المعنى : ليس فيها مشكل ، تأْويلها موافق لظاهرها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا تحكُّم .

وقوله تعالى : ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي على توقُّع البشر ورجائهم .

وقرأ جمهور الناس : [ٱلزَّانِيَةُ] بالرفع . وقرأ عيسى الثقفي : [ٱلزَّانِيَةَ] بالنصب ، وهو أوجه عند سيبويه لأَنه عنده كقولك : زيداً اضرب . ووجه الرفع عنده أَنه خبر ابتداءٍ تقديره : فيما يُتلى عليكم الزانية والزاني ، وأَجمع الناس على الرفع وإن كان القياس عند سيبويه النصب . وأَما الفرَّاءُ والمُبَرِّد والزَّجاج فإن الرفع عندهم هو الأَوجه ، والخبر في قوله تعالى : [فَاجْلِدُوا] ؛ لأَن المعنى : إن الزانية والزاني مجلودان بحكم الله تبارك وتعالى ، وهذا قول جيد . وهو قول أَكثر النحاة ، وإن شئت قدرتَ الخبر : ينبغي أَن يُجلدوا . وقرأ ابن مسعود : «وَالزَّانِ» بغير ياءٍ ، وقُدِّمت الزانية في اللفظ من حيث كان في ذلك الزمن زنى النساء أَفْشَى(١) ، وكان لإماءِ العرب وبغايا الوقت رايات ، وكنَّ مجاهرات بذلك ، والعارُ بالنساءِ أَلْحَق

---

(١) نقل القرطبي كلام ابن عطية هنا دون أن يشير إليه ، وجاءت هذه الكلمة في نقله : «كان في ذلك الزمن زنى النساء فاشياً» .

إذ موضوعهن الحجب (١) والصيانة ، فقدم ذكرهن تغليظاً واهتماماً. والألف واللام في قوله : ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾ للجنس ، وذلك يُعطي أنها عامة في جميع الزناة ، وهذه الآية باتِّفاقٍ ناسخةٌ لآية الحبس وآية الأذى اللتين في سورة النساءِ (٢). وجماعة من العلماءِ على عموم هذه الآية ، وأن حكم المحصنين منسوخ منها ، واختلفوا في الناسخ ، فقالت فرقة : النَّاسخُ السُّنَّة المتواترة في الرَّجْم ، وقالت فرقة : بل القرآن الذي ارتفع لفظه وبقي حكمه ، وهو الذي قرأه عُمر رضي الله تعالى عنه على المنبر بمحضر الصحابة رضي الله عنهم «الشَّيْخُ والشَّيْخة إذا زنَيَا فَارْجُمُوهُمَا البتَّة» وقال : إنَّا قرأْناهُ في كتاب الله تعالى (٣)،

(١) في الأصول : «إذ موضوعهن الحجبة» .

(٢) أما آية الحبس فهي قوله تعالى : ﴿وَٱللَّاتِي يَأْتِينَ ٱلْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ ، (١٥ ــ النساء) ، وأما آية الأذى فهي قوله تعالى : ﴿وَٱللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ (١٦ ــ النساء) .

(٣) في صحيح مسلم عن عُبَيْد الله بن عبد الله بن عُتْبة أنه سمع عبد الله بن عباس يقول : قال عمر بن الخطاب وهو جالسٌ على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن الله قد بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق ، وأنزل عليه الكتاب ، فكان مما أنزل عليه آية الرجم ، قرأناها ووعَيْناها وعقلناها ، فرجَمَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده ، فأخشى إن طال بالناس زمانٌ أن يقول قائل : ما نجد الرجم في كتاب الله ، فيضلوا بترك فريضة أنزلها اللهُ ، وإن الرَّجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء إذا قامت البيِّنة أو كان الحَبَل أو الاعترافُ» ، وليس في هذا النص ذكر للآية المنسوخة لفظاً لا حُكْماً . أما لفظها فقد ورد في حديث آخر أخرجه في الحدود أبو داود ، وابن ماجه ، ومالك في موطئه ، =

واتَّفق الجميع على أَن لفظهُ رفع وبقي حكمه ، وقال الحسن بن أَبي الحسن ، وابن راهويه : ليس في هذه الآية نسخٌ ، بل سنَّة الرجم جاءَت بزيادة ، فالمُحْصَنُ — على رأْي هذه الفرقة — يُجلد ثم يرجم ، وهو قول علي بن أَبي طالب رضي الله عنه ، وفعله بشُراحة (١) ، ودليلهم قول النبي صلى الله عليه وسلم : (والثَّيب بالثيب جلْدُ مائة والرجم) (٢) ، ويردُّ عليهم فعل النبي صلى الله عليه وسلم حيثُ رجم ولم يجلد ، وبه قال جمهور الأُمة إِذْ فعله كقوله رفع الجلد عن المحصن ، وقال ابن سلام وغيره : هذه الآية خاصة في البِكْرَيْن.

= وأخرجه أحمد في مسنده (٥—١٨٣) ، ولفظه فيه عن كثير بن الصلت قال: كان ابن العاص وزيد بن ثابت يكتبان المصاحف فمروا على هذه الآية ، فقال زيد : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة) ، فقال عمرو : لما أنزلت هذه أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : أَكْتِبْنِيها ، قال شعبة — أحد الرواة — : فكأنه كره ذلك ، فقال عمرو رضي الله عنه: ألا ترى أن الشيخ إذا لم يحصن جلد وأن الشاب إذا زنى وقد أحصن رجم ؟ .

(١) هي شُراحة الهمدانية ، ثبتت عليها جريمة الزنى فجلدها علي بن أبي طالب رضي الله عنه مائة جلدة ورجمها بعد ذلك ، وقال : جلدتّها بكتاب الله ، ورجمتها بسنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم، يعني أن الجلد تنفيذ لهذه الآية ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي ﴾ ، والرجم اتّباع لما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد رجم الغامدية وماعزاً .

(٢) أخرجه مسلم في الحدود . والبخاري في تفسير سورة النساء ، وكلٌّ مِن أبي داود ، والترمذي ، وابن ماجه ، والدارمي في الحدود ، وأحمد في مسنده (٣—٤٧٦ ، ٥—٣١٣ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢٠) . والحديث كما جاء في مسلم عن عبادة بن الصامت قال : كان نبي الله صلى الله عليه وسلم إذا أُنزل عليه كُرب لذلك وتَرَبَّد له وجهُه ، قال : فأُنزل عليه ذات يوم فلُقِي كذلك ، فلما سُرِّي عنه قال : (خذوا عنِّي فقد جعل الله لهنَّ سبيلا ، الثَّيب بالثَّيب والبِكْر بالبِكْر جَلْدُ مائةٍ ثم رجمٌ بالحجارة ، والبكر جلْد مائة ثم نفي سنة) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

لأنه لم يبق مَنْ هذا حُكْمه إلا البِكْران ، واستدلوا على ذلك بقول النبي صلى الله عليه وسلم : (البِكْر بالبكْر جَلْدُ مائه وتغريب عام)(١)، وبقوله : (على ابنك جَلْدُ مائة)(٢) ، واستدلوا على أنها غير عامة بخروج الإماءِ والعبيد وغيرهم منها ، وقد تقدم بسط كثير من هذه المعاني في سورة النساء(٣) .

---

(١) راجع حديث عُبادة بن الصامت الذي سبق في الهامش ٢ من الصفحة ٤١٨ ، وفي رواية أخرى عن سلمة بن المحبق قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (خُذوا عنّي خذوا عنّي ، قد جعل الله لهنّ سبيلا ، البِكْر بالبِكْر جلد مائة ونفي سنة ، والثيب بالثيب جلد مائة ورجم) ، وقوله : (قد جعل الله لهُنّ سبيلا) يشير إلى الآية الكريمة من سورة النساء ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾ .

(٢) أخرجه البخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، والدارمي ، ومالك في الموطأ ، وأحمد في مسنده ، ولفظه كما جاء في مسلم في كتاب الحدود عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني أنهما قالا : إن رجلا من الأعراب أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أنشدك الله إلا قضيت لي بكتاب الله ، فقال الخصم الآخر — وهو أفقه منه — : نعم فاقض بيننا بكتاب الله وائذن لي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل ، قال : إن ابني كان عسيفاً — أجيراً — على هذا ، فزنى بامرأته ، وإني أُخبرت أن على ابني الرجم ، فافتديتُ منه بمائة شاة ووليدة ، فسألت أهل العلم فأخبروني أنّ ما على ابني جلْد مائة وتغريب عام ، وأن على امرأة هذا الرجم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذي نفسي بيده لأقضيَنّ بينكما بكتاب الله ، الوليدة والغنم ردٌّ ، وعلى ابنك جلْد مائة وتغريب عام ، واغْدُ يا أُنيس إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها . قال : فغدا عليها فاعترفت . فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فرُجمت .

(٣) راجع ذلك ج ٣ ص ٥٢٦ .

والجَلْد يكون والمجلود قاعد عند مالك ، ولا يُجزي عنده إلَّا في الظهر ، وأَصحاب الرأْي والشافعيُّ يرون أَن يُجالد الرجل وهو واقف ، وهو قول علي بن أَبي طالب رضي الله تعالى عنه ، ويُفرَّق الضربُ على كل الأَعضاءِ ، وأَشار ابن عمر رضي الله عنهما بالضرب إلى رِجْلَيْ أَمة جلدها في الزنى ، والإجماع في تسليم الوجه والعورة والمَقَاتل ، ويترجَّح قول مالك رحمه الله بقول النبي صلى الله عليه وسلم : (أَوْ حَدٌّ في ظهرك)(١)، وقال عمر رضي الله عنه : «أَوْ لَأُوْجِعَنَّ مَتْنَكِ»(٢)، ويُعرَّى الرجل عند مالك ، والنَّخَعي ، وأَبي عبيدة بن الجراح ، وابن مسعود ، وعمر بن عبد العزيز ، والحسن ، والشعبي ، وغيرُهم

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ، وكل من أبي داود ، والنسائي ، وابن ماجه في الطلاق ، ولفظه كما رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هلال بن أُمَيَّة قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بشَرِيك بن سحماءَ . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : البيِّنَة أو حَدٌّ في ظهرك ، فقال : يا رسول الله إذا رأى أحدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البيِّنة ؟ فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول : البيِّنَة وإلا حدٌّ في ظهرك ، فقال هلال : والذي بعثك بالحق إني لصادق فَلَيُنْزِلَنَّ الله ما يُبَرِّئُ ظهري من الحدِّ ، فنزل جبريل وأنزل عليه : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ﴾ ، فقرأ حتى بلغ ﴿ إِنْ كَانَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ ﴾ ، فانصرف النبي صلى الله عليه وسلم فأرسل إليها ، فجاء هلالٌ فشهد والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب ؟ ثم قامت فشهدتْ ، فلما كانت عند الخامسة وقَّفوها وقالوا : إنها موجبة ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع ، ثم قالت : لا أفضح قومي سائر اليوم فمضت فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أبصروها فإن جاءت به أكحل العينين سابغ الأليتين خَدَلَّجَ الساقين فهو لشَرِيكِ ابن سحماء . فجاءت به كذلك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن .

(٢) المَتْنُ : الظهر ، يُذَكَّر ويُؤنَّث .

يرون أن يُضرب على قميص ، وهو قول عثمان ، وابن مسعود رضي الله عنهما أيضاً ، وأما المرأة فتُسْتر قولا واحداً .

وقرأ الجمهور : [رأْفَةٌ] بهمزة ساكنة على وزن فَعْلة ، وقرأ ابن كثير : [رَأَفَةٌ] على وزن فَعَلة بفتح العين ، وقرأ عاصم أيضاً : [رَآفَةٌ] على وزن فَعَالة ، كسَآمة وكآبة ، وهذه مصادر أشهرها الأُولى ، من «رَؤُفَ» إذا رقَّ ورحم ، وقرأ الجمهور : [تَأْخُذْكُمْ] بالتاءِ من فوق ، وقرأ أبو عبد الرحمن : [يَأْخُذْكُمْ] بالياءِ من تحت .

واختلف الناس في الرأفة المنهي عنها ، فيم هي ؟ فقال أبو مِجْلَز لاحقُ بن حُمَيد (١) ومجاهد ، وعكرمة ، وعطاءٌ : هي في إسقاط الحدِّ ، أي : أقيموه ولا بُدَّ ، وهذا تأْويل ابن عمر رضي الله عنهما ، وابن جبير ، وغيرهما ، ومن رأْيهم أن الضرب في الزنى والفِرية والخمر على نحو واحد . وقال قتادة ، وابن المسيب ، وغيرهما : الرأْفة المنهيُّ عنها هي تخفيف الضرب عن الزنى ، ومن رأْيهم أن يُخَفَّف ضرب الخمر والفِرْية ويشتد ضرب الزنى ، وقال سليمان بن يسار (٢) :

---

(١) في الأصول «فقال أبو مِجْلَز ولاحق بن حُميد» ، والصحيح أنهما رجل واحد ، هو لاحق بن حُميد بن سعيد السدوسي البصري، أبومِجْلَز ، بكسر الميم وسكون الجيم وفتح اللام بعدها زاي — وهو مشهور بكنيته ، قال عنه العسقلاني في كتابه (تقريب التهذيب) : «ثقة ، من كبار الثالثة ، مات سنة ست ، وقيل تسع ومائة ، وقيل قبل ذلك» .

(٢) سليمان بن يسار الهلالي ، المدني ، مولى ميمونة ، وقيل أم سلمة ، ثقة فاضل ، أحد الفقهاء السبعة ، مات بعد المائة ، وقيل قبلها . (تقريب التهذيب) .

نُهي عن الرأْفة في الوجهين ، وقال أَبو مِجْلَز : إِنَّا لنَرْجُم المحدود ولكن لا نُسقط الحدَّ ، وقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم في السوط : (دون هذا)(١) ضربٌ من الرأْفة . وقال عمر رضي الله عنه : «اضرِب ولا تُبْدِيَنَّ إِبطك» . واتفق الناس على أَن الضرب سوطٌ بين سوطين ، وقال الزهري : ضرب الزنى والفِرية مشدَّد لأَنهما بمعنى واحد ، وضرب الخمر مخفف . وقوله تعالى : ﴿في دِينِ ٱللهِ﴾ بمعنى : في الإخلال بدين الله ، أَي بشرعه ، ويحتمل أَن يكون الدِّين هنا بمعنى الحكم (٢) .

ثم قررهم على معنى التثبيت والحضِّ بقوله : ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ ، وهذا كما تقول لرجل تَحضُّه : إن كنت رجلاً فافعل كذا ، أَي : هذه أَفعال الرجال .

وقوله تعالى : ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ، المقصد بالآية الإغلاظ على الزُّناة والتوبيخ بحضرة الناس ، فلا خلاف أَن

---

(١) روى مالك عن زيد بن أسلم أن رجلا اعترف على نفسه بالزنى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بسَوْط ، فأُتي بسوط مكسور ، فقال : (فوق هذا) ، فأُتي بسَوْط جديد لم تُقطع ثمرته ، فقال : (دون هذا) ، فأُتي بسوْطٍ قد رُكب به ولان . فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فجُلِد ... الحديث . قال أبو عمر : «هكذا روى هذا الحديث مرسلاً جميع رواة الموطأ ، ولا أعلمه يستند بهذا اللفظ بوجه من الوجوه» . وقد روى معْمر عن يحيى بن أبي كثير عن النبي صلى الله عليه وسلم مثله سواءً . وقول الراوي في الحديث : «لم تُقطع ثمرتُه» يريد أن طرفه مُحَدَّد ، لم تنكسر حِدَّته ولم يصر ليِّناً . ومعنى «رُكِب به ولان» أنه لان لكن ليس للدرجة التَّفتُّت والبلى .

(٢) ومن هذا المعنى قوله تعالى : ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ . أي : في حكمه .

الطائفة كلَّما كثرت فهي أليق بامتثال الأَمر . واختلف الناس في أقل ما يُجزي ـ فقال الحسن بن أبي الحسن : لابُدَّ من حضور عشرة ، وقال : إن هذا العدد عقد خارج عن الآحاد وهي أقل الكثرة ، وقال ابن زيد وغيره : لابُدَّ من حضور أربعة ، ورأوا أن شهادة الزنى كذلك وأن هذا باب منه . وقال الزهري : الطائفة ثلاثة فصاعدا . وقال عطاءٌ وعكرمة : لابُدَّ من اثنين ، وهذا مشهور قول مالك ، فرآها موضع شهادة ، وقال مجاهد : يجزي الواحد ويُسمى طائفة ، وقاله ابن عباس رضي الله عنهما ، ونزعا (١) بقوله تعالى : ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي ٱلدِّينِ﴾(٢) وقوله : ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ﴾ (٣) ونزلت في تقاتل رجلين .

واختلف العلماءُ في التغريب . وقد غرَّب الصديق رضي الله عنه إلى فدك ، وهو رأي عمر وعثمان وعلي وأبي ذرٍّ وابن مسعود وأُبيِّ ابن كعب رضي الله تعالى عنهم ، ولكن عمر رضي الله عنه بعد أن نفى رجلاً فَلَحِقَ بالرُّوم فقال : لا أنفي أحداً بعدها ، وفيه عن مالك قولان ، ولا يرى تغريب النساءِ والعبيد ، واحتج بقوله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) يقال : نزع معنىً جيِّداً من الآية . أي : استخرج منها معنىً جيداً .
(٢) من الآية (١٢٢) من سورة (التوبة) .
(٣) من الآية (٩) من سورة (الحجرات) .

(لا تسافر المرأةُ مسيرة يوم إلَّا مع ذي محرم)(١) ، وممن أبى التغريب جملةُ أصحاب الرأي . وقال الشافعي : ينفى البِكر رجلاً كان أو امرأة ، ونفى علي رضي الله تعالى عنه امرأة إلى البصرة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾

في هذه الآية أربعة أوجُه من التأْويل :

أحدها أن يكون مقصد الآية تشنيع وتبشيع أمره ، وأنه مُحَرَّم على المؤمنين ، واتصالُ هذا المعنى بما قبْلُ حسنٌ بليغ ، ويريد بقوله

(١) أخرجه البخاري في تقصير الصلاة والصوم ، ومسلم في الحج ، والترمذي في الرضاع . وابن ماجه في المناسك ، ومالك في الاستئذان من موطئه ، وأحمد في مسنده (١-٢٢٢ ، ٢-١٢ ٣-٣٤ ومواضع أخرى كثيرة) . ولفظه في مُسْند أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا يَخلُوَنَّ رجل بامرأة ، ولا تُسافر امرأة إلا ومعها ذو مَحْرم) . وجاء رجل فقال : إن امرأتي خرجت إلى الحج وإني اكتتبتُ في غزوة كذا وكذا ، قال : (انطلق فاحجج مع امرأتك) . هكذا بدون تحديد للأيام . وفي البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لا تُسافر المرأة ثلاثة أيام إلا مع ذي محرم) ، وفيه أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يَحلُّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم وليلة ليس معها حُرْمَة) .

سبحانه : ﴿لَا يَنْكِحُ﴾ أي لا يطأُ ، فيكون النكاح بمعنى الجماع ، وردَّد القصةَ مبالغة وأخذاً من كلا الطرفين ، ثم زاد تقسيم المشرك والمشركة من حيث الشرك أعم في المعاصي من الزنى ، فالمعنى : الزاني لا يطأُ في وقت زناه إلَّا زانيةً من المسلمين أو من هي أَخَسُّ منها من المشركات ، وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما وأصحابه أن النكاح في هذه الآية الوَطْءُ ، وأنكر الزجاج وقال : لا يُعرف النكاح في كتاب الله تعالى إلا بمعنى التزويج .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وليس كما قال ، وفي القرآن ﴿حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ﴾[1] ، وقد بيَّنه النبي صلى الله عليه وسلم أنه بمعنى الوطء ، وذكر الطبري ما ينحو إلى هذا التأْويل عن سعيد بن جبير ، وابن عباس ، وعكرمة ، ولكن غير ملَخَّص ولا مكمَّل .

والثاني أن تكون الآية نزلت في قوم مخصوصين ، وهذا قول روي معناه عن عبد الله بن عمر ، وعن ابن عباس وأصحابه رضي الله تعالى عنهم ، قالوا : وهم قومٌ كانوا يزنون في جاهليتهم ببغايا مشهورات ، فلما جاءَ الإِسلام وأسلموا لم يمكنهم الزنى ، فأَرادوا – لفقرهم –

---

(١) من الآية (٢٣٠) من سورة (البقرة) .

زواج أُولئك النسوة ؛ إذ كان من عادتهن الإنفاق على من ارتسم بزواجهن . فنزلت الآية بسببهن . والإشارة بـ [ٱلزَّانِـي] إلى أحد أُولئك ، حمل عليه اسم الزنى الذي كان في الجاهليه ، وقوله تعالى : ﴿لَا يَنْكِـحُ﴾ أي لا يتزوج ، وفي الآية — على هذا التأْويل — معنى التفجع عليهم . وفي ذلك توبيخ كأَنه يقول : أيٌّ مصاب ؟ الزاني لا يريد أَن يتزوج إلَّا زانية أَو مشركة ، أَي : تنزع نفوسهم إلى هذه الخسائس لقلة انضباطهم . ويَرِدُ على هذا التأْويل الإجماعُ على أنالزانية لا يجوز أَن يتزوجها مشرك، ثمَّ قوله : ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي نكاح أُولئك البغايا . فيزعم أَهل هذا التأْويل أَن نكاح أُولئك البغايا حرَّمه الله تعالى على أُمَّة محمد صلى الله عليه وسلم .
ومن أَشهرهن عَنَاق البغي ، وكان الذي همَّ بتزوُّجها دَلْدَلُ (١) ، كان يستخرج ضعفة المسلمين من مكة سِرًّا ، ففطنت له ودعتهُ إلى نفسها فأَبى الزنى وأَراد التزويج ، واستأْذن النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية ، ولمَّا دعتهُ وأَبى قالت له : أَنَّى تبرز ؟ والله لأَفضحنَّك (٢) ،

---

(١) اسمه مَرْثد بن أبي مَرْثد ، وكان رجلا قويـاً شديداً . وكان يساعد الضعفاء من المسلمين على الخروج من مكة سراً .

(٢) كان يحمل رجلا من أسارى مكة ، قال : فجئت به حتى انتهيت إلى ظل حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة ، فعرفته عناق ودعته فأبى ، فقالت له : أنَّى تستطيع البروز بمن معك ؟ والله لأفضحنك ، ثم نادت : يا أهل الخيام ، هذا رجل يحمل أسراكم . فتبعه القوم . قال : فاختبأت منهم في كهف ... الخ القصة . وتجدها في الدر المنثور في خبر رواه جمع كبير منهم ابن جرير ، والبيهقي وعبد بن حميد وغيرهم .

وذكر الطبري أن من البغايا المذكورات أُم مَهزول جارية السائب المخزوميّ ، ويقال فيها : أُم مهزوم . وأُم غُلَيط [١] جارية صفوان ابن أُمية ، وحنَّة القبطية جارية العاص بن وائل . ومُزْنة[٢] جارية مالك بن عميلة بن السباق بن عبد الدار . وجلالة [٣] جارية سهيل ابن عمرو . وأُم سويد جارية عمرو بن عثمان المخزوميّ ، وشريفة [٤] جارية زمعة بن الأَسود . وفرسة جارية هشام بن ربيعة ، ومرثنا [٥] جارية هلال بن أَنس . وغيرهن ممن كان لهن رايات تعرف منازلهن بها ، وكذلك كان بالمدينة إماءُ عبد الله بن أُبيٍّ وغيره مشهورات .

وحكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنه قال في سياق هذا التأْويل : «كانت بيوت في الجاهلية تُسمى المواخير ، كانوا يؤجرون فيها فتياتهم . وكانت معلومة للزنى . فحرَّم الله ذلك على المؤمنين» .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ويحتمل أَن يكون هذا الكلام في التأْويل الذي ذكرته قبل هذا .

وواحد المواخير : ماخورٌ ، ومنه قول بعض المحدثين :

(١) في الطبري : أم (عُليط) بالعين . وهي في جميع الأصول هنا بالغين المعجمة .
(٢) هكذا في الأصول . وفي الطبري : «مَريَّة» .
(٣) في الطبري : «حلالة» .
(٤) في الطبري «سريفة» بالسِّين .
(٥) في الطبري «قريبا» . وقد رجعنا إلى الطبري لأن ابن عطية نقل الكلام عنه .

فِي كُلِّ وادٍ هَبَطْنَا فيه دَسْــكَرَة   في كلِّ نَشْزٍ صَعَدْنَا فيه ماخور (١)

والتأْويل الثالث ذَكَرَهُ الزجاج وغيره عن الحسن ، وذلك أنه قال : المرادُ الزاني المحدود والزانية المحدودة(٢) . قال : وهذا حكم من الله تعالى ، فلا يجوز لزانٍ محدُودٍ أن يتزوج إلَّا محدودة . ورُوي أَن محدوداً تزوج غير محدودة فردَّ علي بن أبي طالب نكاحهما ، وقوله تعالى : ﴿ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يريد الزِّنى . وحكى الزهراوي في ذلك حديثاً من طريق أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا ينكح الزاني المجلود إلَّا مثله) . وهذا حديث لا يصح ، وقولٌ فيه نظر ، وإدخال «المشرك» في الآية يردُّه ، وألفاظ الآية تأْباه وإن قُدرت «المشركة» بمعنى الكتابية فلا حيلة في لفظ المشرك .

والرابع قد روي عن سعيد بن المسيب ، وذلك أنه قال : هذا حكم كان في الزُّناة عامة . ألا يتزوج زانٍ إلَّا زانية ، ثم جاءَت الرُّخصة ونُسخ ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَأَنكِحُوا ٱلْأَيَامَى مِنكُمْ ﴾(٣) . ورُوي ترتيب

---

(١) الدَّسْكرة : القرية العظيمة ، والجمع دساكر ، والنَّشْزُ : ما ارتفع وظهر من الأرض ، والجمع نشوزٌ ونشازٌ . والماخور : بيت الريبة . وفي حديث زياد حين قدم البصرة أميراً عليها : ما هذه المواخير ؟ الشراب عليه حرامٌ حتى تُسَوَّى بالأرض هدماً وإحراقاً . قال في اللسان : «هي مجالس الريبة . ومجمع أهل الفسق والفساد . وبيوت الخمارين» .

(٢) يريد : الذي أقيم عليه الحدُّ بالجلد والتغريب .

(٣) من الآية (٣٢) من هذه السورة (النور) .

هذا النسخ أيضاً عن مجاهد ، إلَّا أنه قال : إن التحريم كان في أُولئك النفر خاصةً لا في الزُّناة عامة . ذكر ذلك عنهما أبو عبيدة في ناسخه ، وذكر عن مجاهد أنه قال : حُرِّمَ نكاحُ أُولئك البغايا على أُولئك النفر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وذكر «الإشراك» في الآية يضعِّف هذه المناحي .

وقرأ أبو البرهثيم : «وحرَّم اللهُ ذلك على المؤمنين»(١) .

واختلف فيمن زنى بامرأةٍ وأراد نكاحها ـ فأجاز ذلك أبو بكر الصديق ، وابن عُمر ، وجابر بن عبد الله ، وطاوس ، وابن المسيب ، وجابر بن زيد ، وعطاءٌ ، والحسن ، وعكرمة ، وابن عباس ، ومالك والثوري ، والشافعي (٢) . ومَنَعَه ابن مسعود ، والبراءُ بن عازب ، وعائشة ، وقالوا : لا يزالان زانِيَيْن ما اجتمعا .

---

(١) في البحر المحيط : «وقرأ أبو البرهثيم [وَحَرَّمَ] مبنياً للفاعل ، أي الله » . ومعنى ذلك أن القارئ لم يذكر لفظ الجلالة في الآية .

(٢) أخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، من طريق سعيد مولى ابن عباس رضي الله عنهما قال : كنت مع ابن عباس فأتاه رجل فقال : إني كنت أتبع امرأةً فأصبت منها ما حرَّم الله عليَّ ، وقد رزقني الله منها توبة فأردت أن أتزوجها فقال الناسُ : ﴿ ٱلزَّانِي لا يَنْكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ﴾ ، فقال ابن عباس : ليس هذا موضع هذه الآية ، إنما كُنَّ نساءٌ بغايا متعالنات ، يجعلن على أبوابهن رايات ، يأتيهن الناس يُعرفن بذلك ، فأنزل الله هذه الآية . تزوجها فما كان فيها من إثم فَعَلَيَّ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ ﴾

هذه الآية نزلت في القاذفين ، قال سعيد بن جبير : كان سببها ما قيل في عائشة أُم المؤمنين رضي الله تعالى عنها ، وقيل : بل نزلت بسبب القذف عامة لا في تلك النازلة . وذكر الله تعالى في الآية قذف النساءِ من حيث هو أَهَمُّ ، ورَمْيُهُنَّ بالفاحشة أَبْشَع وأنكى للنفوس ، وقذف الرجال داخل في حكم الآية بالمعنى وإجماع الأُمة على ذلك ، وهذا نحو نصه تعالى على لحم الخنزير ودخول شحمه وغضاريفه ونحو ذلك بالمعنى وبالاجماع . وحكى الزهراوي أَن المعنى : الأَنْفُس المحصنات ، فهي تعُمُّ بلفظها الرجال والنساء ، ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلنِّسَاءِ﴾(١) ، والجمهور على فتح الصاد من [ٱلْمُحْصَنَاتِ] ، وكسرها يحيى بن وثاب . و [ٱلْمُحْصَنَات] : العفائف في هذا الموضع ؛ لأَن هذا هو الذي يجب به جَلْد القاذف ،

(١) من الآية (٢٤) من سورة (النساء) .

والعِفَّةُ أعلى معاني الإحصان ، وفي طيِّه الإسلام ، وفي هذه النازلة الحرية (١) ، ومنه قول حسان :

حَصَانٌ رَزَانٌ . . . .
. . . . (٢)

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ (٣) . وذكر الله تعالى من صفات النساء العفةَ المنافية للرمي بالزنى ، ولتخرج من ذلك

(١) يعني أن الوصف بالإحصان يستلزم الإسلام والحرية ، وهو يشير بذلك إلى أن للقذف شروطاً منها في المقذوف به أن يكون عاقلا بالغاً مسلماً حرّاً عفيفاً عن الفاحشة التي رُمي بها ، قال العلماء : إنما اشترط في المقذوف العقل والبلوغ لأن الحدّ إنما وضع للزجر على الأذى الذي يلحق بالمقذوف ، ولا ضرر يلحق بالمجنون أو بغير البالغ . وهما شرطان أيضاً في القاذف لأنهما أصلان في التكليف ، ولا تكليف بدونهما .

(٢) هذا بداية بيت قاله حسَّان بن ثابت في السيدة عائشة رضي الله عنها ، والبيت بتمامه .

حَصانٌ رَزانٌ ماتُزَنُّ بِريبَةٍ وتُصْبِح غَرْثَى مِنْ لُحُوم الْغَوَافِلِ

والحَصَان : العفيفة أوالمتزوجة ، وكلُّ امرأة عفيفة مُحْصَنَة ومُحْصِنة ، وكل متزوجة مُحْصَنَة ، وكان جمهور القراء على فتح الصاد من [وَٱلْمُحْصَنَاتُ] لأن المراد النساء المتزوجات اللاتي قد أحصنهن أزواجُهن ، ومن قرأ بالكسر ذهب إلى أنها أحصنت نفسها فهي مُحْصِنة . والرَّزَانُ : الوقور من النساء ، يقال : امرأةٌ رزان : ذات ثبات ووقار وعفاف ، رزينة في مجلسها . وما تُزَنُّ بريبةٍ : لا ترمى ولا تتهم بما يريبها أو يعيبها . والغَرَثُ : الجوع ، وقيل : الجوع الشديد ، يقال في الرجل : غرِثَ فهو غَرِثٌ . وفي المرأة : غَرِثَتْ فهي غَرْثَى وغرثانة . والغوافل : كأنه مفهوم من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَاتِ ٱلْغَافِلَاتِ ٱلْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾ . وحسَّان يصفها بالعفة والوقار والبعد عن الريبة والظن ، وبأنها لا تأكل لحوم الغافلات من المؤمنات ، فهي لا تتحدث عنهن بما يشين . والبيت في اللسان : (حصن — زنن — غرث) .

(٣) من الآية (٩١) من سورة (الأنبياء) .

من ثبت عليها الزنى وغير ذلك ممن لم تبلغ الوطء من النساء حسب الخلاف في ذلك .

وعبَّر عن القذف بالرَّمي من حيث معتاد الرمي أنه مُؤْذٍ كالرمي بالحجر والسهم ، فلما كان قول القاذف مؤذياً جعل رمياً ، وهذا كما قال :

. . . . وَجُرْحُ اللِّسَانِ كَجُرْحِ الْيَدِ (١)

والقذف والرمي بمعنى واحد .

وشدَّد الله تعالى على القاذف في أربعة شهداء رحمةً بعباده وستراً لهم . وقرأ جمهور الناس : ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ على إضافة الأربعة إلى الشهداء ، وقرأ عبد الله بن مسلم بن يسار ، وأبو زُرْعة بن جرير : [بِأَرْبَعَةٍ] بالتنوين ، و [شُهَدَاءَ] على هذا إمَّا بدلٌ وإما صفة للأربعة

---

(١) هذا عجز بيت من الشعر ، قاله امرئُ القيس من قصيدة له يتهدد بني أسد ، وفيها يقول :

تَطَاولَ لَيْلُكَ بالإثمِدِ ونَامَ الخَلِيُّ ولَمْ تَرْقُدِ
وباتَ وباتَت لهُ لَيْلَةٌ كَلَيْلَةِ ذي العائِرِ الأرْمَدِ
وذلك من نبَاءٍ جَاءني وخُبِّرْتُهُ عن أبي الأسْوَدِ
ولَوْ عن نَثَا غَيْرِهِ جاءني وجُرْحُ اللسَانِ كَجُرْحِ اليَدِ

والنَّثَا : ما خُبِّرتَ به عن الرجل من حَسَن أو سيِّءٍ . والجَرح بالفتح : الفِعْل ، والجُرْح بالضَّم : الاسم ، يقول : إنه قد يُبلغ باللسان والقول من هجاءٍ وذم ما يُبلغ بالسيف إذا ضُرِب به . وأبو الأسود : رجل من كنانة هجا امرأ القيس . هذا وقد نسب القرطبي في تفسيره هذا الشعر إلى النابغة .

وإمّا حالٌ وإمّا تمييز ، وفي هذين نظرٌ ؛ إذ الحال من نكرة والتمييز مجموع ، وسيبويه يرى أَن تنوين العدد وترك إضافته إنما يجوز في الشِّعر . وقد حسَّن أَبو الفتح هذه القراءة ورجَّحها على قراءة الجمهور (١).

وحكم شهادة الأَربعة أَن تكون على معاينة كالمرود والمكحلة في موطن واحد ، فإن اضطرب منهم واحد جُلد الثلاثة والقاذف ، كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في أَمْر المغيرة بن شعبة ، وذلك أَنه شهد عليه بالزِّنى أَبو بكرة نُفَيْع بن الحارث وأَخوه نافع — وقال الزهراوي : عبد الله بن الحارث — وزياد أَخوهما لأُمٍّ — وهو مستلحق معاوية — وشبل بن معبد الجبلي ، فلما جاءُوا لأَداءِ الشهادة توقف زيادٌ ولم يؤدِّها كاملةً ، فَجَلَدَ عمر رضي الله عنه الثلاثة المذكورين (٢) .

---

(١) قال أبو الفتح في تعليل ذلك : « إن أسماء العدد من الثلاثة إلى العشرة لا تضاف إلى الأوصاف ، لا يقال : عندي ثلاثة ظريفين ، إلاّ في ضرورة إلى إقامة الصفة مقام الموصوف ، وليس ذلك في حسن وضع الاسم هناك . والوجه عندي : ثلاثةٌ ظريفون ، وكذلك قوله : ﴿ بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءَ ﴾ لتجري [شُهَدَاءَ] على [أَرْبَعَةٍ] وصفاً ، فهذا هذا » . (المحتسب ٢—١٠١) .

(٢) المغيرة بن شعبة أحد دهاة العرب وقادتهم وولاتهم ، صحابي ، يقال له : مغيرة الرأي ، تردَّد في دخول الإسلام ثم أسلم . وشهد الحديبية واليمامة وفتوح الشام واليرموك — وفيها ذهبت إحدى عينيه — والقادسية ونهاوند ، ولاَّه عمر رضي الله عنه على البصرة ثم الكوفة . وله ١٣٦ حديثاً ، وهو أول من سُلِّم عليه بالإمرة في الإسلام . والخبر المذكور هنا عن قذفه من قِبل ثلاثة أخرجه عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر عن سعيد بن المسيب ، وكذلك أخرجه ابن جرير في تفسيره ، والأربعة الذين قذفوه هم : نُفَيع بن الحارث — لكن ...

والجَلْدُ : الضربُ ، والمجَادلة : المضاربة في الجلود أو بالجلود ، ثم استعير الجلد لغير ذلك من سيف وغيره ، ومنه قول قيس بن الخطيـم :

أُجَالِدُهُمْ يَوْمَ الْحَدِيقَةِ حـاسِراً كأَنَّ يَدِي بالسَّيْفِ مِخْرَاقُ لاعِبِ (١)

ونصب [ثَمَانِينَ] على المصدر ، و [جَلْدَةً] على التمييز . ثم أمر الله تبارك وتعالى أَلَّا نقبل للقذفة المحدودين شهادةً أبداً ، وهذا يقتضي مدةَ أَعمارهم ، ثم حكم عليهم بأَنهم فاسقون ، أَي خارجون عن طاعة الله عزَّ وجلَّ .

= الزهراوي يقول: إن اسمه عبد الله بن الحارث — وأخوه نافع ، وأخوهما لأمهما زياد ، وشبل بن معبد . لكن عندما تقدموا لأداء الشهادة توقف زيادٌ ، فما كان من عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلا أن جلد الثلاثة وقال لهم : توبوا نقبل شهادتكم ، فتاب رجلان هما نافع وشبل ، ولم يتب أبو بكرة نُفَيع ، وقد حلف ألا يكلم أخاه زياداً بسبب تراجعه عن الشهادة ، ولم يكلمه فعلا حتى مات .

(١) هذا البيت من قصيدة قالها قيس بن الخطيم في حرب سميت حرب حاطب ، ومن أيامها يومُ الحديقة ، وهي قرية من أعراض المدينة في طريق مكة كانت بها وقعة بين الأوْس والخزرج قبل الإسلام ، وكانت للخزرج ، وفي الأغاني عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس يوماً إلى جماعة من الخزرج فاستنشدهم هذه القصيدة ، فأنشده بعضهم إياها ، فلما بلغ هذا البيت التفت إليهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه وسألهم : هل كان كما ذكر ؟ فشهد له ثابت بن قيس . والمِخْرَاق : ما يلعب به الصبيان من الخِرَق المفتولة ، قال ابن سيده : « هو منديل أو نحوه يُلْوى فيضرب به ، وهو لعبة يلعب بها الصبيان » ، وهو المعروف في مصر باسم : الطُّرَّة .

ثمَّ استثنى جلَّ وعزَّ من تاب وأصلح من بعد القذف ، فإنه وعدهم بالرحمة والمغفرة . فتضمنت الآية ثلاثة أحكام في القاذف : جَلْدُه ، وردُّ شهادته أَبداً ، وفسقه ، فالاستثناءُ غير عامل في جَلْده بإجماع [١] ، وعامل في فسقه بإجماع [٢] ، واختلف الناس في عمله في الشهادة — فقال شريح القاضي ، وإبراهيم النَّخَعي ، والحسن ، والثوري ، وأبو حنيفة : لا يعمل الاستثناءُ في ردِّ شهادته [٣] ، وإنما يزول فِسقه عند الله تعالى ، وأما شهادة القاذف فلا تقبل البتَّة ولو تاب وأكذب نفسه ولا بحالٍ من الأَحوال . وقال جمهور الناس : الاستثناءُ عامل في ردِّ الشهادة ، فإذا تاب القاذف قبلت شهادته ، ثم اختلفوا في صورة توبته — فمذهب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، والشعبي وغيره أن توبته لا تكون إلَّا بأَن يكذب نفسه في ذلك القذف الذي حُدَّ فيه ، وهكذا فعل شبل بن معبد ، ونافع ، تابا عن القول في المغيرة ، وأكذبا أنفسهما فقبل عمر رضي الله عنه شهادتهما ، وأبى أبو بكرة

---

(١) لأن الحدّ حق للمقذوفة . والتوبة لا تُسقط حقَّها ، وحقوق الآدميين التي أوجبها الله لبعضهم على بعض لا تزول إلا بأدائها أو عفو أصحابها .

(٢) لأن الفِسْق صفة ذميمة يتصف بها العبد . فإن تاب عفا الله عنه ووضع عنه عقوبة التسمية الذميمة .

(٣) لأن الآية خصتها بالرّفض الأبدي . والله تعالى يقول : ﴿ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَـــدًا ﴾ .

نُفَيْع من إكذاب نفسه فردَّ عمر رضي الله عنه شهادته حتى مات .

وقالت فرقة – منها مالك رحمه الله ، وغيره – : توبتُه أن يَصْلُح وتَحْسُن حاله وإن لم يرجع عن قوله بتكذيب .

واختلف فقهاءُ المالكيين ، متى تسقط شهادة القاذف ؟ فقال ابن الماجشون : بنفس قذفه ، وقال أبو القاسم ، وأشهب ، وسُحنون : لا تسقط حتى يُجلد ، فإن منع من جَلْده مانع – عفوٌ أو غيره – لم تُرَدَّ شهادته . قال الشيخ أبو الحسن اللخمي : شهادته في مدة الأَجل في الإثبات موقوفة ، ورجَّح القول بأن التوبة إما أن تكون بالتكذيب في القذف وإلَّا فأيُّ رجوع لعدل إنْ قَذف وحُدَّ وبقي على عدالته ، و [تَابُوا] معناه : رجعوا ؟ (١)

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ترجيح ، وقد رجَّح الطبريُّ وغيره قول مالك .

واخْتُلف أيضاً – على القول بجواز شهادته بعد التوبة – في أي شيءٍ تجوز شهادته ؟ فقال مالك رحمه الله : تجوز في كل شيءٍ بإطلاق ، وكذلك كلُّ من حُدَّ في شيءٍ من الأَشياء . وقال سُحْنون رحمه الله : من حُدَّ في شيءٍ من الأَشياء فلا تجوز شهادته في مثل ما حُدَّ فيه .

(١) نقل القرطبي كل هذا الكلام عن ابن عطية .

وقال مطرِّف ، وابن الماجشون : من حُدَّ في قذف أو زِنى فلا تجوز شهادته في شيءٍ من وجوه الزنى ولا في قَذْفٍ ولا في لِعَانٍ وإن كان عدلا ، رويا هذا القول عن مالك ، واتفقوا – فيما أحفظه – على ولد الزنى أن شهادته لا تجوز في الزِّنى .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾

لما نزلت الآية المتقدمة في الذين يرمون المحصنات تناول ظاهرُها الأزواج وغيرَهُن ، فقال سعد بن عُبادة : يا رسول الله إنْ وجدت مع امرأتي رجلا أُمهله حتى آتي بأربعة ؟ والله لأضربنَّه بالسيف غير مُصْفح عنه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أتعجبون من غيرة سعد ؟ لأنا أغير من سعد والله أغير مني)(١) ، وفي ألفاظ سعد

(١) أخرجه أحمد ، وعبد الرزاق ، والطيالسي ، وعبد بن حميد ، وأبو داود ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، =

روايات مختلفة ، وهذا نحو معناها ، ثم جاء بعد ذلك هلال بن أُمَيَّة الواقفي فرمى زوجته بشَريك بن السَّحْماءِ الْبَلَوي ، فعزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ضربه حدَّ القذف فنزلت هذه الآية ، فجمعهما رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد وتلاعنا فتلكأَت المرأة عند الخامسة لما وُعظَت وقيل : إنها مُوجبة ، فقالت : لا أفضح قومي سائر اليوم واجَّت ، وفرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما ، وولدت غلاماً كأَنه جمل أَورق (١) ، ثم كان ـ بعد ذلك ـ الغلامُ أَميراً بمصر وهو لا يعرف لنفسه أَباً . وجاء أَيضاً عُوَيْمر العَجْلاني فرمى امرأَته ولَاعَنَ (٢) ، والمشهور أَن نازلة هلال قَبْلُ وأَنها سبب الآية ،

= وفي بعض الروايات ـ على ما ذكره السيوطي في الدر المنثور ـ أن الآية لما نزلت قال سعد بن عبادة : أهكذا أنزلت يا رسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا معشر الأنصار ألا تسمعون ما يقول سيِّدكم ؟ قالوا : يا رسول الله لا تلُمْه فإنه رجل غيور ، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكراً ، وما طلَّق امرأة قط فاجترأ رجلٌ منا على أن يتزوجها من شدة غيرته . فقال سعد : يا رسول الله إني لأعلم أنها حق وأنها من الله ، ولكني تعجبت ، إني لو وجدت لكاعاً قد تفخَّذها رجلٌ لم يكن لي أن أهيجه ولا أُحركه حتى آتي بأربعة شهداء ، فوالله لا آتي بهم حتى يقضي حاجته . ثم حدثت قصةُ هلال بن أُمية ، وقال الأنصار : قد ابتُلينا بما قال سعد بن عبادة الآن . وقد ذكرنا الخبر كاملا في الهامش (١) من صفحة (٤٢٠) من هذا الجزء .

(١) الأَوْرَقُ من كلِّ شيء : ماكان لونه لون الرماد ، ومن الناس : الأسمر ، ومن الإبل : ما في لونه بياض إلى سواد .

(٢) أخرجه عبد الرزاق ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والطبراني ، عن سهل بن سعد ، وفي الخبر ـ كما ذكره الإمام السيوطي في الدر المنثور ـ أن عُوَيْمر جاء إلى عاصم بن عدي فقال : سلْ رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرأيت رجلا وجد مع امرأته رجلا فقتله أيُقْتَلُ به =

وقيل : نازلة عُوَيْمر قَبْلُ ، وهو الذي وسط إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عاصم بن عدي (١) .

و «الأَزْوَاجُ» في هذا الحُكْم يعُمُّ المسلمات والكافرات والإماء ، فكلهنَّ يلاعنهنَّ الزوج للانتفاء من الحمل ، وتختص الحرَّة برفع حدِّ القذف عن نفسه (٢) .

وقرأ الجمهور : ﴿أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ﴾ بالنصب ، وهو كانتصاب المصدر ، والعامل في ذلك قوله : [فَشَهَادَةُ] ، ورفع «الشهادة» على خبر ابتداءٍ تقديره : فالحُكْمُ أو فالواجبُ ، أو على الابتداء بتقدير : فَعَلَيْهِم أن يشهدوا ، أَوْ بتقدير حذف الخبر وتقديره في آخر الآية : كافيةٌ أو واجبةٌ .

وقوله تعالى : [بِاللهِ] من صلة [شَهَادَاتٍ] ، ويجوز أن يكون من صلة [فَشَهَادَةُ] .

= أمْ كيف يصنع؟ فسأل عاصم رسول الله صلى الله عليه وسلم فعاب رسول الله صلى الله عليه وسلم المسائل . فلقيه عُوَيْمر فقال : ما صنعت ؟ فقال : إنك لم تأتني بخير . سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعاب المسائل ، فقال : والله لآتين رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأسألنه ، فأتاه فوجده قد أُنزل عليه ، فدعا بهما فلاعن بينهما .

(١) نقل القرطبي عن أبي عبد الله بن أبي صفرة ، قال : الصحيح أن القاذف لزوجه عُوَيْمر ، وهلال بن أُمية خطأ ، ثم نقل عن الطبري أنه استنكر أن يكون هو هلال بن أُمية ، وأنه قال : «وإنما القاذف عُوَيْمر بن زيد بن الجَدّ بن العجلاني ، شهد أُحُداً مع النبي صلى الله عليه وسلم ، رماها بشَرِيك بن السَّحْماء ، والسَّحْماء أُمُّه ، قيل لها ذلك لسوادها ، وهو ابن عبدة بن الجَدّ بن العجلاني ، كذلك كان يقول أهل الأخبار» راجع القرطبي (١٢-١٨٤) .

(٢) يعني أنه يلاعنها لرفع حد القذف عن نفسه .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : ﴿ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ ﴾ بالرفع ، وذلك على خبر قوله تعالى : [فَشَهَادَةُ] ، قال أبو حاتم : لا وجه للرفع لأَن الشهادة ليست بأَربع شهاداتٍ ، و [بِاللهِ] – على هذه القراءة – من صلة [شَهَادَات] . ولا يجوز أَن يكون من صلة [فشهادة] لأَنك كنت تفصل بين الصلة والموصول بالخبر الذي هو ﴿ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَمِنَ ٱلصَّادِقِينَ ﴾ في قول من نصب ﴿ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ ﴾ يجوز أَن يكون من صلة [شَهَادَةُ] ، وهي جملة في موضع نصب لأَن « الشهادة » أَوقعتها موقع المفعول به ، ومن رفع ﴿ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ ﴾ فقوله : ﴿ إِنَّهُ لَمِنَ ٱلصَّادِقِينَ ﴾ من صلة [شَهَادَاتٍ] لعلة الفصل المتقدمة في قوله : [بِاللهِ] .

وقرأ حفص عن عاصم : [وَٱلْخَامِسَةَ] بالنصب في الثانية ، وقرأها بالنصب فيهما طلحةُ بن مصرف ، وأَبو عبد الرحمن ، والحسن ، والأَعمش ، وقرأ الجمهور فيهما : [وَٱلْخَامِسَةُ] بالرفع ، فأَمَّا من نَصَب فإِنْ كانَ في قراءته نصب قوله تعالى : ﴿ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ ﴾ فإِنه عطف [ٱلْخَامِسَةَ] على ذلك لأَنها من الشهادات ، وإِن كان يقرأُ : ﴿ أَرْبَعُ شَهَادَات ﴾ بالرفع فإِنه جعل نَصْب قوله : [وَٱلْخَامِسَةَ] على فعل يدل

عليه متقدم الكلام ، تقديره : وتشهد الخامسةَ ، وأما من رفع قوله : [وَالْخَامِسَةُ] فإن كان يقرأُ : ﴿أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ﴾ بالرفع فقوله : [وَالْخَامِسَةُ] عطف على ذلك ، وإن كان يقرأُ ﴿أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ﴾ بالنصب فإنه حمل قوله : [وَالْخَامِسَةُ] على المعنى ؛ لأَن معنى قوله : ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ﴾ : عليهم أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ والخَامِسَةُ ، واستشهد أبو عليٍّ لهذا بحمل الشاعر :

وَمُشَجَّجٌ أَمَّا سَوَاءُ ... البيت . . . .

على قوله :

. . . . إِلَّا رَوَاكِدَ جَمْرُهُنَّ هَبَاءُ (١)

---

(١) هذه أجزاء من بيتين استشهد بهما ابن عطية ، وعلى عادته اكتفى بموضع الشاهد فقط من كل بيت ، والبيتان في كتاب سيبويه ، وهما بتمامهما :

بادَتْ وغَيَّرَ آيَهُنَّ مَعَ البِلَى   إلا رواكِدَ جَمْرُهُنَّ هَبَاءُ

ومُشَجَّجٌ أمَّا سَوَاءُ قَذَالِهِ   فَبَدَا وغَيَّرَ سَارَهُ المَعْزَاءُ

وسيبويه يستشهد بهما في مجال العطف على المجرور ، فأنت تقول : « هذا ضاربُ زيدٍ وعمرٍو » إذا أشركت بين الآخر والأول في الجار لأنه لا مانع من ذلك ، وإن شئت نصبتَ على المعنى وتُضْمِر له ناصباً ، فتقول : « هذا ضاربُ زيدٍ وعَمْراً » كأنه قال : ويضرب عَمْراً أو ضاربٌ عَمْراً ، وإنما جاز هذا الإضمار عنده لأن معنى الكلام في قولك : « هذا ضاربُ زيدٍ » : هذا ضربَ زيداً ، فيجوز لك أن تقول : وضربَ عمْراً ، وهذا حمل على المعنى ، وقد قال الله تعالى : ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ وَحُورٌ عِينٌ﴾ ، فالمعنى في الآية : لَهُمْ فيها لَحْمُ طَيْرٍ ، ولهذا رُفِعَ [حُورٌ] حَمْلاً على المعنى ، ثم استشهد بالبيتين ، وفيهما رفع الشاعر قوله : « ومُشَجَّجٌ » مع أنّه في أصل الكلام معطوف على « رواكدَ » في البيت السابق ، وحقّه النصب ، لكنه رفعه حملا على المعنى ، كأنه قال: بها رواكدُ ومُشَجَّجٌ .

لأَن المعنى : ثَمَّ رَوَاكِدُ . ولا خلاف في السَّبْع في رفع قوله تعالى : [وَالْخَامسَةُ] في الأُولى . وإنما خلاف السَّبع في الثانية فقط ، فنصبه حَمْلٌ على قوله : ﴿ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ ﴾ . [وَالْخَامِسَةُ] على القطع والحمل على المعنى (١).

وقرأ نافع : ﴿ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ ﴾(٢) ، و ﴿ أَنْ غَضِبَ اللهُ ﴾(٣) ، وقرأ الأَعرج ، والحسن ، وقتادة ، وأبو رجاءٍ ، وعيسى : ﴿ أَنْ لَعْنَةُ

= ومعنى بادت : بليت وذهبت ، والآيُ : جمع آية وهي آثارُ الديار وعلاماتُها . والبِلى : تقادم العهد . والرواكد : يريد بها الأثافي وهي الأحجار التي توضع عليها القدر عند طهي الطعام ، سميت بذلك لثبوتها وبقائها في مكانها . والراكد هو الثابت الساكن في موقعه . والهَبَاءُ : الغبارُ ، جعل الجَمْرَ كالهباء لِقِدَمِه وانسحاقه . والمُشَجَّجُ : الوَتَد من أوتاد الخباء ، وشجُّه أو تشجيجه هو شقه بالضرب على رأسه لتثبيته . والقذال : جماع مؤخر الرأس من الإنسان والفرس ، والمراد به هنا أعلى الوتد . وسواؤُه : وسَطُهُ . وسَارُهُ : سائره وجميعه . وهي لغةٌ في سائره . قال في اللسان : «وسارُهُ : جميعُه ، يجوز أن يكون من الباب لسعة الباب (س ي ر) ، وأن يكون من الواو لأنها عين . وكلاهما قد قيل» . وقال الشنتمري : «حذف عين الفعل لاعتلاله . ونظيره هارٍ بمعنى هائر . وشاكٍ بمعنى شائك» . والمَعْزَاءُ : الأرض الحَزْنة الغليظة ذات الحجارة . وجمعها الأماعز ، وكانوا يتحرَّوْن أن ينزلوا في الأراضي الصلبة ليكونوا بمعزل عن السبيل . والمَعْزاءُ بفتح الميم ، وقد ضبطها بعضهم بالكسر وهو خطأ .

هذا والبيت الثاني في اللسان والتاج وأساس البلاغة . وقد ضبطه محقق اللسان «ومُشَجَّجٍ» بالكسر . والأحسن ما ذكرناه ها هنا وهو الموافق لرأي سيبويه .

(١) هكذا في الأصول . والذي نفهمه من كلامه أنه حدث خلافٌ في قراءة [وَالْخَامِسَةَ] الثانية . فمن نصبها فقد عطفها على قوله : ﴿ أَرْبَعَ شهَادَاتٍ ﴾ إذا كان يقرؤها بنصب [أَرْبَعَ] ، ومن قرأ [وَالْخَامِسَةُ] بالرفع فقد حملها على المعنى في قوله : ﴿ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ ﴾ ، لأن المعنى فيها : عليهم أَرْبَعُ شهادات .

(٢) بتخفيف [أَنْ] ورفع [لَعْنَةُ] ولفظ الجلالة مضاف إلى [لَعْنَةُ] .

(٣) بتخفيف [أَنْ] و [غَضِبَ] فعلٌ ماضٍ ، ولفظ الجلالة مرفوع ، وهي «أَنْ» المخففة من الثقيلة لمَّا خُفِّفَت حذف اسمها وهو ضمير الشأن .

ٱللَّهِ﴾(١)، و﴿أَنْ غَضَبُ ٱللَّهِ﴾(٢)، وهذا على إضمار الأمر، وهي الخفيفة كما هي في قول الشاعر:

فِي فِتْيَةٍ كَسُيُوفِ الهِنْدِ قَدْ عَلِمُوا أَنْ هالِكٌ كلُّ مَنْ يَحْفَى وَيَنْتَعِلُ (٣)

وقرأ باقي السبعة: ﴿أَنَّ لَعْنَةَ ٱللَّهِ﴾ و﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ﴾ بتشديد النون فيهما ونصب اللعنة والغضب، ورجَّح الأخفش القراءة بتثقيل النون لأن الخفيفة إنما يراد بها التثقيل ويضمر معها الأمر والشأن، وما لا يُحتاج معه إلى إضمارٍ أولى.

---

(١) كقراءة نافع، وفي قراءة الأعرج بها خلاف. وهي أيضاً قراءة سلام. وعمرو ابن ميمون، ويعقوب ـ بخلاف عنه ـ.

(٢) بتخفيف [أنْ] و[غَضَبُ] مصدر مرفوع.

(٣) البيت للأعشى، وهو في الديوان، ورواية العَجُز فيه «أنْ ليْسَ يَدْفَعُ عن ذي الحِيلَةِ الحِيَلُ»، وهو أيضاً في العيني. وابن يعيش، وخزانة الأدب. والخصائص لابن جنّي، والمنْصف. والإنصاف. وابن الشجري. والهمع. وفي كتاب سيبويه. استشهد به أكثر من مرة. وهو من قصيدة الأعشى المعروفة التي بدأها بقوله:

وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعاً أيُّهَا الرَّجُلُ؟

يقولها ليزيد بن مسهر الشيباني. والشاعر في البيت وما قبله وبعده يتحدث عن أصدقائه ويصفهم بأنهم كالسيوف الهندية مضاءً وعزيمة. أو استقامة ورشاقة. وأنهم يعلمون أن الحياة فانية، وكل من عليها ذاهب. ولهذا فهم يقبلون على اللذات. والشاهد في البيت تقدير ضمير الشأن، وهذا ما عناه ابن عطية حين قال: «وهذا على إضمار الأمر. وهي الخفيفة». فـ «أنْ» في البيت مخففة من الثقيلة. واسمها ضمير الشأن. والجملة بعدها هي الخبر. قال ابن الحاجب في شرح المفصل: «لولا أن ضمير الشأن مقدر ها هنا لم يستقم تقديم الخبر. فالذي سوّغ تقديم الخبر كون الجملة واقعة خبراً لا كون «أنّ» بطل عملها فصار ما بعدها مبتدأ وخبراً؛ لأنهم يعتبرون مع التخفيف ما يعتبرونه مع التشديد من امتناع تقديم خبرها».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

لا سيما وأن الخفيفة – على قراءة نافع – في قوله تعالى : ﴿أَنْ غَضِبَ ٱللهُ﴾ قد وَلِيَهَا الفِعْل . قال أبو علي : وأهل العربية يستقبحون أن يليها الفعل إلا أن يفصل بينها وبينه شيءٌ نحو قوله تعالى : ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ﴾(١) ، وقوله تعالى : ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً﴾(٢) ، وأما قوله : ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (٣) فذلك لقلة تمكن «ليْسَ» في الأفعال . وأما قوله تعالى : ﴿أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي ٱلنَّارِ﴾(٤) فـ [بُورِكَ] على معنى الدعاء فلم يجز دخول الفاصل لئلا يفسد المعنى . (٥)

و «ٱلْعَذَابُ ٱلْمُدْرَأُ» في قول العلماء : الحدُّ ، وحكى الطبري عن آخرين أنه الحبس ، وهذا قول أصحاب الرأي ، وأنه لا حدَّ عليها إن لم تُلاعن ، وليس يوجبه عليها قول الزوج .

---

(١) من الآية (٢٠) من سورة (المزمّل) .
(٢) من الآية (٨٩) من سورة (طه) .
(٣) الآية (٣٩) من سورة (النجم) .
(٤) من الآية (٨) من سورة (النمل) .
(٥) علّق أبو حيان في البحر المحيط على هذا بقوله : «ولا فرق بين ﴿أَنْ غَضِبَ ٱللهُ﴾ و ﴿أَنْ بُورِكَ﴾ في كون الفعل بعد [أَنْ] دعاءً . ولم يتبيَّن ذلك ابن عطية . وبكون [غَضِبَ] دعاءً مثَّل النحاةُ أنه إذا كان الفعل دُعاءً لا يفصل بينه وبين (أَنْ) بشيء» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وظاهر الحديث الوقفة في الخامسة حين تلكأت ثم مرت في لعانها أنها كانت تحدّ لقول النبي صلى ٱلله عليه وسلم لها : (فعذاب الدنيا أيسر من عذاب الآخرة) (١) .

وجُعلت اللعنةُ للرجل الكاذب لأَنه مُفْتر مباهت بالقول فأُبعد باللَّعنة ، وجُعل الغضب الذي هو أَشَدُّ على المرأَة التي باشرت المعصية بالفعل ثم كذبت وباهتت بالقول ، فهذا معنى هذه الأَلفاظ ، والله أَعلم .

ولابُدَّ أَن نذكر في تفسير هذه الآية ما يتعلق بها من مسائل اللعان إذ لا يستغنى عنها في معرفة حكمه وحيث يجب ، وأَجمع مالك وأَصحابه على وجوب اللعان بادعاءِ رؤْية زنى لا وطءَ بعده من الزوج (٢) . وكذلك مشهور المذهب وقول مالك أَنَّ اللعان يجب بنفي حَمْل يدعى قبله استبراءٌ ، وحكى اللخمي عن مالك أنه قال مرة : لا يُنفى الولد بالاستبراءِ لأَن الحيض يأْتي على الحَمْل ، وقاله أَشهب في كتاب ابن المواز ، وقاله المغيرة ، وقال : لا يُنْفَى الولد إلَّا بخمس سنين (٣) .

---

(١) راجع حديث هلال بن أمية الذي رمى زوجته بشَرِيك بن السحماء ، وقد سبق . وفيه أن المرأة تلكأت عند الخامسة حين قيل لها : إنها موجبة حتى ظن السامعون أنها ستراجع . ثم مضت في شهادتها وقالت : لا أفضح قومي بقية اليوم .

(٢) أي يقول بعد أن يشهد بأنه رآها تزني : «وما وطئتُها بعد رؤيتي» .

(٣) لأن هذه السنين هي أكثر مدة الحمل كما يرى فقهاء المالكية .

واختلف المذهب في أن يقذف الرجل أو ينفي حملاً ولا يُعَلِّل ذلك لا برؤية ولا باستبراءٍ – فَجُلُّ رُواة مالك على أن ذلك لا يوجب لعاناً ، بل يُحدُّ الزوج . قاله ابن القاسم ، ورُوي عنه أيضاً أنه قال : يلاعن ولا يُسأل عن شيءٍ(١) .

واختلف – بعد هذا القول باللعان بالاستبراءِ – في قدر الاستبراءِ ، فقال مالك ، والمغيرة – في أحد قوليه – : يجزي في ذلك حَيْضَةٌ ، وقال أيضاً مالك : لا ينفيه إلا ثلاث حِيَض(٢) .

وأما موضع اللعان ففي المسجد وعند الحاكم . والمستحب أن يكون في المسجد بحضرة الحاكم ، وكذلك يستحب [أن يكون](٣) بعد العصر تغليظاً بالوقت ، وكل وقت مُجْز .

ومن قذف امرأته وهي كبيرةٌ لا تحمل تَلاَعَنَا ، هو لِرَفْع الحدِّ ، وهي لِدَرْءِ العذاب ، وإن كانت صغيرة لا تحمل لَاعَن هو لرفْع الحدِّ ،

---

(١) يرى القرطبي أن هذا هو الصحيح لعموم قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ ، ويقول ابن العربي : «وظاهر القرآن يكفي لإيجاب اللعان بمجرد القذف من غير رؤية ، فلتُعَوِّلوا عليه ، لاسيَّما وفي الحديث الصحيح : أرأيت رجلا وجد مع امرأته رجلا ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (فاذهب فأت بها) . ولم يكلِّفه ذكر الرؤية» .

(٢) قال في اللسان : «الحَيْضَةُ : المرة الواحدة من دُفَع الحيض ونُوَبِه . والحَيْضَات جماعة ، و الحِيضَةُ : الاسم – بالكسر – . والجمع الحِيَضُ ، وقيل : الحِيضَةُ الدَّمُ نفسُه ، وفي حديث أم سلَمة (لَيْسَت حِيضَتُك في يدك)» .

(٣) ما بين العلامتين زيادة يحتاج إليها التعبير ليكون أوضح .

ولم تلاعن هي لأنها لو أقرت لم يلزمها شيءٌ[١]، وقال ابن الماجشون : لا حدَّ على قاذف من لم تبلغ ، قال اللخميُّ : فَعَلَى هذا لا لعان على زوج الصغيرة التي لا تحمل .

والمستحب من ألفاظ اللعان أن يمشي مع ترتيب القرآن ولفظه ، فيقول الزوج : أشهد بالله لرأيت هذه المرأة تزني[٢]، وإنّي في ذلك لمن الصادقين ، ثم يقول في الخامسة : لعنةُ الله عليَّ إن كنت من الكاذبين ، وقال أصبغ : لا بُدَّ أن يقول : «كالمِرْود في المُكْحلة» ، وقيل : لا يلزمه ذلك ، وكذلك يقول أشهب : لابُدَّ أن يقول : بالله الذي لا إله إلَّا هُو ، وأما في لعان نفي الحمل فقيل : يقول الرجل : ما هذا الولد منّي وَلَزَنت ، وقال ابن القاسم في الموازية : لا يقول «وَزَنَت» من حيث يمكن أن تغضب ، وتقول المرأة : أشهد بالله ما زنيتُ وإنه في ذلك لمن الكاذبين ، ثم تقول : غَضَبُ الله عليَّ إن كان من الصادقين ، فإن منع جهلهما من ترتيب هذه الألفاظ وأتيا بما في معناها أجزأ ذلك .

وحكى اللَّخمي عن محمد بن أبي صفرة أنه قال : اللعان لا يرفع العصمة لقول عويمر : كذبت عليها يا رسول الله إنْ أمسكتها ، قال :

---

(١) لأن البلوغ شرط من شروط التكليف .
(٢) يقتضي كلامه السابق أنَّ عليه أنْ يقول بعد ذلك : «وما وطئتُها بعد رؤيتي» .

(فأَحدثْ طلاقاً) ، ومشهور المذهب أَن نفس تمام اللعان بينهما فرقة ، ولا يحتاج معها إلى تفريق حاكم ، وابن أَبي صفرة هذا ليس بعدد (١) يُزاحم به الجمهور . ومذهب الشافعي أَن الفرقة حاصلة إثر لعان الزوج وحده ، وقال أَبو حنيفة وأَصحابه : لا تفريق إلا بحكم السلطان بعد تمام لعانهما ، فإن مات أَحدهما بعد تمام لعانهما وقبل حكم القاضي ورثه الآخر ، ومذهب «المدونة» أَن اللعان حكم تفريقه حكم الطلاق ، ويعطى لغير المدخول بها نصف الصداق ، وفي مختصر ابن الجلاب : لا شيءَ لها ، وهذا على أَن تفريق اللعان فسخٌ ، وقال ابن القصار : تفريق اللعان عندنا فسخ .

وتحريم اللعان أَبديٌّ بإجماع فيما أَحفظ من مذهب مالك رحمه الله ، ومن فقهاءِ الكوفة وغيرهم من لا يراه متأَبداً ، وإن أَكذب نفسه بعد اللعان لم ينتفع بذلك ، وروي عن عبد العزيز بن سلمة أَنه إن أَكذب نفسه بعد اللعان كان خاطباً من الخطاب . وإن تقدمت المرأَة في اللعان فقال ابن القاسم : لا تعيد ، وقال أَشهب : تعيد(٢) .

---

(١) في بعض النسخ : «ليس بعود» ، المراد هنا أنه فردٌ وليس بذي منزلة كبيرة يكون له معها رأيٌ يقابل رأي الجمهور .

(٢) من رأي القرطبي أن البدء بالمرأة لا يجوز لأنه خلاف القرآن ، وليس له أصل يُردُّ إليه ولا معنى يُقوَّى به ، بل المعنى لعدم الجواز ، لأن المرأة إذا بدأت باللعان تكون كأنها تنفي ما لم يثبت ، وهذا لا وجه له .

والجواب في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ﴾ الآية محذوفٌ ، تقديره : لَكَشَفَ الزناة بأَيسر من هذا ، أَو لأَخذهم بعقاب من عنده ، ونحو هذا من المعاني التي أَوجب تقديرها إبهامُ الجواب .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

هذه الآية وما بعدها إلى ست عشرة آية أُنزلت في عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها وما اتصل بذلك من أمر الإفك ، وفي البخاري في غزوة بني المصطلق عن عائشة رضي الله عنها قالت : وأنزل الله تعالى العشر الآيات ، ثم أَنزل الله ما قربها في براءتي .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فكأَنها عدت ما يختص بها .

و «الإِفْكُ» : الزُّور والكذب ، والأَفَّاكُ الكذَّابُ ، والإفك قلب الحقيقة عن حالها بالأَقوال وصرفها عن جهة الصواب ، وبذلك شبه بالكذب .

واختصار حديث الإفك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج بعائشة رضي الله عنها معه في غزوة بني المصطلق ، وهي غزوة المريسيع (١). قال ابن إسحق : وكانت سنة ستٍّ ، وقال موسى بن عقبة : كانت سنة أَربع (٢) ، فضاع لها هناك عقد ، فلما انصرفت إلى الرحل شعرت بضياعه فرجعت تطلبه ، وسار الناسُ حينئذ ، فوجدته وانصرفت فلم تجد أحداً ، وكانت شابة قليلة اللحم رفع الرجال هودجها ولم يشعروا بزوالها ، فلما لم تجد أَحداً اضطجعت في مكانها رجاءَ أَن تُفتقد فيُرجع إليها ، فنامت في الموضع ولم يوقظها إلَّا قول صفوان ابن المعطل : إنَّا لله وإنا إليه راجعون ، وذلك أَنه تخلف وراءَ الجيش لحفظ الساقة ، وقيل : اتفاقاً ، فلما مرَّ بسوادها قرب منها فعرفها فاسترجع وقال : ظعينة رسول الله صلى الله عليه وسلم خُلِّفت ها هنا ؟

(١) هو ماءٌ لبني المصطلق يقال له : الْمُرَيْسيع ، وهو من ناحية قُدَيْد إلى الساحل ، وقد لقيهم الرسول صلى الله عليه وسلم على هذا الماء فسميت الغزوة باسمه .

(٢) وقيل : بل كانت سنة خمس ، قال الحاكم في «الإكليل» : وهذا أشبه من قول ابن إسحق . ويؤيد هذا ما ثبت في حديث الإفك من تنازع كل من سعد بن معاذ الأنصاري وسعد بن عبادة في أصحاب الإفك . ولو كانت غزوة المُرَيْسيع سنة ست كما قال ابن إسحق لكان ذكر سعد بن معاذ في حديث الإفك خطأ ؛ لأنه مات أيام قريظة سنة خمس على الصحيح . هذه حجة من قال إنها كانت سنة خمس . واعتمد على ذكر سعد بن معاذٍ في مسلم والبخاري ، أما ابن إسحق الذي ذكر أنها كانت سنة ست فلا يذكر سعد بن معاذ . بل يذكر أُسيد بن حُضَير على أنه هو الذي وقع بينه وبين سعد بن عبادة نزاع .

ونزل عن ناقته وتنحّى عنها حتى ركبت عائشة رضي الله عنها ، وأخذ يقودها حتى بلغ بها الجيش في نحْر الظهيرة . فوقع أهل الإفك في مقالتهم ، وكان الذي يُجتمع إليه فيه ويَسْتَوْشِيهِ (١) ويُشْعله عبد الله ابن أُبيٍّ بن سلول المنافق ، وكان من أَهل قالته حسانُ بن ثابت ، ومِسْطَح بن أُثاثة ، وحَمْنَةُ بنت جحش ، هذا اختصار الحديث ، وهو بكماله وإتقانه في البخاري ومسلم ، وهو في مسلم أَكمل (٢) .

وكان صفوان صاحب ساقة رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزواته لشجاعته ، وكان من خيار الصحابة . قال لمَّا سمع ما قال الناسُ فيه : «سبحان الله ، والله ما كشفت كنَف (٣) أُنثى قط» ، أَراد : بزِنى (٤) ، ويدل على ذلك حديثه المروي مع امرأته ، وقول النبي

---

(١) يَسْتَوْشِيهِ : يستخرجه بالبحث والسؤال عنه ثم يُفشيه ويشيعه وينشره في الناس .

(٢) حديث الإفك مشهور ، وهو حديث طويل ، وقد رواه البخاري في غزوة بني المصطلق ، ورواه مسلم في كتاب التوبة ، وذكر الإمام السيوطي في الدر المنثور أن من رواته أحمد في مسنده ، والترمذي ، وعبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب ، وهو عن عائشة رضي الله عنها . وقد نقل ابن كثير في تفسيره حديث الإفك عن الإمام أحمد وعن البخاري ومسلم ، كذلك ذكر الحديث مطولا الإمام الحافظ بن حجر في كتاب «فتح الباري» .

(٣) الكَنَف : جانب الشيء ، وكنفا الإنسان : حِضناه عن يمينه وشماله . «المعجم الوسيط» ، وقد ورد في بعض الكتب «كتف» بالتاء .

(٤) جاء في حديث الإفك ما يأتي على لسان السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها : (وبلغ الأمرُ ذلك الرجل الذي قيل له ، فقال : سبحان الله ، والله ما كشفْتُ كَنَف أُنثى قط) — =

صلى الله عليه وسلم في ابْنَيْه : (لَهُمَا أَشْبه به من الغراب بالغراب)(١).
وقيل : كان حصوراً لا يأْتي النساءَ ، ذكره ابن إسحق من طريق عائشة رضي الله عنها ، وقُتل شهيداً رضي الله عنه في غزوة أَرمينية سنة تسع عشرة في زمن عمر رضي الله عنه ، وقيل : في بلاد الروم سنة ثمان وخمسين في زمن معاوية .

وقوله تعالى : [عُصْبَةٌ] رفع على البدل من الضمير في [جَاءُوا] ، وخبر [إنَّ] في قوله سبحانه : ﴿لا تَحْسَبُوهُ﴾ ، والتقدير : إنَّ فِعْل الذين ، وهذا أَنسق في المعنى وأَكثر فائدة من أَن تكون [عُصْبَةٌ] خبراً .

= وهذا يتفق مع ما قاله ابن إسحق من أن صفوان كان حصوراً لا يأتي النساء ، ولكن ذلك يتناقض مع ما رواه أبو داود من طريق أبي صالح عن أبي سعيد ، قال : (جاءت امرأةُ صفوان إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، إن زوجي صفوان يضربني ...) فكيف تكون له زوجة ويقول : ما كشفت كنف امرأة قط ؟ يجيب ابن عطية عن هذا بقوله : «أراد بزنى» يعني : لم أكشف كنف امرأة في زنى ، أما الحلال فلم ينفه ، وقد أورد البخاري هذا الإشكال قديماً ، ومال إلى تضعيف حديث أبي سعيد عن قصة امرأته وضربه لها ، وأجاب صاحب «الإصابة» بقوله : إنه تزوج بعد قصة الإفك ، أما عند قصة الإفك فلم يكن قد كشف كنف امرأة قط ، وهو صادق في يمينه .

(١) هذا جزءٌ من حديث رواه البخاري في كتاب اللباس ، وهو عن رفاعة الذي طلّق امرأته فتزوجها عبد الرحمن بن الزبير القرظي ، وشكت المرأة أن زوجها الجديد ليس معه إلاّ مثل هدبة الثوب ، وكذّبها زوجها وقال إنها ناشز وتريد العودة إلى رفاعة ، وكان معه ابنين له من غيرها . فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : (هذا الذي تزعمين ما تزعمين . فو الله لهم أشبه به من الغراب بالغراب) . ولم نقف على مثل هذا النص في حديث عن صفوان إلاّ هذه الفقرة الّتي ذكرها المؤلف . ونقلها عنه القرطبي فيما نقل ، وهي أيضاً في كتاب الإصابة ، والله أعلم بالصواب .

و «ٱلْعُصْبَةُ» : الجماعة من العشرة إلى الأربعين ، قاله يعقوب وغيره ، ولا يقال عُصبة لأقل من عشرة ، ولم يُسم من أهل الإفك إلّا حسّان ، ومِسْطَح ، وحَمْنَة ، وعبد الله(١) ، وجُهل الغير ، قاله عروة بن الزبير وقد سأله عن ذلك عبد الملك بن مروان ، وقال : إلّا أنهم كانوا عصبةً كما قال الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿لَا تَحْسَبُوهُ﴾ خطاب لكلٍّ من ساءه من المؤمنين ، وقوله : ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ يريد أنه تَبْرئة في الدنيا ، وترفيع من الله تبارك وتعالى في أن نزل وحيه بالبراءة من ذلك ، وأجر جزيل في الآخرة ، وموعظة للمؤمنين في غابر الزمن ، ونقمة من المفترين في الدنيا والآخرة ففي ذلك شفاءٌ وخير ، وهذه خمسة وجوه . وقوله : [مِنْهُمْ] عائد على العصبة المذكورة ، و «اكْتَسَبَ» مستعملة في المآثم ونحوها لأنها تدل على اعتمالٍ وقصد هو أبلغ في الترتيب ، و «كَسَبَ» مستعملٌ في الخير ، وذلك أن حصوله مُغْن عن الدلالة على اعتمالٍ فيه ، وقد تستعمل «كَسَبَ» في الوجهين ، ومِثْلُه :

---

(١) وقد ضرب النبي صلى الله عليه وسلم حسّان ، ومسْطحاً ، وحَمْنة بعد أن برأ القرآن الكريم عائشة رضي الله عنها ، فقد أقام عليهم حدّ القذف ، واختلف هل أُقيم الحدُّ على عبد الله بن أُبي بن سلول أم لا ، ومِسْطح لقبٌ ، واسمه عوف . وحَمْنة هي أُخت زينب بنت جحش زوج النبي صلى الله عليه وسلم .

. . . . فَحَمَلْتُ بَرَّةَ واحْتَمَلْتَ فَجَارِ (١)

والإشارة بقوله : ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾ إلى عبد الله بن أُبيٍّ بن ساول ، والعذابُ المتوعَّد به هو عذاب الآخرة ، وهذا قول الجمهور ، وهو ظاهر الحديث ، ورُوي عن عائشة رضي الله عنها أن حسَّان بن ثابت دخل عليها يوماً وقد عَمِيَ فأنشدها مدحه فيها :

حَصَانٌ رَزَانٌ ما تُزَنُّ بِرِيبَةٍ وتُصْبِحُ غَرْثَى مِنْ لُحُوم الغَوَافِلِ(٢)

فقالت له عائشة رضي الله عنها : لكنك لستَ كذلك . تريد أنه وقع في الغوافل فأنشد :

---

(١) هذا عجز بيت للنابغة الذبياني . والبيت بتمامه :

إنَّا اقْتَسَمْنَا خُطَّتَيْنَا بَيْنَنَا فَحَمَلْتُ بَرَّةَ وَاحْتَمَلْتَ فَجَارِ

وهو من قصيدة قالها النابغة في هجاء زرْعَة بن عمرو بن خويلد الكلابي . لأن زرْعة كان قد طلب إلى النابغة أن يشير على قومه بقتال بني أسد ، فأبى النابغة فتوعده زرْعة . فقال النابغة قصيدته وفيها :

نُبِّئْتَ زرْعَة والسَّفَاهَةُ كاسْمِهَا يُهْدِي إليَّ غَرَائِب الأشْعَارِ

وقد استشهد صاحب اللسان بالنصف الثاني أيضاً من البيت ، وقال : «عبَّر عن البَرَّةِ بالحَمْل ، وعن الفَجْرة بالاحتمال ؛ لأن حَمْل البَرَّة بالإضافة إلى احتمال الفجرة أمرٌ يسير ومستصغر ، ومثله قول الله عزَّ اسمه : ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا ما اكْتَسَبَتْ﴾ . وبَرَّة عَلَم لِلْبِرِّ ، وفَجَارِ عَلَم على الفجور . وهو مبني على الكسر . وقد قيل : إن (احْتَمَل) بمعنى (حَمَل) ، وأصله مطاوع (حَمَّلَهُ) فاحتمل . ولكن تُنوسي معنى المطاوعة بكثرة الاستعمال فصار بمعنى حَمَل . والنابغة يقول لزرْعة : لقد ذهب كل منها بحظّه ونَصيبه في الحياة ، فذهبتُ أنا بالخَيْر والبِرِّ ، وذهبتَ أنت بالشرِّ والفجور .

(٢) سبق الاستشهاد بهذا البيت في هذه السورة عند تفسير قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ . راجع صفحة (٤٣١) .

فَإِنْ كانَ ما قَدْ قِيلَ عَنِّي قُلْتُهُ   فَلَا رَفَعَتْ سَوْطِي إِلَيَّ أَنَامِلِي (١)

فلما خرج قال لها مَسْروق : أيدخل هذا عليك وقد قال ما قال وتوعَّده الله بالعذاب على تولِّيه كِبْر الإفك ؟ فقالت عائشة رضي الله عنها : أيُّ عذاب أشد من العمى وضرب الحدِّ ؟ وفي رواية : وضربة بالسيف ؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فأمَّا قوله عن الحدِّ فإن حسَّان ومِسْطَحاً وحَمْنة حُدُّوا ، ذكر ذلك ابن إسحق ، وذكره الترمذي ، وفي تفسير ابن عباس رضي الله عنهما أن ابن أُبيٍّ حُدَّ ، وهذا عندي لا يصح عن ابن عباس رضي الله عنهما لأنه لم يُحْفَظ عن عبد الله الرَّمْيُ ، قال عروة في البخاري : (أُخبرتُ

(١) هذا بيت آخر من الأبيات التي قالها حسَّان بن ثابت في مدح أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها . وهو في هذه الأبيات يعتذر عمَّا كان منه ، وقد رواها ابن إسحق وتجدها في السيرة النبوية لابن هشام ، وهذه هي الأبيات كما رواها ، وتختلف في عددها وترتيب الأبيات فيها عما في الديوان :

حَصَانٌ رَزَانٌ ما تُزَنُّ بِرِيبَةٍ   وتُصْبِحُ غَرْثَى مِن لحُومِ الغَوَافِلِ
عَقِيلَةُ حَيٍّ مِنْ لُؤَيِّ بن غَالِبٍ   كِرَامِ المَسَاعِي مَجْدُهمْ غَيرُ زَائِلِ
مُهَذَّبَةٌ قَدْ طَيَّبَ الله خِيمَهَا   وَطَهَّرَهَا مِن كلِّ سُوءٍ وَبَاطِلِ
فإن كنتُ قد قلتُ الذي قد زَعمتُموا   فَلا رَفَعَتْ سَوطِي إليَّ أنَامِلِي
وكيفَ وَوُدِّي ماحَيِيتُ ونُصْرَتي   لآلِ رسولِ الله زيْنِ المَحَافِلِ
لَه رُتَبٌ عالٍ على النَّاسِ كُلِّهِمْ   تَقَاصَرُ عَنْهُ سَوْرَةُ المُتَطَاوِلِ
فإنَّ الذي قد قيل لَيْس بِلائِطٍ   ولكنَّهُ قَوْلُ امْرِئٍ بي ماحِلِ

أنه كان يُشاع ويُتحدَّث به عنده فيُقِرُّهُ ويَسْتمعه ويستوشيه) (١) .

وأما ضربة السيف فإن صفوان بن المعطل لما بلغه قول حسَّان في الإفك جاء فضربه بالسيف ضربةً على رأسه ، وقال :

تَلَقَّ ذُبـــابَ السَّيْفِ عَنِّي فَإِنَّني غُلامٌ إذا هُوجيتُ لَسْتُ بِشَـــاعِرِ

فأخذ جماعةٌ صفوان ولَبَّبُوه وجاءُوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأهدر رسول الله صلى الله عليه وسلم جرح حسَّان واستوهبه إيَّاه ، وهذا يقتضي أَن حسَّان ممن تولَّى الكِبْرَ (٢) .

وقد قال قوم : الإشارة بـ [ٱلَّذِي] إلى البادئ بهذه الفرية والذي اختلقها ، فلكُلِّ أحد منهم مااكتسب ، وللبادئ المفتري عذابٌ عظيم ،

(١) أورد البخاري ذلك في حديث الإفك ، وذكر بعده عن عُرْوة أيضاً قوله : (لم يُسَمَّ من أهل الإفك أيضاً إلاّ حسَّان بن ثابت ، ومِسْطَح بن أُثاثَة ، وحَمْنَةُ بنت جحش في ناسٍ آخرين لاعلم لي بهم غير أنهم عُصبة كما قال الله تعالى) . والكلام من أول قول ابن عطية : «وذكره الترمذي ...» إلى آخر ما نقله عن عروة سقط من أكثر النسخ المخطوطة .

(٢) قصة ضرب صفوان لحسان بالسيف ذكرها ابن إسحق في السيرة ، وفيها أن ثابت ابن قيس بن الشَّماس وثب على صفوان بن المعطَّل حين ضرب حسَّان ، فجمع يديه إلى عنقه بحبل ، ثم انطلق به إلى دار بني الحارث بن الخزرج ، فلقيه عبد الله بن رواحة ، فقال : ما هذا ؟ قال : أما أُعجِبُك ، ضرب حسَّان بالسيف ، والله ما أُراه إلا قد قتله ، قال له عبد الله ابن رواحة : هل علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيءٍ مما صنعت ؟ قال : لا والله ، قال : لقد اجترأت ، أطْلق الرجل ، فأطاقه ، ثم أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكروا ذلك له ، فدعا حسَّان وصفوان ، فقال ابن المعطَّل : يا رسول الله ، آذاني وهجاني فاحتملني الغضب فضربته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان : أحْسِنْ يا حسَّان ، أتَشَوَّهتَ على قومي أن هداهم الله للإسلام ، أحسِنْ يا حسَّانُ في الذي أصابك ، قال : هي لك يا رسول الله . قال ابن إسحق : فحدثني محمد بن إبراهيم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاه عوضاً منها بيرحاء .

وهو – على هذا – غير معين . وهذا قول الضحاك . والحسن ، وقال ابن زيد وغيره : هو عبد الله بن أُبيٍّ .

وقرأ جمهور الناس : [كِبْرَهُ] بكسر الكاف . وقرأ حميد الأعرج ، ويعقوب الزهري ، وأبو رجاءٍ ، والأعمش ، وابن أبي عبلة : [كُبْرَهُ] بضم الكاف ، وهما مصدران ، من كبر الشيءِ وعظمه ، ولكن استعملت العرب ضم الكاف في السِّن ، تقول : هذا كُبْر القوم ، أي كبيرهم سنًّا ومكانة ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في قصة حُوَيِّصَة ومُحَيِّصة : (الكُبْرَ) (١) ومن استعماله في المعنى الثاني قول ابن الخطيم :

تنامُ عَنْ كُبْرِ شَأْنِهَا فَإِذَا قَامت رُوَيْداً تَكَادُ تَنْغَرِفُ (٢)

(١) أخرجه البخاري في الأدب . ومسلم في القسامة . والترمذي في الديات . والنسائي في القسامة . والدارمي في الفرائض . ولفظه كما في البخاري ، عن رافع بن خَدِيج وسهل بن أبي حَثْمة ، أن عبد الله بن سهل . ومُحَيِّصَةَ بن مسعود أتيا خيبر . فتفرقا في النخل ، فقُتل عبد الله بن سهل . فجاء عبد الرحمن بن سهل ، وحُوَيِّصَة ومُحَيِّصَة ابنا مسعود إلى النبي صلى الله عليه وسلم . فتكلموا في أمر صاحبهم . فبدأ عبد الرحمن – وكان أصغر القوم – . فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : كَبِّر الكُبْرَ . قال يحيى : لِيَلِيَ الكلامَ الأكْبَرُ . فتكلموا في أمر صاحبهم ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : أتَسْتَحِقُّونَ قتيلكم – أو قال صاحبكم – بأيمان خمسين منكم ؟ قالوا : يا رسول الله ، أمر لم نَرَهُ . قال : فَتُبَرِّئُكم يهود في أيمان خمسين منهم ، قالوا : يا رسول الله ، قوم كفار . فَوَدَاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من قِبله .

(٢) قال ابن الخطيم هذا البيت من الشعر في حرب كانت بين قومه وبين بني خطمة ، وهو في الديوان . وخبر هذه الحرب في الأغاني وفي الخزانة ، والبيت مع أبيات قبله في وصف امرأة نشأت في نعمة ورفاهية ، فهي لا تعمل ، وهي تنام عن معظم شأنها لأنها ليست في حاجة =

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

الخطاب بهاتين الآيتين لجميع المؤمنين حاشا من تولَّى الكِبْر ، ويحتمل دخولهم في الخطاب . وفي هذا عتاب للمؤمنين ، أي : كان الإنكار واجباً عليهم ، والمعنى أنه كان ينبغي أن يقيس فضلاءُ المؤمنين والمؤمنات الأَمر على أنفسهم . فإذا كان ذلك يبعد فيهم فكانوا يقضون بأَنه في صفوان وعائشة أَبْعَدُ لفضلهما رضي الله عنهما . وروي أَن هذا النظر السديد وقع من أَبي أَيوب الأَنصاري وامرأَته ، وذلك أَنه دخل عليها فقالت له : يا أَبا أَيوب أَسمعت ما قيل ؟ قال : نعم ، وذلك الكذب ، أَكنت

= إلى العمل. إذ لها من الخدم من يُغْنيها عن ذلك . حتّى إذا قامت قامت في سكون وضعف . وتنغرف : تسقط . يقال : انْغرف الغصن من الشجرة إذا انقطع . ورويت : (تكاد تنعطف) . كما رويت : (تنقصف) أي : تنكسر لرقَّة خصرها وثقل ردفها . ورويداً معناه : برفق ودعة وتكاسل . وهو منصوب على الحال . أو صفة لموصوف محذوف ، والتقدير : قياماً رويداً . والبيت شرحه ابن السِّكِّيت في كتابه (إصلاح المنطق) . والبطليوسي في (الاقتضاب) . وروي « تمشي رويداً » . وفي الحماسة البصرية : « قامت تمَشَّى » . وهو في (المحتسب) لابن جني كما رواه ها هنا .

أنت يا أُمَّ أيوب تفعلين ذلك ؟ فقالت : لا والله ، قال : فعائشة والله أفضل منك ، قالت أمُّ أيوب : نعم(١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فذلك الفعل ونحوه هو الذي عاتب الله المؤمنين [عليه](٢) إذ لم يفعله جميعهم ، والضمير في قوله : [جَاءُوا] لأُولئك الذين تولوا الكبر ، وإذا كانوا عند الله كذبة فهي الحقيقة فيهم ، وعند هذا حُدُّوا ، ولم يُرْوَ في شهير الدواوين أن عبد الله بن أُبيٍّ حُدَّ ، ويشبه أن ذلك لم يكن لأَنه لم تقم عليه بالمقالة بينة لنفاقه وتستُّره ، وإنما كان يخوض فيه مع من يذيعه ولا يسأَل عن شهادته كما قال عروة في البخاري : «وأُخبرت أنه كان يُقرُّه ويستوشيه» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولكن النبي صلى الله عليه وسلم استعذر منه على المنبر ، ووقذه بالقول ، ووقع في أمره بين الأَوس والخزرج ما هو مطوَّل في مسلم في حديث الإفك(٣) .

---

(١) أخرجه ابن إسحق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وابن عساكر ، عن بعض الأنصار ، ذكر ذلك الإمام السيوطي في الدر المنثور ، وذكر أيضاً أنه أخرجه الواحدي ، وابن عساكر ، والحاكم ، عن أفلح مولى أبي أيوب الأنصاري .

(٢) مابين العلامتين غير موجود في الأصول ، كذلك نقل القرطبي كلام ابن عطية هذا بدون كلمة (عليه) .

(٣) في حديث الإفك كما رواه البخاري ومسلم وغيرهما قالت عائشة رضي الله عنها: =

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾

هذا عتاب من الله تعالى بليغ . ذكر أن حالتهم التي وقع فيها جميعهم من تعاطيهم الحديث وإن لم يكن المُخْبِر ولا المُخْبَر مصدِّقين .

= (فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه فاستعذر من عبد الله بن أُبي وهو على المنبر . فقال : يا معشر المسلمين ، من يَعْذِرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي ؟ والله ما علمت على أهلي إلا خيراً . ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيراً . وما يدخل على أهلي إلا معي . فقام سعد بن معاذ أخو بني عبد الأشهل فقال : أنا يا رسول الله أعذرك . فإن كان من الأوس ضربت عنقه . وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك . قالت : فقام رجل من الخزرج — وكانت أم حسان بنت عمّه من فخذه — وهو سعدُ بنُ عُبادة . وهو سيد الخزرج . قالت : وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ، ولكن احتملته الحمية . فقال لسعد : كذبت لَعَمْرُ الله . لا تقتله ولا تقدر على قتله . ولو كان من رهطك ما أحببت أن يُقتل . فقام أُسيد بن حُضَيْر — وهو ابن عم سعد — فقال لِسَعد بن عُبادة : كذبت لَعَمْرُ الله لَنَقْتُلَنَّه . فإنك منافق تجادل عن المنافقين . قالت : فثار الحيَّان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المِنْبر . قالت : فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفّضهم حتى سكتوا وسكت) . وابن عطية يشير إلى ذلك على أنه السبب في عدم إقامة الحدّ على عبد الله ابن أُبي لعنه الله .

ولكن نفس التعاطي والتَّلَقِّي من لسان إلى لسان والإفاضة في الحديث هو الذي وقع العتاب فيه .

وقرأ محمد بن السَّميفَع : ﴿ إِذْ تُلْقُونَهُ ﴾ بضم التاء وسكون اللام وضم القاف ، من الإلقاء ، وهذه قراءة بيِّنَةٌ ، وقرأ أُبيٌّ بن كعب ، وابن مسعود : ﴿ إِذْ تَتَلَقَّوْنَهُ ﴾ من التلقي بتاءين ، وقرأ جمهور السبعة : ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ ﴾ بحذف التاء الواحدة وإظهار الذال دون إدغام ، وهو أيضاً من التلَقِّي ، وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : ﴿ إِذْ تَّلَقَّوْنَهُ ﴾ بإدغام الذال في التاء ، وقرأ ابن كثير : ﴿ إِذْ تَّلَقَّوْنَهُ ﴾ بإظهار الذال وإدغام التاء في التاء ، وهي قراءة قلقة لأَنها تقتضي اجتماع ساكنين ، وليست كالإدغام في قراءة من قرأ : ﴿ فَلَا تَّنَاجَوْا ﴾ (١) . ﴿ وَلَا تَّنَابَزُوا ﴾ (٢) لأَن لدونة الأَلف الساكنة وكونها حرف لِّين حسَّنت هنالك مالا يحسن مع سكون الذَّال ، وقرأ ابن يَعْمر وعائشة رضي الله عنها — وهي أعلم الناس بهذا الأَمر — : ﴿ إِذْ تَلِقُونَهُ ﴾ بفتح التاء وكسر اللام وضم القاف ، ومعنى هذه القراءة من قول العرب : «وَلَقَ الرَّجلُ ولَقاً» إذا كذب ، قال ابن سيدة في (المحكم) : «قرئ : ﴿ إِذْ تَلِقُونَهُ ﴾ ،

---

(١) من قوله تعالى في الآية (٩) من سورة (المجادلة) : ﴿ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ﴾ .

(٢) من قوله تعالى في الآية (١١) من سورة الحجرات : ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ ﴾ .

وحكى أهل اللغة أنها من وَلَق إذا كذب . فجاءُوا بالمتعدي شاهداً على غير المتعدي ، وعندي أنه أراد : إذْ تَلِقُونَ فيه ، فحذف حرف الجر ووصل الضمير»(١) ، وحكى الطبريُّ وغيرُه أن هذه اللفظة مأْخوذة من الوَلَق الذي هو إسراعك بالشيء بعد الشيء ، كعَدْوٍ في أثر عَدْو ، وكلام في أثر كلام ، يقال : ولق في سيره إذا أسرع ، ومنه قول الشاعر :

جاءتْ بِهِ عَنْسٌ مِنَ الشَّأْم تَلِقْ (٢)

---

(١) نقل القرطبي كلام ابن عطية من أول قوله : «وقرأ محمد بن السميفع ...» إلى قوله : «ووصل الضمير» ولم ينسبه إلى ابن عطية إلا من أول قوله : «وعندي أنه أراد» . فقد قال : «وقال ابن عطية : وعندي ... إلخ» مع أن هذا الكلام الأخير ليس من كلام ابن عطية بل هو من كلام ابن سيدَه ، ويدل على ذلك أن اللسان نقل هذا الكلام عن ابن سيده وفيه هذه الجملة (راجع اللسان – ولق –) . وأيضاً اعتاد ابن عطية عندما يكون الكلام أو الرأي له أن يبين ذلك بقوله : «قال القاضي أبو محمد» أو نحو ذلك . ولم أجد مثل هذه الإشارة في الأصول .

(٢) هذا بيت من عدّة أبيات من مشطور الرجز . قالها القُلاخُ بن حَزْن المِنْقَريُّ ، ذكرها صاحب اللسان (زلق) ، وهي :

إنَّ الجُلَيْدَ زَلِقٌ وَزُمَّلِقْ
كَذَنَبِ العَقْرَبِ شَوَّالٌ غَلِقْ
جَاءتْ بِهِ عَنْسٌ مِنَ الشَّأْمِ تَلِقْ
يُدْعَى الجُلَيْدَ وهُوَ فينا الزُّمَّلِقْ
لا آمِنٌ جَلِيسُهُ وَلا أَنِقْ
مُجَوَّعُ البَطْنِ كِلابِيُّ الخُلُقْ

وقوله تعالى : ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ مبالغة وإلزامٌ وتأكيد ، والضمير في قوله : [وَتَحْسَبُونَهُ] للحديث والخوض فيه والإذاعة له ، وقوله تعالى : ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ إلى ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ عتابٌ لجميع المؤمنين ، أي : كان ينبغي عليكم أن تنكروه ولا يتعاطاه بعضكم من بعض على جهة الحكاية والنقل ، وأن تُنَزِّهُوا الله تعالى عن أن يقع هذا من زوج نبيِّه صلى الله عليه وسلم ، وأن تحكموا على هذه المقالة بأنها بُهتان ، وحقيقة البُهتان أن يقال في الإنسان ما ليس فيه ، والغِيبة أن يقال في الإنسان ما فيه . ثم وعظهم تعالى في العودة إلى مثل هذه الحالة ، و [أَنْ] مفعول من أجله بتقدير : «كراهيةَ أَن» ونحوه . وقوله : ﴿إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ توقيف وتأكيد ، كما تقول : ينبغي لك أن تفعل كذا وكذا إن كنت رجلاً ، وسائر الآية بيِّن ، و ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ صفتان تقتضيهما الآية .

= ويروى (الحُصَيْن) بدلا من (الجُلَيْد) ، قال صاحب اللسان : وهو خطأ لقوله بعد ذلك : يُدْعَى الْجُلَيْد ، والزَّلِقُ : السريع الغضب ، والزُّمَّلِقُ : الخفيف الطائش أو الذي يُنزل من مجرد الحديث مع المرأة قبل المباشرة ، والغَلِقُ : السيء الخلق ، والعَنْس : الناقة القوية ، ومعنى (تَلِق) : تُسرع ، وهو الشاهد هنا ، فالوَلَقُ بمعنى الإسراع ، ومن العجيب أن صاحب اللسان أعاد الاستشهاد بهذه الأبيات في (وَلَق) بمعنى أسرع ، لكنه نسبها للشَّماخ ، ولم نجدها في ديوانه. وحَذْفُ حرف الجرِّ ووَصْل الضمير الذي نقله ابن عطية عن ابن سيدَهْ أمر معروف في اللغة ، ومن شواهده قوله تعالى : ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ ، أي : اختار من قومه ، فحذف حرف الجر ووصل الضمير .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾

قال مجاهد ، وابن زيد : الإشارة بهذه الآية إلى المنافقين ، عبد الله ابن أُبيٍّ ومن أشبهه ، وهي خاصةٌ في أمر عائشة رضي الله عنها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فحبُّهم شِياع (١) الفاحشة في المؤمنين متمكنٌ على وجهه لعداوتهم في أهل الإيمان ، وعذابُهم الأليم في الدنيا الحدودُ ، وفي الآخرة النارُ .

وقالت فرقة ـ وقولُها هو الأظهر ـ : الآية عامةٌ في كلِّ قاذف منافقاً كان أو مؤمناً .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والقاذف المؤمن مَنْ لا يتصف بِحُب شِياع الفاحشة في المؤمنين جملة ، لكنه يحبها لمقذوفه ، وكذلك آخر لمقذوفه ، وآخر حتى

(١) الشِّياع : الظهور والانتشار . يقال : شاع الأمر شَيْعاً وشِياعاً وشيعاناً وشيوعاً وشَيْعُوعَة ومَشيعاً : ظهر وتفرق .

تشيع الفاحشة من مجموع فعلهم ، فهم لها محبون بهذا الوجه من حيث أَحب كل واحد جزءًا من شياعها ، والعذاب الأَليم في الدنيا الحدودُ ، وفي الآخرة يحتمل وجهين : أَحدهما أَن يكون القاذفُ مُتوعَّداً من بين العُصاة بعذاب في الآخرة لا يزيله الحدُّ حسب مقتضى حديث عبادة بن الصامت(١) ، ويكون أَمرُه كأَمر المحاربين إذا صلبوا ، خزيٌ في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب . والوجه الثاني أَن يحكم بأَن الحدَّ مُسْقط عذاب الآخرة حسب حديث عبادة ، وأَن قوله : [وَٱلْآخِرَةِ] لا يريد به عموم القذفة ، بل يريد إمَّا المنافقين وإمَّا من لم يُحَدّ . وقال الطبري : معناه : إن مات مصرًّا غير تائب .

وقوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ معناه : يعلم البريءَ من المُذْنب ، وسائرَ الأُمور ، وَوَجْهَ الحكمة في ستركم والتغليظ في الوعيد والعذاب على قاذفيكم .

---

(١) حديث عُبادة بن الصامت في أن الحدود كفارة لأهلها أخرجه البخاري في الإيمان ومناقب الأنصار والتفسير والحدود والأحكام والتوحيد ، وأخرجه مسلم والترمذي في الحدود ، والنسائي في البيعة ، والدارمي في السير ، وأحمد في مسنده (٥–٣١٤) . ولفظه كما في مسلم عن عبادة بن الصامت قال : (كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مجلس فقال : تبايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً ولا تزنوا ولا تسرقوا ولا تقتلوا النفس التي حرَّم الله إلا بالحق ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب شيئاً من ذلك فعوقب به فهو كفارة له ، ومن أصاب شيئاً من ذلك فستره الله عليه فأمره إلى الله ، إن شاء عفا عنه ، وإن شاء عذَّبه) .

قوله تعالى : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ الآية . جواب [لَوْلَا] محذوف لدلالة الكلام عليه ، تقديره : لفضحكم بذنوبكم ولم يستركم ، ولعذَّبكم فيما أَفضتم فيه من قول الباطل والبهتان .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ * يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾

هذا الخطاب عام لجميع المؤمنين ، و « خُطُوَاتُ » جمع خطوة ، وهي ما بين القدمين في المشي ، فكأَن المعنى : لا تمشوا في سُبُله وطرقه من الأَفعال الخبيثة. وقال منذر بن سعيد : يجوز أَن يكون « خُطُوات » جمع خَطَإٍ من الخطيئة وسُهِّلت الهمزة فنطق بها خطوات . وقرأَ بضم الطاء من [خُطُوَاتِ] الجمهورُ ، وقرأَ بسكونها عاصم (١) ، والأَعمش.

وقرأَ الجمهور : [مَازَكَىٰ] بتخفيف الكاف ، أَي : ما اهتدى ولا أَسلم ولا عرف رشداً ، وقرأَ أَبو حيوة ، والحسن ، والأَعمش : [ما زَكَّى] بشد الكاف ، أَي : تزكيته لكم وتطهيره وهدايته إِنما هي بفضله

(١) في رواية أبي بكر عنه ، أما رواية حفص فهي بضم الطـاء كمـا هي ثابتة في المصحف الشريف .

لا بأعمالكم وتحرُّزكم من المعاصي . ثم ذكر تعالى أنه يزكِّي من يشاءُ ممن سبقت له السعادة وكان عمله الصالح أَمارة على سبق السعادة له .

ثم أَخبر تعالى بأَنه سميع لجميع أَقوالهم وكلامهم من قذف وغيره ، عليم بحق ذلك من باطله ، لا يجوز عليه في ذلك وهْمٌ ولا غلط .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

المشهور من الروايات أَن هذه الآية نزلت في قصة أَبي بكر بن قحافة الصديق رضي الله عنه ومِسْطَح بن أُثَاثَةَ ، وذلك أَنه كان ابن بنت خالته ، وكان من المهاجرين البدريِّين المساكين ، وهو مِسْطَح ابن أُثاثة بن عباد ، بن المطلب ، بن عبد مناف ، وقيل : اسمه عوف ، ومِسْطح لقب ، وكان أَبو بكر رضي الله عنه ينفق عليه لمسكنته ، فلما وقع أَمر الإِفك وقال مِسْطح ما قال حلف أَبو بكر رضي الله عنه أَلَّا ينفق عليه ولا ينفعه بنافعة أَبداً ، فجاءَ مِسْطح فاعتذر وقال : إِنما كنت أَغشى مجلس حسَّان فأَسمع ولا أَقول ، فقال له أَبو بكر

رضي الله عنه : لقد ضحكت وشاركت فيما قيل ، ومرَّ على يمينه فنزلت الآية .

وقال الضحاكُ وابن عباس رضي الله عنهما : إن جماعة من المؤمنين قطعوا منافعهم عن كل من قال في الإفك وقالوا : والله لا نصل من تكلم في شأن عائشة ، فنزلت الآية في جميعهم . والأَول أَصحُّ ، غير أَن الآية تتناول الأُمة إلى يوم القيامة ، بألَّا يغتاظ ذو فضل وسعة فيحلف ألَّا ينفع مَن هذه صفته غابر الدهر .

ورأَى الفقهاءُ أَن من حلف أَلَّا يفعل سُنَّة من السنن أَو مندوباً وأَبَّد ذلك أَنها جرحة في شهادته ، ذكره الباجي في المنتقي ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (أَيُّكُم المُتَأَلِّي على الله لا يفعل المعروف) ؟(١)

و [يَأْتَلِ] معناه : يحلف ، وزنها يفتعل ، من الأَلية وهي اليمين (٢). وقالت فرقة : معناه : يقصِّر ، من قولك : أَلَوْتُ في كذا إذا قصَّرت

---

(١) أخرجه البخاري في الصلح ، ومسلم في المساقاة . ولفظه كما في البخاري أن عَمْرَةَ بنت عبد الرحمن قالت : سمعتُ عائشة رضي الله عنها تقول : سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوتَ خصوم بالباب عاليةً أصواتهم ، وإذا أحدهما يستوضح الآخر ويسترفقه في شيءٍ وهو يقول : والله لا أفعل . فخرج عليهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أين المُتَأَلِّي على الله لا يفعل المعروف ؟ فقال : أنا يا رسول الله ، وله أيّ ذلك أحبَّ .

(٢) ومنه قول عاتكة بنت زيد العدوية ترثي زوجها عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهم :

فآلَيْتُ لا تَنْفَكُّ عَيْني حَزِينَـةً عليْكَ ولا يَنْفَكُّ جِلْـدي أغْبَـرَا

فيه ، ومنه قوله تعالى : ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً﴾(١)، وقرأ أبو جعفر ابن القعقاع : ﴿وَلَا يَتَأَلَّ﴾ ، وهذا وزنه يَتَفَعَّل من الأَلية بلا خلاف ، وهي في المصحف «ياءٌ تاءٌ لام» فلذلك ساغ هذا الخلاف لأَبي جعفر وزيد فروياه ، وذكر الطبري أن خط المصحف مع قراءة الجمهور ، فظاهر قوله أَنَّ ثَمَّ أَلفاً قبل التاءِ . و «الفَضْلُ والسَّعَةُ» هنا : المالُ ، وقوله تعالى : ﴿أَلَا تُحِبُّونَ﴾ الآيةَ تمثيلٌ وحُجَّة ، أَي : كما تحبون غفران الله لكم عن ذنوبكم فكذلك اغفروا لمن دونكم ، وينظر إلى هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : (من لا يَرْحَم لا يُرْحَم) (٢) ، فروي عن أَبي بكر رضي الله عنه لما نزلت هذه الآية أنه قال : «إِنِّي لأُحبُّ أَن يغفر الله لي» ، ورجع إلى مِسْطح النفقة والإحسان الذي كان يجري عليه ، قالت عائشة رضي الله عنها : «وكفَّر عن يمينه» . وقرأ ابن

---

(١) من قوله تعالى في الآية (١١٨) من سورة آل عمران : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً﴾ ، ومنه قول الشاعر :

وإنَّ كَنَائِنِي لَنِسَاءُ صِدْقٍ فَمَا آلَى بَنِيَّ ولا أَسَاءُوا

أي : ما قصَّر أبنائي .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب ، ومسلم في الفضائل ، وأبو داود في الأدب ، والترمذي في البِرِّ ، وأحمد في مسنده (٢–٢٢٨ ، ٢٤١) ، ولفظه كما في مسند أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : دخل عُيَيْنَة بن حصن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرآه يقبل حَسَناً أو حُسَيْناً . فقال له : لا تقبله يا رسول الله ، لقد وُلد لي عشرة ما قبَّلْتُ أحداً منهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنَّ مَن لا يرحم لا يُرْحم) .

مسعود رضي الله عنه ، وسفيان بن حسين : ﴿وَلْتَعْفُوا وَلْتَصْفَحُوا﴾ بالتاءِ من فوق فيهما ، ورويت عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وقال بعض الناس : هذه أرجى آية في كتاب الله عزَّ وجلَّ من حيث لطف الله تعالى فيها بالقذفة العصاة بهذه اللفظة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وإنما تعطي الآية تفضلا من الله عزَّ وجلَّ في الدنيا ، وإنما الرجاءُ في الآخرة ، أما إن الرجاءَ في هذه الآية بقياس ، أي إذا أمر أُولي السعة بالعفو ، فطرد هذا التَّفَضُّل بسعة رحمته لا ربَّ سواه ، وإنما آيات الرجاءِ في قوله تعالى : ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ (١) وقوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ (٢) ، وسمعت أبي رحمه الله يقول : أرجى آية في كتاب الله تعالى عندي قوله : ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ ٱللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً﴾ (٣) ، وقد قال الله تبارك وتعالى في آية أُخرى : ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ (٤) فَشَرَح الفضل الكبير في هذه الآية وبشَّر به المؤمنين في تلك ، وقال بعضهم ، أرجى آية

(١) من الآية (٥٣) من سورة (الزُّمَر) .
(٢) من الآية (١٩) من سورة (الشُّورى) .
(٣) من الآية (٤٧) من سورة (الأحزاب) .
(٤) من الآية (٢٢) من سورة (الشُّورى) .

في كتاب الله تعالى قوله : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾(١) ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرضى ببقاء أحد من أمته في النار .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ﴾

قال سعيد بن جبير : إن هذه الآية التي تضمنت لعْن القاذف وتوعُّدَه الشديد إنما هي خاصة في رُماة عائشة رضي الله عنها ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما ، والضحاك ، وغيرهما : بل هذه لجميع أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، غلَّظ الله أمر رَمْيهن لمكانهن من الدين ، فلعن قاذفهن ولم يقرن بآخر الآية توبة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقاذف غيرهن له اسم الفسق وذُكرت له التوبة .

---

(١) الآية (٥) من سورة (الضُّحَى) .

وقال جماعة من العلماءِ : بل هي في شأن عائشة رضي الله تعالى عنها إلَّا أنه يراد بها كل من اتصف بهذه الصفة ، وقال بعض هذه الفرقة : إن هذه الآية نزلت أولاً في القاذفين ، ثم نزلت بعد ذلك الآية في صدر السورة التي فيها التوبة ، وقد تقدم القول في «المُحْصَنَاتِ» ما معنـاه .

و «اللَّعْنة» في هذه الآية : الإبعادُ . وضربُ الحدِّ ، واستيحاشُ المؤمنين منهم وهجرُهم لهم ، وزوالُهم عن رُتبة العدالة . وعلى قول من قال إن هذه الآية خاصة بعائشة رضي الله عنها ترتبت هذه الشدائد في جانب عبد الله بن أُبيٍّ وأَشباهه (١) . وفي ضمن رمي المحصنة رمي الرجل معها ، وقد يكون مؤمناً .

والعامل في قوله : [يَوْمَ] فعل مضمر يقتضيه العذاب ، أي : يُعذَّبونَ يومَ ، أو نحوه (٢) ، وأخبر الله تعالى أن جوارحهم تشهد عليهم ، وذلك من أعظم الخزي والتنكيل ، فيشهد اللسان وقلب المنافق لا يريد ما يشهد به ، وتشهد الأَيدي والأَرجل [وتتكلم] (٣)

(١) قال الزمخشري : «ولو قلَّبْتَ القرآن كلَّه وفتَّشت عما أوعد به العصاة لم تر الله عزَّ وجلَّ قد غلَّظ في شيءٍ تغليظه في الإفك ، ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث لكفى بها حيث جعل القَذَفة ملعونين في الدارين جميعاً ، وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة . وأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم ، وأنه يوفيهم جزاء الحق الذي هم أهله حتى يعلموا أن الله هو الحق ، فأوجز وأشبع . وفصَّل وأجمل . وأكد وكرَّر . وجاء بما لم يقع في وعيد المشركين عبدة الأوثان إلا ما هو دونه في الفظاعة» .

(٢) نقل القرطبي كلام ابن عطية هنا عن معنى «اللعنة» . وفيه زيادة على ما هنا يقتضيها تمام الكلام ونعتقد أنها من كلام ابن عطية ، وهي : «وعلى قول من قال : نزلت في مشركي مكة فلا كلام ، فإنهم مُبعدون ، ولهم في الآخرة عذاب عظيم ، ومن أسلم فالإسلام يجب ما قبله» .

(٣) ما بين العلامتين زيادة يحتاج إليها المعنى .

كلاماً يقدرها الله تعالى عليه . وقرأ جمهور السبعة : [تَشْهَدُ] بالتاء من فوق ، وقرأ حمزة والكسائي : [يَشْهَدُ] بالياء .

و «الدِّينُ» في هذه الآية : الجزاءُ ، ومنه قول الشاعر :

وَلَمْ يَبْقَ سِوى الْعُدْوَا نِ دِنَّاهُمْ كما دَانُوا (١)

أي جازيناهم كما فعلوا ، ومنه المثل «كَمَا تُدِينُ تُدان»(٢) . وقرأ جمهور الناس : [ٱلْحَقَّ] بالنصب على الصفة للدِّين ، وقرأ مجاهد :

---

(١) هذا البيت لِلْفِنْد الزِّمَّانيِّ . واسمه شَهْل بن شيبان بن ربيعة بن زِمَّان الحنفي ، والفِنْد لقب له . وهو في الأصل : القطعة من الجبل ، ولقِّب بذلك لشجاعته مع كبر سنه . والبيت من قصيدة قالها في حرب البسوس . وهو في الحماسة . والبيت في الأمالي للقالي ، وفي شرح شواهد المغني . وفي العيني والهمع والأشموني والتصريح وخزانة الأدب . وقبله يقول الشاعر .

فَلَمَّا صَرَّحَ الشَّرُّ فَأَمْسَى وهُوَ عُرْيَانُ

فقوله : «ولم يبق سوى العدوان» معطوف على «صرَّحَ» . وقوله : «دِنَّاهُمْ» . جواب «لمَّا» ، والعدوان : الظلم الواضح . والدِّين : الجزاء . وأورد البيضاوي هذا البيت في قوله تعالى : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ . والمعنى : لما أصرُّوا على البغي وأبَوْا أن يبتعدوا عن ظلمنا ، ولم يبق أمامنا إلا أن ندفع عنا عدوانهم . جازيناهم بفعلهم القبيح كما فعلوا معنا ، وهذا هو موضع الاستشهاد هنا ، وإطلاق اسم الدِّين على المجازاة هنا من باب المشاكلة ، على حد قوله تبارك وتعالى : ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ ﴾ .

(٢) معنى هذا المثل : كما تُجازِي تُجازَى . يعني : كما تعمل تُجازَى . فإن عملتَ حسناً كان جزاؤك حسناً ، وإن عملت سيئاً كان جزاؤك سيئاً . ومعنى «تُدين» : تصنع . سُمِّي الابتداءُ جزاءً للمرافقة والمطابقة . كقوله تعالى : ﴿ فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ . ويجوز أن يجري كلا الفعلين على الجزاء . أي : كما تجازي أنت الناسَ على صنيعهم كذلك تُجازَى على صنيعك . والكاف في «كما» في محل نصب نعتاً للمصدر . أي : تُدَان دَيْناً مثل دَيْنِكَ . (مجمع الأمثال للميداني) .

[ٱلْحَقُّ] بالرفع على الصفة لله تعالى ، وفي مصحف ابن مسعود وأُبيٍّ ابن كعب رضي الله عنهما : «يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللهُ الْحَقُّ دَيْنَهُم» بتقديم الصفة على الموصوف ، ورويت عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ يقوِّي قول من ذهب إلى أن الآية في المنافقين عبد الله بن أُبيٍّ وغيره ، وذلك أن كل مؤمن في الدنيا يعلم أن الله هو الحق المبين ، وإلَّا فليس بمؤمن .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ٱلْخَبِيثَـٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَـٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَـٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَـٰتِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

اختلف المتأولون في الموصوف في هذه الآية بالخبث والطيب — فقال ابن عباس رضي الله عنهما ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة : هي الأقوال والأفعال ، ثم اختلفت هذه الجماعة ، فقال بعضها : المعنى : الكلمات والفعلات الخبيثات لا يقولها ويرضاها إلا الخبيثون من الناس ، فهي لهم وهم لها بهذا الوجه ، وكذلك الطيبات للطيبين ، وقال بعضها : المعنى : الكلمات والفعلات الخبيثات لا تليق ولا تلصق عند رمي الرامي وقذف القاذف إلا بالخبيثين من الناس ، فهي لهم وهم لها بهذا الوجه .

وقال ابن زيد : الموصوف بالخبث والطيب النساءُ والرجال ، وإنما الآية على نحو التي تقدمت وهي قوله تعالى : ﴿ٱلزَّانِي لا يَنْكِــحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ ، فمعنى هذه : التفريق بين حكم عبد الله بن أُبيٍّ وأشباهه وبين حكم النبي عليه الصلاة والسلام وفضلاء الصحابة رضوان الله عليهم وأُمته ، أي : إن النبي صلى الله عليه وسلم طيب فلم يجعل الله له إلَّا كل طيبة ، وأُولئك خبيثون فهم أهل النساء الخبيثات .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وبهذه الآية قيل لأَزواج النبي صلى الله عليه وسلم : الطيبات المبـــــرآت .

وقوله تعالى : [أُولَئِكَ] إشارة إلى «الطيِّبين» في قوله : ﴿وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ . وقال النقاش : الإشارة بـ ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ﴾ إلى صفوان وعائشة رضي الله عنهما . وجمعهما في الضمير على حدِّ قوله تعالى : ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾(١) والمراد : أخوان .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وفي هذا التمثيل بآية الإخوة نظر . وبحسب هذه المعاني يتقدر المراد بالضمير في [يَقُولُونَ] ، فتأَمله . ثم وعد الله تعالى الطيبين من المؤمنين بالمغفرة عند الحساب . وبالرزق الكريم في الجنة .

---

(١) من الآية (١١) من (سورة النساء) .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

سبب هذه الآية فيما ذكر الطبري عن عدي بن ثابت أن امرأة من الأَنصار قالت : يا رسول الله ، إني أكون في منزلي على الحال التي لا أُحب أن يراني عليها والدٌ ولا ولد ، وإنه لا يزال يدخل عليَّ رجلٌ من أهلي وأنا على تلك الحال . فنزلت هذه الآية[1] ، ثم هي عامة في الأُمة غابر الدهر من حيث هذه النازلة تختص بكل أَحد في نفسه ، وبيت الإنسان هو البيت الذي لا أَحد معه فيه . أو البيت الذي فيه زوجه وأمته ، وما عدا هذا فهو غير بيته ، قال ابن مسعود رضي الله عنه وغيره : ينبغي للإنسان أَلَّا يَدخل البيت الذي فيه أُمُّه إلَّا بعد الاستئناس . وروي في ذلك عن النبي صلى الله عايه وسام أَن

---

(١) أخرجه الفريابي ، وابن جرير ، من طريق عديّ بن ثابت ، عن رجل من الأنصار .

رجلاً قال : يا رسول الله ، أستأْذن على أُمّي ؟ قال : نعم . قال : إنما هي أُمّي ولا خادم لها غيري ، قال : أتحب أن تراها عريانة ؟ قال : لا . قال : فاستأْذن عليها(١) ، وكذلك كل ذات محرم منه لأنه لا ينبغي له أن يراهن عاريات ، وقالت زينب امرأة ابن مسعود : كان ابن مسعود إذا جاء بيته تنحنح مخافة أن يهجم على ما يكره .

و [تَسْتَأْنِسُوا] معناه : تستعلموا ، أي : تستعلموا من في البيت وتستبصروا ، تقول : آنَسْتُ إذا علمتَ عن حسٍّ وإذا أبصرت ، ومنه قوله تعالى : ﴿آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً﴾(٢) ، وقوله : ﴿آنَسْتُ نَاراً﴾(٣) ، ومنه قول حسَّان بن ثابت :

انْظُرْ خَلِيلي ببــابِ جِلَّقَ هَلْ ... تُؤْنِسُ دونَ ٱلْبَلْقَاءِ مِنْ أَحَد ؟(٤)

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري ، عن ابن جريج ، عن ابن زياد ، عن صفوان ، عن عطاء بن يسار .

(٢) من الآية (٦) من سورة (النساء) .

(٣) من الآية (١٠) من سورة (طه) ، وتكررت في الآية (٧) من سورة (النمل) . وفي الآية (٢٩) من سورة (القصص) .

(٤) جِلَّق بكسر الجيم وتشديد اللام : دِمَشْق ، وفيها أيضاً يقول حسان بن ثابت :

لله دَرُّ عصابــةٍ نادَمْتُهــمْ ... يَوْمــاً بِجِلَّق في الزَّمــان الأَوَّلِ

وآنَسَ الشيء : أحسَّه ، وآنَس الشخصَ : رآه وأبصره . والبلقاءُ : أرضٌ بالشام ، وقيل : مدينة . والبيت في اللسان شاهداً على أن البلقاء أرض بالشام ، وهو أيضا في تاريخ ابن عساكر مع اختلاف في الألفاظ . أما الشاهد هنا فهو «تُؤْنِسُ» لأنها بمعنى : ترى وتُحسّ أو تعلم وترى .

وقول الحارث :

آنَسَتْ نَبْأَةً . . . . البيت . . . . (١)

ووزن آنَسَ : أَفْعَل ، واستأْنس وزنه : استفعل ، فكأَن المعنى في [تَسْتَأْنِسُونَ] : تطالبون ما يُؤْنسكم ويؤنس أَهل البيت منكم ، وإذا طلب الإنسان أَن يعلم أَمر البيت الذي يريد دخوله فذلك يكون بالاستئذان على من فيه ، أَو بأَن يتنحنح ويُشعر بنفسه بأَيٍّ وجه أَمكنه . ويتأَنَّى قدر ما يتحفظ ، ويدخل إثر ذلك .

وذهب الطبريُّ في [تَسْتَأْنِسُوا] إلى أَنه بمعنى : حتَّى تُؤْنسوا أَهل البيت من أَنفسكم بالتَّنحنح والاستئذان ونحوه ، وتُؤْنسوا أَنفسكم بأَن تعلموا أَنْ قد شُعر بكم . وتصريف الفعل يأْبى أَن يكون من أَنس .

وذكر الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنه كان يقرأُ : «حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا» ، وهي قراءَة أُبي بن كعب . وحكاها

---

(١) البيت للحارث بن حِلِّزَة . وهو من معلقته التي بدأها بقوله : (آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أَسماءُ) . والبيت من أبيات يصف فيها ناقته وهو بتمامه :

آنَسَتْ نَبْأَةً وَأَفْزَعَهَا الْقَـنَّاصُ عَصْراً وَقَدْ دَنَا الإمْسَاءُ

ومعنى (آنَسَت) : أَحسَّت ، وهي موضع الشاهد هنا . والنَّبأَة : الصوتُ الخفيُّ لا يُدْرى من أين هو . والقَنَّاصُ : الصَيَّادُ . والقَنْص : الصيد . وأفْزَعها القَنَّاصُ : أخافها . وعصْراً هنا : عَشِيّاً . قال ابن الأنباري في شرح المعلقات : وإنما سميت العصرُ في الصَّلاة عصراً لأنها في آخر النهار ، والعَصْر في غير هذا : الدهر . وفاعل «آنست» ضمير يعود على النعامة التي شبه بها ناقته في البيت السابق . وعصْراً منصوب على الوقف . والواو في (وقَدْ دنا) واو الحال . والإمْسَاءُ فاعل بالفعل (دنا) ، وهو مصدر (أمْسى) .

أبو حاتم «حَتَّى تُسَلِّمُوا وتَسْتَأْذِنُوا» ، قال ابن عباس : «تَسْتَأْنِسُوا» خطأ أو وهم من الكُتَّاب .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

مصاحف الإسلام كلُّها قد ثبت فيها [تَسْتَأْنِسُوا] ، وصحَّ الإجماعُ فيها من لدن مُدَّة عثمان رضي الله عنه ، فهي التي لا يجوز خلافها ، والقراءة «تَسْتَأْذِنُوا» ضعيفة ، وإطلاق الخطأ والوهم على الكُتَّاب في لفظٍ أجمع الصحابة عليه قولٌ لا يصح عن ابن عباس رضي الله عنهما ، والأشبه أن يقع «تَسْتَأْذِنوا» على التفسير . وظاهر ما حكى الطبري أنها قراءة ، ولكن قد روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : [تَسْتَأْنِسُوا] بمعنى : تَسْتَأْذِنوا ، ومما ينفي هذا القول عن ابن عباس رضي الله عنهما أن «تَسْتَأْنِسوا» متمكنة في المعنى ، بَيِّنَةُ الوجه في كلام العرب ، وقد قال عمر رضي الله عنه للنبي عليه الصلاة والسلام : أَسْتَأْنِسُ يا رسول الله ؟ وعمر واقف على باب الغرفة .. الحديث المشهور (١) ، وذلك يقتضي أنه طلب الأُنس به صلى الله

(١) الحديث مشهور وطويل . وقد رواه البخاري في المظالم والنكاح . والترمذي في التفسير . وأحمد في مسند (١–٣٤) . وهو عن ابن عباس رضي الله عنهما . قال : لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر رضي الله عنه عن المرأتين من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم اللتين قال الله لهما : ﴿إِنْ تَتُوبَا إلى ٱللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ . وقد قصَّ عمر عليه ما كان بين النبي صلوات الله وسلامه عليه وبين زوجاته حين أُشيع أنه طلقهن، وذهب =

عليه وسلم . فكيف يخطِّئ ابن عباس رضي الله عنهما أصحاب الرسول صلوات الله وسلامه عليه في مثل هذا؟ (١) .

وحكى الطبريُّ أيضاً بسند عن ابن جريج ، عن ابن عباس ، وعكرمة ، والحسن بن أبي الحسن أنهم قالوا : نُسخ واستثني من هذه الآية الأُولى قوله تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ ، وهذا أيضاً لا يترتب فيه نسخٌ ولا استثناء ؛ لأَن الآية الأُولى في البيوت المسكونة والمقصورة ، والآية الثانية في البيوت المباحة ، وكأَن من ذهب إلى الاستثناء رأى الأُولى عامة .

وصورة الاستئذان أن يقول الرجل : السلام عليكم ، أدخل ؟ فإن أُذن له دخل ، وإن أُمر بالرجوع انصرف ، وإن سُكت عنه استأْذن ثلاثاً ثم ينصرف بعد الثلاث . فأَما ثبوت ما ذكرته من

= عمر رضي الله عنه ليعلم الخبر فوجد النبي صلى الله عليه وسلم في مشْرُبة ، فقال لغلام أسود : استأذن لعمر ، ولكن الغلام دخل ثم خرج وقال : ذكرتك له فصمت ، وهكذا ثلاث مرات ، وبعد الثالثة دعاه الغلام . قال عمر : (فدخلتُ عليه فإذا هو مضطجع على رمال حصير ليس بينه وبينه فراش. قد أثَّرَ الرِّمال بجنبه . مُتَّكِئٌ على وسادة من أدَمٍ حشْوها ليف ، فسلمتُ عليه ثم قلت وأنا قائم : طلقت نساءك ؟ فرفع بصره إليَّ فقال : لا ، ثم قلتُ وأنا قائم أستأنس : يا رسول الله لو رأيتني وكنا معشر قريش نغلب النساء . فلما قدمنا على قوم تغلبهم نساؤهم ، فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم) إلى آخر الحديث . واللفظ فيما سقناه هنا من الحديث للبخاري .

(١) نقل القرطبي هذا الكلام عن ابن عطية وأيده في رأيه . ونقل أبو حيان خلاصته ، ثم زاد عليه فقال : «ومن روى ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما فهو طاعنٌ في الإسلام ، ملحدٌ في الدين ، وابن عباس بريءٌ من هذا القول» .

صورة الاستئذان فروى الطبريُّ أَنَّ رجلاً جاءَ إلى بيت النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أَلِـــجُ ؟ أَو أَتَّلِـــجُ ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأَمَةٍ له يقال لها روضة : (قولي لهذا : يقول : السلام عليكم ، أَدْخُل ؟) ، فسمعه الرجل فقالها ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : ادْخل (١) .

ورُوي أَن ابن عمر رضي الله عنهما آذته الرمضاءُ فأَتى فُسطاط امرأَة من قريش ، فقال : السلام عليكم ، أَدْخُلُ ؟ فقالت المرأة : ادْخُلْ بسلام ، فأَعاد فأَعادتْ ، فقال لها : قولي : ادْخُلْ ، فقالت ذلك فدخل ، فكأَنه توقف لما قالت : بسلام ؛ لاحتمال اللفظ أَن تُريد : ادخل بسلامك لا بشخصك . ثم لكلِّ قوم في الاستئذان عُرْفهم في العبارة . وأَما ثبوت الرجوع بعد الاستئذان ثلاثاً فلحديث أَبي موسى الأَشعري الذي استعماله مع عمر رضي الله عنه ، وشهد به لأَبي موسى أَبو سعيد الخدري ، ثم أُبي بن كعب ، الحديث المشهور(٢) ، وقال

---

(١) أخرجه ابن جرير ، عن عمرو بن سعد الثقفي . (الدر المنثور) ، وهو في تفسير ابن جرير الطبري .

(٢) أخرجه مالك ، والبخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، عن أبي سعيد الخدري ، قال : كنت جالساً في مجلس من مجالس الأنصار ، فجاء أبو موسى فزعاً . فقلنا له : ما أفزعك ؟ قال : أمرني عمر أن آتيَهُ فأتيتهُ فاستأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي فرجعتُ . فقال : ما منعك أن تأتيني ؟ قلت : قد جئت فاستأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع) ، قال : لتأتيني على هذا بالبيِّنة ، فقالوا : لا يقوم إلا أصغر القوم ، فقام أبو سعيد معه فشهد له . فقال عمر لأبي موسى رضي الله عنهما : إني لم أتهمك ، ولكن الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شديد .

عطاءُ بن أَبي رباح : الاستئذان واجب على كل محتلم ، وسيأْتي ذكر هذا . ورَوى أَبو هريرة رضي الله عنه أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (رسولُ الرجل إِذنُه)(١) ، أَي : إِذا أُرسل في أَحد فقد أُذن له في الدخول . وقوله : ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ تم الكلام عنده ، وقوله : ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ معناه : فعلنا ذلك بكم ونبَّهناكم لعلكم .

والضمير في قوله : ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا﴾ للبيوت التي هي بيوت الغير ، وحكى الطبري عن مجاهد أَنه قال : معنى قوله : ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً﴾ : إِنْ لم يكن لكم فيها متاع ، وضعَّف الطبري هذا التأْويل ، وكذلك هو في غاية الضعف ، وكأَن مجاهد رأَي أَن البيوت غير المسكونة إنما تُدخل دون إذن إذا كان للداخل فيها متاع ، ورأَى لفظة «المتاع» متاع البيت الذي هو البُسُط والثياب ، وهذا كله ضعيف .

وأَسند الطبري عن قتادة أَنه قال : قال رجل من المهاجرين : لقد طلبت عمري كله هذه الآية فما أَدركتها ، أَن استأْذن على بعض إخواني فيقول لي : ارجع ، فأَرجع وأَنا مغتبط لقوله تعالى : ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ .

---

(١) أخرجه أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه . ويؤيده ما أخرجه أبو داود أيضاً عن أبي هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال : (إذا دُعي أحدكم إلى طعام فجاء مع الرسول فإن ذلك له إذن) .

وقوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ توعُّد لأَهل التجسُّس على البيوت وطلب الدخول على غفلة للمعاصي والنظر إلى ما لا يحلُّ ، ولغيرهم ممن يقع في محظور .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

رُوي أَن بعض الناس لمَّا نزلت آية الاستئذان تعمق في الأَمر ، فكان لا يأْتي موضعاً خرباً ولا مَسْكُوناً إلَّا سلَّم واستأْذن ، فنزلت هذه الآية ، أَباح الله تعالى فيها رفع الاستئذان في كل بيت لا يسكنه أَحد ؛ لأَن العلَّة إنما هي في الاستئذان خوف الكشفة على الحُرُمَات ، فإذا زالت العلَّة زال الحكم .

ومثَّل أَهل التأْويل من هذه البيوت أَمثلة ، فقال محمد بن الحنفية ، وقتادة ، ومجاهد : هي الفنادق التي في طرق المسافرين ، قال مجاهد : لا يسكنها أَحد ، بل هي موقوفة ليأْوي إليها كل ابن سبيل ، وفيها متاع لهم ، أَي استمتاع بمنفعتها ، ومثَّل عطاءٌ في بيوت غير مسكونة بالخِرَب(١) التي يدخلها الإنسان للبول والغائط ، ففي هذا أَيضاً متاعٌ .

---

(١) جمع خِرْبَة ، وهي موضع الخراب . وفي حديث بناء مسجد المدينة : «كان فيه نخل وقبور المشركين وخِرَبٌ ، فأَمر بالخِرَب فَسُوِّيت» .

وقال ابن زيد والشعبي : هي حوانيت القَيْسَارِيَّات (١) والأسواق ، قال الشعبي : لأنهم جاءُوا ببيوعهم فجعلوها فيها وقالوا للناس : هلُمَّ ، وهذا قول غلط قائله ، وذلك أن بيوت القَيْسَارية محظورة بأموال الناس ، غير مباحة لكل من أراد دخولها بإجماع ، ولا يدخلها إلَّا من أُذن له بها ، بل إن أربابها مُوَكَّلون بدفع الناس عنها . وقال محمد ابن الحنفية أيضاً : أرادتعالى دور مكَّة ، وهذا على القول بأنَّها غير مُتملَّكة ، وأن الناس شركاءُ فيها ، وأن مكَّة أُخذت عنوة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا هو في هذه المسألة القول الضعيف ، يردُّه قوله عليه الصلاة والسلام : (وهل ترك لنا عقيل منزلا ؟) (٢) ، وقوله : (من دخل دار

---

(١) جاء في معجم البلدان للحموي أن «قَيْسَارِية» بالفتح ثم السكون وسين مهملة وبعد الألف راءٌ وياءٌ مشددة ، ثم قال : «وهي بلد على ساحل بحر الشام في أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة أيام ، وكانت قديماً من أعيان أُمهات المدن ، وقيسارية أيضاً مدينة «عظيمة كبيرة في بلاد الروم ...» . فالمراد إذاً : المدن الكبيرة العظيمة المتسعة ، والحوانيت جمع حانوت وهو دكان الخمار ومحل التجارة ، فالمراد بالجملة : محلات التجارة في المدن الكبيرة .

(٢) أخرجه البخاري ، وأبو داود . ولفظه في البخاري في غزوة الفتح ، عن أسامة ابن زيد أنه قال زمن الفتح : يا رسول الله أين ننزل غداً ؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم : (وهل ترك لنا عقيل من منزل ؟) ثم قال : (لا يرثُ المؤمنُ الكافرَ ولا الكافرُ المؤمنَ) ، قيل للزهري – أحد رواة الحديث – : ومن ورث أبا طالب ؟ قال : ورثه عقيلٌ وطالب .

أَبي سفيان ، ومن دخل داره)(١) ، وغير ذلك من وجوه النظر .

وباقي الآية بيِّن ، وظاهره التوعُّد .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بمنزلة قوله : انْهَهُمْ ، فقوله : [يَغُضُّوا] جواب الأَمر ، وقال المازني : المعنى : قل لهم غُضُّو يغضُّوا ، ويلحق هذين من الاعتراض أَن الجواب خبر من الله تعالى ، وقد يوجد من لا يغض ، وينفصل بأَن المراد : يكونون في حكم من يغض . وقوله : ﴿ مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ ، أَظهر ما في [مِنْ] أَن تكون للتبعيض ، وذلك أَن أَول نظرة لا يملكها الإنسان ، وإنما يغض فيما بعد ذلك ، فقد وقع التبعيض ، ويؤيد هذا التأْويل ما روي من قوله عليه الصلاة

(١) جاء هذا في فتح مكة ، ورواه البخاري ، ومسلم ، وابن إسحق ، وغيرهم ، وهو حديث طويل ، وفيه أن أبا سفيان جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يوم الفتح مع العباس فأسلم ، فقال العباس : يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجلٌ يحب الفخر ، فاجعل له شيئاً ، قال : (نعم ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن) . (واللفظ عن السيرة النبوية لابن هشام) .

والسلام لعلي بن أَبي طالب رضي الله تعالى عنه : (لا تُتبع النظرة النظرة ، فإن الأُولى لك ، وليست لك الثانية) الحديث(١) . وقال جرير بن عبد الله : سأَلت النبي صلى الله عليه وسلم عن نظرة الفجأَة فقال : (اصرف بصرك)(٢) ، ويصح أَن تكون [مِنْ] لبيان الجنس(٣) ، ويصح أَن تكون لابتداءِ الغاية ، والبصر هو الباب الأَكبر للقلب وأَعمر طرق الحواسِّ إليه ، وبحسب ذلك كثر السقوط من جهته ، ووجب التحذير منه .

و «حِفْظ الفرج» يحتمل أَن يريد به : في الزنى ، ويحتمل أَن يريد : بستر العورة ، والأَظهر أَن الجميع مرادٌ واللفظ عام ، وبهذه الآية حرَّم العلماءُ دخول الحمام بغير مئزر ، وقال أَبو العالية : كل فرج ذُكر في القرآن فهو من الزنى إلَّا في هاتين الآيتين فإنه يعني التستُّر .

---

(١) أخرجه أبو داود في النكاح ، والترمذي في الأدب ، والدارمي في الرقاق ، وأحمد في مسنده (٥-٣٥١ ، ٣٥٣) ، ولفظه في مسند أحمد ، عن بريدة عن أبيه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لعلي : (لا تُتْبِع النظرةَ النظرة ، فإن لك الأولى وليست لك الآخرة) . واللفظ في سنن الدارمي : (لا تُتْبع النظرة النظرة ، فإن الأولى لك والآخرة عليك) .

(٢) أخرجه مسلم في الأدب ، وأبو داود في النكاح ، والترمذي في الأدب ، والدارمي في الاستئذان ، وأحمد في مسنده (٤-٣٥٨) ، وهو عن أبي زرعة ، عن عمرو بن جرير ، عن أبيه عن جده قال : سألتُ النبي صلى الله عليه وسلم عن نظرة الفجأة فقال : (اصرف بصرك) . وفي رواية الإمام أحمد : (فأمرني أن أصرف بصري) . وزاد الإمام السيوطي في «الدر المنثور» نسبته إلى ابن أبي شيبة ، والنسائي ، وابن مردويه .

(٣) قال أبو حيان تعقيباً على ذلك : «ولم يتقدم مبهم فتكون [مِنْ] لبيان الجنس ، على أن الصحيح أن [مِنْ] ليس من موضوعاتها أن تكون لبيان الجنس» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولا وجه لهذا التخصيص عندي .

وباقي الآية بيِّن ، وظاهره التَّوعُّد .

وقوله تعالى : ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ﴾ الآية ، أَمَرَ الله تعالى النساءَ في هذه الآية بغض البصر عن كل ما يُكره من جهة الشرع النَّظرُ إليه ، وفي حديث أُم سلمة قالت : كنت أنا وعائشة رضي الله عنهما عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فدخل ابن أُم مكتوم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (احتجبن) فقلنا : إنه أعمى ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (أَفَعَمْيَاوان أنتما ؟)(١) ، [مِنْ] تحتمل ما تقدم في الأُولى ، و «حفظ الفروج» يعُمُّ الفواحش وستْرَ العورة وما دون ذلك مما فيه حفظ .

وأمر الله تعالى بأَلَّا يُبدين زينتهن للناظرين ، إلَّا ما استثناه من الناظرين في باقي الآية ، ثم استثنى ما يظهر من الزينة ، فاختلف الناسُ في قدر ذلك ـ فقال ابن مسعود رضي الله عنه : ظاهر الزينة هو الثياب ، وقال سعيد بن جبير : الوجه والثياب ، وقال سعيد بن جبير أيضاً ، وعطاءٌ ، والأَوزاعي : الوجه والكفان والثياب ، وقال

---

(١) أخرجه أبو داود في اللباس ، والترمذي في الأدب ، وأحمد في مسنده (٦-٢٩٦) . ولكن في مسند أحمد عن الزهري أن نبهان حدَّثه أن أم سلمة حدَّثته قالت : كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا وميمونة . بدلا من عائشة كما هو هنا .

ابن عباس رضي الله عنهما ، وقتادة ، والمِسْوَرُ بن مخرمة (١) : ظاهر الزينة هو الكحل والسِّواك والخضابُ إلى نصف الذراع والقِرَطةُ والفَتَخُ (٢) ، ونحو هذا فمباح أن تبديه المرأة لكل من دخل عليها من الناس ، وذكر الطبري عن قتادة في معنى نصف الذراع حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم (٣) ، وذكر آخر عن عائشة رضي الله عنها ، عن النبي صلى الله عليه وسلم (٤) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويظهر لي بحكم ألفاظ الآية أن المرأة مأمورة بألّا تُبدي ، وأن تجتهد في الإخفاء لكل ما هو زينة ، ويقع الاستثناءُ في كل ماغالبها فظهر بحكم ضرورة حركة فيما لا بد منه ، أو إصلاح شأن ونحو ذلك ، فما ظهر على هذا الوجه فهو المعفي عنه ، فغالب الأمر أن الوجه

(١) هو المِسْوَرُ بن مَخْرَمَةَ بن نوفل بن أهيب بن عبد مناف بن زُهرة ، له ولأبيه صُحبة ، مات سنة ٦٤ للهجرة .

(٢) الفَتَخُ بفتحتين : جمع الفَتْخة وهي خواتيم كبار تلبس في الأيدي . وقيل : الفَتْخَة حلقة من ذهب أو فضة لا فصَّ لها تُلْبس في البنصر . والقِرَطَةُ : جمع قُرْط وهو ما يعلّق في الأذن.

(٣) ونصّه : قال قتادة : وبلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لا يحِلُّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تخرج يدها إلا إلى ها هنا ، وقبض نصف الذراع) .

(٤) أخرجه ابن جرير عن ابن جريج عن عائشة رضي الله عنها ، وهو : وقالت عائشة : القُلْب والفَتَخة ، قالت عائشة : دخلت عليَّ ابنة أخي لأمي عبد الله بن الطفيل مُزَيَّنة . فدخل النبي صلى الله عليه وسلم فأعرض ، فقالت عائشة : يا رسول الله إنها ابنة أخي وجارية ، فقال : إذا عَرَكَت المرأة لم يحل لها أن تظهر إلا وجهها وإلا ما دون هذا ، وقبض على ذراع نفسه ، فترك بين قبضته وبين الكف مثل قبضة أخرى ، وأشار به أبو علي . ومعنى : عركت تَعْرُكُ : حاضَتْ . أما القُلْبُ فهو السِّوار يكون نظماً واحداً .

والكفين يكثر منهما الظهور ، وهو الظاهر في الصلاة ، ويحسن (١) بالحسنة الوجه أن تستتر إلَّا من ذي حرمة محرمة ، ويحتمل لفظ الآية أن الظاهر من الزينة لها أن تبديه . ولكن يقوي ما قلناه الاحتياطُ ومراعاة فساد الناس ، فلا يظن أن يباح للنساء من إبداء الزينة إلَّا ما كان بذلك الوجه ، والله الموفق للصواب برحمته .

وقرأ الجمهور : [وَلْيَضْرِبْنَ] بسكون اللام التي هي للأمر ، وقرأ أبو عمرو – في رواية عباس عنه – : [وَلِيَضْرِبْنَ] بكسر اللام على الأصل ؛ لأن أصل لام الأمر الكسر في «لِيَذْهب ولِيَضْرب» ، وإنما تسكينها كتسكين «عَضُد وفَخِذ»(٢) .

وسبب هذه الآية أن النساء كن في ذلك الزمان إذا غطَّين رءوسهن بالأخمرة سدَلْنها من وراء الظهر . قال النقاش : كما يصنع النَّبط ، فيتبقى النحر والعنق والأذنان لا ستر على ذلك ، فأمر الله تعالى بلَيِّ الخمار على الجيوب ، وهيئة ذلك [أن تضرب المرأة بخمارها على جيبها](٣) فيستر جميع ما ذكرناه .

---

(١) في بعض النسخ : (ويُخَصِّص) بدلا من (ويحسن) .

(٢) إذ يقال فيهما : عَضْد وفَخْذ .

(٣) ما بين العلامتين زيادة عن القرطبي . فقد نقل كلام ابن عطية هنا من أول قوله : «وسبب هذه الآية ... إلى هنا» . ووردت فيه هذه الزيادة . ونعتقد أنها سقطت من النساخ . والجيب هو فتحة الثوب على الصدر .

وقالت عائشة رضي الله عنها : رحم الله المهاجرات الأُول . لما نزلت هذه الآية عَمَدْنَ إلى أكثف المروط فَشَقَقْنَهَا أخمرة ، وضَرَبْن بها على الجيوب . ودخلت على عائشة حفصةُ بنت أَخيها عبد الرحمن وقد اختمرت بشيءٍ يشِفُّ عن عنقها وما هنالك . فَشَقَّته عليها وقالت : إنما يُضرب بالكثيف الذي يستر .

ومشهور القراءة ضم الجيم من [جُيُوبِهِنَّ] . وقرأ بعض الكوفيين بكسرها بسبب الياء كقراءتهم ذلك في بُيوت وشُيوخ ، ذكره الزهراوي .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ﴾

المعنى في هذه الآية : ولا يقصدن بذلك الإخفاء للزينة الباطنة كالخلخال والأقراط ونحوه ، ويطرحن مؤونة التحفظ إلَّا مع من سمَّى . وبدأ بالبعولة وهم الأزواج لأن اطلاعهم يقع على أكثر من هذا ، ثم ثنَّى بذوي المحارم وسوَّى بينهم في إبداء الزينة ، ولكنهم تختلف مراتبهم في الحرمة بحسب ما في نفوس البشر . فلا مرية أن كشف

الأَب والأَخ على المرأة أَحوط من كشف ولد زوجها ، وتختلف مراتب ما يُبدَى لهم ، فيُبدَى للأَب ما لا يجوز إبداؤه لولد الزوج .

وقوله تعالى : ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ يعني جميع المؤمنات . فكأَنه قال : أَو صنفهن ، ويدخل في هذا الإماءُ المؤمنات ، ويخرج منه نساءُ المشركين من أَهل الذمة وغيرهم . وكتب عمر رضي الله عنه إلى أَبي عبيدة رضي الله عنه : إنه بلغني أَن نساءَ أَهل الذمة يدخلن الحمامات مع نساءِ المسلمين ، فامنع من ذلك وحُلْ دونه ، فإنه لا يجوز أَن ترى الذمية عِرْيَة المسلمة (١) . قال : فعند ذلك قام أَبو عبيدة وابتهل وقال : أَيما امرأَة تدخل الحمام من غير عذر . لا تريد إلَّا أَن تُبَيِّض وجهها فسَوَّد الله وجهها يوم تَبْيَضُّ الوجوه .

وقوله تعالى : ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ يدخل فيه الإماءُ الكتابيات (٢) ، ويدخل فيه العبيد عند جماعة من أَهل العلم . وهو الظاهر من مذهب عائشة وأُمِّ سلمة رضي الله عنهما ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وجماعة العلماءِ : لا يدخل العبد على سيدته فيرى شعرها ونحو ذلك إلَّا أَن يكون وغداً ، فمنعت هذه الفرقة الكشف بِمِلْك اليمين ،

(١) يعني : ما يُعرى منها ويُكشف .

(٢) هو من مكاتبة العبيد ، وهي أن يُكاتِب العبدُ على نفسه بثمنه ، فإذا سعى وعمل وأدّى هذا الثمن عُتق .

وأباحته بأن يكون من التابعين غير أُولي الإرْبة . وفي بعض المصاحف «أَوْ ما مَلَكت أَيمانُكُم» فيدخل فيه عبْد الغير .

وقوله : ﴿أَوِ ٱلتَّابِعِينَ﴾ يريد الأَتباع [الذين يدخلون] ليطعموا الفضول ، وهم من الرجال الذين لا إرْبَة لهم في الوطء ، فهي شرطان ، ويدخل في هذه الصيغة المجبوب (١) والمعتوه والمُخَنَّث والشيخ الفاني والزَّمِنُ الموقوذ بزمانته (٢) ، ونحو هذا هو الغالب في هذه الأَصناف ، ورُبَّ مُخَنَّث لا ينبغي أَن يكشف ، أَلا ترى إلى حديث «هِيت» ونَهْي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كشفه على النساءِ لمَّا وصف بَادِيَةَ ابنة غيلان بن معتب (٣) ؟ وتأَمل ما روي في أَخبار الدَّلَّال المُخَنَّث ،

(١) المجبوبُ : المقطوع الذَّكر . وفي بعض النسخ : «المجنون» بدلا من المجبوب .

(٢) الزَّمِنُ : المريض مرضاً يدوم طويلا . والموقوذ : الشديد المرض المشرف على الموت .

(٣) حديث هِيْت أخرجه مسلم ، وأبو داود ، ومالك في الموطأ . وعبد بن حميد ، وعبد الرزاق ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي ، عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : كان رجلٌ يدخل على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم مُخَنَّث ، فكانوا يعُدُّونه من غير أُولي الإرْبَة ، فدخل النبي صلى الله عليه وسلم يوماً وهو عند بعض نسائه وهو ينعت امرأة ، قال : إذا أقبلت أقبلت بأربع ، وإذا أدبرت أدبرت بثمانٍ ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (لا أرى هذا يَعرف ما ها هنا ، لا يدخُلَنَّ عليكم) ، فحجبوه ، وفي رواية لابن مردويه أن اسمه هيت ، وقد ذكر الواقدي والكلبي أن هيتاً هذا قال لعبد الله بن أُمية المخزومي وهو أخو أمِّ سلمة رضي الله عنها ، قال له في بيت أُخته : إن فتح الله عليكم الطائف فعليك ببادية بنت غيلان الثقفي ، فإنها تقبل بأربع وتُدبر بثمانٍ ، مع ثغر كالأقحوان ، إن جلَسَتْ تَبَنَّتْ ، وإن تكلَّمت تَغَنَّت الخ . فسمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : لقد غَلْغَلْتَ النظر إليها يا عدوَّ الله ، ثم أجلاه عن المدينة إلى الحِمَى . ــ هذا وبادية بالياء ، ويقال لها بادنة بالنون ، والصواب بالياء . ومعنى (تقبل بأربع وتدبر بثمان) : تقبل بأربع طيات من لحم جسمها وتدبر بثمانٍ منها ، وتَبَنَّتْ : صارت كالمبنَّاة لِسِمَنِها .

وكذلك الحمقى والمعتوهون فيهم من لا ينبغـي أن يكشف ، والذي لا إربة له من الرجال قليل .

و «الإرْبَةُ» : الحاجة إلى الوطء (١) ، وعبَّر عن هذا بعض المفسرين فقال : هو الذي يتبعك لا يريد إلَّا الطعام وما يؤكله ، وقرأ عاصم (٢) ، وابن عامر : [غَيْرَ] بالنصب ، وهو على الحال من الذِّكر الذي في [ٱلتَّابِعِين] ، أو على الاستثناء من [ٱلتَّابِعِينَ] ، وقرأ الباقون : [غَيْرِ] بالخفض على النعت لـ [ٱلتَّابِعِينَ] ، والقول فيها كالقول في ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ (٣) .

وقوله تعالى : ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ﴾ اسم جنس بمعنى الجمع (٤) ، ويقال «طِفْل» ما لم يراهق الحُلُم ، و [يَظْهَرُوا] معناه : يَطَّلِعُوا بالوطء (٥) ، والجمهور على سكون الواو من [عَوْرَاتِ] ، ورُوي عن ابن عامر فتح الواو ، وقال الزجاج : الأَكثر سكون الواو كجَوْزات وبيْضات لثقل الحركة على الواو والياء ، ومن قرأ بالفتح فعلى الأَصل في فَعْلَة وفَعَلات .

---

(١) أي في هذا الموضع . أما في غير ذلك فإن الإرْبَةَ هي الحاجة . ومثلها الأَرَبُ والمأْرُبَةُ والإرْبُ ، والجمع مآرب . قال الله تعالى : ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ .

(٢) أي في رواية أبي بكر عنه . أما رواية حفص عنه فهي بالخفض كما هو ثابت في المصحف .

(٣) من الآية (٧) من سورة (الفاتحة) .

(٤) بدليل قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا﴾ . فإنَّ [ٱلَّذِينَ] نعت لِلطِّفْلِ ، والضمير في [يَظْهَرُوا] ضمير جمع .

(٥) يعني لم يكشفوا عن عورات النساء لهذا الغرض بسبب صغر السِّن .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ ﴾

أسند الطبري عن المعتمر عن أَبيه قال : زعم حضرمي أَن امرأَةً اتَّخذت بُرَتَيْن (١) من فضة ، واتخذت جَزْعاً (٢) . فجعلت في ساقها فمرت على القوم فضربت برجلها الأَرض ، فوقع الخلخال على الجزع فصوَّت ، فنزلت هذه الآية ، وسماع هذه الزينة أَشدُّ تحريكاً للشهوة من إبدائها ، ذكره الزجاج .

قال مكي رحمه الله : ليس في كتاب الله تعالى آية أَكثر ضمائر من هذه ، جمعت خمسة وعشرين ضميراً للمؤمنات من مخفوض ومرفوع . وقرأ عبد الله بن مسعود : «لِيُعْلَم ما سُرَّ مِنْ زينتهنَّ» (٣) .

---

(١) مُثَنَّى «بُرَة» بضم الباء وفتح الراء خفيفة : وهي الخلْخَالُ ، وقيل : هي كلُّ حَلْقة من سِوار وقُرْط وخلْخال . قال الشاعر : (وَقَعْقَعْنَ الخَلاخِلَ والبُرِينا) . قال أبو عليٍّ : أصْلُ البُرَة : بَرْوَة ، لأنها جُمِعت على بُرىً مثل قَرْيَةٍ وقُرًى .

(٢) الجَزْعُ : ضربٌ من العقيق يعرف بخطوط متوازية مستديرة مختلفة الألوان .

(٣) في بعض النسخ : «لِيُعْلَمَ مَا يَسْتُرْنَ من زينتهن» . أما كلمة «سُرَّ» فلعلها فهي بمعنى : أُخْفِي وسُتِر .

ثم أمر عزَّ وجلَّ بالتوبة مطلقة ، وقد قيَّد توبة الكفار بالإخلاص وبالانتهاء في آية أُخرى (١)، وتوبة أهل الذِّمة بالتَّبيين، يريد لأَمر محمد صلى الله عليه وسلم (٢)، وأَمر بهذه التوبة مطلقة عامة من كلِّ شيء صغير وكبير .

وقرأ ابن عامر : ﴿ أَيُّهُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ بضم الهاءِ من [أَيُّهُ] ، ووجهه أن يجعل الهاءَ كأَنها من نفس الكلمة ، فيكون إعراب المنادى فيها ، وضعَّف أَبو عليٍّ ذلك جدًّا (٣)، وبعضهم يقف [أَيُّهْ]، وبعضهم يقف [أَيُّهَا] بالأَلف ، وقوَّى أَبو عليٍّ الوقف بالأَلف لأَن علَّة حذفها في الوصل إنما هي سكونها وسكون اللام ، فإذا كان الوقف ذهبت العلَّة فرجعت الأَلف كما ترجع اليـــاءُ إذا وقفت على [مُحِلِّي] من قولــه تعـالى : ﴿ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ ﴾ (٤) ، والاختــلاف الذي ذكرنـــاه في

---

(١) هي قوله تعالى في الآية (١٤٦) من سورة النساء : ﴿ إلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ للهِ ﴾ .

(٢) جاء ذلك في الآية (١٦٠) من سورة البقرة ، وهي قوله تعالى : ﴿ إلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ .

(٣) قال : لأن آخر الاسم هو الياءُ الثانية من «أَيّ» ، فالمضموم ينبغي أن يكون آخر الاسم ، ولو جاز هنا أنْ نضم الهاءَ لاقترانها بالكلمة لجاز ضمُّ الميم من « اللَّهُمَّ » لاقترانها بالكلمة أيضاً . وعلَّق العلماءُ على ذلك فقالوا : إذا ثبتت القراءة عن النبي صلى الله عليه وسلم فلا حجَّة لِلُغَوِيٍّ بعد ذلك . فإن القرآن هو الحجة ، وبه تصبح اللغة صحيحةً .

(٤) من الآية (١) من سورة (المائدة) .

﴿ أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ كذلك هو في ﴿ أَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ﴾ (١)، و ﴿ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴾ (٢).

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْكِحُوا ٱلْأَيَامَى ﴾ . هذه المخاطبة لكل من تصور أن ينكح في نازلة ما ، فهم المأمورون بتزويج من لا زوج له ومن لا زوجة له ، وظاهر الآية أن المرأة لا تتزوج إلّا بِوَلِيٍّ . و « الْأَيِّمُ » يقال للرجل وللمرأة ، ومنه قول الشاعر :

لِلّهِ دَرُّ بَنِـي عَلِــيٍّ أَيِّم مِنْهُم وَنَاكِـح (٣)

ولعموم هذه اللفظة قالت فرقة : إن هذه الآية ناسخةٌ لحُكم قوله تعالى : ﴿ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤)، وقوله : ﴿ وَٱلصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ ﴾ يريد : للنكاح (٥). وقرأ الحسن

(١) من الآية (٤٩) من سورة (الزخرف) .

(٢) من الآية (٣١) من سورة (الرحمن) . هذا وقد قال ابن خالويه في كتاب (الحجة في القراءات السبع) : « والحجة لمن حذف وأسكن الهاء أنه اتّبع خط السواد ، واحتج بأن النداء مبني على الحذف . وإنما فُتحت الهاء لمجيء ألف بعدها . فلما ذهبت الألف عادت الهاءُ إلى السكون ، وإنما يوقف على مثل هذا اضطراراً لا اختياراً » .

(٣) هذا البيت لأمية بن أبي الصلت . قال ذلك القرطبي واستشهد به . و « الدَّرُّ » في الأصل : اللّبن . والمراد به هنا الخَيْرُ . يقال : لله درُّك من رجل . أي لله عَمَلُك ، يقال هذا لمن يُمدح ويُتَعَجّب من عمله » ، فإذا شتموا أوسبُّوا قالوا : لا دَرَّ دَرُّه ، أي لا كثُر خيرُه ، والأيِّم : من لا زوج له رجلا كان أو امرأة . والنَّاكحُ : المتزوج . فهو يثني على آل عليٍّ جميعاً المتزوجين منهم وغير المتزوجين . والشاهد استعمال الأيِّم هنا للرجل وللمرأة .

(٤) من الآية (٣) من هذه السورة (النور) .

(٥) وقيل : (المراد بالصالحين المستقيمين المؤدين لواجباتهم ، وخصهم الله بالذكر ليحصِّن لهم دينهم بالزواج ويحفظ عليهم صلاحهم . لأن الصالحين من العبيد يكونون موضع رعاية وإشفاق ممن ملكوهم . فهم يُنزلونهم منزلة الأولاد في المودة والرعاية ، فهم مظنة الاهتمام بشأنهم وتقبُّل الوصية فيهم . بخلاف المفسدين فحالهم عند واليهم على عكس ذلك .

ابن أبي الحسن : ﴿مِنْ عَبِيدِكُمْ﴾ ، والجمهور على ﴿مِنْ عِبَادِكُمْ﴾ ، والمعنى واحد ، إلَّا أن قرينة الترفيع بالنكاح تؤيد قراءة الجمهور .

وهذا الأمر بالنكاح يختلف بحسب شخص شخص ، ففي نازلة يُتصور وجوبه ، وفي نازلةِ الندبُ ، وغير ذلك ، وهذا بحسب ما قيل في النكاح .

ثم وعد الله تبارك وتعالى بإغناءِ الفقراءِ المتزوجين طلباً لرضى الله عنهم واعتصاماً من معاصيه ، وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه : «التمسوا الغنى في النكاح» ، وقال عمر رضي الله عنه : «عجبي ممن لا يطلب الغنى بالنكاح ، وقد قال الله تعالى : ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (١)» . قال النقاش : هذه الآية حجةٌ على من قال إن القاضي يفرق بين الزوجين إذا كان الزوج فقيراً لا يقدر على النفقة ، لأن الله تعالى قال : ﴿يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ﴾ ولم يقل : «يفرق بينهما» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا انتزاعٌ ضعيف ، وليست هذه الآية حُكْماً فيمن عجز عن النفقة ، وإنما هي وعْدٌ بالإغناءِ ، كما وعد به تعالى مع التفرق في

(١) وأخرج ابن ماجه في سننه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ثلاثة كلُّهم حقٌّ على الله عونه ، المجاهد في سبيل الله ، والناكح يريد العفاف ، والمُكاتَب يريد الأداء) .

قوله : ﴿ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ ﴾ (١) ، ونفحات رحمة الله تعالى مأمولةٌ في كل حالٍ ، موعودٌ بها .

وقوله تعالى : ﴿ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ صفتان نحو المعنى الذي فيه القول ، أي واسع الفضل ، عليمٌ بِمُسْتَحِقِّ التوسعةِ والإغناء .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ ﴾

«استعفف» وزنه اسْتَفْعَل ، ومعناه : طلب أن يكون عفيفاً ، فأمر الله تعالى في هذه الآية كل من يتعذر عليه النكاح ولا يجده بأي وجه تعذَّر أن يستعف ، ثم لما كان أغلب الموانع على النكاح عدم المال وعَدَ بالإغناء من فضله ، فعلى هذا التأويل يعمُّ الأَمر بالاستعفاف كلَّ من تعذَّر عليه النكاح بأَي وجه تعذَّر .

وقالت جماعة من المفسِّرين : النكاحُ في هذه الآية اسم ما يُمْهَر ويُنْفق في الزواج كاللِّحاف واللباس لما يُلْتَحف به ولما يلبس ، وحملهم

(١) من الآية (١٣٠) من سورة النساء) .

على هذا قوله تعالى : ﴿ حَتَّى يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ ، فظنوا أن المأمور بالاستعفاف إنما هو من عدم المال الذي يتزوج به ، وفي هذا القول تخصيص المأمورين بالاستعفاف ، وذلك ضعيف (١) .

ثم أمر الله تعالى المؤمنين كافة أن يكاتِب منهم كلٌّ من له مملوك وطَلَب المملوكُ الكتابة وعَلم سيِّدُه منه خيراً ، قال النقاش : سببها أن غلاماً لحويطب بن عبد العُزَّى سأل مولاه الكتابة فأبى عليه ، وقال مكي : هو صُبَيْح القبطي غلام حاطب بن أبي بلتعة ، ولفظ [ٱلْكِتَابَ] في الآية مصدر كالقتال والجلاد ونحوه من مصادر فاعَلَ ، و « الكتابة » فِعالة من حيث هذا يكتب على نفسه ، وهذا على نفسه .

واختلف الناس ، هل هذا الأمر بالكتابة على الوجوب أو على الندب ، على قولين : فمذهب مالك رحمه الله أن ذلك على الندب ، وقال عطاء : ذلك واجب ، وهو ظاهر قول عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لأنس بن مالك رضي الله عنه في سيرين ، حين سأل سيرين الكتابة فتلكَّأ أنس ، فقال له عمر : كاتِبهُ أو لأضربنَّك بالدِّرَّة ، وهو قول عمرو بن دينار والضحاك (٢) .

---

(١) نقل القرطبي كلام ابن عطية في هذه الفقرة ، وزاد عليه قوله : « بل الأمر بالاستعفاف متوجه لكل من تعذَّر عليه النكاح بأي وجه » .

(٢) وحجة القائلين بالندب وهم الجمهور أن الإجماع منعقد على أنه لو سأل العبد سيده أن يبيعه لم يجبر على ذلك ولو ضوعف له الثمن. كذلك لو طلب العبد من سيده أن يعتقه أو =

واختلف الناس في المراد بالخير - فقالت فرقة : هو المال ، ولم تَرَ على سيِّد عبد أن يكاتب إلَّا إذا علم أن له مالا يؤدي منه أو من التَّجْر فيه (١) ، وروي عن ابن عمر وسلمان أنهما أبيا من كتابة عبدين رغبا في الكتابة ووعدا باسْتِرْفَاق الناس ، فقال كل واحد منهما لعبده : أتريد أن تطعمني أوساخ الناس ؟ وقال مالك : إنه ليقال : يراد بالخير القوة والأداءُ ، وقال الحسن بن أبي الحسن : الخير هو صدقُ الموعد ، وقلَّة الكذب ، والوفاءُ ، وإن لم يكن للعبد مالٌ ، وقال عُبيدةُ السَّلْماني : الخيْرُ هو الصلاح في الدين ، وهذا في ضمنه القول الذي قبله .

والمُكَاتَبُ عبدٌ ما بقي عليه درهم ، وحرمة العتق إنما يتلبَّس بها بعد الأداءِ ، هذا قول جمهور الأئمة ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه : إذا أدَّى ثُلث الكتابة فهو عتيق غريم ، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : العتاقة تجري فيه بأول نَجْم يؤديه (٢) .

وقوله تعالى : ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ ٱللهِ﴾ ، قال المفسرون : هو أمر لكل مكاتِب أن يضع للعبد من مال كتابته ، واستحسن علي بن أبي

= يُدَبِّره أو يزوجه لم يلزمه ذلك بالإجماع ، فكذلك المكاتبة ، وهي مفاعلة لا تتم إلا عن تراض ، وقالوا : إن الآية فيها أمر مطلق وهو يقتضي الوجوب إذا لم تكن هناك قرينة تمنع من ذلك ، وهي هنا علم الخير من السيِّد في العبد ، فلو قال العبد : كاتبني . وقال السيِّد : لا أعلم فيك خيراً . أخذ بقول السيِّد ، والله أعلم .

(١) التَّجْر : مصدر تَجَرَ ، يقال : تَجَرَ في كذا بمعنى : مارس البيع والشراء .

(٢) النَّجْم هو : ما يُؤَدَّى من دَيْن في وقت مُعَيَّن ، والذي يعرف الآن بأنه « القِسْطُ » .

طالب رضي الله عنه أن يكون ذلك ربع الكتابة ، قال الزهراوي : ورُوي ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم[١] ، واستحسن الحسن بن أبي الحسن ، وابن مسعود ثُلُثَهَا ، وقال قتادة : عُشْرَها ، ورأى عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أن يكون ذلك من أول نجومه مبادرةً إلى الخير وخوف ألَّا يُدرك آخرها ، ورأى مالك رحمه الله ، وغيره أن يكون الوضع من آخر نَجْم ، وعلة ذلك أنه إذا وضع من أول نجْم ربما عجز العبد فرجع هو ومالُه إلى السيِّد ، فعادت إليه وضيعته ، وهي شبه الصدقة ، وهذا قول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، ورأى مالك رحمه الله هذا الأمر على الندب ، ولم يَرَ لقدر الوضيعة حدًّا ، ورأى الشافعي رحمه الله وغيره الوضيعة واجبة يحكم بها الحاكم على المكاتِب وعلى ورثته ، وقال الحسن ، والنَّخَعيُّ ، وبُرَيْدَة : إنما الخطاب بقوله تعالى : ﴿ وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ ﴾ للناس أجمعين في أن يتصدَّقوا على المكاتَبين ، وأن يعينوهم في فكاك رقابهم ، وقال زيد بن أسلم : إنما الخطاب لولاة الأُمور بأن يعطوا للمكاتَبين من مال الصدقة حظَّهم ، وهو الذي تضمنه قوله تعالى : ﴿ وَفِي الرِّقَابِ ﴾[٢] .

---

(١) أخرجه عبد الرزاق ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، والديلمي ، وابن المنذر ، والبيهقي ، وابن مردويه ، من طريق عبد الله بن حبيب ، عن عليٍّ ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله : ﴿ وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ ، قال : يُترك للمكاتَب الربع . (الدر المنثور) .

(٢) من الآية (٦٠) من سورة (التوبة) ، وهي الآية التي بينت مصارف الزكاة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

روي أن سبب هذه الآية هو أن عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول كانت له أَمَةٌ تسمَّى مُسيْكَة ، وقيل : معاذة (١) ، فكان يأمرها بالزنى والكسب به ، فشكت ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فنزلت الآية فيه وفيمن فعل فعله من المنافقين .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً ﴾ راجع إلى « الفتيات » . وذلك أن الفتاة إذا أرادت التَّحَصُّن فحينئذ يمكن ويُتَصور أن يكون السَّيِّد مكرِهاً ، ويمكن أن يُنْهى عن الإكراه ، وإذا كانت الفتاة لا تريد

(١) وقيل : هما أمتان مُسَيْكة ومعاذة ، وقيل : بل كان عنده عدد كبير منهن ، مُعاذة ومُسَيْكَة وأُمَيْمَة وعَمْرَة وأَرْوَى وقتيلة ، والأخبار في ذلك كثيرة ، وقد أخرج مسلم في صحيحه ، عن جابر أن جارية لعبد الله بن أُبي يقال لها مُسَيْكَة ، وأخرى يقال لها : أميمة ، فكان يريدهما على الزِّنى ، فشكيا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله : ﴿ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ ﴾ .

التَّحصُّن فلا يُتصور أن يقال للسيِّد : لا تُكرِهْها ؛ لأَن الإِكراه لا يُتصور فيها وهي مريدةٌ للزنى ، فهذا أَمرٌ في [سادَةٍ وفتيات](١) حالهم هذه ، وذهب هذا النظر عن كثير من المفسرين ، فقال بعضهم : قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً ﴾ راجعٌ إلى [ٱلْأَيَامَى] في قوله سبحانه : ﴿ وَأَنكِحُوا ٱلْأَيَامَىٰ مِنكُمْ ﴾ ، وقال بعضهم : هذا الشرط في قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَرَدْنَ ﴾ مُلغى ، ونحو هذا مما ضُعِّف ، والله الموفق للصواب برحمته .

و « عَرَضُ الحَيَاةِ الدُّنيا » في هذه الآية : الشيءُ الذي تكتسبه الأَمة بفرجها ، ومعنى باقي الآية : فإن الله بعد إكراههن غفورٌ رحيم بهن ، وقد يُتَصوَّر الغُفْران والرحمةُ بالمُكْرَهين بعد أَن تقع التوبة من ذلك ، فالمعنى : غفور لمن تاب ، وقرأَ ابن مسعود ، وجابر بن عبد الله ، وابن جبير : « لَهُنَّ غفورٌ رحيمٌ » بزيادة « لَهُنَّ » .

ثم عدَّد تعالى على المؤمنين نعمته فيما أنزل إليهم من الآيات المنيرات ، وفيما ضرب لهم من أَمثال الماضين من الأُمم ليقع التحفُّظ مما وقع أُولئك فيه ، وفيما ذكر لهم من المواعظ . وقرأَ جمهور الناس : [مُبَيَّنَاتٍ] بفتح الياء ، أَي : بَيَّنَها الله تعالى وأَوضحها ، وقرأَ الحسن ، وطلحة ، وعاصم ، والأَعمش : [مُبَيِّنَاتٍ] بكسر الياء ، أَي : بَيَّنت الحقَّ وأَوضحته .

---

(١) ما بين العلامتين زيادة عن القرطبي الذي نقل كلام ابن عطية في هذه الفقرة كاملا .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ * ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾

النُّور في كلام العرب : الأَضواءُ المدركة بالبصر ، ويستعمل مجازاً فيما صحَّ من المعاني ولاح ، فيقال : «كلام له نور» ، ومنه «الكتابُ المنير» ومنه قول الشاعر :

نَسَبٌ كَأَنَّ عَلَيْهِ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى ... نُوراً ومن فَلَقِ الصَّباحِ عَمُوداً (١)

---

(١) البيت في القرطبي أيضاً غير منسوب ، وهو من الأبيات المشهورة لأبي تمام ، وقد استشهد به مع بيتين آخرين إبراهيم بن العباس الصولي على أن أبا تمام أشعر أهل زمانه ، ذكر ذلك الأصفهاني في كتاب الأغاني . والأبيات الثلاثة هي :

مَطَرٌ أبُوكَ أبو أهِلَّةِ وائِلٍ ... مَلأ البَسِيطَةَ عُدَّةً وَعَدِيدَا

نَسَبٌ كأن عليه مِن شَمس الضُّحَى ... نُوراً ومِن فَلَقِ الصَّبَاحِ عَمُودَا

وَرِثوا الأبُوَّةَ والحُظُوظَ فأصبَحوا ... جَمَعُوا جُدوداً في العُلا وجُدُودَا

والنَّسب : القرابة ، ويقال : إنه في الآباء خاصة ، والفَلَقُ ـ بفتح الفاء واللام ـ : ما انشقَّ من عمود الصبح ، وقيل : هو الصبح بعينه ، وقيل : هو الفجر ، وكلُّه راجع إلى معنى الشَّق. =

والله تعالى ليس كمثله شيءٌ ، فبين أنه ليس كالأَضواءِ المُدْرَكَة ، ولم يبق للآية معنى إلَّا أنه أراد : الله ذو نور السموات والأَرض ، أي بقدرته أَنارت أَضواؤُها ، واستقامت أُمورُها ، وقامت مصنوعاتُها ، فالكلام على التقريب للذهن ، كما تقول : الملِك نور الأُمَّة ، أي به قِوام أُمورها وصلاحُ جُملتها ، والأَمر في الملِك مجازٌ ، وهو في صفة الله تعالى حقيقة محضة ؛ إذ هو الذي أبدع الموجودات ، وخلق العقل نوراً هادياً ؛ لأَن ظهور الوجود به حصل ، كما حصل بالضوء ظهور المُبْصَرَاتِ ، تبارك الله لا ربَّ سواه (١) .

وقالت فرقة : التقدير : دينُ الله نور السموات والأَرض ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : المعنى : هادي أهل السموات الأَرض . والأَول أَعمُّ للمعاني وأَوضح مع التأَمل .

= وفلَق الصبح : ضوءُه وناره ، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يرى الرؤيا فتأتي مثل فلق الصبح ، والشاهد أن النور هنا بمعنى الأضواء المدركة بالبصر .

(١) أخرج البخاري ، ومسلم ، والنسائي ، وابن ماجه ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تهجَّد في الليل يدعو (اللّهم لك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت قيام السموات والأرض ومن فيهن ، أنت الحق ، وقولك حق ، ووعدك حق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق ، اللّهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لي ما قدَّمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت إلهي لا إله إلا أنت) .

وقرأ عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة ، وأبو عبد الرحمن السُّلَمي : «اللهُ نوَّرَ» بفتح النون والواو المشددة وفتح الراء على أنه فِعْل(١) .

وروي أن اليهود لما نزلت هذه الآية جسموا في تأْويلها . واعترضوا محمداً صلى الله عليه وسلم بأَن قالوا : كيف هو نور الأَرض والسماءُ بيننا وبينه ، فنزلت حينئذ ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ الآية . أي : ليس الأَمر كما ظننتم ، وإنما هو نور بأَنه قوامُ كل شيءٍ وخالقُه ومُوجده ، مثل نوره كذا وكذا .

واختلف المتأَولون في الضمير في [نُورِهِ] على من يعود ؟ فقال كعب الأَحبار ، وابن جبير : هو عائد على محمد صلى الله عليه وسلم ، أَي : مَثَل نور محمد صلى الله عليه وسلم . وقال أُبيّ بن كعب رضي الله عنه ، وابن جبير ، والضحاك : هو عائد على المؤمنين . وفي قرءة أُبي بن كعب : «مَثَل نُور المُؤمنين» ، ورُوي أَن في قراءته «مَثَل نُور المؤمن» ، وروي أَن فيها «مَثَل نُور من آمَنَ بِهِ» . وقال الحسن : هو عائد على القرآن والإِيمان . وقال مكي بن أَبي طالب : وعلى هذه الأَقوال يوقف على قوله : [وَٱلْأَرْضِ] .

---

(١) وهي قراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه . وأبي جعفر . وعبد العزيز المكي ، وزيد بن علي . وثابت بن أبي حفصة ، والقورصي ، ومسلمة بن عبد الملك . قال ذلك أبو حيَّان في «البحر المحيط» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه أقوال فيها عود الضمير على من لم يجر له ذكر ، وفيها قطع المعنى المراد بالآية .

وقالت فرقة : الضمير في [نُورِهِ] عائد على الله تعالى ، ثم اختلفت هذه الفرقة في المراد بالنور الذي أُضيف إلى الله تعالى إضافة خلق إلى خالق ، كما تقول : سماءُ اللهِ ، وناقةُ اللهِ ـ فقال بعضها : هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم (١) . وقال بعضها : هو المؤمن ، وقال بعضها : هو الإيمان والقرآن (٢) . وهذه الأقوال متَّجهة مُطَّرد معها المعنى ، فكأن اليهود لما تأولوا ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآيةَ بمعنى الضوء قيل لهم : ليس كذلك ، وإنما هو نور بأنه قوام كل شيءٍ وهاديه ، مثل نوره في محمد صلى الله عليه وسلم ، أو في المؤمن ، أو في القرآن والإيمان كمشكاةٍ ، وهي الكُوَّةُ غير النافذة فيها القنديل ونحوه .

وهذه الأقوال الثلاثة تضطرد فيها مقابلة جزءٍ من المثال لجزءٍ من المُمَثَّل ، فعلى قول من قال : «المُمَثَّل محمد صلى الله عليه وسلم — وهو قول كعب الخير — فرسول الله صلى الله عليه وسلم هو المشكاة ،

---

(١) فقد سماه الله تعالى نوراً في قوله : ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ . (١٥ ـ المائدة) .

(٢) وقد سمّاه الله تعالى نوراً في قوله : ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ (١٧٤ ـ النساء) .

أو صدره ، والمصباح هو النبوة وما يتصل بها من علمه وهذه ، والزجاجة قلبه . والشجرة المباركة هي الوحيُ والملائكة رسل الله إليه وسببه المتصل به . والزيت هو الحجج والبراهين والآيات التي تضمنها الوحـــي .

وعلى قول من قال : «المُمَثَّل به المؤمن» ـ وهو قول أُبيٍّ بن كعب ـ فالمشكاة صدره ، والمصباح الإيمان والعلم ، والزجاجة قلبه . والشجرة القرآن ، وزيتُها هو الحجج والحكمة التي تضمنها ، قال أُبي : فهو على أَحسن الحـال يمشي في الناس كالرجـل الحيِّ يمشي في قبور الأَموات .

ومن قال : «إنَّ المُمَثَّل به القرآن والإيمان» فتقدير الكلام : مثل نوره ـ الذي هو الإيمان في صدر المؤمن ـ في قلبه كمشكاة ، أي : كهذه الجملة . وهذا القول ليس في مقابلة التشبيه كالأَولين ، لأَن المشكاة ليست تقابل الإيمان .

وتحتمل الآية معنى آخر ليس فيه مقابلة جزءٍ من المثال لجزءٍ من المُمَثَّل به ، بل وقع التشبيه فيه جملة بجملة ، [وذلك أَن يريد : مثل نور الله الذي هو هُداه وإتقانه صنعةَ كل مخلوق وبراهينُه الساطعة على الجملة](١) كهذه الجملة من النور الذي تتخذونه أَنتم على هذه

(١) ما بين العلامتين [...] سقط من كل النسخ الأصلية إلا نسخة واحدة ، واتفق معها كلام القرطبي الذي نقل هذه الفقرة كاملة عن ابن عطية دون أن يشير إليه .

الصفة التي هي أبلغ صفات النور الذي بين أيدي الناس ، أي : فمَثَلُ نور الله في الوضوح كهذا الذي هو منتهاكم أيُّها البشر .

و «المِشْكاةُ» : الكُوَّة في الحائط غير النافذة ، قاله ابن جُبير ، وسعيد بن عياض . وجمهور المفسرين ، وهي أجمع للضوء ، والمصباح فيها أكثر إنارة منه في غيرها ، وقال مجاهد : المشكاة : العمود الذي يكون المصباح على رأسه ، وقال أبو موسى : المشكاة : الحديدة أو الرصاصة التي يكون فيها الفتيل في جوف الزجاجة ، وقال مجاهد أيضاً : المشكاة : الحدائد التي يعلق بها القنديل . والأول أصحُّ هذه الأقـوال .

وقوله تعالى : ﴿في زُجَاجَةٍ﴾ لأنه جسم شفاف ، المصباح فيه أنورُ منه في غير الزجاج . و «المِصْبَاحُ» : الفتيل بناره . وأمال الكسائي ــ فيما روى عنه أبو عمرو الداني ــ الألف من [مِشْكَاةٍ] فكسر الكاف التي قبلها ، وقرأ نصر بن عاصم : ﴿في زَجَاجَةٍ﴾ بفتح الزاي [وَٱلزَّجَاجَةُ] كذلك ، وهي لغة [1] .

وقوله تعالى : ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ أي في الإنارة والضوء ، وذلك يحتمل معنيين : إمَّا أن يريد أنها بالمصباح كذلك ، وإمَّا أن

(١) قال أبو الفتح : «فيها ثلاث لغات : زَجاجة ، وزُجاجة ، وزِجاجة ــ بالفتح والضم والكسر ــ وفي الجمع : زَجاجٌ ، وزُجاجٌ ، وزِجاجٌ ــ كنعامة ونَعَامٌ ، ورُقاقة ورُقاق ، وعِمامة وعِمامٌ ــ» .

يريد أنها في نفسها لصفائها وجودة جوهرها كذلك ، وهذا التأويل أبلغ في التعاون على النور ، قال الضحاك : الكوكب الدُّرِّيُّ هو الزُّهْرة . وقرأ نافع ، وابن عامر ، وحفص : [دُرِّيٌّ] بضم الدال وشد الياء ، ولهذه القراءة وجهان : إمَّا أَن يُنْسب الكوكبُ إلى الدُّرِّ لبياضه وصفائه ، وإما أَن يكون أصله «دُرِّيءٌ» مهموز من الدَّرْءِ وهو الدفع ، وخُفِّفت الهمزة . وقرأ حمزة ، وأبو بكر عن عاصم : [دُرِّيءٌ] بالهمز ، وهو فُعِّيل من الدَّرْءِ ، بمعنى أنها تدفع بعضها بعضاً ، أو بمعنى أن بها ما يدفع خفاءها ، وفُعِّيل بناءٌ لا يوجد في الأَسماءِ إلَّا في قولهم : مُرِّيق للْعُصْفُر(١) وفي السُّرِّية إذا اشتقت من السِّر (٢)، وَوَجَّه هذه القراءة أَبو عليٌّ وضَعَّفَها غيره . وقرأ أَبو عمرو، والكسائي : [دِرِّيءٌ] على وزن فِعِّيل بكسر الفاءِ ، من الدَّرْءِ ، وهذه متوجهة . وقرأ قتادة : [دَرِّيءٌ] بفتح الدال والهمزة ، قال أَبو الفتح : وهذا عزيزٌ ، وإنما

---

(١) جاء في اللسان (درأ) : «وكوكبٌ دُرِّيءٌ عَلَى فُعِّيل : مندفع في مُضِيِّه من المشرق إلى المغرب» ، ثم نقل عن ابن بَرِّي أن سيبويه حكى أنه يدخُل في الكلام فُعِّيلٌ وهو قولهم للعُصْفُر : مُرِّيق ، وكوكبٌ دُرِّيءٌ» . وجاء فيه في (مرق) : «والمُرَّيْقُ : حَبُّ العُصْفُر ، وفي التهذيب : شحم العُصْفُر» فضبطه بتشديد الرَّاء وفتحها كقُبَّيْط» . وعلَّق محققه على ذلك بقوله : «ضبطه الصاغاني بضم فكسر الراء المشددة . وكذلك مجد الدين في (درأ) . وضَبْطُه هنا كقُبَّيْط مناقض لما تقدم في (درأ) . أفاده شارح القاموس» .

(٢) قال أبو حيان في البحر : «إذا قيل إنها مشتقة من السرور وأبدل من أحد المضَعفات الياءُ فأدغمت فيها ياءُ فعيل ، وسمع أيضاً (مُرِّيخ ، للذي في داخل القرن اليابس» .

حُفظ منه «السَّكِّينَةُ» بشد الكاف . وقرأ سعيد بن المسيب . وأبو رجاءٍ ، ونصر بن عاصم : [دَرِّيٌّ] بفتح الدال دون همز .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم ، وطلحة ، والأعمش ، والحسن ، وقتادة ، وابن وثاب ، وعيسى : [تُوقَدُ] بضم التاء ، أي الزجاجة . وقرأ أبو عمرو ، وأهل الكوفة ، والحسن ، وابن محيصن : [تَوَقَّدُ] بفتح التاءِ والواو وشد القاف وضم الدال ، أي الزجاجة . وقرأ أبو عمرو أيضاً . وابن كثير : [تَوَقَّدَ] بفتح التاءِ والدال ، أي المصباحُ ، وقرأ عاصم - فيما روى عنه إسماعيل (١) - [يُوقَدُ] بالياءِ المرفوعة ، على معنى : يُوقَدُ المصباح ، قال أبو الفتح : وقرأ السُّلَمي ، والحسن ، وابن محيصن ، وسَلَّام ، وقتادة : [يَوَقَّدُ] بفتح الياءِ والواو والقاف المشددة ورفع الدال ، أصله : يَتَوَقَّدُ .

وقوله تعالى : ﴿مِنْ شَجَرَةٍ﴾ أي : من زيت شجرة ، و «المباركة» : المُنَمَّاة ، والزيتون من أعظم الثمار نماءً واطِّرادَ أفنان وغضارةً لاسيما بالشام ، والرُّمان كذلك . والعيان يقضي بذلك ، وقول أبي طالب يرثي مسافر بن أبي عمرو بن أُمية بن عبد شمس :

لَيْتَ شِعْري مُسَافرَ بنَ أَبي عَمْـــرٍو . وليْتٌ يَقُولُهَا الْمَحْـــزُونُ
بُورِكَ الْمَيِّتُ الْغَرِيبُ كَمَــــا بُو رِكَ نَبْعُ الرُّمَّان والزَّيْتُــــونُ (٢)

---

(١) وكذلك فيما رواه حفص كما هو ثابت في المصحف .

(٢) لَيْتَ شعري : ليت عِلْمي ، ويقال : ليت شعري لفلان ما صنع ، وليت شعري عن فلان ما صنع . وليت شعري فلاناً ، وأنشدوا شاهداً على الأخيرة البيت الأول . وهو =

وقوله تعالى : ﴿لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قرأ الجمهور فيهما بالخفض عطفاً على [زَيْتُونَةٍ] ، وقرأ الضحاك : ﴿لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ﴾ بالرفع (١) ، واختلف المتأولون في معناه – فقال ابن عباس رضي الله عنهما – فيما حكى عنه الطبري – : معناه أنها شجرة في دوحة قد أحاطت بها فهي غير منكشفة من جهة الشرق ولا عن جهة الغرب .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قول لا يصح عندي عن ابن عباس رضي الله عنهما ؛ لأن الوجود يقتضي أن الشجرة التي تكون بهذه الصفة ينفذ جناها .

وقال الحسن : ليست هذه الشجرة من شجر الدنيا ، وإنما هو مثل ضربه الله تعالى لنوره ، ولو كانت في الدنيا لكانت إما شرقية وإما غربية.

وقال أبو زيد : أراد أنها من شجر الشام ؛ لأن شجر الشام من أفضل الشجر ، ومن الأرض المباركة .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما ، وعكرمة ، وقتادة ، وغيرهم : المعنى في قوله تعالى : ﴿لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أنها في منكشف من

= في اللسان (شعر) ، والبيت الثاني في اللسان أيضاً (برك) . وليت : كلمة تَمَنٍّ ، والنبع في الأصل : شجر من أشجار الجبال تتخذ منه القسي لصلابته . وكلُّ القِسِيِّ إذا ضُمَّت إلى قوس النَّبع كرَمَتْها قوسُ النَّبع ، ولا يكون العود كريماً حتى يكون ذلك ، ولهذا يطلقون على كل شجر كريم اسم النبع ، وشجر كل من الرمان والزيتون من أكرم الأشجار وأنفعها للناس .

(١) وتكون الجملة في موضع الصفة .

الأَرض ، تصيبها الشمس طول النهار ، تستدير عليها ، فليست خالصة للشرْق فتُسمَّى شرقية ، ولا للغرب فتُسمَّى غربية .

وقوله تعالى : ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ مبالغة في صفة صفائه وحُسْنه وجودته ، وقرأَ الجمهور : [تَمْسَسْهُ] بالتاءِ من فوق ، وقرأَ ابن عباس ، والحسن بالياءِ من تحت . وقوله : ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ أَي هذه كلها معادن تكامل بها هذا النور المُمَثَّل به ، وفي هذا الموضع تم المثال .

ثم ذكر تبارك وتعالى هداه لنوره من شاءَ وأَسعد من عباده ، وذكر تفضُّله في ضرب الأَمثال للعباد ليقع لهم العبرة والنظر المؤدي إلى الإِيمان .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٣٧﴾ ﴾

الباءُ في [بُيُوتٍ] تُضم وتُكسر ، واختُلف في الفاء من قوله : [في] ـ فقيل : هي متعلقة بـ [مِصْبَاحٌ] ، قال أَبو حاتم : وقيل : متعلقة بـ [يُسَبِّحُ] المتأَخر ، فعلى هذا التأْويل يوقف على [عَلِيمٌ] ، قال الرماني : هي متعلقة بـ [يُوقَدُ] .

واختلف الناس في البيوت التي أرادها بقوله تعالى : ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما ، والحسن ، ومجاهد : هي المساجد المخصوصة لله تعالى التي من عادتها أن تُنَوَّر بذلك النوع من المصابيح ، وقال الحسن بن أبي الحسن : أراد بيت المقدس ، وسمّاه بيوتاً من حيث فيه مواضع يتحيز بعضها عن بعض ، ويؤثر أن عادة بني إسرائيل في وقيد بيت المقدس كانت غاية في التَّهمُّم به ، وكان الزيت منتخباً مختوماً على ظروفه ، وقد صُنع صنعة وقُدِّس حتى لا يجري الوقيد بغيره ، فكان أضوأ بيوت الأرض . وقال عكرمة : أراد بيوت الإيمان على الاطلاق ، مساجد ومساكن ، فهي التي يستصبح فيها بالليل للصلاة وقراءة العلم ، وقال مجاهد : أراد بيوت النبي صلى الله عليه وسلم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقوله تعالى : ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ رِجَالٌ﴾ يُقَوِّي أنها المساجد .

وقوله تعالى : [أَذِنَ] بمعنى أَمَرَ وقَضَى ، وحقيقة الإذن العلمُ والتمكن دون حظر ، فإن اقترن بذلك أَمْرٌ وإنفاذ كان أقوى ، و [تُرْفَعَ] قيل : معناه تُبْنَى وتُعَلَّى ، قاله مجاهد وغيره ، فذلك نحو قوله تعالى :

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾(١) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من بنى مسجداً من ماله بنى الله له بيتاً في الجنة)(٢) ، وفي هذا المعنى أحاديث . وقال الحسن بن أبي الحسن : معناه تُعظَّم ويُرفع شأْنها . و «ذِكْر اسْمه تعالى» هو بالصلاة والعبادة قولاً وفعلاً .

وقرأ ابن كثير ، وعاصم (٣) : [يُسَبَّحُ] بفتح الباءِ المشددة ، وقرأ الباقون وحفص عن عاصم : [يُسَبِّحُ] بكسر الباءِ المشددة ، ف [رِجَالٌ] – على القراءة الأُولى – مرتفع بفعل مضمر يدل عليه [يُسَبَّح] ، تقديره : يُسبِّحه رجال ، فهذا عند سيبويه نظير قول الشاعر :

لِيُبْكَ يَزِيدُ ضارعٌ لِخُصُومَةٍ . . . . (٤)

---

(١) من الآية (١٢٧) من سورة (البقرة) .

(٢) أخرجه مسلم في المساجد والمسافرين والزهد ، والبخاري في الصلاة ، وأبو داود في التطوع ، والترمذي في الصلاة ، والنسائي في المساجد وقيام الليل ، وابن ماجه في المساجد والتجارات ، والدارمي في الصلاة ، وأحمد في مواضع كثيرة من مسنده . وتختلف الألفاظ باختلاف الرواة .

(٣) في رواية أبي بكر عنه .

(٤) هذا صدر بيت نسبه سيبويه في الكتاب للحارث بن نَهِيك . ونسبه في خزانة الأدب لِنَهْشل بن حَرِيٍّ ، وقد ذكر نسبته أيضاً إلى لبيد ، وإلى مزرد ، وإلى الحارث بن ضرار النهشلي ، والبيت بتمامه :

لِيُبْكَ يَزِيدُ ضارِعٌ لِخُصُومَةٍ وَمُخْتَبِط مِمَّا تُطِيحُ الطَّوَائِحُ =

أي : يبكيه ضارعٌ ، و [رِجالٌ] ـ على القراءة الثانية ـ مرتفع بـ [يُسَبِّحُ] الظاهر ، وروي عن يحيى بن وثاب أنه قرأ : [تُسَبِّحُ] بالتاءِ من فوق. و « الغُدُو والآصال » قال الضحاك : أراد الصبح والظهر ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : أراد ركعتي الضحى والعصر ، وإن ركعتي الضحى لفي كتاب الله تعالى ، وما يغوص عليهما إلا غواص. وقرأ أبو مِجْلَز : [والإِيصَالِ] .

ثم وصف الله تعالى المسبحين بأنهم لمراقبتهم أمر الله تعالى وطلبهم لرضاه لا يشغلهم عن الصلاة وذكر الله شيءٌ من أُمور الدنيا . وقال كثير من الصحابة رضوان الله عليهم : نزلت هذه الآية في أهل الأَسواق الذين إذا سمعوا النداءَ بالصلاة تركوا كل شغل وبادروا إليها ، ورأى سالم بن عبد الله بن عمر أهل الأَسواق وهم مقبلون

= والبيت من شواهد النحويين ، واستشهدوا به على رفع (ضارع) بإضمار فعل دلّ عليه ما قبله كما ذكر ابن عطية هنا ، وهو موجود في العيني ، وابن يعيش . و (يزيد) المذكور في البيت هو يزيد بن نهشل ، والضارع : الذليل الخاضع . ولِخُصُومةٍ ، أي : لأجل الخصومة ، والمتخبط : طالب العُرْف ، وتطيح : تذهب وتُهلك ، والطوائح أراد بها المطاوح لأنه جمع مطيحة ، جمع على حذف الزيادة ، كقوله تعالى [لَوَاقح] جمع مُلقحة ، والاستشهاد بالبيت عند سيبويه وغيره من النحويين تمّ بناءً على رواية (لِيُبْكَ) بالبناء للمفعول ، و(يزيدُ) نائب فاعل ، وقد روي البيت ببناء الفعل (يَبْكِ) للفاعل ، وعلى هذا فالفاعل هو ضارعٌ ، و (يزيدَ) مفعوله ، ولا حذف ولا شاهد . (راجع الخزانة والكتاب) .

إلى الصلاة فقال : هؤلاء الذين أراد الله تعالى بقوله : ﴿لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ ٱللهِ﴾ ، وروى ذلك عن ابن مسعود .

و [إقَام] مصدرٌ من أقام يُقيم ، أصله إقْوَام ، نقلت حركة الواو إلى القاف فبقيت ساكنة والألف ساكنة ، فحذفت الواو لالتقاء الساكنين ، فجاء «إقَام» ، فقال بعض النحويين : هو مصدر بنفسه قد لا يضاف ، وقيل : لا يجوز أقمته إقاماً ، وإنما يستعمل مضافاً ، ذكره الرماني ، وقال بعضهم من حيث رأوْهُ لا يستعمل إلا مضافاً : أُلحقت به هاءٌ عِوَضاً من المحذوف فجاءَ «إقَامه» ، فهم إذا أضافوه حذفوا العِوَض لاستغنائهم عنه ، فإن المضاف والمضاف إليه كاسم واحد . و «الزكاة» هنا عند ابن عباس رضي الله عنهما : الطاعة لله ، وقال الحسن : هي الزكاة المفروضة في المال . و «اليوم المخوف» الذي ذكره الله تبارك وتعالى هو يوم القيامة .

واختلف الناس في تقلُّب القلوب والأَبصار ، كيف هو ؟ فقالت فرقة : يرى الناس الحقائق عياناً فتتقلب قلوب الشَّاكين ومعتقدي الضلال عن معتقداتها إلى اعتقاد الحق على وجهه ، وكذلك الأَبصار ، وقالت فرقة : هو تقلب على جمر جهنم ، ومقصد الآية هو وصف هول يوم القيامة . فأَما القول الأَول فليس يقتضي هَوْلاً ، وأَما الثاني

فليس التقلب في جمر جهنم في يوم القيامة ، وإنما هو بعده ، وإنما معنى الآية عندي أن ذلك اليوم – لشدة هوله ومطلعه – القلوب والأبصار فيه مضطربة قلقة متقلبة من طمع في النجاة إلى طمع ، ومن حذر هلاك إلى حذر ، ومن نظر في هول إلى النظر في الآخر . والعرب تستعمل هذا المعنى في الحروب ونحوها ، ومنه قول الشاعر :

بَلْ كَان قَلْبُكَ في جَنَاحَيْ طَائِرِ (١)

ومنه قول بشّار :

كأَنَّ فُـــؤَادَهُ كُرَةٌ تَنَزَّى . . . . (٢)

وهذا كثير .

---

(١) جناح الطائر : ما يخفق به في الطيران . ويقال : « فلان في جناحي طائر » إذا كان قلقاً دهشاً . قال في اللسان : « وللعرب أمثال في الجناح ، منها قولهم في الرجل إذا جدّ في الأمر واحتفل : ركب فلان جناحيْ نعامة ، ويقال : « ركب القوم جناحيْ الطائر » إذا فارقوا أوطانهم ، ويقال : « فلانٌ في جناحيْ طائر » إذا كان قلقاً دهشاً .. والقلوب هي موضع القلق والاضطراب والتقلب ، وهذا هو موضع الاستشهاد هنا .

(٢) هذا صدر بيت قيل : هو من شعر نُصَيْب ، وقيل : بل من شعر بَشّار . قال صاحب اللسان حين استشهد بأبيات على أن التّنَزّي هو التوثّب والتّسَرّع ، والأبيات هي :

أقولُ ولَيْلَتِي تَزْدادُ طـــولاً أمَا لِلّيْلِ بَعْدَهُمُ نَهَـــارُ ؟
جَفَتْ عَيْنِي عنِ التّغْمِيضِ حتّـى كأنَّ جُفُونَهَا عَنْهَا قِصَـــارُ
كأنّ فُـــؤَادَهُ كُرَةٌ تَنَـــزّى حِذَارَ الْبَيْنِ لَوْ نَفَـــعَ الحِذَارُ

يشبه فؤاده بالكرة التي تتوثّب وتضطرب إشفاقاً من الفراق وخوفاً لو كان ينفع الفراق الخوفُ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾

اللام في قوله تعالى : [لِيَجْزِيَهُمُ] متعلقة بفعلٍ مضمر تقديره : فعلوا ذلك ، ويسَّروا لذلك ، ونحو هذا ، ويحتمل أن تكون متعلقة بقوله سبحانه : [يُسَبِّحُ] . وقوله : ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ فيه حذف مضاف تقديره : ثواب أَحسن ما عملوا ، ثم وعدهم عزَّ وجلَّ بالزيادة من فضله على ما تقتضيه أعمالهم ، فأَهل الجنة أَبداً في مزيد ، ثم ذكر أنه يرزق من يشاءُ . ويخصه بما يشاءُ من رحمته دون حساب ولا تعديد ، وكل تفضُّل لله فهو بغير حساب ، وكل جزاءٍ على عمل فهو بحساب .

ولما ذكر الله تعالى فيما تقدم من هذه الآية حالة الإِيمان والمؤمنين وتنويره قلوبهم ، عقَّب ذلك بذكر الكفرة وأَعمالهم ، فمثَّل لها

ولهم تمثيلين : الأول منهما يقتضي حال أعمالهم في الآخرة من أنها غير نافعة ولا مجدية ، والثاني يقتضي حالها في الدنيا من أنها في الغاية من الضلال والغُمَّة التي مثالها ما ذكر من تناهي الظُّلْمة في قوله : ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ﴾ .

و «السَّرَابُ» : ما ترقرق من الهواء في الهجير في فيافي الأرض المنبسطة ، وأوهم الناظر إليه على بُعْد أنه ماءٌ ، سُمِّي بذلك لأنه ينسرب كالماءِ ، فكذلك أعمالُ الكافر ، يظن في دنياه أنها نافعته ، فإذا كان يوم القيامة لم يجدها شيئاً ، فهي كالسراب الذي يظنه الرائي العطشان ماءً ، فإذا قصده وأتعب نفسه بالوصول إليه لم يجد شيئاً ، و «القِيعَة» : جمع قاعٍ ، كجارٍ وجيرة ، والقاعُ : المنخفض البساط من الأرض ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في مانع زكاة الأنعام : (فَيُبْطَح لها بقاعٍ قَرْقَرٍ)(١) . وقيل : القيعان مفرد ، وهو

---

(١) هذا جزءٌ من حديث طويل أخرجه كلٌّ من مسلم ، وأبو داود ، والنسائي ، والدارمي في الزكاة ، وأخرجه أحمد في أكثر من موضع ، ولفظه كما جاء في مسلم - عن أبي هريرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلاّ إذا كان يومُ القيامة صُفِّحت له صفائح من نار ، فأُحمي عليها في نار جهنم ، فيُكْوَى بها جنبه وظهره ، كلما بَرَدَت أُعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يُقضى بين العباد فيرى سبيله ، إما إلى الجنة وإما إلى النار ، قيل : يا رسول الله فالإبل ؟ قال : ولا صاحبُ إبلٍ لا يؤدي منها حقَّها — ومنْ حقِّها حَلَبُها يوم ورْدِها — إلاّ إذا كان يومُ القيامة بُطِحَ لها بقَاعٍ قَرْقَرٍ أوْفَرَ ما كانت ، لا يفقد منها فصيلا واحداً تطؤه بأخفافها ، وتعَضُّه بأفواهها ، كلما مرَّ عليه أُولاها رُدَّ عليه آخرها ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، =

بمعنى القاع . وقرأ مسلمة بن محارب : [بِقِيعَاتٍ](١) ، وقرأ أبو جعفر ، وشيبة ، ونافع - بخلاف - : [ٱلظَّمَانُ] بفتح الميم وطرح حركة الهمزة على الميم وترك الهمزة .

وقوله تعالى : ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً﴾ يريد : شيئاً نافعاً في العطش ، أو يريد : شيئاً موجوداً على العموم ، ويريد بـ [جَاءَهُ] : جاءَ موضعه الذي تخيله فيه ، ويحتمل أن يعود الضمير في [جَاءَهُ] على السراب ، ثم يكون في الكلام بعد ذلك متروك يدل عليه الظاهر تقديره : «فكذلك الكافر يوم القيامة يظن عمله نافعاً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً» ، ويحتمل الضمير أن يعود على العمل الذي يدل عليه قوله : [أَعْمَالُهُمْ] ، ويكون تمام المثل في قوله : [مَاءً] ، ويستغنى

= حتى يُقضى بين العباد . فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار)... إلخ الحديث الذي سأل فيه الصحابة - رضوان الله عليهم - بعد ذلك عن البقر والغنم ، ثم عن الخيل ، ثم عن الحُمُر ، والرسول صلى الله عليه وآله وسلم يجيب موضحاً عقوبة من لا يؤدي حق كل نوع . والحديث صريح في وجوب الزكاة في الذهب والفضة والإبل والبقر والغنم والخيل . ومعنى (بُطح) : أُلقي على وجهه مبسوطاً على الأرض . والقاع : المستوي الواسع من الأرض يعلوه ماءُ السماء فَيُمْسكه ، وهو موضع الشاهد هنا . والقَرْقَر : المستوى أيضاً من الأرض مع اتساع . وهو بفتح القافين .

(١) في الأصول : « مسلم بن محارب » . والتصويب عن البحر لأبي حيان والمحتسب لابن جني ، قال ابن جني : « قد يجوز أن يكون قيعَات بالتاء جمع قيعَةٍ كقيمَةٍ وقيمات وديمة وديمات ، ويجوز أن يكون جمع قاعٍ كجارٍ وجيرَة ونارٍ ونيرَة » . وذكر تعليلات أُخرى نقل بعضها القرطبي .

الكلام عن متروكٍ على هذا التأْويل ، لكن يكون في المثل إيجازٌ واقتضاب لوضوح المعنى المراد به .

وقوله تعالى : ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ أي : بالمجَازات . والضمير في [عِنْدَهُ] عائد على العمل . وباقي الآية بيِّن ، فيه توعدٌ وسُرعةُ الحساب من حيث هو بعلم لا تكلف فيه .

وقوله تعالى : ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ﴾ عطف على قوله : [كَسَرَابٍ] ، وهذا المثال الأَخير تضمن صفة أَعمالهم في الدنيا . أي أنهم من الضلال ونحوه في مثل هذه الظلمة المجتمعة من هذه الأَشياء . وذهب بعض الناس إلى أَن في هذا المثال أَجزاءٌ تقابل أَجزاءً من المُمَثَّل . فقال : الظلمات : الأَعمال الفاسدة والمعتقدات الباطلة ، والبَحْرُ اللُّجيُّ : صدر الكافر وقلبه . واللُّجِّيُّ معناه ذو اللُّجَّة وهي معظم الماء وغمره ، واجتماع مائه أَشدُّ لظُلْمته ، والموجُ هو الضلال أَو الجهالة التي غمرت قلبه ، والفِكَر المعوجة ، والسَّحاب هو شهوته في الكفر وإعراضه عن الإيمان وما رِين به على قلبه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا التأْويل سائغ ، وأَلَّا يُقَدَّر هذا التقابل سائغ .

وقرأ سفيان بن حسين(١) : ﴿أَوَ كَظُلُمَاتٍ﴾ بفتح الواو ، وقرأ جمهور السبعة : [سَحَابٌ] بالرفع والتنوين [ظُلُمَاتٌ] ، وقرأ ابن كثير – في رواية قنبل – : [سَحَابٌ] بالرفع والتنوين [ظُلُمَاتٍ] بالخفض على البدل من [ظُلُمَاتٍ] الأول ، وقرأ ابن أبي بزة عن ابن كثير : [سَحَابُ] بغير تنوين على الإضافة إلى [ظُلُمَاتٍ] .

وقوله : ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ لفظ يقتضي مبالغة الظُّلْمَة ، واختلف الناس في هذا اللفظ ، هل يقتضي أن هذا الرجل – المقدر في هذه الأحوال وأخرج يده – رأى يده أو لم يرها البتَّة ؟ فقالت فرقة : لم يرها جملة ، وذلك أن (كادَ) معناها قاربَ ، فكأنه قال : إذا أخرج يده لم يقارب رؤيتها ، وهذا يقتضي نفي الرؤية جملة ، وقالت فرقة : بل رآها بعد عُسْر وشدَّة ، وكادَ ألَّا يراها ، ووجه ذلك أن (كادَ) إذا صحبها حرف النفي وجب الفعل الذي بعدها ، وإذا لم يصحبها انتفى الفعل .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا لازم متى كان حرف النفي بعد (كادَ) داخلا على الفعل الذي بعدها ، تقول : «كاد زيد يقوم» فالقيام منفي ، فإذا قلت : «كاد

(١) سُفيان بن حسين بن حسن ، أبو محمد ، أو أبو الحسن الواسطي ، ثقة – في غير الزهري – باتفاقهم ، من السابعة ، مات بالريِّ مع المهدي ، وقيل : مات في أول خلافة الرشيد . (تقريب التهذيب) .

زيد أَلَّا يقوم» فالقيام واجبٌ واقع ، وتقول : «كاد النعام يطير» ، فهذا يقتضي نفي الطيران عنه . فإذا قلت : «كاد النعام أَلَّا يطير» وجب الطيران له ، فإذا كان حرف النفي مع (كادَ) فالأَمر محتمل ، مرة يوجب الفعل ، ومرة ينفيه . تقول : «المفلوج لا يكاد يسكن» ، فهذا كلام صحيح تضمن نفي السكون ، وتقول : «رجل متكلم (١) لا يكاد يسكن» ، فهذا كلام صحيح يتضمن إيجاب السكون بعد جهد ونادراً . ومنه قوله تعالى : ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٢) نَفْيٌ مع (كادَ) تضمن وجوب الذبح . وقوله في هذه الآية : ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ نَفْيٌ مع (كَادَ) يتضمن في أحد التأْويلين نفي الرؤْية ، ولهذا ونحوه قال سيبويه رحمه الله : «إن أَفعال المقاربة لها نحو آخر» بمعنى أَنها دقيقة التصرف (٣) .

وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ ، قالت فرقة : يريد : في الدنيا ، أَي : من لم يهده الله لم يهتد ، وقالت فرقة : أَراد : في الآخرة ، أَي : من لم يرحمه الله ويُنَوِّر حاله بالعفو

---

(١) في بعض النسخ : «رجل متصرف ...» .

(٢) من الآية (٧١) من سورة (البقرة) .

(٣) قال النحاس : «وأَصحُّ الأَقوال في هذا أن المعنى : لم يقارب رُؤْيتها ، فإذا لم يقارب رؤيتها فهو لم يرها رؤية بعيدة ولا قريبة» .

والرحمة فلا رحمة له ، والأول أبين وأليق بلفظ الآية ، وأيضاً فذلك متلازمٌ ، نور الآخرة إنما هو لمن نُوِّر قلبه في الدنيا وهُدِي ، وقد قررت الشريعة أن من مرَّ لآخرته على كفره فهو غير مرحوم ولا مغفور له .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ ﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تنبيهٌ . و «الرُّؤْيَةُ» رؤية الفكر ، قال سيبويه : كأنه قال : انْتَبِهْ ، الله يُسَبِّح له من في السموات ، و «التسبيح» هنا التعظيم والتنبيه ، فهو من العقلاءِ بالنطق وبالصلاة من كل ذي دين ، واختُلف في تسبيح الطير وغير ذلك مما قد ورد الكتاب بتسبيحه — فالجمهور على أنه تسبيح حقيقي ، وقال الحسن وغيره : هو لفظ تجوُّز ، وإنما تسبيحه بظهور الحكمة فيه ، فهو — لذلك — يدعو إلى التسبيح .

وقال المفسرون : قوله تعالى : ﴿مَنْ فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ عامةٌ لكل شيءٍ ، من له عقلٌ وسائر الجمادات ، لكنه لمَّا اجتمع ذلك

عبَّر عنه بـ [مَنْ] تغايباً لحكم من يعقل . و [صَافَّات] معناه : مصطفة في الهواء ، وقرأ الأعرج : [وَالطَّيْرَ] بنصب الراء ، وقرأ الحسن : ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٌ﴾ مرفوعتان .

وقوله تعالى : ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وتَسْبِيحَهُ﴾ ، قال الحسن : المعنى : كلٌّ قد عَلِم صلاةَ نفسه وتسبيح نفسه. فهو يثابر عليهما ويؤديهما . وقال مجاهد : الصلاة للبشر والتسبيح لما عداهم ، وقالت فرقة : المعنى : كلٌّ قد علم صلاة الله وتسبيح الله اللَّذيْن أمر بهما وهَدَى إليهما ، فهذه إضافة خلق إلى خالق ، وقال الزجاج وغيره : المعنى : كلٌّ قد علم اللهُ صلاتَهُ وتسبيحَهُ ، فالضميران للكُلِّ . وقرأت فرقة : ﴿عُلِمَ صَلاَتُهُ وتَسْبِيحُهُ﴾ بالرفع وبناء الفعل للمفعول الذي لم يُسَمَّ فَاعله ، ذكرها أبو حاتم ، وقرأ الجمهور : [يَفْعَلُونَ] بالياء ، على معنى المبالغة في وصف قدرة الله وعلمه بخلقه ، وقرأ عيسى ، والحسن : [تَفْعَلُونَ] بالتاء من فوق ، ففيه المعنى المذكور وزيادة الوعيد والتخويف من الله تعالى، وإعلامٌ بَعْدُ بكون المُلْك على الإطلاق له ، وتذكيرُه بأمر المصير إليه والحَشْر يُقَوِّي معنى التخويف من الله تبارك وتعالى . وفي مصحف أبي بن كعب رضي الله عنه ، وابن مسعود رضي الله عنه : «وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ» .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ ﴾

« الرُّؤْيَةُ » في هذه الآية رؤْية عيْن ، والتقدير : أن أَمْر الله وقدرته .

و [يُزْجِـي] معناه : يسوق ، والإزْجاءُ إنما يستعمل في سوق كل ثقيل ومدافعته كالسحاب والإبل المزاحيف ، كما قال الفرزدق :

. . . . عَلَى مَزَاحِفَ تُزْجِيهَـا مَحَاسِيرِ (١)

---

(١) هذا عجز بيت قاله الفرزدق من قصيدة له يمدح فيها يزيد بن عبد الملك ، ويهجو يزيد بن المهلَّب ، والبيت بتمامه مع بيت قبله :

مُسْتَقْبِلِينَ شَمَالَ الشَّأمِ تَضْرِبُنَـا بِحَاصِبٍ كَنَدِيفِ القُطْنِ مَنْثُورِ
عَلَى عَمَائِمِنا يُلْقَى وَأَرْحُلِنَـا عَلَى مَزَاحِفَ تُزْجِيهَا مَحَاسِيرِ

والبيتان في اللسان . والرواية فيه وفي الديوان : « عَلَى زَوَاحِفَ » . والحاصب : الريح الشديدة تحمل الحصباء ، والزَّواحِفُ : النياق التي أصابها التعب والإعياء ، يقال : ناقة زحوف من إبل زُحُف ، وناقة مزحاف من إبل مزاحيف ومزاحف ، وتُزْجِي : تَسُوق وتدفع دفعاً رفيقاً ، وهو موضع الشاهد هنا . وفي الحديث الشريف (كان يتخلف في السَّيْر فيُزْجي الضعيف) ، أي يسوقه ليلحق بالرفاق . والفرزدق يصور هنا رحيله مع صحبه إلى يزيد بن عبد الملك في شمال الشام . والريح ترميهم بالثلج المتساقط كأنه نديف القطن . وهو يتناثر على عمائمهم وأرحلهم . وهم يقومون بهذه الرحلة على إبل تزحف من شدة الإعياء والتعب فيسوقونها سوقاً رفيقاً رحمة بها .

والبضاعة المُزْجاةُ : التي تحتاج من الشفاعة والتحسين إلى ما هو كسوق الثقيل ، ومنه قول حبيب في الشيب : «وَنَحْنُ نُزْجِيهِ» ـ وسيبويه أبداً يقول في كلامه : «فَأَنت تزجيه إلى كذا» ، أي تسوقه ثقيلا متباطئاً .

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ أي بين مفترِق السحاب نفسه ؛ لأَن مفهوم السحاب يقتضي أَن بينه فروجاً ، وهذا كما تقول : جلست بين الدور ، ولو أُضيفت «بين» إلى مفرد لم يصح إلَّا أَن تريد آخر ، لا تقول : «جلست بين الدار» إلا أَن تريد : «وبين كذا» (١) .

وورش عن نافع لا يهمز [يُوَلِّف] ، وقالون عن نافع ، والباقون يهمزون [يُؤَلِّفُ] ، وهو الأَصل .

و «الرُّكامُ» : الذي يركب بعضه بعضاً ويتكاثف ، والعرب تقول : إن الله تعالى إذا جعل السحاب ركاماً بالريح عصر بعضُه بعضاً فخرج الودق منه ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً﴾(٢) ، ومن ذلك قول حسان بن ثابت :

---

(١) وقيل : إن [بَيْنَه] في الآية لجماعة السحاب ، كما تقول : هذا الشجر قد جلستُ بينه ؛ لأنه جمع ، وتذكير الكناية يأتي تبعاً للَّفظ . قال الفراءُ في (معاني القرآن) : «هو واحد في اللفظ ومعناه جمع ؛ ألا ترى قوله ﴿يُنْشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ ؟ ألا ترى أنَّ واحدتَهُ سحابة ، فإذا ألقيت الهاءُ كان بمنزلة نَخْلة ونَخْل وشجرة وشجر ، وأنت قائل : فلان بين الشجر وبين النخل» .

(٢) الآية (١٤) من سورة (النَّبَإِ) .

كِلْتَاهُمَا حَلبُ الْعَصِير فَعاطِنِـي ... بِزُجَـاجَةٍ أَرْخَاهُمَا لِلْمَفْصِلِ (١)

ويُروى «لِلمفْصَل» بكسر الميم وفتح الصاد . فالمِفْصَلُ : واحد الْمَفَاصِلِ ، والمَفْصل : اللِّسَان (٢)، ويروى بالقاف ، أراد حسَّان الخمر والماء الذي مزجت به ، أي : هذه من عصر العنب وهذه من عصر السحاب ، فسَّر هذا التفسير قاضي البصرة عبد الله بن الحسن للقوم الذين حلف صاحبهم بالطلاق أن يسأل القاضي عن تفسير بيت حسان .

و «الوَدْقُ» : المطر ، ومنه قول الشاعر :

فَلَا مُزْنَةٌ وَدَقَتْ وَدْقَهَـــا ... ولا أَرْضَ أَبْقَلَ إِبْقَالُهَـــا (٣)

---

(١) هذا البيت من قصيدة حسَّان التي يقول في مطلعها : «أسألْتَ رسْمَ الدارِ أمْ لَمْ تَسْأل» ، وقبل هذا البيت يقول في وصف الخمر :

إنَّ التي نَاوَلْتَنِي فَرَدَدْتُهَـا ... قُتِلَتْ ، قُتِلْتَ ، فهاتِهَا لَمْ تُقْتَلِ

وقد ورد بيت الشاهد هنا في لسان العرب بروايتين ، إحداهما كما هنا ، والثانية تقول : (كِلْتَاهُمَا عَرَقُ الزُّجَاجَةِ فاسْقِنِـي) ، والضمير في (كلتاهما) راجع إلى النوعين اللَّذين ذكرهما في البيت السابق ، التي قُتِلَتْ ـ أي مُزِجَتْ بالماء فخفت حدتها ـ والتي لم تُقْتَل . والعَصيرُ : ما تعصَّر من الشيء أو تحلَّب منه عند عصره . والحَلَبُ : المحلوب ، وحَلَبُ العصير : الخَمْرُ ، يطلب منه أن يقدم له خمراً خالصة غير ممزوجة لأنها هي التي تؤثر فيه .

(٢) ذكر ذلك صاحب اللسان واستشهد عليه ببيت حسَّان هذا ، ثم ذكر أن في الصحاح : المِفْصل ـ بكسر الميم ـ هو اللسان . وأنشد ابن بَرِّي هذا البيت شاهداً على ذلك . ومعنى هذا أنه ضبطه بالكسر للميم .

(٣) هذا البيت لعامر بن جُوَيْن الطَّائِي ، وهو في اللسان (ودق) ، وقد استشهد به على أن الودق : المطر كلُّه شديده وهيِّنه ، وأنه يقال : وَدَقَ يَدِق وَدقاً . والمُزْنُ : السحاب عامة ، وقيل : السحابة البيضاء ، وقيل : السحاب الممطر ، وأَبْقَلَ إبْقَالُهَا : أنبتت البقل. ولم يقل أبْقَلَت لأن تأنيث الأرض ليس بتأنيث حقيقي ، وقيل : إن هذا إذا =

وقرأ جمهور الناس : ﴿مِنْ خِلَالِهِ﴾ وهو جمع خَلَل ، كَجَبَل وجبال ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما ، والضحاك : : ﴿مِنْ خَلَلِه﴾ . وقرأ عاصم ، والأعرج : [وَيُنزِّلُ] على المبالغة ، والجمهور على التخفيف.

وقوله تعالى : ﴿مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ قيل : تلك حقيقة ، وقد جعل الله تعالى في السماء جبالاً من بَرد ، وقالت فرقة : ذلك مجاز ، وإنما أراد وصف كثرته ، وهذا كما تقول : عند فلان جبالٌ من المال ، أو جبالٌ من العلم ، أي في الكثرة مثل الجبال ، وحُكي عن الأخفش تقديره زيادة [مِنْ] في قوله تعالى : ﴿مِنْ بَرَدٍ﴾ ، وهو قول ضعيف ، و [مِنْ] في قوله تعالى : ﴿مِنَ ٱلسَّمَاءِ﴾ هي لابتداء الغاية ، وفي قوله : ﴿مِنْ جِبَال﴾ هي للتبعيض ، وفي قوله : ﴿مِنْ بَرَدٍ﴾ هي لبيان الجنس .

و «السَّنا» (مقصوراً) : الضوءُ ، و «السَّناءُ» (ممدوداً) : المجد والارتفاع في المنزلة ، وقرأ الجمهور : [سَنَا] بالقصر ، وقرأ طلحة ابن مصرف : [سَنَاءُ] بالمدِّ والهمز ، وقرأ طلحة أيضاً : [بُرَقِهِ] بضم الباءِ وفتح الراءِ ، وهي جمع بُرْقة - بضم الباءِ وسكون الراءِ - فُعْلة ، وهي القدر من البرق ، كلُقْمَة ولُقَم وغُرْفَة وغُرَف ، وقرأ الجمهور : [يَذْهَبُ] بفتح الياءِ ، وقرأ أبو جعفر : [يُذْهِبُ] بضمها ، من أذهب ، كأن التقدير : يُذهب النفوسَ بالأبصار ، نحو قوله : ﴿تَنْبُتُ

= أُسند الفعل للظاهر نحو طلعت الشمس وطلع الشمس، أما إذا أُسند للضمير فيستوي فيه الحقيقي والمجازي ويتعين التأنيث نحو : الشمس طلعت ، ولا يجوز : الشمس طلع ، وهذا البيت شاذٌ أو مُؤَوّل ، نص على ذلك النحويون .

بِالدُّهْنِ ﴾(١)، ويحتمل أن يكون كقوله : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ ﴾(٢)، فالباءُ زائدة دالة على فعل يناسبها .

ثم اقتضت ألفاظ الآية الإخبار عن تقليب الليل والنهار ، والإتيان بهذا بعد هذا دون توطئة ، وهذا هو الذي تعجز عنه الفصحاءُ حتى يقع منهم التخليط في الألفاظ والتوطئة بالكلام ، وباقي الآية بيِّن .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

---

(١) من الآية (٢٠) من سورة (المؤمنون) ، وقد قيل فيها إن الباءَ زائدة على قراءة [تنْبِتُ] بضم الباءِ . فيكون التقدير : تُنْبِت الدُّهن . وقيل : إن التقدير : تُنبت جناها ومعه الدهن ، فالمفعول محذوف ، راجع تفسير هذه الآية في هذا الجزء صفحة (٣٤٣) .

(٢) من الآية (٢٥) من سورة (الحج) .

هذه آية اعتبار ، وقرأ حمزة ، والكسائي : ﴿وَٱللَّهُ خَالِقُ كُلِّ﴾ على الإضافة ، وقرأ الجمهور : ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ﴾ ، و «الدَّابةُ» : كلُّ ما يدبُّ من الحيوان ، أي يتحرك متنقلا أمامه قُدُماً ، ويدخل فيه الطير إذ قد يدبُّ ، ومنه قول الشاعر :

. . . . دَبيب قَطَا الْبَطْحَاءِ في كلِّ مَنْهَلِ (١)

ويدخل فيه الحوت ، وفي الحديث (دابَّةٌ من البحر مثل الظَّرب)(٢) ، وقوله : ﴿مِنْ مَاءٍ﴾ قال النقاش : أراد أَمْنِيَة الذكور ، وقال جمهور النَّظَرة : أراد أن خلقة كل حيوان فيها ماءٌ كما خلق آدم من الماءِ والطين ، وعلى هذا يتخرج قول النبي صلى الله عليه وسلم للشيخ الذي

---

(١) الدَّبيب : المَشْيُ ، والقَطَا : نوعٌ من اليمام يؤثر الحياة في الصحراء ، ويتخذ أُفحوصه في الأرض ، ويطير في جماعات ، ويقطع مسافات شاسعة ، وبيضه مُرَقَّط ، والبَطحاءُ : المكان المُتَّسع يمرُّ به السيل فيترك فيه الرمل والحصى الصغار ، والمَنْهل : المورد ، أي الموضع الذي فيه المشرب ، وهذا الشطر شاهد على أن الدبيب يكون للطير أيضاً كما هو للحيـــوان .

(٢) أخرج النسائي والدارمي في الصَّيْد حديثاً عن جابر رضي الله عنه قال : (بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثلاثمائة ، فأصابنا جوع حتى أتينا البحر وقد قذف دابة ، فأكلنا منها حتى ثابت أجسامنا ، فأخذ أبو عبيدة ضلعاً من أضلاعها فوضعه ، ثم حمل أطول رجل في الجيش على أعظم بعير في الجيش فمرَّ تحته ، هذا معناه) ، وليس فيه لفظ الظرب ، وقد جاء التشبيه بالظَّرب في رواية البخاري ، والموطإ ، وأحمد في مسنده ، وفيه : (ثم انتهينا إلى البحر فإذا حوت مثل الظرب ، فأكل منه ذلك الجيش ثمانية عشرة ليلة) ، ولكن ليس في هذه الرواية لفظ الدابة ، والحديث واحد ، رواه جابر عن بعث للنبي صلى الله عليه وسلم قِبَل الساحل تحت إمرة أبي عبيدة بن الجرَّاح .

سأله في غزاة بدر : ممن أنتما ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (نحن من ماءٍ)(١) ، الحديث .

والمشي على البطن للحيَّات والحوت ونحوه من الدود وغيره ، وعلى الرِّجْلَيْن للإنسان والطير إذا مشى ، والأَربع لسائر الحيوان . وفي مصحف أُبيٍّ بن كعب : «ومنهم من يمشي على أَكثر» ، فعمَّ بهذه الزيادة جميع الحيوان ، ولكنه قرآن لم يثبته الإجماع ، لكن قال النقاش : إنما اكتفى القول بذكر ما يمشي على أَربع عن ذكر ما يمشي على أَكثر لأَن جميع الحيوان إنما اعتماده على أَربع ، وهي قوام مشيه ، وكثرة الأَرجل في بعضه زيادة في الخِلْقة لا يحتاج ذلك الحيوان في مشيه إلى جميعها .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والظاهر أَن تلك الأَرجل الكثيرة ليست باطلا . بل هي محتاج إليها في تنقل الحيوان ، وهي كلها تتحرك في تصرفه .

وقوله تعالى : ﴿آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾ يعم كلَّ ما نصب الله تعالى من آية وصنعة للعبرة ، وكل ما نص في كتابه من آية تنبيه وتذكير ، وأَخبر تعالى أَنه أَنزل الآيات ثم قيَّد الهداية إليها لأَنه من قِبَله لبعض دون بعض .

---

(١) من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن سلام حين سأله عن ثلاث خصال . الثالثة منها هي : ومن أين يشبه الولد أباه وأمه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا سبق ماءُ الرجل ماءَ المرأة نزع إليه الولد ، وإذا سبق ماءُ المرأة ماءَ الرجل نزع إليها) . أخرجه البخاري في الأنبياء ، وأحمد في مسنده (٣–١٠٨) .

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ﴾ الآية ، نزلت في المنافقين . وسببها فيما روي أن رجلاً من المنافقين اسمه بشر كان بينه وبين رجل من اليهود خصومة ، فدعاه اليهودي إلى التحاكم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان المنافق مبطلا ، فأبى من ذلك ودعا اليهودي إلى كعب بن الأشرف ، فنزلت هذه الآية فيه(١) . وأسند الزهراوي عن الحسن بن أبي الحسن أنه قال : من دعاه خصمه إلى حكم من حكام المسلمين فلم يجب فهو ظالم . و [مُذْعِنِينَ] أي مظهرين للانقياد والطاعة ، وهم إنما فعلوا ذلك حيث أيقنوا بالنُّجح ، وأما إذا طُلبوا بحق فهم عنه معرضون . ثم وَقَفَهم تعالى على أسباب فعلهم توقيف توبيخ ، أي لِيُقِرُّوا بأحد هذه الوجوه التي عليهم في الإقرار بها ما عليهم ، وهذا التوقيف يستعمل في الأمور الظاهرة مما يُوبَّخ به أو مما يُمدح به ، فهو بليغ جداً ، ومنه قول جرير :

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا البيت . . . . (٢)

---

(١) أخرجه الكلبي عن أبي صالح ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وذكر ذلك النيسابوري في أسباب النزول ، وذكر أن هذه القصة هي أيضاً سبب نزول قوله تعالى في سورة النساء : ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إلى الطَّاغُوتِ﴾ . وأخرجه ابن جرير عن الربيع بن أنس ، كما أخرجه الثعلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما . (الدر المنثور . وأسباب النزول) .

(٢) هذا البيت من قصيدته المشهورة التي بدأها بقوله : (أَتَصْحُو أَمْ فؤادُكَ غيرُ صاحِ) ، والبيت بتمامه كما في الديوان :

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بُطُونَ رَاحِ ؟

قالوا : هذا أمدح بيت قالته العرب . وقال عبد الملك بن مروان حين سمع هذا البيت : من أراد أن يمدح فبمثل هذا البيت أو ليسكت . والاستفهام في البيت للتقرير ، وهو ما يريده =

ثم حكم عليهم بأنهم هم الظالمون ، وقال : ﴿ أَنْ يَحِيفَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ من حيث أن الرسول عليه الصلاة والسلام إنما يحكم بأمر الله وشرعه . والحَيْفُ : المَيْلُ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ * وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾

= ابن عطية بقوله: توقيفي . وأراد بقوله : « ألستم » : أنتم ، والمطايا : جمع مطيّة : وهي البعير أو الناقة يمتطى ظهرها . وأندى . أكرم وأكثر عطاءً . والراح : جمع راحة وهي كف الإنسان . يمدحهم بالفروسية والكرم كعادة العرب . وأسلوب الاستفهام التقريري في العربية كثير . ومنه في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ . وقوله : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ﴾ . ومنه حديثاً قول شوقي :

أَرَأَيْتَ أَفْضَلَ أَوْ أَجَلَّ مِنَ الَّذي ... يَبْنِي ويُنْشِىءُ أَنْفُساً وعُقُولا ؟

ومن المبالغة في الذمّ قول الشاعر :

أَلَسْتُمْ مِنَ الْقَوْمِ الَّذين تَعَاهَـــدُوا ... على اللُّؤْمِ والفحْشَاءِ في سالِفِ الدَّهْرِ ؟

قرأ الجمهور: [قَوْلَ] بالنصب، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والحسن، وابن أبي إسحق: [قوْلُ] بالرفع، واختلف عن الأخيرين، قال أبو الفتح: شرط «كان» أن يكون اسمها أعرف من خبرها، فقراءة الجمهور أقوى: والمعنى: إنما كان الواجب أن يقوله المؤمنون إذا دُعوا إلى حكم الله ورسوله أن يقولوا: سمعنا وأطعنا. فَ [كَانَ] هذه ليست إخباراً عن الماضي، وإنما هي كقول الصِّدِّيق رضي الله عنه «ما كان لابن أبي قحافة أن يصلي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم»(١). وجُعل الدعاءُ إلى الله من حيث هو إلى شرعه ودينه. وقرأ الجمهور: [لِيَحْكُمَ] على بناء الفعل للفاعل، وقرأ أبو جعفر، والجحدري، وخالد بن إلياس، والحسن: [لِيُحْكَمَ] على بناء الفعل للمفعول. و «الْمُفْلِحُونَ»: البالغون آمالهم في دنياهم وآخرتهم.

و «جَهْدَ ٱلْيَمِينِ» بلوغ الغاية في تعقيدها، و [لَيَخْرُجُنَّ] معناه: إلى الغزو، وهذه في المنافقين الذين تولَّوا حين دُعُوا إلى الله ورسوله. وقوله: ﴿قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ يحتمل معاني: أحدها النهي عن القَسَم الكاذب؛ إذا عرف أن طاعتهم دغْلَةٌ رديَّةٌ، فكأنه يقول:

---

(١) ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا﴾. واسم [كَانَ] في آيتنا هنا هو ﴿أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾. وهو أعرف من قول المؤمنين الذي جعلناه خبراً لكانَ. قال أبو الفتح: وهو أعرف لأن «أنْ» وصلتها تشبه المضمر من حيث لا يجوز وصفُها كالمضمر، والمُضمر أعرف من قول المؤمنين. وقال أبو حيان: هو أعرف لأنه لا سبيل عليه للتنكير.

لا تُغالطوا فقد عرف ما أَنتم عليه . والثاني أَن يكون المعنى : لا تتكافوا القسم ، طاعة عرف متوسطة على قدر الاستطاعة أَمْثل وأَجْدى عليكم ، وفي هذا الوجه إبقاءٌ عليهم ، والثالث أَن يكون المعنى : لا تقنعوا بالقسم ، طاعة تُعرف منكم وتظهر عليكم هو المطاوب منكم ، والرابع أَن يكون المعنى : لا تقنعوا لأَنفسكم بإرضائنا بالقسم ، طاعة الله معروفة ، وشرعه وجهاد عدوه مهيع لائح ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ متصل بقوله : ﴿لَا تُقْسِمُوا﴾ و ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ اعتراضٌ بليغ .

وقوله تعالى : ﴿قُلْ أَطِيعُوا ٱللَّهَ﴾ الآيةَ مخاطبةٌ لأُولئك المنافقين وغيرهم من الكفار وكل من يتعنّى عن أَمر محمد صلى الله عليه وسلم ، وقوله : [تَوَلَّوْا] معناه : تَتَوَلَّوْا ، محذوف التاءِ الواحدة ، يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿وَعَلَيْكُمْ مَاحُمِّلْتُمْ﴾ . ولو جعلنا [تَوَلَّوْا] فعلا ماضياً وقدرنا في الكلام خروجاً من خطاب الحاضر إلى ذكر الغائب لاقتضى الكلامُ أَن يكون بعد ذلك : «وعليهم ما حُمِّلُوا» . والَّذي حُمِّل رسول الله صلى الله عليه وسلم هو التَّبليغ ومكافحة الناس بالرسالة وَإِعْمَاله الجهد في إنذارهم ، والذي حُمِّل الناسُ هو السمع والطاعة واتِّباع الحق ، وباقي الآية بَيِّنٌ .

وقرأَ ابن كثير ، وحمزة ، والكسائي ، ونافع – رواية ورش – : [وَيَتَّقِهِي] بياءٍ بعد الهاءِ ، قال أَبو عليٍّ : وهو الوجه ، وقرأَ قالون

عن نافع : [وَيَتَّقِهِ] بكسر الهاء لا يبلغ بها الياء ، وقرأ أبو عمرو ، وابن عامر ، وعاصم – في رواية أبي بكر – : [وَيَتَّقِهْ] جزماً للهاء ، وقرأ حفص عن عاصم : [وَيَتَّقْهِ] بسكون القاف وكسر الهاء(١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ ﴾

قرأ الجمهور : [ٱسْتُخْلِفَ] على بناء الفعل للمفعول ، وروي أن سبب هذه الآية أن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم شكا جهد مكافحة العدو ، وما كانوا فيه من الخوف على أنفسهم ، وأنهم لا يضعون أسلحتهم ، فنزلت هذه الآية عامة لأُمة محمد صلى الله عليه وسلم .

وقوله تعالى : ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يريد : في البلاد التي تجاورهم والأصقاع التي قضى بامتدادهم إليها . واستخلافُهم هو أن يُمَلِّكهم

(١) وهذا على نيَّة الجزم . أما الباقون فقد كسروها لأن جزم الفعل بحذف آخره . قال ذلك القرطبي .

البلاد ويجعلهم أهلها كما جرى في الشام وفي العراق وخراسان والمغرب . وقال الضحاك في كتاب النقاش : هذه الآية تتضمن خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله تعالى عنهم لأنهم أهل الإيمان وعمل الصالحات ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الخلافة بعدي ثلاثون سنة) (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والصحيح في الآية أنها في استخلاف الجمهور .

واللام في قوله تعالى : [لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ] لام القَسَم . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وابن عامر : [وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ] بفتح الباء وشدّ الدال ، وقرأ ابن كثير ، وعاصم – في رواية أبي بكر – والحسن ، وابن محيصن بسكون الباء وتخفيف الدال (٢) ، وجاء في معنى تبديل خوفهم بالأمن

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥–٢٢٠ ، ٢٢١) عن سُفَيْنة ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (الخلافة ثلاثون عاماً ثم يكون بعد ذلك المُلْك) ، قال سفينة ، أمسك خلافة أبي بكر رضي الله عنه سنتين ، وخلافة عمر رضي الله عنه عشر سنين ، وخلافة عثمان رضي الله عنه اثنتي عشرة سنة ، وخلافة عليٍّ رضي الله عنه ست سنين ، رضي الله عنهم . (هذا وسُفينة هو مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم) . وأخرجه بلفظ (خلافة النبوة ثلاثون سنة) كلٌ من أبي داود ، والترمذي ، وأحمد أيضاً ، عن النعمان بن بشير .

(٢) قراءة تشديد الدال من بَدَّل ، وقراءة التخفيف من أَبْدَل ، واختار أبو عبيدة قراءة التشديد لأنها أكثر ما في القرآن ، قال تعالى : ﴿لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾ ، وقال : ﴿وإذا بَدَّلْنَا آيةً مَكَانَ آيةٍ﴾ ، واختار أبو حاتم قراءة التخفيف . وقال بعض العلماء : هما لغتان .

أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم لمَّا قال أَصحابه : أَما يأْتي علينا يوم نأْمن فيه ونضع السلاح ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تغبرون إلا قليلا حتى يجاس الرجل منكم في الملإ العظيم محتبياً ليس فيه حديدة)(١) ، وقوله : [يَعْبُدُونَنِـي] فعل مستأْنف ، أَي هم يعبدونني ، وقوله : ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ يريد : كفر هذه النعم إذا وقعت ، ويكون الفسق – على هذا – غير المُخرج عن المِلَّة ، قال بعض الناس في كتاب الطبري : ظهر ذلك في قَتَلة عثمان رضي الله عنه ، ويحتمل أَن يريد الكفر والفسق المُخْرِجَيْن عن المِلَّة ، وهو ظاهر قول حذيفة ابن اليمان . فإنه قال : كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم نفاق وقد ذهب ولم يبق إلَّا كفر بعد إيمان .

ولمَّا قَدَّمَ تعالى عَمَل الصالحات بَيَّنها في هذه الآية . فَنَص على عُظْمها وهي إقامة الصلاة وإيتاءُ الزكاة ، وعَمَّ بطاعة الرسول

(١) أخرج عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، عن أبي العالية ، قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بمكة نحواً من عشر سنين يدعون إلى الله وحده وعبادته وحده لا شريك له سرّاً وهم خائفون . لا يؤْمرون بالقتال . حتى أُمروا بالهجرة إلى المدينة ، فقدموا المدينة فأمرهم الله بالقتال ، وكانوا بها خائفين ، يمسون في السلاح ويصبحون في السلاح . فغبروا بذلك ما شاء الله ، ثم إن رجلا من أصحابه قال : يا رسول الله ، أبد الدهر نحن خائفون هكذا ؟ أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع فيه السلاح ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لن تغبروا إلا قليلا حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبياً ليست فيهم حديدة ، فأنزل الله ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إلى آخر الآية . و (غَبَرَ) معناها : مكث . وأخرج مثله ابن المنذر ، والطبراني في الأوسط ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الدلائل ، وابن مردويه ، عن أُبي بن كعب رضي الله عنه .

لأنها عامة لجميع الطاعات . و [لَعَلَّكُمْ] معناه : في حقكم ومعتقدكم .

ثم أنحى القول على الكفرة بأن نبَّه على أنهم ليسوا بِمُفْلِتِين من عذاب الله تعالى . وقرأ جمهور السبعة : ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ بالتاء على المخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم ، وقرأها الحسن بن أبي الحسن بفتح السين ، وقرأ حمزة ، وابن عامر : ﴿لَا يَحْسَبَنَّ﴾ بالياء ، قال أبو علي : وذلك يحتمل وجْهيْن : أحدهما أن يكون التقدير : لا يحسبن محمد ، والآخر أن يسند الفعل إلى الذين كفروا والمفعول أنفسهم ، وأَعْجَزَ الرجلُ إذا ذهب في الأرض فلم يُقْدر عليه ، ثم أخبر بأن مأْواهم النار ، وأنها بئس الخاتمة والمصير .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ۚ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾

قال ابن عمر رضي الله عنهما : ﴿الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ يُراد به الرجال خاصةً ، وقال أبو عبد الرحمن السُّلَمي : يرادُ به النساءُ

خاصةً ، وسبيل الرجال أن يستأْذنوا في كل وقت (١) ، وحكى الزهراوي عن ابن عمر رضي الله عنهما نحوه ، وقيل : الرجال والنساءُ كلُّهم مرادٌ ، ورجَّحه الطبري . وقرأ جمهور الناس : [الْحُلُمَ] بضم اللام ، وقرأ الحسن بن أَبي الحسن : [ٱلْحُلْمَ] بسكون اللام ، وكان أَبو عمرو يستحسنها .

وهذه الآية مُحْكَمَةٌ ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : تركها الناس، وكذلك تَرَكَ الناسُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (٢) ، فأَبى الناس إلَّا أَن الأَكرم هو الأَنسب .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذه العبارة بترك [الناس](٣) إغْلاظٌ وزجرٌ ، إذ لم تُلْتَزم حق الالتزام ، وإلَّا فما قال الله تعالى هو المعتقد في ذلك عند العلماءِ المكتوب في تواليفهم ، أَعني أَن الكرم التقوى ، وأَما أَمر الاستئذان فإن تغيير

(١) ضَعَّف العلماءُ قول السُّلَمي هذا لأن « الَّذِينَ » لا يكون للنساء في كلام العرب ، إنما يكون لهن « اللاتي ، واللائي ، واللواتي » .

(٢) من الآية (١٣) من سورة (الحجرات) .

(٣) في الأصول : « وهذه العبارة بترك إغلاظ وزجر » ، وواضح أن المقصود هو ما ذكرناه وأن كلمة الناس سقطت من النُّسَّاخ . وما بين العلامتين [...] زيادة للإيضاح .

المباني والحُجُب أَغنت عن كثير من الاستئذان ، وصيرته على حدٍّ آخر ، وأين أبواب المنازل اليوم من مواضع النوم ؟ وقد ذكر المهدوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : كان العمل بهذه الآية واجباً إذ كانوا لا غلق ولا أَبواب ، ولو عادت الحال لعاد الوجوب .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فهي الآن واجبة في كثير من مساكن المسلمين في البوادي والصحارى ونحـــوها .

ومعنى الآية عند جماعة من العلماء أَن الله تعالى أَدَّب عباده بأَن يكون العبيدُ – إذْ لا بالَ لهم – والأَطفال الذين لم يبلغوا الحُلُم إلَّا أَنهم عقلوا معاني الكشفة ونحوها ، يستأْذنون على أَهليهم في هذه الأَوقات الثلاثة ، وهي الأَوقات التي تقتضي عادةُ الناس الانكشاف فيها وملازمة التَّعري في المضاجع ، وهي : عند الصباح لأَن الناس في ذلك الوقت عراة في مضاجعهم ، وقد ينكشف النائم ، فمن مشى ودخل وخرج فحُكمه أَن يستأْذن لئلا يطلع على ما يجب ستره ، وكذلك في وقت القائلة – وهي الظهيرة – لأَن النهار يظهر فيها إذا عَلَا واشتد حرُّه ، وبعد العشاء لأَنه وقت التعري للنوم والتبذُّل للفراش(١) ،

(١) يقال : « تَبَذّلَ الرجل » أيْ : ترك التَّصَوُّن والتَّحرُّز .

وأَما في غير هذه الأَوقات التي هي عورة ، أَي ذات انكشاف ، فالعرف من الناس التَّحفُّظ والتَّحرُّز . فلا حرج في دخول هذه الصنيفة (١) بغير إذن ؛ إذ هم طوّافون يمضون ويجيئون ولا يجد النَّاس بُدًّا من ذلك . وقرأَ ابن أَبي عبلة : [طَوَّافِينَ] بالياءِ . وقال الحسن : إذا أَبات الرجلُ خادمه معه فلا استئذان عليه ولا في هذه الأَوقات الثلاثة .

وقوله تعالى : ﴿بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ بدلٌ من قوله : [طَوَّافُونَ] ، و ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ نصب على الظرف لأَنهم لم يُؤمَروا بالاستئذان ثلاثاً ، إنما أُمروا بالاستئذان في ثلاثة مواطن ، فالظرفية في [ثَلَاثَ] بَيِّنَةٌ .

وقرأَ جمهور السبعة : ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ﴾ برفع [ثَلَاثُ] ، وهذا على الابتداءِ ، وقرأَ حمزة ، والكسائي ، وأَبو بكر عن عاصم : ﴿ثَلَاثَ عَوْرَاتٍ﴾ بنصب [ثَلَاثَ] ، وهذه على البدل من الظرف في قوله : ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ ، وهذا البدل إنما يصح معناه بتقدير : أَوقات ثلاث عورات ، فحذف المضاف وأُقيم المضاف إليه مقامه . و «عَوْرَات» جمع عورة ، وبابه في الصحيح أَن يجيءَ على «فَعَلَاتٍ»

---

(١) هكذا في الأصول ، والمألوف أن يقال : « هذه الأصناف » .

بفتح العين ، كَجَفْنَة وَجَفَنَـات ونحـو ذلك ، وسكّنوا العين في المعتل كَبَيْضَةٍ وبَيْضَـاتٍ وجَوْبَةٍ وَجَوْبَاتٍ ونحوه ، لأَن فتحه داعٍ إلى اعتـلاله فلم يفتح لذلك .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾

المعنى أن الأَطفال أمروا بالاستئذان في الأَوقات الثلاثة المذكورة ، وأُبيح لهم الأَمر في غير ذلك من الأَوقات . ثم أَمر الله تعالى في هذه الآية أَن يكونوا – إذا بلغوا الحُلم – على حكم الرجال في الاستئذان في كل وقت ، وهذا بيان من الله عزَّ وجلَّ .

و «القواعد» يريد النساء اللاتي قد أَسْنَنَّ وقعدن عن الولد ، واحِدَتُهُن قاعد ، وقال ربيعة : هي هنا التي تُسْتقذر من كبرها . قال غيره : وقد تقعد المرأة عن الولد وفيها مُسْتَمتع ، فلما كان الغالب

من النساءِ أَن ذوات هذا السن لا مذهب للرجال فيهن أُبيح لهنَّ ما لم يُبح لغيرهن ، وأُزيل عنهن كلفة التحفظ المتعب ؛ إذ علَّة التحفظ مرتفعة فيهن . وقرأَ ابن مسعود : «أَن يَضَعْنَ من ثِيَابِهِنَّ» ، وهي قراءَة أُبيّ ، وروي عن ابن مسعود أَيضاً : «مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ» ، والعرب تقول : «امرأَة واضع» للتي كبرت فوضعت خمارها ، ثم استثنى عليهن في وضع الثياب أَلا يقصدن به التبرج وإبداءَ الزينة ، فرُبَّ عجوز يبدو منها الحرص على أَن يظهر لها جمال ونحو هذا مما هو أَقبح الأَشياءِ وأَبعده عن الحق .

والتَّبَرُّج طلب البُدُوِّ والظهور ، ومنه : «بروج مشيدة» ، وأَصل ذلك بروج السماءِ والأَسوار ، والذي أُبيح وضعه لهذه الصنيفة الجلبابُ الذي فوق الخمار والرداءِ ، قاله ابن مسعود ، وابن جبير ، وغيرهمـــا .

ثم ذكر تعالى أَن تحفُّظ الجميع منهن واستعفافهن عن وضع الثياب والتزامهن ما يلتزمه الشباب من الستر ، أَفضل لهن وخيْرٌ ، وقرأَ ابن مسعود : «وَأَنْ يتَعَفَّفْنَ» بغير سين ، ثم ذكر تعالى أَنه سميع لما يقول كل قائل وقائلة ، عليم بمقصد كل أَحد في قوله ، وفي هاتين الصفتين توعُّد وتحذير . والله الموفق للصواب برحمته .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَـٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَـٰلَـٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

اختلف الناسُ في المعنى الذي رفع الله فيه الحرج عن الأَصناف الثلاثة – فظاهر الآية وأَمر الشريعة أَن الحرج مرفوع عنهم في كل ما يضطرهم إليه العذر ، وتقتضي نيتهم الإتيان فيه بالأَكمل . ويقتضي العذر أَن يقع منهم الأَنقص ، فالحرج مرفوع عنهم في هذا . فأَما ما قال الناس في الحرج هنا ، فقال ابن زيد : هو الحرج في الغزو ، أَي : لا حرج عليهم في تأَخرهم ، وقوله تعالى : ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ الآية معنى مقطوع من الأَول .

وقالت فرقة : الآية كلها في معنى المطاعم . قالت : وكانت العرب ومَنْ بالمدينة قبل المبعث تتجنب الأَكل مع أَهل الأَعذار ، فبعضهم

كان يفعل ذلك تقذراً لجَوَلان اليد من الأَعمى ، ولانْبساط الجلسة من الأَعرج ، ولرائحة المريض وعِلَّاته ، وهي أَخلاق جاهلية وَكِبْر ، فنزلت الآية مؤدبة ، وبعضهم كان يفعل ذلك تحرجاً من غير أَهل الأَعذار إذ هم مقصرون في الأَكل عن درجة الأَصحاءِ ، لعدم الرؤْية في الأَعمى ، وللعجز عن المزاحمة في الأَعرج ، ولضعف المريض ، فنزلت الآية في إباحة الأَكل معهم ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في كتاب الزهراوي : إن أَهل هذه الأَعذار تحرجوا في الأَكل مع الناس لأَجل عذرهم فنزلت الآية مبيحة لهم .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً : الآية من أَولها إلى آخرها إنما نزلت بسبب أَن الناس لما نزلت : ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ (١) قالوا : لا مال أَعز من الطعام ، وتحرَّجوا من أَن يأْكل أَحد مع هؤلاءِ فيغبنهم في الأَكل فيقع في أَكل المال بالباطل ، وكذلك تحرجوا عن أَكل طعام القرابات لذلك ، فنزلت الآية مبيحة جميع هذه المطاعم ، ومُبَيِّنَةً أَن تلك إنما هي في التعدِّي والقمار وكل ما يأْكله المرءُ من مال الغير والغيرُ كاره ، أَو بصفة فاسدة ونحوه .

وقال عُبَيْد الله بن عَبْد الله بن عتبة بن مسعود : قوله في الأَصناف الثلاثة إنما نزل بسبب أَن الناس كانوا إذا نهضوا إلى الغزو وخلَّفوا أَهل العذر في منازلهم وأَموالهم ، فكان أَهل العذر يتجنبون أَكل مال

(١) من الآية (١٨٨) من سورة (البقرة) .

الغائب ، فنزلت الآية مبيحة لهم أكل الحاجة من طعام الغائب إذا كان الغائب قد بنى على ذلك .

وقيل : كان الرجل إذا ساق أهل العذر إلى بيته فلم يجد فيه شيئاً ذهب بهم إلى بيت قرابته ، فتحرَّج أهل الأَعذار من ذلك فنزلت الآية .

وذكر الله تعالى بيوت القرابات وسقط منها بيوت الأَبناءِ ، فقال المفسرون : ذلك داخل في قوله تعالى : ﴿مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ ؛ لأَن بيت ابن الرجل بيته . وقرأَ طلحة بن مصرف [إِمَّهَاتِكُمْ] بكسر الهمزة .

وقوله تعالى : ﴿أَوْ مَامَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ﴾ يعني ما حُزْتم وصار في قبضتكم ، فعُظْمه ما ملكه الرجل في بيته وتحت غاقه ، وذلك هو تأْويل الضحاك ومجاهد ، وعند جمهور المفسرين يدخل في الآية الوكلاءُ والعبيد والأُجراءُ بالمعروف ، وقرأَ جمهور الناس : [مَلَكْتُمْ] بفتح الميم واللام ، وقرأَ سعيد بن جُبير : [مُلِّكْتُمْ] بضم الميم وكسر اللام وشدها ، وقرأَ جمهور الناس : [مَفَاتِحَهُ] ، وقرأَ سعيد بن جبير : [مَفَاتِيحَهُ] بياءٍ بين التاءِ والحاءِ ، الأُولى على جمع مَفْتح ، والثانية على جمع مِفْتَاح(١) ، وقرأَ قتادة : ﴿مَلَكْتُمْ مِفْتَاحَهُ﴾ .

---

(١) جاء في اللسان : «جمع المِفْتَاح الذي يُفتح به المِغْلاقُ : مَفَاتيح ، وجمع المَفْتَح الخِزانة : المَفَاتِح » . فالمَفْتَح هو الكنز أو الخِزانة التي توضع فيها الكنوز . قال تعالى : ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ . فالمراد : ما في خزائنه من مال ، أو نفس الخزائن .

وقَرَن تعالى في هذه الآية الصَّديق بالقرابة المحضة الوَكيدَة ؛ لأن قرب المودة اصيق ، قال معمر : قلتُ لقتادة : ألا أشربُ من هذا الحُبِّ(١) ؟ فقال : أنت لي صديق فما هذا الاستئذان ؟ قال ابن عباس رضي الله عنهما في كتاب النقاش : الصديق أوكد من القرابة ، ألا ترى في استغاثة الجهنَّميِّين : ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ (٢).

وقوله تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً﴾ رَدٌّ لمذهب جماعة من العرب كانت لا تأكل أفراداً البَتَّةَ ، قاله الطبري ، ومن ذلك قول بعض الشعراء :

إِذَا ما صَنَعْتِ الزَّادَ فَالْتَمِسِي لَهُ أَكِيلاً فَإِنِّي لَسْتُ آكُلُهُ وَحْدِي(٣)

وكان بعض العرب إذا كان له ضيف لا يأكل إلّا أن يأكل مع ضيفه ، فنزلت هذه الآية مُبَيِّنَة سُنَّةَ الأَكْل ، ومُذْهِبَةً كل ما خالفها من سنَّة

---

(١) الحُبُّ : وِعاءُ الماء كالزِّير والجَرَّة . جمعه : أَحْبَابٌ وحِبَبَةٌ وَحِبَابٌ . (المعجم الوسيط) .

(٢) الآيتان (١٠٠ ، ١٠١) من سورة (الشعراء) . والأكل من بيت الصديق من غير استئذان أمر لا بأس به ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يدخل حائط أبي طلحة المسمَّى بَيْرَحَا ويشرب من ماءٍ فيها طيب بغير إذنه ، قال العلماء : والماءُ مُتَمَلَّك لأهله ، وإذا جاز الشرب من ماء الصديق بغير إذنه جاز الأكل من ثماره وطعامه إذا علم أن نفس صاحبه تطيب به .

(٣) الزَّاد : الطعام في السفر والحضر جميعاً ، والجمع أزواد ، ومعنى «صَنَعْتِ الزَّادَ» : أعددت الطعام ، والأكيل هو الذي يأكل معك ، تقول : فلان أكيلي ، وهي من المؤاكلة ، يقال : آكلته مُؤَاكلة : أكلتُ معه ، ومثله في ذلك الشَّريب : فالأكيل والشَّريب هو الذي يصاحبك في الأكل والشرب ، يقول لزوجه : إذا ما أعددت الطعام فابحثي عمن يأكل معي فإني لا آكلُ وحدي . وهذه عادة لبعض العرب كما قال ابن عطية .

العرب ، ومبيحة من أكل المنفرد ما كان عند العرب محرماً ، نَحَتْ به نحو كرم الخُلُق فأفرطت في إلزامه ، وإن إحضار الأكيل لحسنٌ ولكن بألّا يحرم الإنفراد .

وقال بعض أهل العلم : هذه الآية منسوخة بقوله صلى الله عليه وسلم : (إنَّ دماءكم وأموالكم عليكم حرام)(١)، وبقوله تعالى : ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا﴾ الآية (٢) ، وبقوله صلى الله عليه وسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنه : (لا يَحْلُبَنَّ أَحَدٌ ماشية أحد إلَّا بإذنه) الحديث (٣) .

ثم ختم الله تعالى الآية بِتَبْيِينِهِ سُنَّة السلام في البيوت، واختلف الناس في أي البيوت أراد ـ فقال، إبراهيم النَّخعي : أراد المساجد ، والمعنى : سلِّموا على من فيها من صنفكم ، فهذا كما قال : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾(٤)، فإن لم يكن في المساجد أحد فالسلام أن

---

(١) هذا جزء من خطبة الوداع ، وهي طويلة ومعروفة ، وقد أخرجها البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، والدارمي ، والإمام أحمد .

(٢) من الآية (٢٧) من هذه السورة (النور) .

(٣) أخرجه كل من البخـاري ومسلم في اللُّقطة ،وأبو داود في الجهاد ، ولفظه كما جاء في البخاري ، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا يَحْلُبَنَّ أحد ماشية امرئٍ بغير إذنه ، أيحبُّ أحدكم أن تُؤتى مَشْرُبَتُه فتكسر خزانته فَيُنْتقل طعامه ؟ فإنما تَخزُن لهم ضروع مواشيهم أطعماتهم، فلا يَحْلُبَنَّ أحد ماشية أحد إلا بإذنه) .

(٤) من الآية (١٢٨) من سورة (التوبة) .

يقول المرءُ : السلام على رسول الله ، وقيل : يقول : السلام عليكم ، يريد الملائكة ، ثم يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، وقوله تعالى : [تَحِيَّةً] مصدر(١) ، ووصفها بالبركة لأَن فيها الدعاءَ واستجلاب مودة المسلم عليه ، والكاف من قوله تعالى : [كَذَلِكَ] كاف تشبيه ، و [ذَلِكَ] إشارة إلى هذه السُّنَن ، أي : كهذا الذي وصف يطَّرد تَبيين الآيات لعلكم تعقلونها وتعملون بها .

وقال بعض الناس في هذه الآية : إنها منسوخة بآية الاستئذان الذي أمر به الناسُ ، وهي المتقدمة في السُّورة ، فإذا كان الإذن محجوراً فالطعام أحرى . وكذلك فرضت فرقة نسخاً بينها وبين قوله تعالى : ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾(٢) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والنسخ لا يتصور في شيءٍ من هذه الآيات ، بل هي كلها محكمة . أَما قوله تعالى : ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ ففي التعدي والخدع والغرر واللهو والقمار ونحوه ، وأَما هذه الآية ففي إباحة طعام هذه الأَصناف التي يَسُرُّها استباحة طعامها على هذه الصفة ،

(١) وذلك لأن قوله تعالى قبلها : [فَسَلِّمُوا] معناه : فَحَيُّوا ، وقد وصفها الله بالبركة لما فيها من الدعاء واكتساب مودة المسلمين كما قال ابن عطية . ووصفها بالطيب لأن سامعها يجد لها وقعاً طيباً في نفسه .

(٢) من الآية (١٨٨) من سورة (البقرة) .

وأما آية الإذن فعلَّةُ إيجاب الاستئذان خوف الكشف ، فإذا استأْذن الرجل خوف الكشفة ودخل المنزل بالوجه المباح صحَّ له بعد ذلك أَكل الطعام بهذه الإباحة ، وليس يكون في الآيات نسخٌ ، فتأَمله .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ ﴾

[إِنَّمَا] في هذه الآية للحصر ، اقتضى ذلك المعنى ؛ لأَنه لا يتم إيمانٌ إلَّا بأَن يؤمن المرءُ بالله ورسوله . وبأَن يكون من الرسول سامعاً غير معنت في أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم يريد أمراً فيريد هو إفساده بزواله في وقت الجمع ونحو ذلك .

و «الأَمر الجامع» يُراد به ما للإمام حاجة إلى جمع الناس فيه لإذاعة مصلحة ، فأَدب الإسلام اللازم في ذلك - إذا كان الأَمر حاضراً - أَلَّا يذهب أَحد لعذر إلَّا بإذنه ، فإذا ذهب بإذن ارتفع عنه الظن السيءُ ، والإمامُ الذي يُرتقب إذنه في هذه الآية هو إمامُ الإمرة ،

وقال مكحول ، والزهراوي : الجمعة من الأَمر الجامع ، وإمام الصلاة ينبغي أن يُستأْذن إذا قدمه إمامُ الإمرة إذا كان يرى المستأْذن ، ومشى بعض الناس دهراً على استئذان إمام الصلاة ، وروي أن هرم بن حبان كان يخطب ، فقام رجل فوضع يده على أنفه ، وأشار إلى هرم بالاستئذان فأَذن له ، فلما قُضيت الصلاة كشف عن أمره أنه إنما ذهب لغير ضرورة ، فقال هرم : اللَّهم أخر رجال السوء لزمان السوء .

وظاهر الآية إنَّما يقتضي أن يُستأْذن أمير الإمرة الذي هو في مقعد النبوة ؛ فإنه ربما كان له رأي في حبس ذلك الرجل لأَمر من أمور الدين ، فأَما إمام الصلاة فقط فليس ذلك إليه ؛ لأَنه وكيل على جزءٍ من أَجزاء الدين للذي هو في مقعد النبوة .

ثم أَمر تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأْذن لمن عرف منه صحة العذر وهم الذين يشاءُ .

وروي أن هذه الآية نزلت في وقت حفر رسول الله صلى الله عليه وسلم خندق المدينة ، وذلك أن بعض المؤمنين كان يستأْذن لضرورة ، وكان المنافقون يذهبون دون استئذان ، فأَخرج الله تعالى الذين لا يستأْذنون عن صنيفة المؤمنين ، وأَمر النبيَّ صلى الله عليه وسلم أن يأْذن للمؤمن الذي لا تدعوه ضرورة إلى حبسه ، وهو الذي يشاءُ ، ثم أَمره بالاستغفار لصنفي المؤمنين ، من أُذن له ومن لم يُؤذن له ، وفي ذلك تأْنيس للمؤمنين ورأفة بهم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾ ﴾

هذه الآية مخاطبة لجميع معاصري رسول الله صلى الله عايه وسلم ، وأمرهم الله تعالى أَلَّا يجعلوا مخاطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في النداء كمخاطبة بعضهم لبعض . فإن سيرتهم كانت التداعي بالأسماء ، وعلى غاية البداوة وقلّة الاهتمام . فأمرهم الله تعالى في هذه الآية وفي غيرها (١) أن يدعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأشرف أسمائه ، وذلك هو مقتضى التوقير والتعزير (٢) ، فالمبتغى في الدعاء أن يقول: يا رسول الله ، ويكون ذلك بتوقير وخفض صوت وبر ، وألا يجري ذلك على عادتهم بعضهم لبعض ، قاله مجاهد وغيره .

---

(١) كقوله تعالى في سورة الحجرات : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ . وقوله تعالى في سورة الفتح : ﴿ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ .

(٢) من معاني عَزَّره : فَخَّمه وعَظَّمه . قال في اللسان : « وعَزَّره : فَخَّمَه وعَظَّمه ، والعَزْرُ : النصر بالسيف . وعَزَرَه عَزْراً وعَزَّرَهُ : أعانه وقوّاه ونصره » .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : المعنى في هذه الآية إنما هو : لا تحسبوا دعاء الرسول عليكم كدعاء بعضكم على بعض ، أي : دعاؤه عليكم مجاب .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولفظ الآية يدفع هذا المعنى ، والأول أصح .

ثم أخبرهم الله تعالى أن المتسلّلين منهم لواذاً قد علمهم . واللّواذ : الرَّوَغان والمخالفة ، وهو مصدر «لاوَذَ» ، وليس بمصدر «لاذَ» ؛ لأنه كان يقال له : «لِيَاذاً»(١) ، ذكره الزجاج وغيره .

ثم أمرهم بالحذر من عذاب الله تعالى ونقمته إذا خالفوا عن أمره ، وقوله تعالى : ﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ معناه : يقع خلافهم بعد أمره ، وهذا كما تقول : كان المطر عن ريح ، «وعَنْ» هي لِمَا عَدَا الشيء(٢) ، و «الفتنة» في هذا الموضع : الاختبار والرزايا في الدنيا ، أو بالعذاب الأليم في الآخرة ، ولا بد للمنافقين من أحد هذين .

---

(١) في اللغة : «لاذَ به إذا التجأ إليه وانضم واستغاث ، ولاوَذَه لواذاً: راوغه» راجع اللسان . وانتصب قوله تعالى : [لِوَاذاً] على المصدر في موضع الحال ، أي : مُتلاوذين .

(٢) الفعل «خالف» يتعدى بنفسه . تقول : خالفت أمر فلان ، ويتعدى بإلى . تقول : خالفت إلى كذا . وهنا ضُمِّن الفعل «خالف» معنى «صَدَّ» فعُدِّي بِعَنْ . وقال أبو عبيدة والأخفش : (عَنْ) زائدة . أي : يخالفون أمره .

وقوله تعالى : ﴿أَلَا إِنَّ﴾ استفتح الكلام وأخبر أن الله تعالى له ما في السموات والأَرض مِلْكاً وخَلْقاً ، ثم أخبرهم أنه قد علم ما أهل السماءِ والأَرض عليه ، وخصَّ بالذكر منهم المخاطبين لأَن ذلك موضع الحجة عليهم ، وهم به أعنى ، وقوله : ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ﴾ يجوز أن يكون معمولاً لقوله : [يَعْلَمُ] ، ويجوز أن يكون التقدير : والعلم الظاهر لكم – أو نحو هذا – يَوْمَ ، فيكون النصب على الظرف . وقرأ الجمهور : [يُرْجَعُونَ] بضم الياءِ وفتح الجيم ، وقرأ يحيى بن يَعْمَر ، وابن أَبي إسحق ، وأَبو عمرو : [يَرْجِعُونَ] بفتح اليـاءِ وكسر الجيم .

وقال عقبة بن عامر الجهني : رأَيت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأُ هذه الآية خاتمة النُّور فقال : ﴿وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ (١) ، وباقي الآية بَيِّنٌ .

كمل تفسير سورة النور والحمد لله رب العالمين ، وبذلك ينتهي الجزءُ العاشر بفضل الله وعونه ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أَجمعين

(١) أخرجه أبو عبيد في فضائله ، والطبراني بسند حسن ، عن عقبة بن عامر ، وفيه كما ذكره في « الدرالمنثور » زيادة على ما هنا قوله: (يعني خاتمة سورة النور، وهو جاعلٌ إصبعيه تحت عينيه) .

انتهى الجزء العاشر بعون الله وتوفيقه ، والحمد لله رب العالمين ، ويليه الجزء الحادي عشر بمشيئة الله تعالى ويبدأ بقوله تبارك وتعالى :

﴿بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَنِ ٱلرَّحِيمِ ، تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ .

حقوق الطبع لهذا التفسير محفوظة للمحققين
فضيلة الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري
والأستاذ السيد عبد العال السيد إبراهيم

فهرس الآيات

الآيـــة	رقم الصفحة

الآيــة	رقم الصفحة

الآيــة	رقم الصفحة

الآيـــة	رقم الصفحة
قوله عزّ وجلّ : (لا تركضوا وآرجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلّكم تسألون) إلى آخر الآية ١٦	١٣٠
قوله عزّ وجلّ : (لو أردنا أن نتّخذ لهواً لاتّخذناه من لدنّا إن كنّا فاعلين (إلى آخر الآية ١٨	١٣٢
قوله عزّ وجلّ : (وله من في ٱلسموات وٱلأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون) إلى آخر الآية ٢٠	١٣٣
قوله عزّ وجلّ : (أم ٱتخذوا آلهة من ٱلأرض هم يُنشِرُون) إلى آخر الآية ٢٤	١٣٥
قوله عزّ وجلّ : (وما أرسلنا مِن قبلك من رسول إلاّ نوحي إليه أنه لا إلـه إلاّ أنا فاعبدون) إلى آخر الآية ٢٨	١٣٨
قوله عزّ وجلّ : (ومن يقل منهم إنّي إلـه من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي ٱلظالمين) إلى آخر الآية ٣٠	١٤٠
قوله عزّ وجلّ : (وجعلنا في ٱلأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فِجاجاً سُبُلا لعلّهم يهتدون) إلى آخر الآية ٣٣	١٤٣
قوله عزّ وجلّ : (وما جعلنا لبشر من قبلك ٱلخُلد أفإن مِتّ فهمُ ٱلخالدون) إلى آخر الآية ٣٥	١٤٥
قوله عزّ وجلّ : (وإذا رآك ٱلذين كفروا إن يتّخذونك إلاّ هزُواً) إلى آخر الآية ٣٨	١٤٧
قوله عزّ وجلّ : (لو يعلمُ ٱلذين كفروا حين لا يكفّون عن وجوههم ٱلنّار) إلى آخر الآية ٤١	١٥٢
قوله عزّ وجلّ : (قل من يكلأكم بالليل وٱلنهار من ٱلرحمن) إلى آخر الآية ٤٤ ...	١٥٤
قوله عزّ وجلّ : (قل إنما أنذِرُكم بالوحي ولا يسمع ٱلصّمُّ ٱلدعاء إذا ما يُنذرون) إلى آخر الآية ٤٦	١٥٦

رقم
الصفحة

الآيـــة

الآيـــة	رقم الصفحة

الآيــة	رقم الصفحة
قوله عزّ وجلّ : (ألم تر أن ٱلله أنزل مِن ٱلسماءِ ماءً فتصبح ٱلأرض مُخضرة إن ٱلله لطيف خبير) إلى آخر الآية ٦٥	٣١٣
قوله عزّ وجلّ : (وهو ٱلذي أحياكم ثم يُميتكم ثم يُحييكم إن ٱلإنسان لكفور) إلى آخر الآية ٦٩	٣١٦
قوله عزّ وجلّ : (ألم تعلم أن ٱلله يعلم ما في ٱلسماءِ وٱلأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على ٱلله يسير) إلى آخر الآية ٧٢	٣١٨
قوله عزّ وجلّ : (يأيها ٱلناس ضُرب مثلٌ فاستمعوا له) إلى آخر الآية ٧٤	٣٢٠
قوله عزّ وجلّ : (ٱلله يَصطفي مِن ٱلملائكة رسلا ومِن ٱلناس إن ٱلله سميع بصير) إلى آخر الآية ٧٧	٣٢٣
قوله عزّ وجلّ : (وجاهدوا في ٱلله حقّ جهاده هو ٱجتباكم وما جعل عليكم في ٱلدين مِن حرج) إلى آخر الآية ٧٨	٣٢٥
تفسير سورة (المؤمنون)	٣٢٩
قوله عزّ وجلّ : (قد أفلح ٱلمؤمنون ٱلذين هم في صلاتهم خاشعون) إلى آخر الآية ٧ ...	٣٢٩
قوله عزّ وجلّ : (وٱلذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) إلى آخر الآية ١١	٣٣٢
قوله عزّ وجلّ : (ولقد خلقنا ٱلإنسان مِن سُلالة مِن طين) إلى آخر الآية ١٤	٣٣٤
قوله عزّ وجلّ : (ثم إنكم بعد ذلك لَمَيّتون ثم إنكم يوم ٱلقيامة تبعثون) ٱلى آخر الآية ٢٠	٣٤١
قوله عزّ وجلّ : (وإن لكم في ٱلأنعام لَعِبرة نُسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون) إلى آخر الآية ٢٢	٣٤٦
قوله عزّ وجلّ : (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم ٱعبدوا ٱلله ما لكم مِن إلٰهٍ غيره أفلا تتقون) إلى آخر الآية ٢٦	٣٤٧

رقم
الصفحة

الآيــة

الآيـــة	رقم الصفحة

٩٨٢٧٧٥

الآيــة	رقم الصفحة
قوله عزّ وجلّ : (ولا يبدين زينتهن إلاّ لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن) إلى قوله تعالى : (الذين لم يظهروا على عورات النساء) من الآية ٣١	٤٩٠
قوله عزّ وجلّ : (ولا يضربن بأرجلهن ليُعلم ما يخفين من زينتهن) إلى آخر الآية ٣٢	٤٩٤
قوله عزّ وجلّ : (وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله) إلى قوله تعالى : (وآتوهم من مال الله الذي آتاكم) من الآية ٣٣ ...	٤٩٨
قوله عزّ وجلّ : (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا) إلى آخر الآية ٣٤	٥٠٢
قوله عزّ وجلّ : (الله نور السموات والأرض مثلُ نوره كمشكاة فيها مصباح) إلى آخر الآية ٣٥	٥٠٤
قوله عزّ وجلّ : (في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبّح له فيها بالغدوّ والآصال) إلى آخر الآية ٣٧	٥١٣
قوله عزّ وجلّ : (ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله) إلى آخر الآية ٤٠	٥١٩
قوله عزّ وجلّ : (ألم تر أنّ الله يسبّح له من في السموات والأرض) إلى آخر الآية ٤٢	٥٢٥
قوله عزّ وجلّ : (ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً) إلى آخر الآية ٤٤	٥٢٧
قوله عزّ وجلّ : (والله خلق كل دابّة من ماءٍ) إلى آخر الآية ٥٠	٥٣١
قوله عزّ وجلّ : (إنما كان قول المؤمنين إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكُم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا) إلى آخر الآية ٥٤	٥٣٥
قوله عزّ وجلّ : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصّالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم) إلى آخر الآية ٥٧	٥٣٨

رقم
الصفحة

الآيـــة

رقم الايداع بدار الكتب القطرية
٣٦١ لسنة ١٩٨٨ م